الدكتور

نعيم فرح

أستاذ في كلية الآداب

قسم التاريخ

جامعة دمشق

الحضارة الأوروبيّة في العصور الوسطى

الطبعة الثانية

...عة دمشق

١٤٢٠ - ١٤٢١ هـ

١٩٩٩ - ٢٠٠٠ م



الدكتور
نعيم فرح
أستاذ في كلية الآداب
قسم التاريخ
جامعة دمشق

الحضارة الأوربية في العصور الوسطى

١٤٢٠ - ١٤٢١ هـ
١٩٩٩ - ٢٠٠٠ م

منشورات جامعة دمشق



الحضـــارة الاوروبيـــة
في العصور الوسطى

الباب الأول

الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية

الباب الثاني

الحيــاة الدينيّــة

الباب الثالث

الحيــاة الفكرية والفنيّة



مقـدمة

الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى

تفتقر المكتبه العربية إلى الكتب التي تعالج موضوعات الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى . فالكتب المؤلفة باللغة العربية نادرة ، وتكاد تقتصر على الجزء الثاني من كتاب « أوربا العصور الوسطى » تأليف الدكتور سعيد عاشور . أما المؤلفات التي تناولت جانباً من جوانب الحضارةالأوروبية في العصور الوسطى فهي: ١ ـ « الجامعات الأوربية في العصور الوسطى » تأليف الدكتور سعيد عاشور ، ٢ ـ « النهضات الأوربية في العصور الوسطى وبداية الحديثة » تأليف الدكتور سعيد عاشور والدكتور محمد انيس ، ٣ ـ « المدنية الإسلامية واثرها في الحضارة الأوربية » تأليف الدكتور الدكتور سعيد عاشور ، ٤ ـ « الحضارة والنظم الاوربية في العصور الوسطى » الجزء الأول ، تأليف الدكتور السيد الباز العريني ، الذي يعالج النظام الاقطاعي والتجارة والمدن فحسب ، ٥ ـ « المجتمع الأوربي في العصور الوسطى » تأليف الدكتور إبراهيم احمد العدوي ، ٦ ـ « تاريخ الفلسفة الأوربية » تأليف يوسف كرم ، ٧ ـ « فلسفة العصور الوسطى » تأليف الدكتور عبد الرحمن بدوي ، ٨ ـ « تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى » تأليف الدكتور نظير حسان سعداوي ، ٩ ـ « محاكم التفتيش » تأليف الدكتور علي مظهر .

اما الكتب المعرّبة فهي : ١ ـ « نماذج بشرية من العصور الوسطى » تأليف إيلين بور ، تعريب محمد توفيق حسين ، ٢ ـ « الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوربا » تأليف كوبلاند وفينوجرادوف ، تعريب الدكتور محمد مصطفى زيادة ، ٣ ـ « الدبرية : أسبابها ونتائجها » تأليف كولتون ، تعريب الدكتور جمال الدين الشيال ، ٤ ـ « المسرح الديني في العصور الوسطى » ، تأليف فرابييه وحوسار ، تعريب الدكتور محمد القصاص ، ٥ ـ « القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط » تأليف أرشيبالد لويس ، تعريب احمد محمد عيسى ، ٦ ـ « تراث العصور الوسطى » أشرف على تحريره كرامب وجاكوب ، واشرف على تعريبه الدكتور محمد مصطفى زيادة والأستاذ محمد بدران ، ٧ « أوربا في العصور الوسطى » تأليف ديفز ، تعريب الدكتور عبد الحميد حمدي محمود ، ٨ « تاريخ أوربا العصور

الوسطى » جزءان ، تأليف فِشر ، تعريب الدكاترة : محمد مصطفى زيادة ، السيد الباز العريني ، إبراهيم العدوي ، ٩ً - « الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى » تأليف هارتمان وباراكلاف ، تعريب وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، ١٠ً - « نشأة الجامعات في العصور الوسطى » تأليف هاسكنز ، تعريب وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، ١١ً - « عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة » تأليف كولتون ، تعريب وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، ١٢ً - « أثر الشرق في الغرب خاصةً في العصور الوسطى » تأليف جورج يعقوب ، تعريب الدكتور فؤاد حسنين علي .

جميع الكتب المؤلفة والمعرّبة المذكورة أعلاه هي من ثمار جهود أساتذة الجامعات المصرية وغيرهم من كبار المثقفين المصريين . أما الأقطار العربية الأخرى فلم يصل إلينا منها أيُّ كتاب عن الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى .

وفي سورية لم يكتب عن العصور الوسطى الأوروبية سوى بضعة كتب هي : ١ً - « تاريخ العصر الوسيط » تأليف الدكتور نور الدين حاطوم رئيس قسم التاريخ بجامعة دمشق سابقاً (الجزء الأول صدر في سنة ١٩٦٧ ، والجزء الثاني صدر في سنة ١٩٩٣) ، ٢ً - « تاريخ أوروبا في العصور الوسطى » تأليف الدكتور نعيم فرح ، نشر جامعة دمشق ١٩٧٧ - ١٩٧٨ ، ٣ً - « تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى » تأليف الدكتور نعيم فرح ، نشر جامعة دمشق ١٩٩٤ - ١٩٩٥ ، ٤ً - « تاريخ العصور الوسطى الأوربية » تأليف الدكتور عادل زيتون ، نشر جامعة دمشق ١٩٨١ - ١٩٨٢ م . جميع الكتب المذكورة أعلاه عالجت بالدرجة الأولى تاريخ أوروبا السياسي في العصور الوسطى ، وتطرقت بإيجاز إلى بعض موضوعات الحضارة الأوروبية .

أما هذا الكتاب « الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى » ، فهو أول كتاب من نوعه ينشر في سورية . وقد اعتمدتُ في تأليف هذا الكتاب على معظم المراجع العربية والمعرّبة المذكورة أعلاه ، فانتقيتُ من كل منها ما يناسب موضوعات الكتاب حتى اكتملت صورتها ووضحت . وحررتُ الكتاب بأسلوب سهل واضح ساعد الطلاب على فهم الموضوعات وحفظها . وقد بذلتُ في تأليفه جهوداً مضنية دفعني إلى بذلها الواجب الوطني والقومي . وآمل أن أتمكن من تطوير هذا العمل في المستقبل .

الدكتور نعيم فرح

سورية - دمشق ١٩٩٥/١/١

مدخـــل

الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى

بداية العصور الوسطى ونهايتها :

أطلق المؤرخون الأوروبيون اصطلاح « العصور الوسطى » على العصور التاريخية التي عاشتها أوروبا منذ بداية القرن الرابع الميلادي حتى نهاية القرن الخامس عشر (٣٠٠ ــ ١٥٠٠) • وحاول بعض المؤرخين تحديد بداية العصور الوسطى بسنة معيّنة جرت فيها أحداث مهمة : كاعتراف الامبراطور قسطنطين الأول بالمسيحية في سنة ٣١٣ ، أو في نقله العاصمة من روما إلى القسطنطينية في سنة ٣٣٠ ، أو في تقسيم حكم الامبراطورية بين ولدي الامبراطور تيودوسيوس الأول ــ أركاديوس وأونوريوس ــ في سنة ٣٩٥ ، أو بسقوط عرش روما بيد آدواكر زعيم العناصر البربرية المرتزقة في الجيش الروماني في سنة ٤٧٦ •

كذلك حاول بعض المؤرخين تحديد نهاية العصور الوسطى بسنة معيّنة جرت فيها أحداث مهمة : كسقوط القسطنطينية بأيدي الأتراك العثمانيين في سنة ١٤٥٣ ، أو انتهاء حرب المئة عام بين فرنسا وإنكلترا في سنة ١٤٥٣ ، أو في اكتشاف أمريكا في سنة ١٤٩٢ ، أو غير ذلك من الأحداث التاريخية المهمة •

إن تحديد بداية عصر تاريخي أو نهايته بسنة معيّنة أمر فيه مبالغة ، لأن التاريخ وحدة متكاملة لا تنقسم كهذا التقسيم الآلي ، كما إن العصور التاريخية متداخلة بعضها في بعض • فالتحولات التاريخية لا تتم بنطاق سنين معينة ، وإنما تحتاج إلى فترة زمنية طويلة قد تشمل بضعة قرون ؛ كما إن بعض معالم العصر السابق قد تظل سائدة في العصر اللاحق مدة طويلة جداً •

وإذا كنا لا نسلّم بتحديد سنة معيّنة لبداية العصور الوسطى في أوروبا ، فإننا نوافق على عدّ فترة القرنين الرابع والخامس الميلاديين بدايةً لتلك العصور ، حيث جرت في تلك الفترة تطورات جذرية في النواحي : السياسية ، والاقتصادية ــ الاجتماعية ، والفكريّة .

ــ الناحية السياسية :

في القرنين الرابع والخامس سقطت أراضي الامبراطورية الرومانية بأيدي البرابرة الجرمانيين ، الذين شكّلوا فيها ممالك عديدة : كمملكة الفرنجة ، ومملكة القوط الغربيين ، ومملكة القوط الشرقيين ، ومملكة الوندال وغيرها . وهكذا حلّت الكثرة في مكان الوحدة ، إذ قامت الدول المتعددة في مكان الامبراطورية الواحدة . كذلك نُقلت العاصمة الرومانية من روما إلى القسطنطينية (في سنة ٣٣٠) ، وصار نظام الحكم (في بيزنطة) إمبراطورياً وراثياً . وفي سنة ٤٧٦ سقط عرش روما بأيدي البرابرة ، فلم يجلس على ذلك العرش إمبراطور روماني بعد ذلك التاريخ ، وإنما انتقلت السلطة السياسية والدينية في روما إلى البابا (أسقف روما) .

ــ الناحية الاقتصادية ــ الاجتماعية :

في القرنين الرابع والخامس لم يعد العبيد يشكلون الطبقة الرئيسة التي تعمل في الزراعة والصناعة ، كما كانت حالهم في القرنين الأول والثاني الميلاديين . لقد تناقص عدد العبيد بنتيجة توقف الحروب الرومانية التوسعية . بالإضافة إلى ذلك دفعت قلةُ مردود عمل العبيد كبارَ ملاكي الأراضي (البترون) إلى توزيع أراضيهم الواسعة على عبيدهم ليعملوا بها بصفة كولون (معمّر أو فلاح مرتبط بالأرض) مقابل الحصول على حصة من إنتاجها . وهكذا ساد النظام الكولوني في العلاقات الزراعية ، بعد أن كان يسود النظام العبودي في العصور القديمة . وقد تطور النظام الكولوني إلى النظام الاقطاعي ، الذي ساد في أوروبا في العصور الوسطى . وقام الاقتصاد الزراعي في النظام الاقطاعي على استغلال طبقة أقنان الأرض . وبدءاً من القرن الرابع أخذت مدن أوروبا الغربية بالتدهور بنتيجة الغارات البربرية وتعطل

الصناعة والتجارة • وتدريجاً ساد الاقتصاد الزراعي المغلق في أوروبا الغربية حتى المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى (١٣٠٠ ــ ١٥٠٠) حين نشأت مدن جديدة ذات طابع صناعي ــ تجاري •

ــ **الناحية الفكرية :**

سادت في الامبراطورية الرومانية القديمة الديانة الوثنية القائمة على عبادة آلهة عديدة وتقديس الامبراطور • أما في بداية القرن الرابع الميلادي فقد اعترفت السطات الرومانية بالديانة المسيحية القائمة على عبـادة إله واحد ، ثم صارت المسيحية ديانة رسمية للامبراطورية البيزنطية في نهاية ذلك القرن • كذلك انتشرت المسيحية في أوروبا الغربية وصارت تدريجاً الديانة الوحيدة لجميع شعوب أوروبا • وقد طبعت التعاليم المسيحية بطابعها الحياة السياسية والفكرية والفنّية وغيرها من المظاهر الحضارية •

كذلك نوافق على عدّ فترة القرنين الرابع عشر والخامس عشر نهايةً للعصور الوسطى في أوروبا ، لأن صورة العالم الأوروبي التي ارتسمت خلال المرحلة الأولى والثانية من العصور الوسطى (٣٠٠ ــ ١٠٠٠ ــ ١٣٠٠) تبدلت ملامحها السياسية والاقتصادية ــ الاجتماعية والفكرية في تلك المرحلة ــ أي في المرحلة الثالثـة والأخيرة من العصور الوسطى (١٣٠٠ ــ ١٥٠٠) •

ــ **الناحية السياسية :**

أدى سقوط القسطنطينية بأيدي الأتراك العثمانيين (في سنة ١٤٥٣) إلى زوال أمبراطورية أوروبية مسيحية، فحلّت في مكانها إمبراطورية آسيوية إسلامية ، تختلف عن سالفتها بنظمها وتقاليدها وعقائدها • كذلك أدت حرب المئة عام بين فرنسا وإنكلترا إلى نشوء حركة قومية في كل من البلدين ، ما لبثت أن انتشرت في البلدان الأوروبية الأخرى ، مما أدى إلى تشكل دول قومية عديدة ، وتغلّب فكرة تعدد الممالك القومية على فكرة الوحدة الامبراطورية ، بعد أن سئم العالم الأوروبي من البحث عن وحدة لا يمكن تحقيقها •

ــ الناحية الاقتصادية ــ الاجتماعية :

في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ارتسمت صورة جديدة للعلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية ، إذ انقلب الاقتصاد الزراعي الاكتفائي المغلق (الذي ساد في المرحلتين الأولى والثانية من العصور الوسطى ٣٠٠ ــ ١٣٠٠) اقتصاداً صناعياً ــ تجارياً ينزع إلى الرأسمالية والمبادلة الدولية . كذلك قامت ثورات بورجوازية في أوروبا أطاحت بالنظم والعلاقات الاقطاعية السائدة . وأسهم في تطور الاقتصاد الصناعي ــ التجاري اكتشاف الطرق البحرية المؤدية إلى أمريكا والهند والصين .

ــ الناحية الفكرية :

في المرحلتين الأولى والثانية من العصور الوسطى (٣٠٠ ــ ١٠٠٠ ــ ١٣٠٠) احتكرت الكنيسة المسيحية الثقافة الأوروبية ، فحاربت المفاهيم العلمية والأفكار الحرة التقدمية ، التي تتعارض مع مصالح الطبقة الاقطاعية . أما في القرنين الرابع عشر والخامس عشر فقد دُحرت الكنيسة المسيحية أمام الأفكار العلمية في المجالات السياسية والفكرية والفنية والاقتصادية . لقد قامت الحركة الانسانية ببعث الثقافة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) ، كما شرع الأدباء والفلاسفة والعلماء يهاجمون الأفكار الدينية الرجعية وليدة العلاقات الاقطاعية . كذلك أخذت آلات الطباعة تنشر الأفكار الجديدة التقدمية وليدة العلاقات البورجوازية . وتلك الملامح الحضارية تنمّ عن ولادة عصور تاريخية جديدة هي العصور الحديثة الأوروبية .

متى ظهر اصطلاح « العصور الوسطى » ولماذا ؟:

أول من استعمل اصطلاح « العصر الوسيط » Aevum Medium هم الأدباء الإنسانيون الإيطاليون في القرنين الخامس عشر والسادس عشر ، ثم شاع هذا الاصطلاح حتى الوقت الحاضر . لقد كان الانسانيون الايطاليون ، وبخاصة بترارك ، معجبين جداً بالثقافة الكلاسيكية (اليونانية والرومانية) ، فعملوا على إحياء تلك الثقافة . كذلك أطلقوا على العصر الذي عاشوا فيه اسم : « عصر النهضة » ، لأنه امتاز ببعث التراث الكلاسيكي القديم . أما المرحلة التاريخية

الممتدة منذ سقوط عرش روما بأيدي البرابرة (في سنة ٤٧٦) حتى عصر النهضة ، فكانوا يعدّونها مرحلة تأخر وانحطاط ، سادت خلالها حضارة بربرية باهتة ، وطُمست فيها معالم الحضارة الكلاسيكية الرائعة . وعلى ذلك كانت العصور الوسطى ، برأيهم ، « عصوراً مظلمة » ومتخلفة في شتى المجالات .

لكن تلك النظرة القاتمة إلى العصور الوسطى أخذت تتبدل مع الزمن في أعين بعض المفكرين الأوروبيين ، الذين تلمّسوا في تلك العصور حضارة جديدة مبتكرة ، وأخذوا يظهرون ويوضحون ملامح صورتها الحضارية للقراء والباحثين . وسنحاول بدورنا توضيح الملامح الحضارية للعصور الوسطى الأوروبية في بحوث هذا الكتاب .

مراحل العصور الوسطى :

لم يسرْ عالم العصور الوسطى في أوروبا على وتيرة واحدة ، ولا يمكننا القول إن الناس الذين عاشوا في تلك المرحلة التاريخية الطويلة (الممتدة بين سنتي ٣٠٠ ــ ١٥٠٠) قد ساروا على نظام واحد . لقد كانت أحوال هؤلاء الناس تتطور تدريجاً ، وتتبدل مع مرور الزمن . وعلى ذلك قسم بعض المؤرخين تاريخ العصور الوسطى إلى ثلاث مراحل رئيسة ، لكل منها ما يميزها عن غيرها ، مع بعض التجاوز في الزمان والمكان .

ــ المرحلة الأولى :

وهي المرحلة التي امتدت سبعة قرون ــ منذ بداية القرن الرابع حتى نهاية القرن العاشر (٣٠٠ ــ ١٠٠٠) ــ . ففي تلك المرحلة قضى البرابرة الجرمان على الامبراطورية الرومانية في الغرب الأوروبي ، كما قضوا على نُظمها وحضارتها وتقاليدها ، ثم أقاموا على أنقاضها ممالك جرمانية جديدة لها أنظمة خاصة وحضارة مغايرة . وبذلك الحدث الكبير تُطوى صفحة التاريخ القديم ، ويبدأ عصر جديد في تاريخ أوروبا هو العصر الوسيط . لكن بداية ذلك العصر كانت سيئة في وسط الفوضى التي أثارتها الغزوات البربرية المدمرة في أنحاء الغرب الأوروبي كافةً . وعلى ذلك قال المؤرخ إدوارد جيبون : إنه كان في حكم المستحيل أن تحرز

الانسانية أيّ تقدم في ذلك العهد المضطرب • كذلك أطلق المؤرخ : و• ب• كير على القرون الأولى من العصور الوسطى اسم : « العصور المظلمة » • ويأخذ بهذا الرأي كثير من المؤرخين المعنيين بتأريخ تلك المرحلة من تاريخ أوروبا •

ففي تلك المرحلة انطفأت شعلة الحضارة الرومانية القديمة الزاهرة ، إذ شحب نور العلم والمعرفة ، وأحاط بالحياة الفكرية ظلام كثيف يتخلله بصيص من شعاع خافت يحتوي بقايا تراث لاتيني ذابل ، كان للكنيسة الرومانية الغربية دور في الإبقاء عليه داخل جدرانها ، خدمةً لأهدافها الدينية فحسب • ومع ذلك فقد خلّف لنا ذلك البصيص عدداً من آباء الكنيسة الأول ، الذين تكشف مؤلفاتهم عن سمات الثقافة التي ارتبطت بالمسيحية وفلسفتها، وبالكنيسة وتعاليمها في ذلك العصر المبكر •

استمرت حالة الظلام الفكري طوال القرون الخمسة الأولى من العصور الوسطى • ولكن في بداية القرن الثامن ظهرت نهضة فكرية مبكّرة متواضعة في إيرلندة وإنكلترا ارتبطت بشخصين هما : (بيده والكوين) أكثر من ارتباطها بالعصر • وفي بداية القرن التاسع ظهرت نهضة فكرية أخرى ارتبطت بامبراطور الفرنجة الكارولنجيين شارلمان • لكن تلك النهضة أخذت تنحسر في عهد خلفائه ، بسبب انقسام امبراطوريته إلى ممالك وإمارات متصارعة فيما بينها •

ومع ذلك كله ، فقد تمّت في المرحلة الأولى من العصور الوسطى (٣٠٠ ــ ١٠٠٠) عملية انصهار الحضارة الرومانية القديمة وتمازجها مع حضارات الشعوب الجرمانية ، التي تدفقت على أوروبا الغربية واستوطنت فيها ، بجانب العناصر الرومانية وغيرها من الشعوب القديمة •

ــ المرحلة الثانية :

امتدت تلك المرحلة ثلاثة قرون ــ منذ بداية القرن الحادي عشر حتى نهاية القرن الثالث عشر (١٠٠٠ ــ ١٣٠٠) ــ • في تلك المرحلة جرت الحروب « الصليبية » الاستعمارية التي شنتها أوروبا الغربية بزعامة البابوية على المشرق

العربي والإسلامي • كذلك نما فيها ورسخ النظام الاقطاعي ونظام الفروسية • وفي القرن الحادي عشر بدأ الفكر الأوروبي ينطلق من عقاله ، محاولاً الخروج من دائرة الجمود الفكري المغلقة التي عاش أسيراً فيها قروناً عديدة • وكانت النتائج طيبّة تمثلت بظهور الفكر الحر والفلسفة المدرسية ، مما هيّأ الأوضاع لظهور نهضة القرن الثاني عشر المعروفة بالنهضة العلمية الأولى • وقد دعا روّاد تلك النهضة ، وبخاصــة أبيلارد ، إلى تحـريـر الفكر والعودة إلى التراث الكلاسيكي القديم (اليوناني والروماني) • وبنتيجة الجهود العلمية المستمرة نشأت الجامعات لتقوم بدور بارز في نقل الغرب الأوروبي من عصر الجهل والظلام ، إلى عصر العلم والنور ، الذي وضحت معالمه في عصر النهضة القادمة ــ أي في القرنين الخامس عشر والسادس عشر • وتلك النهضة مهدت الطريق للعصر الحديث ومدنيّته الزاهرة •

لكن الكنيسة البابوية وجدت في نهضة القرن الثاني عشر الفكرية والمذاهب الفلســفية الجديدة خطــراً يهــدد كيــانها ، ولــذا قاومتهــا بجميــع الوسائل ، بما في ذلك أسلحتها التقليدية ، إذ أخذت تَصِمُ كلّ من يخرج على تعاليمها بالهرطقة وتوقع عليه قرار الحرمان • وكان على رأس هؤلاء « الهراطقة » الفيلسوف أبيلارد وتلميذه بطرس اللومباردي •

يتضح ممــا تقدم ان اوروبا في المرحلة الثانية من العصور الوسطى (١٠٠٠ ــ ١٣٠٠) قد دخلت مرحلة التكوين ، وان حضارتها بدات تاخذ شكلاً متميزاً يختلف عن المرحلة الأولى •

ــ المرحــلة الثالثــة :

تنحصر تلك المرحلة في القرنين الرابع عشر والخامس عشر (١٣٠٠ ــ ١٥٠٠) • في تلك المرحلة تغير تفكير الناس في قضايا عديدة :

فبالنسبة لنظام الحكم ، أخذت شعوب أوروبا تنظر إلى الملك على أنــه راس الدولة ، بعد أن كان رأس الاقطاع ، كما طالبته بتحديد سلطاته ، مما أدى

إلى ظهور البرلمانات . كذلك أخذت تلك الشعوب تهتم بأمور دولها القومية ، وزالت الأفكار القديمة التي كانت تنظر إلى أوروبا كدولة واحدة يحكمها إمبراطور واحد وكنيسة واحدة بزعامة البابوية. ومما يؤكد تفكك الوحدة الأوروبية استخدام اللغات الوطنية المحلية في الكتابة والتعليم ، بعد أن ظلت اللاتينية قروناً عديدة اللغة الوحيدة في العلم والمعرفة .

اما بالنسبة للقضايا الدينية ، فقد خاضت الكنيسة البابوية في المرحلة الثانية من العصور الوسطى (١٠٠٠ ــ ١٣٠٠) صراعاً مريراً مع أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة التي ضمت ألمانيا وإيطاليا ، بسبب محاولة كل من السلطتين الدينية والدنيوية إعلاء شأنها على حساب الأخرى . وعلى الرغم من أن البابوية حققت بعض الانتصارات على السلطة الامبراطورية الزمنية ، إلا أن تلك الانتصارات كانت تحمل بين طيّاتها بذور التدهور والخذلان ، إذ خرجت البابوية على رسالتها الروحية في محاولتها فرض سيادتها على الأمراء والأباطرة والملوك ، فأثارت بذلك الشكوك حول قدسيتها ، وبدأ الناس ينفضّون من حولها . وعلى ذلك تزعزع مركز البابا والكنيسة البابوية في المرحلة الثالثة والأخيرة من العصور الوسطى (١٣٠٠ ــ ١٥٠٠) ، كما هاجمهما الناس في مواضع عديدة ، وهذا ما لم يكن مألوفاً في المراحل السابقة .

ومن الناحية الاقتصادية ــ الاجتماعية ، أخذ النظام الاقطاعي بالزوال في المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى ، في حين تطورت المدن الصناعية ــ التجارية ، وتشكلت الطبقة البورجوازية ، التي صار لها الدور الأول في الحياة الاقتصادية والسياسية . ومما ساعد على تطور الاقتصاد الصناعي ــ التجاري اكتشاف الطرق البحرية المؤدية إلى أمريكا والهند والصين .

الباب الأول

الحيـــاة الاقتصاديـــة ــ الاجتماعيـــة

في أوروبا العصور الوسطى

الفصل الأول

العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية في الأريــاف

الإقطــاع ــ الفروسية ــ الضّيــاع

الفصل الثــاني

العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية في المــدن

المــدن ــ الصناعــة ــ التجــارة



الفصل الأول

العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية في الأرياف

الاقطاع ــ الفروسية ــ الضِّياع

١ ــ النظام الاقطاعي

تعريف النظام الإقطاعي :

أطلق الباحثون اسم « النظام الإقطاعي » على النظام الاقتصادي والاجتماعي والسياسي الذي ساد في العصور الوسطى • وقد اختلف هذا النظام عن النظام الذي ساد في العصور القديمة من جهة ، والنظام الذي ساد في العصر الحديث من جهة أخرى ، وإذاكان النظام الإقطاعي قد نشأ وتطور في أوروبا الغربية ، فهذا لا يمنع من وجود نظام إقطاعي في مختلف أنحاء العالم ، يشبه النظام الإقطاعي في أوروبا الغربية في بعض الوجوه ، ويختلف عنه في وجوه أخرى •

وللنظام الإقطاعي في أوروبا الغربية منابع وأصول رومانية وجرمانية • لكن فجره يعود إلى القرنين الثامن والتاسع ، وظهيرته امتدت خلال القرون : العاشر والحادي عشر والثاني عشر ، وعصر نهاره امتد من القرن الثالث عشر حتى القرن الخامس عشر ، أما مغيبه فقد بدأ في القرن السادس عشر بنتيجة التقدم الصناعي والتجاري •

توجد وجهات نظر مختلفة لدى الباحثين في تعريف النظام الاقطاعي • ولكن مهما كثرت التعاريف واختلفت ، فإنها تؤدي إلى صيغة واحدة هي : تجزئة الملكية

والسيادة ، لالأن المتقاسمين : الأمير وتابعه ، أو الملك وتابعه ، يعيشان كشريكين ، ولا يمكن تصوّر وجود أحد الشريكين دون الآخر .

وللنظام الإقطاعي طبيعتان خاصتان به : ١ ــ طبيعة اقتصادية ــ اجتماعية ، ٢ ــ وطبيعة سياسية . وهاتان الطبيعتان تختلفان عمّا كانتا عليه في العصور القديمة ، وعمّا صارتا عليه في العصر الحالي . فمن الناحية الاقتصادية ــ الاجتماعية نرى أن الملكية في الحقوق الرومانية وفي العصر الحالي تعدّ أساساً للعلاقات الحقوقية ــ أي أن لكل أرض مالكاً ، والملكية التامة تبدو حالة طبيعية . أما في النظام الإقطاعي في العصور الوسطى فعلى الأرض الواحدة تقوم أنواع مختلفة من الحقوق ، حتى إن فكرة الملكية تزول عنها أو تفقد معناها القانوني . ومن الناحية السياسية نرى أن سيادة الدولة عند الرومان وفي العصر الحالي فكرة أساسية ، كما أن الدولة تمارس سلطاتها بوساطة الحكام والموظفين . أما في النظام الإقطاعي فلا توجد دولة وليس هنالك حكام ولاموظفون ، وإنما انقسمت سلطة الدولة بين جماعة من الأفراد يمارسون السلطات والوظائف التي كانت تمارسها الحكومة ، إذ انتقلت إليهم بعد تداعي الدولة وانهيارها . ومن هنا يمكننا القول : إن النظام الإقطاعي نشأ عن تجزئة الملكية من الناحية الاقتصادية ــ الاجتماعية ، وعن تجزئة السيادة من الناحية السياسية .

واستخدم المؤرخون لفظة الإقطاع في معنيين : ففي المعنى الأول عدّوا النظام الإقطاعي صورة من المجتمع لها خصائص متميزة ومنها :

١ ــ نمو التبعية الشخصية وتطورها .

٢ ــ وجود أنواع مختلفة للحقوق على الأرض وارتباطها بالتبعية الشخصية .

٣ ــ انهيار الدولة وانقسام السلطة السياسية بين جماعة من الأفراد يمارسون السلطات والوظائف التي كانت تمارسها الحكومة .

أما المعنى الثاني للاقطاع فيتمثل في أنه عبارة عن طائفة من النظم فرضت على الرجل الحر الولاء (التبعية) والخدمة ، لاسيما الخدمة الحربية ، يؤديها لرجل

حر آخر (السيد) ، الذي يلتزم بحماية تابعه والإنفاق عليه . وتطلب ذلك من السيد أن يعطي تابعه قطعة أرض ، فسمّي ذلك العطاء « إقطاع » . وهذا المعنى أكثر تحديداً من المعنى الأول ، ويُعدُّ المعنى الفقهي أو القانوني لمصطلح « الإقطاع » .

وكيفما كان الأمر ، فالعناصر الجوهرية في كلا المعنيين للنظام الاقطاعي تتمثل في ثلاثة : السيد ، التابع ، الاقطاع .

فالتابع يرتبط بالسيد بعلاقة شخصيةٍ وثيقة ، إذ يحلف له يمين الإخلاص وينعهد له بالولاء (التبعية) وتقديم الخدمة الحربية . وبالمقابل يحصل التابع من السيد على إقطاع هو في الغالب عبارة عن قطعة أرض بمن عليها من فلاحين يقدمون له حصة معينة من إنتاجها ، بالإضافة إلى خدمات وتقدمات متنوعة .

واقترن بدء العلاقة بين السيد والتابع بإجراء طقوس خاصة ، كان يركع التابع امام السيد ويجعل يديه بين يدي السيد ، ثم يحلف له يمين الاخلاص ، فإذا جرى بذل الاقطاع منحه السيد حفنة من تراب الأرض ترمز إلى ذلك العطاء (١) .

فكرة التطور الاقطاعي :

على أن النظام الإقطاعي ، وإن كان يختلف عن النظام الذي سبقه ، فقد نشأ عنه مباشرة ، وليست هنالك أية ثورة أو إرادة فردية عملت على غرسه ، بل إن التطور البطيء أوجده . ففي مطلع العصور الوسطى غمرت الغارات الجرمانية البربرية معظم أوروبا الغربية وأدت فيما بعد إلى انصهار العناصر الجرمانية مع العناصر الرومانية وظهور مجتمع تأثر بعادات ونظم العالمَيْن الروماني والجرماني البربري .

وحاول بعض الباحثين البحث عن جذور النظام الإقطاعي في النظم الجرمانية البربرية ، في حين حاول آخرون البحث عن هذه الجذور في النظم الرومانية ، فنشأت عن بحوثهم مدرستان :

المدرسة الجرمانية ، والمدرسة الرومانية :

لاشكّ في أن معرفة الجذور التاريخية أو السابقات أمر مفيد ، غير أن السابقة التاريخية ليست عاملاً وحيداً . وليس المهم أن نعرف من أين أتى العنصر الإقطاعي، بل المهم أن نعرف لماذا أصبح هذا العنصر (السابقة التاريخية) إقطاعياً . وبتعبير آخر إن السابقات في حال الإقطاعية ، سواء أكانت رومانية أم جرمانية بربرية ، ليست سوى مادة وشكل . أما تشكل الإقطاعية فقد حدث بتأثير قوى أخرى أثّرت في المادة (السابقات التاريخية) وأعطتها حيوية جديدة ومنظراً جديداً هو الشكل الإقطاعي .

وإذا بحثنا عن القوى المؤثرة في المادة نجدها في زمرتين : الأولى اجتماعية ، والثانية سياسية . وتظهر الزمرة الاجتماعية في اندفاع النزعة الاقتصادية المؤثرة في الملكية ، في حين تظهر الزمرة السياسية في ظهور قوة تنافس الدولة تتمثل بمبدأ التضحية الشخصية .

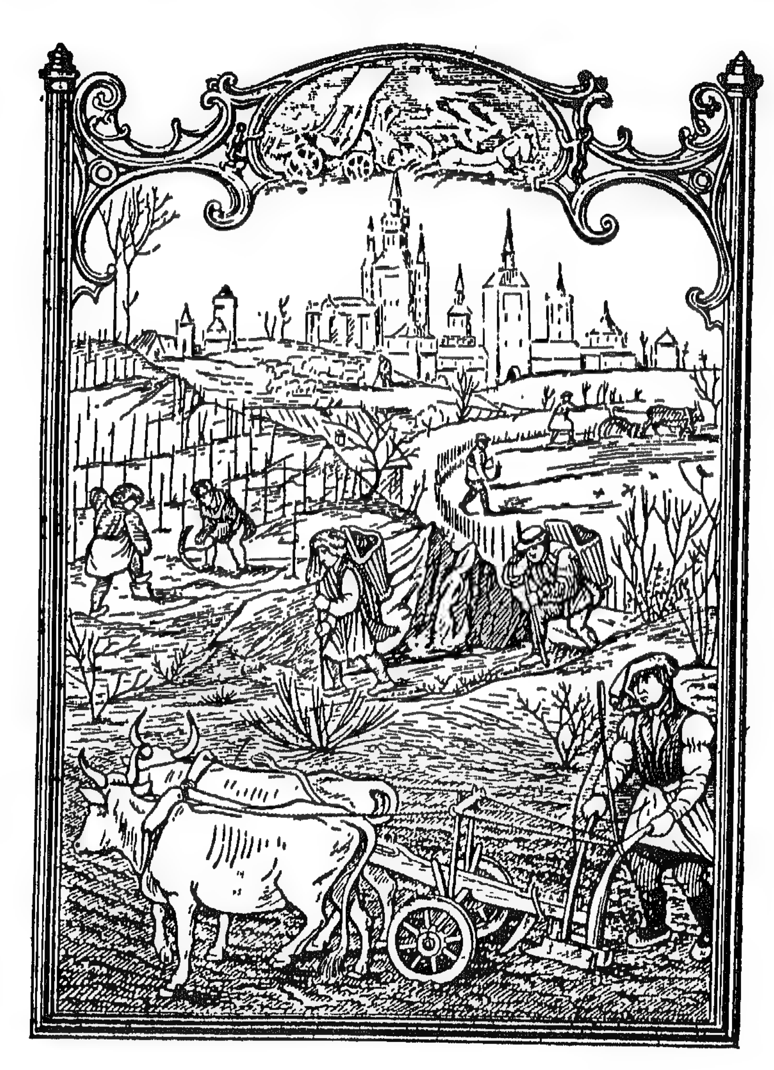
وإذا رجعنا إلى العصر الفرنجي (الميروفنجي والكارولنجي) وجدنا أنه لم يكن « إقطاعياً » . فقد ظلت سلطة الملك مطلقة نظرياً . وكان الأدواق والكونتات والمراكيز موظفين قابلين للعزل ، ولم تختلط وظيفتهم بعد بالانتفاع من الإقطاع . وأيضاً ظل الجيش ملكيّاً وقومياً في آن واحد ، إذ كان على كل رجل حر القيام بالخدمة العسكرية للملك وحده . وفي الحقيقة لم تكن الدولة الكارولنجية دولةً إقطاعية ، بل كانت دولة سابقة للاقطاعية وممهدة لها ـ أي أنها كانت دولة تبعية . لكن التبعية ليست إلا صورة من صور نظام « الرعاية » الروماني ، مع ما يقابله من تطبيق « الإحسان » . ولذا يجدر بنا أن نتعرض لنشأة هذا النظام والتدرج الذي مرّ به [٢] .

الجذور النظام الاقطاعي واصوله :

آ ـ الأصل الروماني للاقطاع (الرعاية او الحماية الرومانية) Patrocinium .

عرفت الحضارات القديمة تبعية رجل فقير أو ضعيف إلى رجل أقوى منه

وأغنى . ورابطة التبعية هذه تختلف عن رابطة العبد بسيده أو المعتوق بمولاه ، لأن الانسان الضعيف المحتاج إلى الحماية إنسان حر ويطلب الحماية بإرادته . وقد عرف الرومان نظام الرعاية أو الحماية في أواخر عهد الجمهورية، ودام ذلك النظام في ظل العهد الامبراطوري. وابتداء من القرن الرابع الميلادي أخذ صغار الملاكين الأحرار يطلبون حماية الملاكين الكبار (البترون) الذين يشغلون في الوقت نفسه الوظائف



شكل رقم (١) الفلاحة والبذار في العصور الوسطى

العليا في الدولة • ولم يقتصر طلب الحماية على الفقراء وصغار الملاكين وإنما امتد حتى شمل بعض الموظفين والنبلاء الذين يرجون حماية موظف كبير أو الامبراطور ليرتقوا بسرعة في وظائفهم •

وتطورت العلاقة بين الحامي والمحمي إلى رابطة قوية من نوع أدبي ووجداني، لكنها لم تكن رابطة حقوقية يحميها أو ينظمها القانون •. ولكن جرى العرف أن يدافع السيد عن المحمي لدى القضاء ويقاوم مزاعم إدارة الضرائب وما شابه ذلك • أما واجبات المحمي فتضمنت احترام السيد وتنفيذ أوامره وخدمته دون أن يؤثر ذلك في مكانته كونه من الأحرار ، وهذا ما يطلق عليه اسم التعهّد الشخصي •

اطلق على الشخص الذي يطلب الحماية اسم (رجل Homo وعلى الحامي اسم (السيد) Dominus .

وأضيف إلى التعهد الشخصي تعهد الملكية ، إذ يقدم الملاكون الصغار أرضهم إلى الملاّك الكبير (بموجب عقد بيع شكلي ، أو بشكل إهداء ، أو مقابل تسديد ديون لا أساس لها) ويضعون أنفسهم تحت حمايته ويعترفون بالتبعية له • لكن هؤلاء الملاكين الصغار يستعيدون أرضهم ويعملون بها بصفة منتفعين (كولون) ويقدمون حصة من إنتاجها للسيد الحامي (البترون) • على أن الرعاية أو الحماية الرومانية لا تتضمن أي التزام من نوع عسكري ، لأن المحمي ليس جندياً لسيده [٣] •

الإحسان الروماني Beneficium :

لازمَ تطبيق الرعاية أو الحماية نظام الإحسان • وكلمة إحسان عند الرومان تعني الخير الذي يفعله الانسان دون أن يكون ملزماً على فعله بقانون أو واجب • وهذا الإحسان يتضمن فقدان كل التزام بالحماية من طرف المحسن • أما المحسَن إليه (المستفيد من حيازة الأرض) فغير ملزم بتأدية خدمة عسكرية أو غيرها من الخدمات لصالح السيد المحسِن •

ولكن إذا تعمقنا في حقيقة الإحسان وجدنا أن المجانيّة صورية غالباً ، حتى إن المحسن المزعوم ، وقد تغطى بمظاهر الإحسان في الاتفاق ، لا يمكن أن يحال إلى القضاء • ولكن الإحسان يضع المحسَن أليه تحت رحمة المحسِن •

وهكذا كان « الإحسان » القالب الذي تصاغ فيه أكثر الاتفاقات التي لا تجد لها مكاناً في النطاق الضيق والمحدود للعقود المعترف بها في القانون • وكان الاتفاق الذي يطبق فيه الإحسان دوماً هو الانتفاع Beneficium .

والإحسان الروماني تعامل قديم وخارج عن القانون ، إلا أنه ظهر في كتابات الفقهاء في القرن الثالث الميلادي • ولولا رجاء مسبق من قبل الطامح بالحصول على أرض لما وجد الإحسان • ولكن الإحسان لا يخول المحسن إليه إلا التمتع بالحيازة والانتفاع لا الملكية • وهو غير وراثي ولا يخوّل الانتفاع مدى الحياة ، إذ يستطيع المحسن في كل وقت أن يستعيد أرضه دون أن يبين السبب • والإحسان كونه مجانياً لا يكون أجاراً ولا يدخل في صنف من أصناف العقود ، لأن الإحسان ليس صكاً •

في الحقيقة لم يكن الإحسان كرماً إلا في اسمه وظاهره ، وإنما كان شكلاً من اشكال الاستغلال • وهو يغطي ثلاث عمليات اقتصادية هي :

١ ــ الأجـار المقنع :

وهو يضع الفلاح المنتفع من الأرض تحت رحمة الملاّك ، لأن الملاّك يستطيع تجريد الفلاح من الأرض في أي وقت دون إقامة دعوى •

٢ ــ القرض بكفالة عقارية :

قد يضطر فلاح حر من صغار الملاكين أن يقترض مبلغاً من المال من ملاّك كبير غنيّ ، فيقدم أرضه الصغيرة للدائن ويستلمها منه بصفة منتفع ، ولا ترجع ملكيتها إليه إلاّ بعد وفاء كامل ديْنه • وإذا مات الفلاح دون أن يسدد ديْنه طُرد أولاده من الأرض •

٣ ـ اتساع الملكية وتملص كبار الملاكين من دفع الضرائب للخزانة :

أفاد الإحسان كبار الملاكين في توسيع أراضيهم ، ذلك أنهم مقابل حمايتهم غير القانونية للفلاحين الأحرار صغار الملاكين كانوا يأخذون منهم أرضهم ، ثم يعيدونها إليهم بصفة إحسان ليعملوا بها مقابل تقديم حصة من إنتاجها عينية أو نقدية . وإذا ضُمت تلك الأراضي الصَغيرة إلى أراضي كبار الملاكين خرجت منَ نطاق عمل رجال العدل ومستخدمي مصلحة الضرائب . وعلى هـذا فمجّانية الإحسان « كذب حقوقي » (٤) .

ب ـ الأصل الجرماني للاقطاع :

تحدث المؤرخ الروماني تاكيتوس في كتابه « جرمانيا » Germania عن البرابرة الجرمانيين فقال :

إن الجرمانيين ، على الرغم من انقسامهم إلى قبائل عديدة ، يؤلفون أمة واحدة اشتركت في صفات عامة واتخذت أسلوباً مشتركاً في الحياة . فالجرماني محارب وهب نفسه للقتال وشغف بالشراب والطعام والقمار ، بينما تولّى الرقيقُ والنساءُ إدارة شؤون داره وفلاحة أرضه . ولم يكن حكام الجرمان إلا زعماء محاربين . غير أن العرف الجرماني قضى بألا يحمل أحد السلاح إلا بموافقة القبيلة ، فيتلقى الفتى أمام الجمعية الترس والحربة من والده أو أحد أقاربه أو أحد الزعماء ، كما يتلقى التدريب على استخدام السلاح بين رفاقه من أتباع أحد السادة المشهورين . وكل واحد من هؤلاء السادة يحاول أن يفوق منافسيه بما يكنه أتباعه له من الولاء وبما يشتهرون به من البسالة . فإذا أعد حملة اجتمع حوله أتباعه (Comitatus) وهم من المحاربين الأحرار خدموا زعيمهم عن طيب خاطر وقاتلوا معه كونهم من رجاله المقربين . ويحلف هؤلاء الرجال لزعيمهم على الإخلاص المطلق والطاعة التامة ، ويحصلون مقابل ذلك على السلاح والمؤونة والثياب وجانب من غنائم الحرب .

عندما أغار البرابرة الجرمان على الأقاليم الغربية من الامبراطورية الرومانية وأقاموا ممالك لهم في تلك الأقاليم ظل العرف الجرماني المتعلق بحياة طبقة المحاربين حافظاً لقوته الأصلية . فما أورده المؤرخ تاكيتوس عن نظام الاتباع المحاربين ظل معروفاً في القرون التالية عند الفرنجة والقوط واللومبارديين والانكليز السكسونيين وغيرهم من الشعوب الجرمانية . كذلك ظلت الرابطة الشخصية قائمة بين السيد والتابع ، وكانت تعدّ من مظاهر التشريف ، إذ أن المحارب الحر الذي أصبح تابعاً لأحد السادة قد فعل ذلك من تلقاء نفسه وعن طيب خاطر . وعلى هذا لم يجد التابع في ذلك العمل امتهاناً لكرامته ، كما كان غير ملزم بأن يرتبط بالسيد مدى الحياة ، فيصح أن تنقطع الصلة باتفاق الطرفين . على أن الفتى الذي صار تابعاً لأحد الزعماء كان يأمل بأن يكون له أتباع في يوم من الأيام . ومن الطبيعي أن كل رجل تتوافر لديه الثروة والشهرة يجذب إليه مثل هؤلاء الأتباع الرفاق (٥) .

الرعاية والإحسان في العهد الميروفنجي :

استمرت الرعاية ودام الإحسان في العهد الميروفنجي وطبقهما جميع سكان غاليا من الرومانيين والجرمانيين . وفي القرنين السادس والسابع توسع تطبيق هذا النظام ، إذ بحث عن حماية الكبار ، الفلاحون صغار الملاكين وغيرهم من الأحرار بما فيهم العلمانيون والاكليريكيون (رجال الدين) . كذلك طلب بعض أبناء النبلاء رعاية الملك وعاشوا في القصر الملكي بجوار حاميهم وتدربوا على خدمته وخدمة الدولة . وكان على هؤلاء الفتيان النبلاء أن يؤدوا يمين الولاء والإخلاص للملك إذابلغوا سن الرشد وحصلوا منه على لقب كونت أو دوق أو أسقف .

وكانت واجبات المحميين (طالبي الحماية والرعاية) تجاه الحامي تختلف بحسب مكانة المحمي الاجتماعية . فالرجل الفقير كان ملزماً بواجبات تختلف طبيعتها عن واجبات النساء ورجال الدين وفتيان النبلاء وغيرهم .

أما الإحسان فقد نما في العهد الميروفنجي وظل طريقة لاستثمار الأرض،كما أطلق عليه اسم « الانتفاع Benefice » وقد تعددت استعمالات الانتفاع وأفاد منه العلمانيون

ورجال الدين . ويُعدُّ « الانتفاع » تأجيراً للأرض بدلالة دفع الاتاوة السنوية نقداً . وبما أن هذا التأجيرَ تأجيرُ إحسانٍ ، وليس تأجيراً بعقد ، فقد كان يضع الفلاح المنتفع تحت تصرف المحسن المزعوم ويختلط مع البيع والهبة . ومنذ القرن الثامن صار حق الانتفاع يمتد إلى أبناء المنتفع وأحفاده . وفي آخر القرن التاسع ثبتَ الانتفاع بشكل « وضع اليد » على الأرض وامتد على جيلين وثلاثة أجيال (٦) .

ضريبة المنتفع :

لم يكن امتياز الانتفاع يتطلب يميناً ولا مصافحة . وليس من الضروري أن يكون المنتفع رجلاً « محمياً » ، بل يكفي أن يقدم رفيعة إلى المحسِن تنمُّ عن عبارات الاحترام والاعتراف بحق مانح الامتياز في ملكية الأرض . وبالمقابل يحصل المنتفع من المحسن على موافقة خطية تتضمن السماح باستثمار الأرض . وكان هذا العمل المزدوج (الرجاء والموافقة على تلبيته) يتجدد كل خمس سنوات ، ثم أُنيبَ عن هذه الطريقة بدفع ضريبة سنوية ضئيلة اسمية تؤكد بصورة لا تقبل الرد ارتباط المنتفع وحق المحسن في الملكية . ونلاحظ أن تلك الاتاوة (الضريبة) الضئيلة كانت رمزية ، لأن الانتفاع لم يكن مصلحة اقتصادية بالنسبة للمحسن ، بل « إحساناً » . وإذا كان المنتفع قوياً كان الانتفاع بمثابة ضمان لدفع طمعه وسوء نواياه . وفيما عدا الضريبة الرمزية كانت واجبات المنتفع الأخرى غير محددة تحديداً واضحاً ، لكنها لم تكن واجبات عسكرية ، وإنما تدل فقط على احترام المنتفع للمحسن .

وهكذا كان الانتفاع خاضعاً للضريبة وليس عليه واجب حربي ، لذا لا يمكن أن يكون مولداً للاقطاع . اما المستقبل فقد كان لنوع آخر من « الإحسان » ، وهو الاقطاع الذي يرتبط تاريخه ارتباطاً وثيقاً بالتبعية والأتباع المحاربين (٧) .

الحماية الحربية والخدمة المسلحة في العهد الميروفنجي :

في العهد الميروفنجي لا توجد دلائل على أن السيد كان يتطلب خدمة عسكرية ممن كان في خدمته . أما الملك فهو الوحيد الذي له الحق في فرض الخدمة المسلحة ،

إد كان على الأحرار من مختلف الطبقات أن يدخلوا فيخدمة الملك العسكرية . وفي الدولة الميروفنجية نرى المحاربين المقبولين في خدمة الملك خلفاً للرفاق المحاربين لدى زعماء البرابرة الجرمانيين . وتدلنا النصوص التاريخية على أن الأمين المخلص كان يمثل بسلاحه أمام الملك ويصافحه ويبايعه على الطاعة والولاء .

أما بالنسبة للأسياد الآخرين (غير الملوك) فإن النصوص التاريخية لا تقول إن الرجل الذي يدخل في خدمة سيدٍ ما يجب أن يكون محارباً ، كما هي حال التابع تجاه أميره في العصر الإقطاعي الذي سيأتي فيما بعد . لكن الرجال الذين دخلوا بحماية سيدٍ ما كانوا يدافعون عنه ضد أعدائه أو ضد اللصوص والسلاح في أيديهم ، وهذا يعني أن خدمتهم كانت خدمة دفاعية مسلحة ، وليست خدمة حربية كما سيكون الأمر في النظام الإقطاعي .

ولم يكن أجر الخدمات التي يقوم بها الذين في حماية الملك الإعاشة في البلاط فحسب ، بل إن الملك كان يكافىء ذلك « الإخلاص » بالهدايا والمنح ووهب الأراضي الأميرية . كذلك كان السادة الآخرون يكافئون الإخلاص والخدمة الدائمة بإعطاء أرض إما بشكل ملكية تامة ، أو مقابل دفع أتاوات سنوية عنها . ولم يكن من يأخذ الأرض للانتفاع بها فلاحاً يشتغل بيديه في الأرض ، وإنما كان تابعاً من طبقة النبلاء يحصل على الأرض من السيد بما فيها من حقول زراعية ومراعٍ ودور وجماعة من الفلاحين يعملون بها [8] .

الرعاية والإحسان في العهد الكارولنجي :

التجديد المزعوم في العهد الكارولنجي :

شهد العهد الكارولنجي جميع التعاملات الجارية في العهد الميروفنجي السابق ، كما شهد نموها واتساعها . وقد أرادت مدرسة تاريخية (بعض المؤرخين) أن تجعل من نمو تلك التعاملات في القرن الثامن ثورة حقيقية تمخض عنها نشوء نظام التبعية وتبدل الانتفاع تبدلاً عميقاً . وربط بعض المؤرخين من تلك المدرسة

التبدلات في نظام التبعية والانتفاع بمصادرة شارل مارتل أراضي الكنيسة وتوزيعها على الفرسان .

كان شارل مارتل بحاجة إلى فرسان لقتال العرب المسلمين في إسبانيا ـ الذين أخذوا يهددون الأراضي الفرنسية ـ وللنضال ضد أعداء الكارولنجيين الأوائل في داخل فرنسا . ولما كانَ الدومين الملكي (الأراضي الملكية) مبدداً ، فقد اضطر حاجب القصر شارل مارتل أن يضع يده على أراضي الكنيسة ويوزعها على محاربيه المخلصين في خدمته . وقد صار هؤلاء المخلصون يُسمون « أتباعاً » . وبعد أن حصل هؤلاء الأتباع المخلصون على الأراضي صار بمقدورهم أن يجهزوا أنفسهم بالخيل وسلاح الفرسان . ولم يتورع النبلاء الارستقراطيون من الدخول في التبعية الشخصية لشارل مارتل والتعهد له بالخدمة العسكرية المسلحة ، بعد أن كان يبحث عن مثل تلك التبعية حتى ذلك الحين فقراء الناس وأبناء الأسر الصغيرة .

وفي الوقت نفسه تبدل شكل الامتياز ولم يعد هبة ملكية تامة ، لأن الأراضي المصادرة من الكنيسة لم تكن ملكاً لحاجب القصر . وعلى هذا وجد حل وسط : وذلك أن المحاربين الذين يحصلون على أراضي الكنيسة بأمر من الملك لا يستلمونها إلا إذا دفعوا إلى الأسقفية التي تنازلت مرغمة عن الأرض ضريبة العشر . ويبدو أن تمتع الأتباع بهذه الأراضي قد أخذ طابع الانتفاع ، وان هذا النوع من الامتياز قد أتلف مع الظروف وأصبحت هبات الملوك الكارولنجيين لا تعطى في سبيل ملكية تامة ، بل بقصد انتفاع يدوم مدى الحياة .

لكن الاستيلاء على أراضي الكنيسة وتوزيعها على الفرسان المحاربين أعاق أكثر مما ساعد على نمو التبعية وتوسعها . فالقابض على الأرض ، الذي هو تابع في نظر الحاجب والملك ، كان منتفعاً حيال الأسقف رئيس الكنيسة . وكان وضع هذا الشخص لا يخلو من التباس سيتضح في آخر القرن التاسع ، إذ أن التابع إما أن يغتصب الأرض التي في حوزته ولا يرتبط إلا بالملك ، أو أنه يعترف بسلطة المؤسسة الدينية التي يحتل أرضها (٩) .

التبدلات الحقيقية :

كان العهد الكارولنجي مثبتاً للأوضاع أكثر مما كان مجدداً ، لأن النظم في العهد الميروفنجي السابق كانت توالي تطورها ، وكل ما تبدل هو التسمية .

ففي عهد شارلمان زال استعمال اسم « المحمي » gasindi واستعيض عنه باسم « تابع » Vassus أو vassalus . وذاعت أيضاً لفظة miles « جندي » التي تؤكد ازدياد الصفة العسكرية للتابع . وتصادف كذلك لفظة homo « رجل » التي تشير إلى كل من ينتمي إلى السيد وتدل أيضاً على التابع .

كذلك تطور الشكل الحقوقي للحماية .

فبدلاً من الطرائق القديمة والتعهدات الرمزية أو الكتابية بين السيد والمحمي، أصبح حلف يمين الطاعة يتم على الإنجيل أو بعض البقايا المقدسة ، ويرافقه عمل شكلي هو الاحترام والطاعة . ويتم التعبير عن الاحترام والطاعة بتجريد التابع من سلاحه (للدلالة على شخصيته المدنية) ، ثم يركع على ركبتيه أمام أميره ويضم يديه إلى بعضهما ويضعهما بين يدي الأمير ، وأحياناً يقبّل قدم سيده . وبعد حلف يمين « الولاء » ينهض الأمير تابعه ويقبّله ويقدم له هدية ، كأن يضع في يده بضع قطع من النقود .

وهذا الطقس يجعل من التبعية عقداً ثنائي الجانب يربط السيد والتابع معاً ويجعلهما شريكين . وكانت السلطات العامة الكارولنجية تسهر على جعل هذه الرابطة وثيقة لا تنحل ، حتى أن شارلمان حرّم على التابع أن يترك سيده إلا في حالات استثنائية (١٠) .

نظام التبعية عند الكارولنجيين :

أحب الملوك الكارولنجيون أن يحيطوا أنفسهم بعدد كبير من الأتباع، ففرضوا على الموظفين الكبار الذين يخدمهم (أمثال الكونتات والأدواق والأساقفة وغيرهم)

واجب الدخول في خدمة الملك . والتزم هؤلاء الموظفون ببذل الطاعة والولاء للملك على النحو الذي يلتزم به التابع للسيد . واتبع هذه السياسة نفسها كبار الموظفين إزاء الموظفين الذين يلونهم في الرتبة ، إذ جعلوا منهم أتباعاً لهم . ولما كان لكل تابع أتباع ، ولكل تابع سيد ، فقد أصبح المجتمع التبعي عالماً مغلقاً على شكل هرم ؛ اتخذ الملك قمة الهرم كونه سيد البلاد ، ثم تلاه أتباعه المباشرون من الأدواق والكونتات والأساقفة ، ولهؤلاء بدورهم أتباع ، ثم يتلو هذه الفئة أتباع الأتباع ، ومن ثم أتباع أتباع الأتباع . وفي قاعدة الهرم وجد الفارس المقاتل الذي توافر له من الأرض ما يكفل العيش والغذاء له ولأسرته وحصانه .

كان الملك الكارولنجي يمنح أتباعه المخلصين أراض أميرية بامتياز حق الانتفاع ، مقابل الالتزام بتقديم الخدمات الحربية .

وكان أتباع الملك يتمتعون بحصانة قضائية ، فلا يمثلون أمام القضاء إلا في محكمة البلاط المركزية . ومن الناحية العسكرية كان هؤلاء الأتباع مرتبطين بالملك مباشرة ، ففي حالة الحرب ينضمون إلى الجيش الملكي مصحوبين بأتباعهم من الفرسان المحاربين . وكان أتباع الملك يؤلفون نخبة الجيش الكارولنجي وسلاح الفرسان ، في حين كان صغار الملاكين يؤلفون المشاة . ومن مصلحة الملك أن يرى أتباعه المباشرين يحيطون أنفسهم بجيش من الفرسان مادام هذا الجيش سيقاتل الأعداء إلى جانب الملك .

وكان أتباع الملك الكبار مسؤولين عن أتباعهم يسوقونهم إلى المحكمة العامة (المالوس) ويقودونهم في الحرب . وعلى هذا النحو أصبح أتباع الملك الأمراء موظفين ممثلين للسلطة الملكية ، ويفتخر الملك بأنه قابض عليهم في يده . أما أتباع أتباع الملك فقد أصبحوا من رعاياه ، ولم يكن الأمراء يمارسون أية سلطة قضائية على أتباعهم ، فلا تجرى محاكمتهم أمام محاكم خاصة بأسيادهم ، وإنما أمام محكمة عامة يتولى رئاستها الملك كونه سيد لجميع أتباعه . وإذا سلح الأمراء أتباعهم كان ذلك في سبيل خدمة الملك وحده .

ووضع الملوك الكارولنجيون أنفسهم حماةً لأتباع أتباعهم من الأمراء ، فأباحوا لهم ترك أسيادهم إذا أُلحق بشرفهم عار ، أو أصيبت مصلحتهم بأذى . فها هو ذا شارلمان يصد رمرسوماً يحدد الحالات التي يحق للتابع فيها أن يتخلى عن التبعية لسيده وهي :

١ ـ إذا حاول السيد ان يقتل التابع بالتآمر عليه .

٢ ـ إذا حاول ان يضربه بعصا .

٣ ـ إذا حاول اغتصاب زوجته ، او ارتكب الفاحشة معها .

٤ ـ إذا حاول السيد اغتصاب ابنة التابع .

٥ ـ إذا حاول ان يجعل منه قناً .

٦ ـ إذا انقضّ عليه واشهر سيفه عليه .

٧ ـ إذا لم يدافع عنه كما ينبغي .

ومن الناحية النظرية ، كان للسيد نوع من السيطرة على التابع . فالتابع ، فيما عدا الحالات المذكورة أعلاه ، لا يحق له أن يتخلى عن سيده إلا بموافقته . ولا ينقض عقد التبعية عادة إلا وفاة السيد أو التابع . ولكن من الناحية العملية حدث في القرن التاسع ما يشير إلى أن أتباعاً تخلّوا عن سادتهم ، أو كشفوا عن خياناتهم لحرصهم على جمع المال والحصول على إقطاعات جديدة . ومنذ عهد لويس التقي ابن شارلمان نصادف بعض الأمراء من أتباع الملك أو الامبراطور يخرجون على طاعته ويقودون أتباعهم لقتاله . ولم يتردد أتباع الأمراء في تفضيل سلطة أمرائهم المباشرين على سلطة الملك ، عندما يتبين لهم أن حماية الملك لهم بعيدة ومتقطعة وليس لها تأثير ملموس .

وفي أواخر عهد الملك الكارولنجي شارل الأصلع أصبحت الوظائف العليا في فرنسا (كوظائف الكونتات والمراكيز والأدواق) وراثية ، كما صارت الأسر الحاكمة في الأقاليم تمارس امتيازات الملك في السلطة. ولتستطيع الملكية الكارولنجية

البقاء كانت تضطر أن تتنازل شيئاً فشيئاً عن سلطاتها للطبقة الارستقراطية التي أسست أسراً حاكمة في الأقاليم وضعت يدها على الوظائف العامة وجعلتها « انتفاعاً » دائماً لمدى الحياة بل وراثياً . وهكذا شكل نظام التبعية خطراً على السلطة الملكية وأدى إلى إضعافها وتقويضها (١١) ».

زوال الملكية الحرة :

اجتاحت الروح التبعية المجتمع الأوروبي في غضون العهد الكارولنجي ، ونابت التبعية مناب الحماية في أشكالها المختلفة . وقد صار لكل تابع أتباع ، ولكل تابع أمير ، وأصبح المجتمع التبعي عالماً مغلقاً . وفي خارج هذا العالم التبعي المغلق وجد ملاّكون أحرار . ولكن عندما شعر هؤلاء الملاكون الأحرار بانعزالهم سعوا إلى أن يصبحوا أتباعاً للأمراء الأقوياء من جيرانهم . وهكذا أخذ عددهم بالتناقص في المناطق الشمالية ، فزالت الملكية الحرة في نورمانديا وبريتاني في آخر القرن الثاني عشر . أما صغار الملاكين الأحرار فكانوا فقراء لا يستطيعون القيام بالخدمة العسكرية ، أو رفضوا فيها لأنهم لا يتمكنون من تجهيز أنفسهم بالسلاح والخيل ، ولذا تحولوا إلى طبقة الأقنان الوضيعة .

ونفذت الروح التبعية إلى حرم الروابط العائلية والعاطفية ، فصارت الزوجة والأولاد أتباعاً لرب الأسرة ، وأضحى ابن النبيل يدعو أباه « سيدي » وأمه « سيدتي » . كذلك صار العاشق يَعدّ معشوقته « سيدة » له ويقف حيالها موقف التابع أمام سيده . وكل عبارات الحب في العصور الوسطى تنمّ عن هذه التبعية .

وتبدلت الرابطة التبعية تدريجاً . فبعد أن ظل السيد زمناً طويلاً يقدم لأتباعه المخلصين الطعام والكساء والهدايا ، انتشرت شيئاً فشيئاً عادة أن يكافىء السيد بعض الأتباع المخلصين الدائمين بمنحهم أملاكاً عقارية بامتياز الملكية أو الانتفاع . وقد لوحظ هذا الأمر منذ بداية القرن الثامن ، ثم تعددت الأمثلة مع الزمن حتى أصبح قاعدة في القرن التاسع . وفي القرنين العاشر والحادي عشر لم يعد الانسان

تابعاً إلا في سبيل الحصول على حق الانتفاع من الأرض • وعلى الرغم من أنه ليس من الضروري وجود ارتباط بين التبعية والأرض ، فإن اتحادهما صار شائعاً ، وهذا الوضع عكس الوضع الذي كان سائداً في السابق بين السيد والزبون ــ أي بين الحامي والمحمي (١٢) •

ظهور كلمة الإقطاع Feudal .

على الرغم من شكلية الاحترام والولاء ، التي دامت حتى الثورة الفرنسية في العقود بين السيد والتابع ، لم تأخذ التبعية المقام الأول ، بل « الانتفاع » أو الكلمة العامية التي اكتشفت في أواخر القرن التاسع وهي كلمة « الإقطاع » Feudal وكان إذا جرى بذل الاقطاع لتابع في مقابل خدمة حربية تصح تسميته بالاقطاع الحربي Benefice of the vassal • ولم يكن في اللغة اللاتينية مصطلح فني لهذا النوع من الأراضي • غير أنه في اللغة الرومانسية الدارجة (العامية) كان معروفاً باسم Fief ، ومنه جاءت اللفظة اللاتبنية Feodum ، Feudum كذلك أضحت لفظة Vassus أو Vassalus (حرفت بالعربية إلى فصل وجمعها أفصال) تستخدم في أواخر القرن التاسع للدلالة على التابع الذي النزم بتأدية الخدمة الحربية •

وقد ظل « الانتفاع » و « الإحسان » المحض شيئاً واحداً خلال زمن طويل ، ولذا كان خلواً من كل محتوى حقوقي ولا يتطلب أي التزام واضح • أما واجبات القابض على أرض الانتفاع فتفرض عليه بصفته منتفعاً أو تابعاً ، ولذا لم يكن الإقطاع (أرض الانتفاع) منفصلاً عن التبعية • ولكن كلما أخذ العنصر التبعي بالضعف ارتفع الإقطاع إلى المقام الأول • وعندما لا يمكن اسرداد امتياز الانتفاع ويصبح وراثياً (كما صارت عليه الحال في القرن الحادي عشر) يبدو المجتمع تسلسل إقطاعات أكثر مما هو تسلسل أشخاص ، ويقوم فيه النظام « الإقطاعي » مقام النظام التبعي •

وأخيراً سرت عوامل الموت في المبدأ التبعي عندما جرى التعامل في تناول عدة إقطاعات من عدة أيدي ــ أي عندما أصبح للتابع عدة أسياد ، فضعف الولاء وتداعت التبعية .

إن هذه التبدلات الكبرى كانت في حالة تهيئة في العهد الكارولنجي . غير أن التبعية التي بدلت النفوس والأشياء لم تبلغ بعد درجتها القصوى . فإذا قرأنا الوثائق الكارولنجية تبين لنا أن الناس الأحرار المستقلين كانوا أكثر من الأحرار الذين دخلوا في التبعية ، وأن الأراضي المملوكة ملكية تامة تؤلف الأكثرية ، إذا ما قيست بالنسبة إلى الأراضي التي وضعت عليها اليد بطريق « الإحسان » أو الانتفاع . ولكن النسب ستتبدل ــ دون حدوث أية ثورة اجتماعية ــ في بداية عهد الأسرة الكابية (أول ملوك الأسرة الكابية هو هوغ كابيه الذي حكم في فرنسا ٩٨٧ ــ ٩٩٦ بعد موت لويس الخامس آخر ملوك الأسرة الكارولنجية) .

وهكذا نرى أن الاقطاعية التي نشأت في ظلمة الامبراطورية الدنيا قد تابعت سيرها ببطء ، ولكن بقوة طبيعية لا تقاوم . ولقد تراجعت الملكية والحرية والدولة دون انقطاع أمام هذا العدو ــ الاقطاعية ــ الذي اتخذته زمناً طويلاً مساعداً لها .

وبعد لم تكن الاقطاعية موجة من أمواج الأعماق تتقدم بهياج عظيم فتجتاح الشواطىء ، بل كانت فيضاناً تدريجياً لا يدرك إلا بصعوبة ، وبدا طفيفاً لكنه غطى كل شيء (١٣) .

ــ اكتمال النظام الاقطاعي (من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر) :

في الحقبة الممتدة من القرن العاشر إلى القرن الثالث عشر اكتمل النظام الإقطاعي وشاعت النظم الاقطاعية في بلدان أوروبا الغربية ، ثم انتقلت هذه النظم عن طريق الحروب الصليبية إلى مملكة بيت المقدس والامبراطورية اللاتينية في القسطنطينية . واستند النظام الاقطاعي (الأميري) في تلك الحقبة إلى تسلسل مزدوج : تسلسل تبعية الأشخاص ، وتسلسل أملاك الانتفاع . وقد انضمت في هذا

النظام التبعية المنحدرة من الحماية القديمة ، إلى الانتفاع الذي أخذ اسم الاقطاع ، واختلطا ببعضهما • لقد أصبح التابع يأخذ إقطاعه من سيده وغدت الروابط الشخصية القديمة روابط أرضية • وعليه فالاقطاع ليس سوى انتفاع أصبح مع الزمن وراثياً •

لقد بدل زوال الامبراطورية الكارولنجية مصوّر أوروبا الغربية تبديلاً عميقاً، وذلك بأن أحلّ الانقسام إلى ممالك محل الوحدة الامبراطورية ، التي أعيد إنشاؤها على يد أوتون الكبير بصورة غير تامة • ولم يقف عمل التفكك عند هذا الحد ، ففي منتصف القرن العاشر لم تكن كل مملكة من الممالك الأوروبية إلا فسيفساء من الدول على رأس كل منها دوق أو مركيز أو كونت • وفي الغالب لم يكن للسلطة الملكية على هؤلاء الحكام أي تأثير ، لأن تلك السلطة كانت وهمية أكثر منها فعلية • يضاف إلى ذلك أن الكونتيات نفسها انقسمت إلى إمارات مستقلة علمانية أو كنسيّة • وكان القائمون على تلك الامارات يمارسون معظم الحقوق الملكية ، ولا يرتبطون بالكونت إلا بروابط التبعية ـــ أي بالولاء الشخصي الذي يربط أيضاً الكونتات والأدواق بالملوك •

ولم يكن هذا النظام الاقطاعي (الأميري) شيئاً جديداً ، بل من المعروف ، كما رأينا سابقاً ، أن الملوك الكارولنجيين هم الذين نشروا أتباع السيد Vassi dominici في سائر ممتلكاتهم بما بذلوه من إقطاعات مقابل الحصول من أتباعهم على الخدمة العسكرية والمساعدة الحربية في وقت الحاجة • وقام هذا النظام على الارتباط الوثيق بين التبعية وحيازة الأرض للانتفاع • وطالما تحقق هذا الارتباط لخدمة الحكومة فإن النظام الاقطاعي يُعدّ في جوهره نظاماً سياسياً جديداً ظهر عقب انهيار نظام سابق ، على الرغم من اقترانه ببعض التدابير الاقتصادية ـــ الاجتماعية •

لقد ادى نمو النظام الاقطاعي إلى تجزئة سلطة الدولة وتغيير في سياستها لم يكن في الحسبان • فقد تخلى الملك إلى الكونتات ـ ممثلي السلطة العليا ـ عن جميع

أملاك الدولة والحقوق الملكية الداخلة في نطاق منطقتهم الإدارية وعدّها كرواتب تدفع لهم .

وأخذ هؤلاء الموظفون الكبار يقضون بين الناس ويجبون الضرائب لأنفسهم ، كما حصلوا على الاستقلال التام تقريباً على حساب الدولة ، واكتفى أميرهم الملك بالاحترام ويمين الولاء دون أن يمارس أية رقابة عليهم . وأصبح هؤلاء الموظفون منتفعين ولهم حصانة ، كما أضحت وظائفهم تنتقل إلى أبنائهم وأحفادهم بالوراثة . وعلى هذه الصورة تشكلت أُسر ارستقراطية لا تخضع للسلطة الملكية وتحكم في الأقاليم المحلية التي تحولت إلى إمارات مستقلة . وعوضاً عن أن يكون هؤلاء الموظفون منتدبين من قبل الملك وقابلين للعزل ، أصبحت وظائفهم دائمة ووراثية ، كما أصبحوا لا يرتبطون بالسلطة الملكية المركزية إلا بروابط رخوة من الولاء والإخلاص . ولاشك في أن هذه الحال تُعدّ ثورة أو انقلاباً سياسياً ، لأنها حوّلت الكونتات ، وهم موظفو الدولة ، إلى موالين للملك وأتباع له . ومن الطبيعي أن تجعل الفوضى السياسية ــ التي عمت أوروبا الغربية في القرن العاشر ــ هذا الولاء نظرياً . ففي ذلك العصر صارت جميع ممالك أوروبا الغربية مسرحاً للمنازعات الأسرية التي هزت السلطة الملكية . فقد كان الملوك ، في سبيل الحفاظ على التاج الذي ينافسهم عليه كثير من المطالبين ، يهتمون بتأمين مساعدة أتباعهم المخلصين ويرون أن خير وسيلة للحصول على مساندتهم هي التخلي لهم عن امتيازات السلطة الملكية في الأقاليم التي يحكمونها .

هذا التطور الذي يبدو عاماً في ممالك أوروبا الغربية لم يقف في كل مملكة في المرحلة نفسها ، بل نتج عنه اختلاف وتنوع . وهكذا لم يكن للنظام الاقطاعي (الاميري) سماء واحدة في كل من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنكلترا (١٤) .

النظام الإقطاعي في ألمانيا :

استطاع الامبراطور الألماني أوتون الأول (٩٣٦ ــ ٩٧٣) أن يخضع الموظفين الكبار لسلطته . لقد ظل الأدواق والكونتات والمارغرافات يُعدّون موظفين مقلدين

بالحقوق الملكية وممثلين للسلطة المركزية يقومون بالعدل ويقودون الجيش باسم الملك . وإذا استطاع أوتون الأول أن يتخلص في بعض الحالات من الأدواق أو الكونتات المتمردين ضده ويمنح ألقابهم لأقربائه وأصدقائه ، فقد كان مضطراً في حالات أخرى أن يتكيف مع التقليد ويقبل بانتقال الوظائف الكبرى إلى الأبناء والأحفاد كإرث في بعض الأسر الاقطاعية . وعندما حاول أوتون الكبير أن يقاوم النظام الاقطاعي في ألمانيا كان ذلك النظام قد تأصل فيها متأخراً عن غيرها ، لكنه دفع بجذوره إلى الأعماق ، وسيدوم فيها إلى زمن طويل .

من جهة ثانية حاول أوتون الكبير وأبناؤه وأحفاده تعديل سلطة الأدواق والكونتات بإيجاد إمارات إقطاعية كنسيّة ، فتنازلوا عن الحقوق الملكية لبعض الأساقفة (التي ظلت حتى ذلك الحين مقتصرة على الكونتات) وأعطوهم سلطات الكونت في إدارة مدينتهم أو أبرشيتهم مع الحق بجباية الموارد المتعلقة بها . وهكذا أصبحت الأسقفية في ألمانيا عنصراً من العناصر الرئيسة في النظام الاقطاعي . ولما كان الأساقفة لايتزوجون ولاينجبون فقد حافظ الملوك الألمان على حق تعيين الأسقف الجديد بعد وفاة الأسقف القديم . وعلى هذا كان إعطاء الحقوق الملكية للأساقفة أقل خطراً على السلطة الملكية من إعطائها للأمراء العلمانيين الذين يتزوجون وينجبون ويورثون وظائفهم الكبرى لأولادهم وأحفادهم [١٥] .

النظام الإقطاعي في إيطاليـا :

على الرغم من أن إيطاليا كانت تابعة للأباطرة الألمان منذ سنة ٩٥١ ، فقد حافظ النظام الاقطاعي فيها (خلال النصف الثاني من القرن العاشر) على حيويته ونشاطه . ففي عهد أوتون الأول وخلفائه الأوتونيين ، كما في العهد الفوضوي الذي تلا زوال الامبراطورية الكارولنجية ، بقيت إيطاليا مقسمة إلى عدة إمارات إقطاعية ، وكان الأمراء فيها أشبه بملوك حقيقيين . وقد أصبحت تلك الامارات وراثيـة ، ولم يستطع أوتون الكبير أن يغيّر هذه التعاملات القديمة . كذلك حافظ الأساقفة على استقلالهم وأراضيهم الكبرى وظلوا مرتبطين بالتاج الملكي الذي يحميهم ليكون مطمئناً من مساندتهم [١٦] .

النظام الإقطاعي في فرنسا :

بعد زوال الامبراطورية الكارولنجية أضحت مملكة فرنسا مقسمة إلى اثنتي عشرة أو خمس عشرة إمارة إقطاعية . وكان زعماء تلك الامارات ــ من الأدواق والمراكيز والكونتات ــ يضمون تحت سلطتهم عدة كونتيات كارولنجية قديمة . وكانت تلك الكونتيات دولاً حقيقية مستقلة تحكمها أسر وراثية وتمارس فيها جميع الحقوق الملكية . وقد أضاع الملك فيها سلطة الإشراف ، وقلما نراه يحافظ في بعض الامارات على حق تعيين بعض الأساقفة . ولم يكن في وسع السيادة النظرية للملك أن تطلب من هؤلاء الاقطاعيين الكبار « أتباع الملك » ــ وهم أنسال الموظفين الكارولنجيين القدامى ــ أيّ واجب يقتضيه الاخلاص والأمانة . وهكذا وصل النظام الاقطاعي في فرنسا إلى حد تطوره . وسيمضي زمن طويل قبل أن يصبح الملوك باستطاعتهم أن يستعيدوا الحقوق الملكية التي تخلّوا عنها لصالح كبار الاقطاعيين (١٧) .

النظام الإقطاعي في إنكلترا :

كان النظام الاقطاعي معروفاً في إنكلترا قبل الفتح النورماندي ، ولكنه لم يكن ظاهراً بمثل ماكان عليه في فرنسا أو إيطاليا . فمنذ عصر الانغلو ــ ساكسون تنازل الملوك في بعض الحالات عن أراضٍ إلى بعض الأمراء واحتفظوا بالحقوق الملكية عليها . وفي بداية القرن الحادي عشر لم يقاوم الملوك الدانيماركيون مثل هذه الاجراءات في إنكلترا ، بل سلموا بها ، كما كافأ الملك الدانيماركي كنوت محاربيه المخلصين بإقطاعات من الأراضي . ومع ذلك فإن تلك الاقطاعات لم تكن عامة في إنكلترا كما كانت في فرنسا . فلقد وجدت في إنكلترا طبقة واسعة من الملاكين الأحرار إلى جانب الارستقراطية العسكرية والعقارية .

هكذا كانت الحالة الاقتصادية ــ الاجتماعية في إنكلترا عند مجيء النورمانديين في سنة ١٠٦٦ . ولكن الفاتح النورماندي غليوم (وليام) أدخل إلى إنكلترا نظاماً إقطاعياً جديداً يخدم مصلحة السلطة الملكية . لقد استطاع غليوم

الفاتح أن ينشىء في إنكلترا سلطة ملكية ذات حكم مطلق تعتمد على نظام إقطاعي (أميري) ، لكنه عرف كيف يعدّل النظام الاقطاعي لصالح السلطة الملكية ، فاتخذ من أجل تحقيق ذلك عدداً من القرارات والاجراءات أهمها ما يلي :

١ ــ أعلن غليوم الفاتح أنه وحده المالك لجميع أراضي إنكلترا بحق الفتح .

٢ ــ صادر أملاك الارستقراطيين الأنغلو ساكسونيين الذين قتلوا في معركة هاستنغز وهم يقاومون غليوم الفاتح .

٣ ــ صادر أراضي الذين لم يؤيدوه منذ اليوم الأول للفتح والذين ثاروا ضده، لكنه سمح لهم بافتدائها شريطة أن يصبح أصحابها أتباعاً له .

٤ ــ وزع غليوم الفاتح الأراضي التي صادرها على أتباعه وأبناء وطنه من البارونات النورمانديين توزيعاً حرص فيه على أن تكون أراضي كل بارون أجزاء مبعثرة في مختلف أنحاء إنكلترا، وألاّ تكون لأحدهم قطعة واسعة في منطقة واحدة. وكان هدف غليوم من ذلك التوزيع منع ازدياد نفوذ البارونات وتقليل خطرهم من جهة ، وتسهيل عملية ضربهم في حالة التمرد والعصيان من جهة أخرى .

٥ ــ حرص غليوم الفاتح أن يكون هو أعلى سيد إقطاعي في إنكلترا ، فأصر على أن حقوقه بالسيادة ليست على أتباعه المباشرين من البارونات فحسب ، وإنما على كل رجل كيفما كان وضعه الاقطاعي . ولتحقيق ذلك اشترط على النبلاء وأتباعهم جميعاً أن يحلفوا له يمين الولاء والطاعة والإخلاص والتبعية ، وبذلك أصبحت التزامات التابع لسيده النبيل تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة إلى التزاماته نحو الملك . وعلى هذا فإذا أشهر إقطاعي كبير سلاحه في وجه الملك ، فإنه يُعدّ في نظر أتباعه خائناً لأنه يحنث بيمين الولاء التي أقسمها للملك . والهدف من تلك الاجراءات هو إضعاف نفوذ النبلاء الاقطاعيين ومنع الأتباع من القتال في صفوفهم ضد الملك . وهكذا نرى إن ذلك التحول الاقتصادي ــ الاجتماعي في إنكلترا لم يُضعف السلطة الملكية فيها ، بل خرجت قوية منتصرة . أما في فرنسا (على سبيل المثال) فقد أدى نمو النظام الاقطاعي إلى جعل السلطة الملكية اسمية أكثر مما هي فعلية .

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٦ ـ جعل غليوم الفاتح الإدارة المحلية في المقاطعات الانكليزية منوطة بموظفين حقيقيين يرتبطون مباشرة بالملك ويحترمون سلطته . وقد أطلق على هؤلاء الموظفين لقب « الشرفاء » ، وكان غليوم ينتقيهم من النورمانديين ويعهد إليهم بتفويض حقيقي بسلطته . وهؤلاء الموظفون « الشرفاء » خاضعون للعزل من قبل الملك ، لكنه لم يستطع أن يمنع بعضهم من نقل وظيفتهم إلى ورثتهم ، وهذا الأمر يضعف إشراف سلطة التاج ويشجع النظام الاقطاعي المعاكس لنزعات الحكم الملكي المطلق .

٧ ـ بعد عشرين عاماً من الفتح النورماندي لانكلترا أمر غليوم الفاتح (في سنه ١٠٨٦) بإجراء مسح شامل (كادستر) لأراضي المملكة وإحصاء كامل لسكانها وثرواتها . وقد سجلت المعلومات التي حصل عليها الموظفون الملكيون الذين أنيط بهم هذا العمل في كتاب عرف باسم « الروك النورماندي » أو ما يسمى أحياناً باسم « كتاب الحساب الأخير » Domes Day Book .

ومن دراسة هذا الكتاب يتبين لنا أن المعلومات التي حرص غليوم الفاتح على معرفتها هي :

١ ـ مساحة الأراضي الزراعية ، المروية منها والبعلية ، المستثمرة منها والبور .

٢ ـ عدد الفلاحين العاملين فيها ، الأحرار منهم والأرقاء .

٣ ـ مساحة الغابات والمراعي .

٤ ـ أسماء الملاكين ، الكبار منهم والصغار ، قبل الفتح وبعده .

٥ ـ الأحوال الاجتماعية للسكان ومواردهم .

٦ ـ الاتاوات والضرائب التي يدفعها كل إنسان في المملكة .

تتساءل ما هو هدف غليوم الفاتح من إجراء عملية مسح الأراضي وإحصاء السكان ؟. هل فعل ذلك في سبيل الحصول على الضرائب ، أو أنه أراد أن يتعرف على نتائج التحويل الاقتصادي ـ الاجتماعي الذي بدأ به منذ عشرين عاماً كي

يتممه ؟• من الممكن أن يكون الملك أراد تحقيق الرغبتين معاً • لقد رغب في معرفة واردات مملكته لكي يحدد الضريبة العادلة المتوجبة على كل فرد ، وفي معرفة ما يمكن أن يقدمه كل حائز إقطاعه من الفرسان للجيش الملكي •

ومن مراجعة « كتاب الحساب الأخير » يتبين لنا أنه لم يكن هنالك أي تمييز بين المنتفعين المتصرفين بالأراضي ، إنكليزيين أكانوا أم نورمانديين ، وان الخدمات الاقطاعية كانت نفسها بالنسبة للجميع • أما الأتاوات الاقطاعية فكان بعضها سابقاً للفتح ، وبعضها الآخر أدخل بعد الفتح من نورمانديا • فضريبة الخراج التي فرضت على الأراضي كانت مخصصة في السابق لتدفع إلى الدانيماركيين الذين احتلوا إنكلترا ، وقد ألغاها الملك الانكليزي إدوارد المعرّف ، ثم أعادها غليوم الفاتح • ويضاف إلى الخراج الموارد التي تأتي من العدلية والحقوق الدومنيّة التي كانت من أصل نورماندي • وكان الدومن الملكي يقدم واردات ضخمة لغليوم الفاتح، إذ انه كان أكبر ملاك عقاري ، حيث امتلك ١٤٢٢ مانواراً (مزرعة) • وقد جعل هذا المورد الكبير الملكية الانكليزية أقوى من غيرها •

٨ ـ أمر غليوم الفاتح ببناء قلعة في كل مدينـة ملكية وبشحنها بالجنود المقاتلين ، وعهد إلى الأمير الاقطاعي التابع له الذي تقع أراضيه بالقرب من هذه القلعة بالإشراف عليها • كذلك أمر جميع الأمراء الاقطاعيين والأتباع أن يبنوا القلاع والحصون في الأراضي التي أقطعت لهم وبأن يشحنوها بالمقاتلين • وبفضل هذه الاجراءات الدفاعية غدت إنكلترا في مأمن من الغارات الخارجية والثورات الداخليـة •

٩ ـ عمل غليوم الفاتح على دعم الكنيسة الانكليزيه ، لكنه حرص على أن تكون خاضعة لسلطته • لقد أصدر تشريعاً يقضي بفصل المحاكم الكنسيّة عن المحاكم المدنية ، كما ساند حركة الإصلاح الكنسي التي أخذ يقودها خريجوا الأديرة الكلونية الذين تدفقوا من فرنسا إلى إنكلترا مع الفاتحين النورمانديين • كذلك اهتم بدعم الحركة الديرية ونتج عن جهوده قيام حركة ديرية نقية تميزت بمستوى عالٍ من العلم والأخلاق والانضباط •

لكن غليوم الفاتح حافظ على امتيازاته المَلكية تجاه الكنيسة • لقد عزل معظم الأساقفة الانكليز وأقام في مناصبهم أساقفة نورمانديين • ولم يكتفِ بتسمية الأساقفة ودعوة المجامع الدينية والمصادقة على قراراتها ، بل ألزم رجال الدين بالخدمة الاقطاعية والتبعية له • كذلك أعلن أن الحرمان الكنسي الذي يُحكم به على بارون لا يكون له مفعول إلا بعد أن ينال موافقته • وهكذا لم تنجُ الكنيسة الانكليزية المتصلحة من الحكم الملكي المطلق •

ووجدت بعض الغيوم في علاقات غليوم مع بابا روما • لقد كان غليوم الفاتح شديد الغيرة على سلطته المطلقة ، كما أراد الحفاظ على استقلال الكنيسة الانكليزية ـ النورماندية حيال الكرسي البابوي ، ولذا اصطدم بالنزعة المركزية لحكومة البابا غريغوري السابع • وقد منع غليوم الفاتح رجال الدين في مملكته من الاعتراف بالبابا ما لم يعترف به هو مقدماً • كذلك أمر ألاّ يُذاع أو ينفّذ أي قرار بابوي في إنكلترا بغير موافقته • ومنع أيضاً دخول مندوبي البابا إلى مملكته إلا بإذن خاص منه • وعلى الرغم من المساعدة التي قدمتها البابوية لغليوم الفاتح في أثناء فتحه إنكلترا ، رفض أن يقسم يمين التبعية للبابا غريغوري السابع وأن يحكم إنكلترا كإقطاع بابوي [١٨] •

مراسم أو طقوس تسلّم الإقطاع وإلغائه :

كان تسلّم أرض الاقطاع يتمّ في احتفال له مراسم أو طقوس خاصة • وجرت العادة أن يقام الاحتفال في مقر السيد أو عند حدود الأرض التي سيسلمها للتابع • في ذلك الاحتفال يمثل التابع (الفصل) أمام سيده حاسر الرأس مجرداً من سيفه راكعاً على ركبتيه ، ثم يضع يديه بين يدي السيد ويقسم بالإنجيل (أو بالمخلفات الدينية المقدسة) بصوت مرتفع بأنه أصبح تابعاً (فصلاً Vassal) موالياً لسيده مخلصاً وأميناً ومستعداً لتنفيذ جميع التزامات التابع للسيد •

أما السيد الاقطاعي فيعلن بعدئذ موافقته على ما أعلنه التابع من ولاء وإخلاص، ثم يأخذ بيد التابع وينهضه عن الأرض ويقبله على جبينه قبلة العهد كرمز للوفاء

المبادل • وبعدها يناول السيد التابع حفنة من تراب الأرض ترمز إلى أنه قد سلمه أرض الاقطاع فعلاً • كذلك يسلم السيد التابع علماً وعكازاً (كرمز للسلطة على الأرض) وبراءة كتبت فيها أوصاف الأرض الممنوحة ومساحتها • وتسمى هذه العملية باسم التقليد Investiture • واختلفت مراسم تسلم الاقطاع من منطقة إلى أخرى ، كما اختلفت صيغ اليمين وأشكال التقليد باختلاف درجات الاتباع في السلم الاقطاعي •

وكانت مراسم تسلم الاقطاع تعاد من جديد في حالة وفاة السيد أو التابع ، لأنها كانت تعبر عن علاقة بين طرفين على قيد الحياة ، كما أنها لا يمكن أن تتم بالنيابة أو بالوكالة • فالوفاة تنهي عقد التبعية وما يتعلق به من منح الاقطاع • غير أن للتابع الحق في أن يلجأ إلى وريث السيد ، فيحصل منه مرة أخرى على الاقطاع الذي سبق أن حازه • وفي حال وفاة التابع قبل السيد يحق لابنه البكر أن يطلب حيازة إقطاع أبيه ، وعليه أن يقسم يمين الإخلاص والتبعية للسيد من جديد •

والهدف من حلف يمين الاخلاص على الإنجيل هو صبغ الرابطة بين السيد والتابع بصفة مقدسة في عصر اشتد فيه الإيمان • ولابد أن الكنيسة قد أسهمت في وضع الصياغات الجديدة ليمين الإخلاص والتبعية ، مع أن جذور هذا اليمين تعود إلى أصول جرمانية ورومانية وثنية •

وكان إلغاء عقد التبعية يتم أيضاً وفق مراسم أو طقوس خاصة • فقد جرت العادة أن يتم فسخ العقد الاقطاعي من جانب السيد أو التابع في حضور الطرفين أمام حشد من الشهود ، حيث يقف الطرف المتظلم ليلقي بخصلة من شعره أو بخيوط من ردائه على الأرض ، كعلامة على بطلان العلاقة التبعية • فإذا ثبت أن الخطأ وارد من جانب التابع وهو الذي أخلّ بالتزاماته ، تصادر أرض الاقطاع وتعاد إلى السيد • أما إذا ثبت أن الخطأ وارد من جانب السيد ، فإن للتابع الحق في أن يحتفظ بالأرض وينقل ولاءه والتزاماته الاقطاعية إلى سيد السيد [١٩] •

توريث الإقطاع :

على الرغم من أن الاقطاعات الأرضية صارت وراثية ، فإن التبعية التي هي علاقة شخصية خالصة لا تجري وراثتها ، وإنما يُلغى عقد التبعية في حال وفاة السيد أو التابع . وعلى هذا فإن إقطاع التابع المتوفى لا ينتقل إلى وريثه قانونياً ، إلا إذا أقسم يمين الإخلاص والتبعية للسيد وصار تابعاً له .

بعد أن كان الاقطاع في أول الأمر منحة مؤقتة مرهونة بمدى الحياة ، تحوّل إلى منحة وراثية بنتيجة تعذّر منع ابن التابع من وضع يده على إقطاع أبيه بعد وفاته . ونصّ القانون الاقطاعي ــ بخلاف القوانين الرومانية والجرمانية ــ على انتقال الاقطاع كاملاً في حال وفاة صاحبه إلى أكبر أبنائه ، ذلك أن الاقطاع المرتبط بتأدية الخدمة العسكرية الحربية يُعدّ وظيفة ، والوظيفة لا تقسّم ولا تورّث إلا إذا التزم الوريث بتأدية الخدمات الحربية التي كان والده يقوم بتأديتها . ومن الواضح أن ما يورّث في هذه الحال ليس أرض الاقطاع وإنما حق الحصول على الأرض والانتفاع بها تحت شروط معينة . فالابن الأكبر أو الوريث ليس له حق شرعي في الحصول على إقطاع أبيه ، إلا إذا أقسم يمين الاخلاص والتبعية للسيد والتزم بتأدية الخدمات والواجبات الاقطاعية المفروضة على هذا الأقطاع .

وإذا مات التابع وترك ابناً صغيراً لا يستطيع القيام بمهمات الاقطاع والتزاماته الحربية ، أو ترك ابنة لم تتزوج بعد ، فمن حق السيد أن يعين أحد أقارب التابع المتوفى ليقوم بمهمة الوصاية وينهض بمسؤوليات الاقطاع . وقد جرت العادة أن يفضّل خال الوريث على عمه ، لأن الخال ليس له حق وراثة الاقطاع ، بعكس العم الذي ربما حاول التخلص من الورثة لتنتقل إليه حقوقهم في الاقطاع . وفي كثير من الأحيان كان السيد نفسه يتولى الوصاية على الوريث حتى بلوغه سن الرشد ، أو على الوريثة إلى أن يجد لها زوجاً مناسباً يستطيع أن يقوم بالالتزامات المفروضة على الاقطاع . أما إذا مات التابع دون أن يترك وريثاً يخلفه ، فإن إقطاعه يعود إلى سيده الاقطاعي عن طريق الاستيراث (٢٠) .

ـ مشكلة تعدد السادة للتابع الواحد :

جرت العادة في أوائل العصر الاقطاعي أن يكون للتابع سيد واحد . ولكن هذا الوضع لم يستمر طويلاً ، بل مع الزمن صار للتابع الواحد سادة عديدون بنتيجة عدة تعاملات منها ما يلي :

١ ـ كان زواج رجل من امرأة ورثت إقطاعاً يؤدي إلى انتقال حيازة إقطاعها إلى زوجها ، فيصبح الزوج في هذه الحال تابعاً للسيد الذي تتبعه أرض الزوجة ، بالإضافة إلى تبعيته لسيده الأول .

٢ ـ إذا دخل ابن أحد الأتباع في تبعية سيد إقطاعي غير الذي يتبعه أبوه ، ثم مات الأب وورث الابن إقطاعه ، فإنه يصبح تابعاً لسيدين في وقت واحد : سيده الأول ، وسيد والده المتوفى .

٣ ـ لجأ بعض السادة الاقطاعيين إلى شراء صداقة بعض جيرانهم الذين يحوزون إقطاعات ، وذلك بمنحهم إقطاعات جديدة من أملاكهم ، فيصبح المُقْطَع في هذه الحال تابعاً لسيد جديد ، بالإضافة إلى سيده الأول .

٤ ـ رغب بعض الأتباع بزيادة ثروتهم ، فسعوا للحصول على إقطاعات عديدة وصاروا أتباعاً لسادة عديدين .

وتعددَ سادةُ التابع تدريجاً ، حتى إذا وصلنا إلى القرن الثالث عشر نسمع عن أتباع يخدمون عشرين من السادة . غير أن تعدد السادة لتابع واحد خلق تعقيداً في العلاقات الاقطاعية وأدى إلى كثير من الفوضى في أوروبا الغربية . ففي حال قيام حرب بين سيدين لتابع واحد ، فمع أيهما يجب أن يحارب التابع ؟. وتدخل رجال القانون وحاولوا الاجتهاد لحل هذه المعضلة ، فوضعوا عدة حلول منها ما يلي:

١ ـ قال بعضهم : إن التابع ملزم أن يحارب فى صف سيده الذى أقطعه أرضاً في تاريخ أسبق .

٢ ـ وقال بعضهم الآخر : إن التابع ملزم أن يحارب في صف سيده الذي أقطعه إقطاعاً أكبر ، بغض النظر عن تاريخ هذا الاقطاع .

٣ ــ وقال آخرون : إن التابع ملزم أن يحارب في صف سيده الذي يدافع عن نفسه وأرضه، وأن يتخلّى عن سيده الثاني الذي يقوم بحرب عدوانية توسعية.

٤ ــ وأخيراً اتفق رجال القانون الاقطاعي على أنه يحق للتابع أن يحارب في صف سيد واحد ، على أن يبعث للسيد الآخر معونة مالية أو بعض الفرسان على نفقته الخاصة . وهذا يعني أن التابع لا يقدم ولاءه الشخصي إلا لسيد واحد يخصه بكل خدماته الشخصية، في حين يكتفي بتقديم الالتزامات المادية ــ غير الشخصية ــ لسادته الآخرين إن وجدوا .

٥ ــ غير أن الواقع العملي يؤكد أن التابع وحده هو الذي كان يحدد مع مَنْ يحارب من السادة ، وفقاً لمصلحته هو قبل كل شيء ، بغض النظر عن العرف وأحكام القانونيين واجتهادات رجال الدين [٢١] .

ــ الحقوق والواجبات الإقطاعيه :

قام النظام الاقطاعي على اساس العلاقة الشخصية التي ارتبطت بحيازة الارض. وكان التابع المتمتع بحيازة الارض يتعهد بالتزامات معينة لسيده الاقطاعي ، مقابل تعهد السيد بالتزامات أخرى لتابعه . وبعبارة أخرى فإن كلاً من الطرفين كانت له حقوق وعليه واجبات نحو الطرف الآخر .

ــ واجبات التابع نحو السيد :

تنوعت واجبات التابع نحو سيده ، فمنها واجبات عسكرية حربية ، ومنها واجبات مالية ، ومنها واجبات اجتماعية ، ومنها واجبات اخلاقية .

آ ــ الواجبات العسكرية الحربية :

كان التعاون في ميدان الحروب المحور الأساسي للعلاقات الاقطاعية بين السيد وأتباعه ، إذ يتعهد الأمير الاقطاعي بالحضور على رأس عدد معين من الفرسان

لمساندة الملك متى طلب منه ذلك ، كما يتعهد أتباع ذلك الأمير الاقطاعي بالقتال إلى جانبه في أي حرب مع عدوٍّ له . وهكذا صار كل عضو في المجتمع الاقطاعي يقدّم الخدمة العسكرية لسيده المباشر Servitium militis

في أول الأمر لم يكن هنالك تحديد لمدة الخدمة العسكرية التي يؤديها التابع لسيده . ولكن منذ القرن الحادي عشر أخذ الأتباع يميزون بين أنواع مختلفة من الخدمة العسكرية ويحددون التزاماتهم فيها . فإذا اعتدى عدوّ على أملاك السيد كان لزاماً على أتباعه أن يقاتلوا معه إلى أن يردّوا ذلك العدو مهما طال أمد الحرب ، لأنها حرب دفاعية . أما إذا قام السيد الاقطاعي بحرب هجومية توسعية معتدياً على أملاك جيرانه ، فقد تحددت التزامات أتباعه بالخدمة العسكرية لمدة أربعين يوماً في السنة على نفقتهم الخاصة ، وفيما زاد على هذه المدة تكون خدماتهم على نفقة السيد .

وكانت للخدمة العسكرية صور عديدة نذكر منها ما يلي :

١ ــ أن ينهض التابع على رأس فرسانه لتأدية الخدمة لسيده. أما عدد الفرسان فكان يحدد وفقاً لمساحة الاقطاع وقيمته .

٢ ــ أن يبعث التابع للسيد بعدد من فرسانه دون أن يكون على رأسهم .

٣ ــ في بعض الحالات استعاض التابع عن الخدمة العسكرية بدفع بدل نقدي للسيد . وهذا البدل النقدي هيأ للملوك ، وبخاصة في إنكلترا ، أن يستأجروا عساكر أطوع لهم وأكثر إخلاصاً من العساكر الاقطاعية .

في القرن الثالث عشر رسخت بعض القوانين الخاصة بالخدمة العسكرية ومنها:

١ ــ تكون مدة الخدمة العسكرية التي يقوم بها التابع إلى جانب سيده المباشر دفاعاً عن الملك أقصر من مدة الخدمة التي يؤديها التابع في حروب سيده الخاصة .

٢ ــ لا يحق للسيد إجبار التابع على مصاحبته ضد إرادته للحرب خارج حدود المملكة .

٣ ــ لا يحق للسيد إلزام الاتباع الذين دون الخامسة عشرة أو تجاوزوا الستين من أعمارهم بتأدية الخدمة العسكرية .

٤ ــ النساء معفيات من الخدمة العسكرية ، لكنهن إذا حصلن على إقطاعات وصرن أتباعاً كان ينبغي عليهن إمداد السيد بفرسان يقومون بالخدمة العسكرية نيابة عنهن .

وارتبطت بالخدمة العسكرية التي يؤديها التابع لسيده حراسة قلعة السيد أو حصنه . قَبْلَ القرن العاشر لم توجد حصون إقطاعية في أوروبا الغربية . ولكن في القرن الحادي عشر صارت لكل أمير إقطاعي قلعة يأوي إليها أتباعه وذووهم في وقت الخطر . وكان هؤلاء الأتباع يتناوبون الحراسة على مدار السنة . أما المدة التي فرض على الأتباع قضاؤها في حراسة قلعة سيدهم فقد تراوحت بين ثلاثين وأربعين يوماً في السنة . وإذا لجأ بعض السادة إلى استخدام حراس مأجورين لحراسة قلعتهم ، توجب على الأتباع دفع أجرة هؤلاء الحراس ، لأن حراسة القلعة تعدّ من واجباتهم العسكرية الأساسية .

ب ــ الواجبات المالية :

في أول الأمر كانت المساعدات المادية التي يقدمها الأتباع لأسيادهم طوعية وتقدم في صورة هدايا . وعندما اكتمل النظام الاقطاعي أضحت تلك المساعدات إلزامية وتقدم في مناسبات معينة . وأهم تلك الالتزامات المالية هي :

١ ــ الحلوان :

وهو ضريبة مالية تدفع إلى السيد كلما استلم الاقطاعَ وريث جديد من أبناء التابع وأحفاده . والحلوان أشبه بضريبة الميراث أوالتركات التي تأخذها

الدولة في عصرنا الحاضر عند نقل الملكية إلى الورثة • وكانت تلك الضريبة تساوي دخل الاقطاع في عام كامل •

٢ ـ المعونـة (أوكسيليوم) :

وهي ضريبة يدفعها التابع لسيده في مناسبات خاصة منها :

آ ـ جمع الفدية لإطلاق سراح السيد إذا وقع في الأسر •

ب ـ تكريس ابن السيد الأكبر فارساً •

جـ ـ الاحتفال بزواج ابنة السيد الكبرى •

د ـ المشاركة في حملة صليبية •

هـ ـ القيام ببناء حصن جديد •

و ـ ما شابه ذلك من مناسبات ••

٣ ـ الضيافـة :

وهي أن يستقبل التابع سيده ويطعمه مع حاشيته عندما يقوم بزيارته • لم تكن هذه الضريبة محددة في أول الأمر • ولكن عندما أضحت مكلفة ومرهقة للتابع تمّ تحديد عدد الزيارات السنوية التي يقوم بها السيد للتابع ، والمدة التي سيقضيها في ضيافته ، وعدد المرافقين له في الزيارة ، وألوان الطعام التي على التابع أن يقدمها للضيوف •

جـ ـ الواجبـات الاجتماعيـة :

كانت واجبات التابع الاجتماعية نحو سيده كثيرة ومتنوعة منها ما يلي :

١ ـ التزام التابع بالحضور على نفقته الخاصة إلى مقر السيد الاقطاعي عندما يطلب منه ذلك •

٢ ـ تقديم النصيحة والمشورة (كونسيليوم) الصادقة إلى سيده إذا طلب منه ذلك • وكان السيد الاقطاعي يجمع أتباعه في مجلس أطلقت عليه لفظة « كونسيليوم » ليستشيرهم في اختيار زوجة لنفسه أو لابنه أو زوج لابنته ، أو قبل الإقدام على حرب داخلية أو خارجية ، أو عقد معاهدة •

٣ ـ المشاركة في الاحتفال بزواج ابن السيد وابنته ، أو بتكريس ابن السيد فارساً (تقليده السلاح ورتبة الفروسية) ، أو استقبال السيد لضيف كبير •

٤ ـ حضور محكمة السيد عند الضرورة •

د ـ الواجبات الأخلاقية :

يشير فولبرت أسقف شارتر Fulbert of Charters في الرسالة التي وجهها في سنة ١٠٢٠ إلى وليم الخامس دوق آكيتانيا إلى الالتزامات الأخلاقية الناجمة عن عقد التبعية بين التابع والسيد ، إذ ورد في تلك الرسالة ما يلي :

« إن كل من يحلف يمين الاخلاص لسيده ينبغي ان يذكر دائماً هذه العبارات ويعيها : ان يكونَ عاقلاً ، ثقةً ، اميناً ، تقياً صالحاً ، لينَ الجانبِ سهلاً » •

١ ـ التعقل يمنع التابع من أن ينزل الأذى بسيده •

٢ ـ الثقة تحول دون التابع أن يفشي أسرار سيده أو يسلّم قلاعه •

٣ ـ الأمانة تتمثل في ألاّ ينتهك التابع حقوق سيده •

٤ ـ التقوى تمنع التابع من أن يرتكب أخطاء تضر بممتلكات سيده وتجعله يحافظ على شرف أسرته وسمعتها الطيبة •

٥ ـ السهولة تمنع التابع أن يعقّد أمور سيده وتدفعه أن يساعده على تحقيق ما يريد أن يفعله •

٦ ـ بالإضافة إلى ذلك توجب على التابع أن يؤدي الطاعة والاحترام لسيده• ومن مظاهر ذلك الاحترام أن يمسك التابع بزمام الفرس حين ينهض السيد لركوبها ، وأن يصحب سيده في المواكب ، وأن يؤدي بعض الخدمات الشرفية الأخرى •

واجبات السيد نحو تابعه :

في أول الأمر لم يكن السيد ملزماً بإعطاء تعهّد مكتوب يحدد التزاماته نحو أتباعه ، وإنما اكتفى بإعطاء كلمة الشرف أمام بعض الشهود بحماية أتباعه وإعالتهم . وعندما اكتمل النظام الاقطاعي وضعت مواثيق محددة تبين واجبات وحقوق الطرفين. ومن أهم واجبات السيد نحو أتباعه ما يلي :

١ ـ يتكفل السيد بحماية التابع والدفاع عنه إذا تعرض لاعتداء . ويكون الدفاع إما باستخدام السلاح لدحر المعتدي ، أو بالدعم المادي والمعنوي في المقاضاة أمام المحاكم .

٢ ـ إسداء النصائح للتابع في أموره الخاصة والعامة .

٣ ـ تحقيق العدالة بين الأتباع .

٤ ـ المحافظة على حياة التابع وإنصافه من أي ظلم يقع عليه .

٥ ـ المحافظة على شرف أسرة التابع في حياته وبعد مماته .

٦ ـ إظهار المودة والعطف نحو التابع .

٧ ـ ضمان حيازة التابع للاقطاع ما لم يخلّ التابع بالتزاماته .

٨ ـ السماح للتابع أن يتظلم أمام محكمة سيد السيد ، إذا وجد التابع أن سيده يسيء إليه ويظلمه .

٩ ـ يتولى السيد الإنفاق على التابع من دخل إقطاعه الذي بحوزته .

١٠ـ أجازت القوانين الاقطاعية للتابع فسخ العلاقة الاقطاعية والتحلل من تبعيته للسيد ، إذا ثبت في المحاكم أن السيد لا يقوم بمسؤولياته الأساسية تجاه التابع (٢٢) .

المجتمع الأوروبي في ظل النظام الاقطاعي

ـ طبقـات المجتمـع :

انقسم المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى إلى ثلاث طبقات : ١ ـ طبقة رجال الدين ، ٢ ـ طبقة النبلاء والفرسان والمحاربين ، ٣ ـ طبقة الفلاحين .

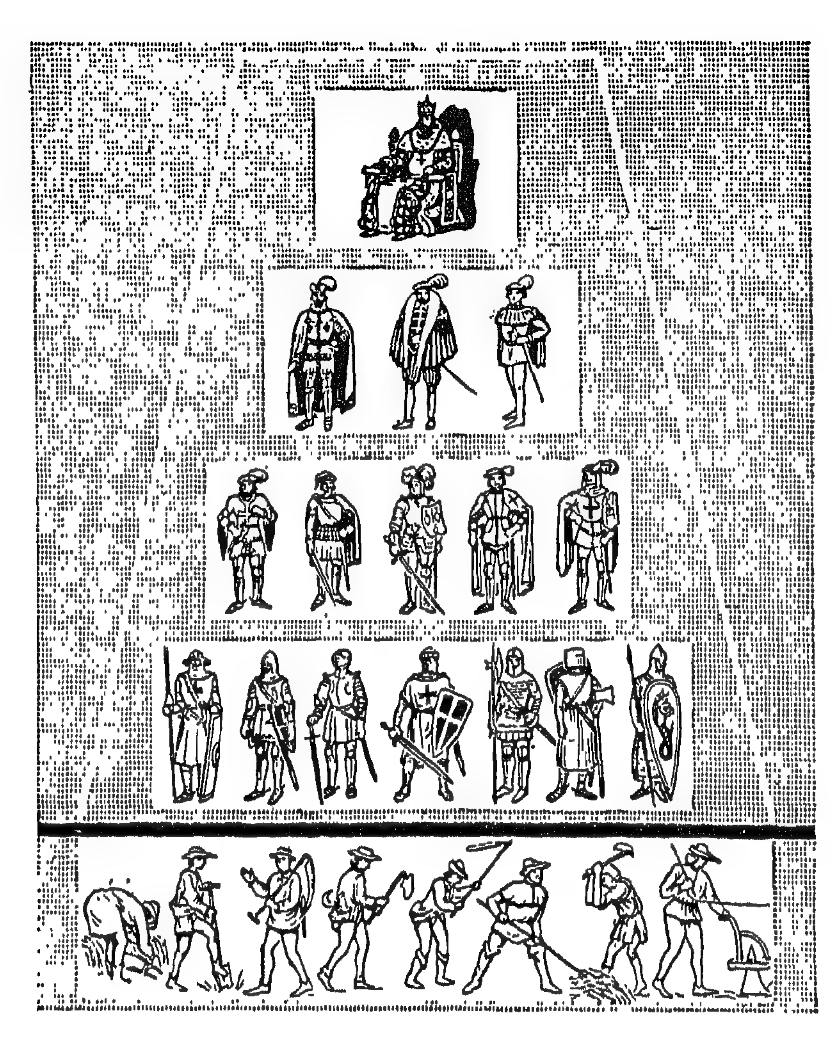
وكانت الطبقتان الأولى والثانية تمثلان الهيئـة الحاكمة من وجهـة النظر السياسية ، والارستقراطية السائدة من وجهة النظر الاجتماعية ، والفئة الغنية من وجهة النظر الاقتصادية . وكانت لكل طبقة من هذه الطبقات وظيفتها المعروفة في المجتمع . فرجال الدين كان عليهم أن يتعبّدوا ويشبعوا حاجة الناس الروحية . والنبلاء والفرسان كان عليهم أن يحكموا ويحاربوا . أما الفلاحون فكان عليهم أن يعملوا في الأرض ليؤمنوا الحاجات المادية للطبقتين السابقتين (٢٣) .

١ ـ طبقـة رجـال الدين :

تكونت طبقة رجال الدين من فئتين :

آ ـ الفئـة الأولى :

وهي التي تضم رجال الدين العصريين أو الدنيويين ، وهم الذين يعيشون في القرى والمدن بين المؤمنين ، ويقومون بالصلوات والواجبات الدينية الأخرى في الكنائس . ويأتي على رأس هذه الفئة البابا ، ثم يليه الكرادلة والأساقفة ، وفي أسفل درجات السلم الكهنوتي يقف القسيس (الخوري) الذي يخدم في كنيسة القريـة .



الشكل رقم (٢) السلّم الاقطـاعي

ب ـ الفئـة الثانية :

وهي التي تضم رجال الدين النظاميين (الديريين أو الرهبان) الذين يتبعون نظاماً معيّناً في الصلاة والعمل ويعيشون في الأديرة . ويرأس الرهبان الديريين في كل دير مقدمُ الدير أو رئيسه .

حصلت الكنائس والأديرة على إقطاعات كبيرة جعلت من رجال الدين طبقة ثرية ذات امتيازات كثيرة . وسنتحدث فيما بعد بالتفصيل عن طبقة رجال الدين وأملاكها وامتيازاتها ، لذا نكتفي هنا بهذه العجالة .

٢ ـ طبقــة النبــلاء والفرســان :

كانت طبقة النبلاء والفرسان عبارة عن سلّم اجتماعي مؤلف من السادة والأتباع . فالسيد الذي حاز إقطاعاً من الأرض يكون تابعاً لمالك كبير ، وهــذا المالك الكبير يكون تابعاً لمالك أكبر ربما كان كونتاً . وقد يكون الكونت تابعاً لمالك أكبر ربما كان دوقاً . والدوق ربما كان تابعاً للملك الذي كان أكبر الملاّك في الدولــة .

وهكذا يمكن تشبيه طبقة النبلاء والفرسان بهرم يقف الملك في قمته ، في حين يقف الفارس المحارب في قاعدته . وبين القمة والقاعدة تتابع سلسلة من السادة والأتبــاع .

وقد تحدثنا فيما سبق عن الأعراف والقوانين الاقطاعية التي حددت العلاقات والواجبات المتبادلة بين السادة وأتباعهم . وفيما يلي نتحدث عن حياة الفرسان ونظام الفروسية .

ب ـ الفرسان ونظام الفروسية

ـ تعريف الفروسية :

الفارس ، في التعريف ، رجل يقوم بالخدمة العسكرية على الفرس • وهو يأتي في أدنى درجات التسلسل الاقطاعي ، ويتبع سيداً يرتبط به بيمين الولاء وبمختلف التزامات التبعية • ويرتبط نظام الفروسية ارتباطاً وثيقاً بالنظام الاقطاعي ، بل إن المجتمع الاقطاعي هو الأم الولود للفروسية ، ذلك إنّ أبناء النبلاء كانوا أمام اختيارين لا ثالث لهما : إمّا أن يدخلوا في سلك رجال الدين العصريين أو الديريين ، وأمّا أن يُصبحوا فرساناً محاربين • وقد شكّل هؤلاء الفرسان طبقة اجتماعية لها خصائصها وتقاليدها وقوانينها المحددة • وفي بداية تشكل النظام الاقطاعي كان الأقنان ينخرطون أحياناً في سلك الفروسية بشرط إثبات جدارتهم الشخصية المناسبة • ولكن القوانين الاقطاعية اللاحقة منعت رسمياً قبول الأقنان كفرسان • أما أبناء الأمراء فقد ظلوا يطالبون بتقليد رتبة الفروسية ، بحكم مولدهم ، حتى نهاية العصور الوسطى •

ـ الجذور التاريخية لنظام الفروسية :

إن نظام الفروسية ، الذي نشأ وترعرع في اوروبا الغربية في ظل النظام الاقطاعي، كانت له جذور تاريخية اتصلت بتقاليد الشعوب البربرية الجرمانية من جهة ، وبتقاليد العرب المسلمين في إسبانيا من جهة ثانية •

كتب المؤرخ الروماني تاكيتوس Tacitus (٥٥ ـ ١٢٠ م) في كتاب عن الجرمان وأصول معيشتهم وعاداتهم وتقاليدهم ونظمهم تحت اسم :

De Origine, Situ, Moribus at Populis Germaniae



الشكل رقم (٣) فارس مدرّع

يصف فيه الشعوب الجرمانية بأنها تقوم بأعمالها المهمة كافةً وهي تحت السلاح . فعندما ينعقد مجلس القبيلة أي « محكمة الشعب » كان الأعضاء يُعربون عن موافقتهم بقرقعة أسلحتهم ، وعن عدم موافقتهم بدمدمة مكتومة . وكان الصبيُّ إذا بلغ السن التي تؤهله لخوض غمار الحرب قُلِّدَ الأسلحة التي كانت في انتظاره في حفل رسمي عام . ويقول تاكيتوس إنه من هذه السن فصاعداً « ينسلخ الصبيُّ عن أسرته التي لم يعد مِلْكاً لها ، بل ملكاً للدولة . ويقابل هذا الاحتفال بتقليد السلاح Arma Sumere عند الجرمان ، الاحتفال ببلوغ سن الرشد Toga Virilis عندنا » . وكان الشبان الطموحون يميلون أيضاً إلى الالتحاق بمحارب عظيم ، يأكلون على مائدته ويشاركونه في معاركه . وكانوا يعدُّون أنفسهم ، إذا فروا أحياءً من ميدان حرب سقط فيه سيدهم ، أنه قد لحقَ بهم الخزي والعار إلى الأبد .

ويقول المؤرخ البريطاني جورج جوردون كولتون (في كتابه : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، تعريب جوزيف نسيم يوسف ، ص ١٣٤ ـ ١٣٥) ما يلي :

« وقد عزز هذه الأفكار عن الفروسية التشبه بالعرب في إسبانيا الذين اعتنقوا المثل الأعلى نفسه . وبقدر ما امكن معرفته ، كان العرب متفوقين عليهم بلا شك ، وكانت حضارتهم ارقى من حضارة الشعراء المتجولين في جنوب فرنسا . وبدافع من زهو النسب والشجاعة ، وبدافع من موسيقى الحب والحرب ، بل وبدافع من حسن الاحتفاء بالسيدات ـ بدافع من كل هذا وذاك يبدو أن هؤلاء المغاربة (العرب المسلمين) قد أعطوا المجتمع الاسباني أو البروفنسالي اكثر مما اخذوا منه » .

ـ مراحل إعداد الفارس :

كان إعداد أحد أبناء النبلاء ليصبح فارساً يجري على ثلاث مراحل وينال في كل مرحلة لقباً معيّناً :

آ ـ المرحـلة الأولى :

في هذه المرحلة يتم إبعادُ الصبيّ عن بيته وأسرته وهو في السابعة من عمره ، كيلا يفسده عطف والديه . ويُرسلُ الصبيُّ إلى بلاط سيّدٍ إقطاعي صديق لوالده . وإذا كان الصبيُّ ابنَ أحد كبار السادة النبلاء يُرسلُ إلى بلاط الملك ، والهدف من إرسال الصبي إلى هذا البلاط أو ذاك هو أن يكتسب خبرة الحياة الارستقراطية ويتعلم آداب السلوك في مجتمع النبلاء . وكان هذا الصبي يعيش في قصر السيد كوصيف خاص يُسهم في إعداد المائدة ويقف وراء كرسي السيد في أوقات الطعام ، كما يعمل كمراسل بين سيدات البلاط وكمساعد للفرسان على تطهيم خيولهم وإعدادها . وينال الصبيّ في هذه المرحلة التدريبية الأولى لقب « الوصيف » .

ب ـ المرحلة الثانية :

تمتد هذه المرحلة ما بين السنة الخامسة عشرة والعشرين من عمر الصبي ، وفيها يرافق الصبي أحد الفرسان في حله وترحاله ، فيسهر على خدمته ويهتم بأسلحته وحصانه ، وبذا يتدرب على ركوب الخيل واستخدام السلاح . ويرتقي الصبيُّ في هذه المرحلة إلى مرتبة « مساعدفارس » ، كما ينال لقب « حامل الترس ».

ج ـ المرحلة الثالثة :

في هذه المرحلة يُجهَّزُ مساعدُ الفارس بسيف ورمح ويتدرب مع أنداده من الشبان على القتال واستخدام السلاح بالرمي على الشواخص والدُّمى ، كما يشترك مع الفرسان في خوض بعض المعارك ، فإذا أثبت كفايته وصلاحيته يتقرَّرُ تنصيبُهُ فارساً ، ويكون ذلك عادةً في السنة العشرين أو الحادية والعشرين من عمر الشاب .

يتم منحُ مرتبة الفروسية في حفل له طقوس خاصة ويدعى « حفل تقليد السلاح » .

في هذا الحفل يركع الشاب أمام سيد أو فارس مجرَّب ، فيسأله السيد قائلاً : إذا كنت تبغي المال والراحة والشرف دون أن تقوم بما يشرِّف الفروسية ، فأنت غيرُ خليقٍ بها . ويجب على الشاب أن يرد على السيد مؤكداً له استعداده للقيام بما يفرضه عليه نظام الفروسية من واجبات . وبعدها يتلقى الشاب ضربة خفيفة رمزية على كتفه بصفحة سيف السيد ، ثُم يتناول منه سلاحه الكامل ، وبذا يُصبح فارساً كاملاً .

سعت الكنيسة إلى احتضان الفروسية بحكم مطالبتها ببسط حمايتها على وجوه النشاط الإنساني كافة .

وعلى هذا شجع رجال الدين استخدام الطقوس الدينية في تكريس (تنصيب) الشاب فارساً ، وأقاموا لهذا الغرض شعائرَ وطقوساً خاصة . ومن تلك الطقوس

قيام الفارس في ليلة العيد بصلاة خاصة أمام الهيكل ، ثم التطهر بالاغتسال بالماء المقدس في صباح يوم العيد . وهكذا أصبح حفل تقليد رتبة الفروسية بمثابة « تعميد » آخر للفارس (بعد تعميد الكنيسة له عندما كان طفلاً صغيراً) .

ـ واجبات الفارس الأخلاقية :

كان على الفارس أن يتمتع بمزايا اخلاقية متميزة . فالفروسية الاقطاعية (القائمة على تبعية الفارس للسيد) طالبت الفارس ان يكون مخلصاً لسيده يقاتل في سبيله بشجاعة وإقدام .

فالرجل الذي جعل القتال مهنته الأولى لابد أن يكون شجاعاً شديدَ البأس في المعركة . وكذا القائد البارع يجب أن يتصف بالرزانة والحكمة والتعقل إلى جانب الشجاعة ، ولكي تكونَ الحربُ أكثر قبولاً عند المشتركين فيها نشأت لديهم الفكرة بأنه لا يجوز مهاجمة فارس غير مسلح ، بل ينبغي أن يُتاحَ له الوقتُ الكافي لارتداء درعه وتجهيز نفسه للقتال . ونشأ أيضاً العُرفُ الذي يَعُدُّ الفارس الأسيرَ ضيفاً ، ويسمح بقبول ابنه رهينة إلى أن يقوم الأسير بجمع فديته . وفي القرن الثالث عشر جرت العادة بإطلاق سراح الفارس لجمع الفدية ، على أن يَعِدَ بالعودة للأسر إذا لم يوفق في جمع الفدية . واعتمد الشعراء والمنشدون ورواة القصص ، الذين يطوفون على قلاع الفرسان وحصونهم ومنازلهم ، في حياتهم على سخاء هؤلاء السادة وجودهم ، لذا صار الكرم في قصصهم وأناشيدهم الفضيلة الأساسية عند الفرسان .

اما الفروسية الدينية فإنها تمثل مفهوم الكنيسة عن الفارس المثالي .

لقد طالبت الفارس بأن يكون مسيحياً تقياً ، غرضه الأساسي أن يحمي الكنيسة ويدافع عن عقيدتها . كذلك طالبته بأن يبتعد عن ارتكاب الجرائم بمختلف أنواعها ، وبأن يرعى الضعفاء والعجزة ويحميهم .

واما فروسية الغزل والعشق فقد طالبت الفارس باحترام المرأة وحمايتها .

ففي النصف الثاني من القرن الحادي عشر ظهر في جنوب فرنسا شعراء اتخذوا اسم « التروبادور » وأخذوا يمجّدون في قصائدهم الغزلية السيدات ويصفون ما يترتب على التشبب بهن من الفوائد • وصار الفارس المتيّم بسيدة لا يفكر في شيء سوى العمل على إرضائها وجلب السرور لها • ولم يمجّد شعراء التروبادور المرأة فحسب ، بل جعلوها في مرتبة أعلى من مرتبة الفارس المحب المتواضع •

ـ عيوب الفروسية والفرسان :

آ ـ لم يمارس الفرسان تطبيق فضائل أخلاق الفروسية إلاّ فيما بينهم • أما الطبقات الدنيا في المجتمع كطبقة الأقنان أو العبيد فقد عاملوها باحتقار وازدراء ، فلم يتوانَ الفارس أحياناً عن رمي خادمه بالحربة إذا تأخر عن تقديم الشراب له ، أو لم يتردد في استخدام القسوة في تأديب زوجته •

ب ـ لم يتصف الفرسان الأوروبيون بالمروءة والشهامة في علاقاتهم مع أعدائهم • فالفرسان « الصليبيون » ارتكبوا أبشع الأعمال اللاأخلاقية عندما احتلوا بعض المدن العربية •

جـ ـ اتصف الفرسان بالغطرسة الاقطاعية وعنجهيتها ، كما استخدموا أساليب شاذة أحياناً لتحقيق أهدافهم •

د ـ مارس الفرسان في أوقات السلم بعض أعمال القرصنة كقطع الطرق واغتصاب متاع المسافرين وأموالهم ، والاستيلاء على سلع التجار ومتاجرهم •

ـ لباس الفرسان :

كان الفرسان في أوقات السلم يرتدون الملابس التالية :

آ ـ القميص : وهو عبارة عن صدّارة يربطها حزام في الوسط •

ب ـ السروال : وهو لباس مشدود على الساقين والفخذين بإحكام •

جـ ـ المعطف : وهو لباس يرتديه الفارس فوق القميص في حالات البرد أو الاحتفالات • ويُربط المعطف من أعلاه حول الرقبة أو حول الكتف الأيمن حتى لا يعوق مقبض السيف •

د ـ العباءة : في حالات البرد القارس كان الفارس يرتدي عباءة يطوى طرفها الأعلى فوق الرأس للوقاية من شدة البرد •

هـ الحذاء : وهو عبارة عن صندل مصنوع من الجلد •

أما رداء الحرب فقد تكوّن من القطع التالية :

آ ـ الخوذة : وهي لباس الرأس ، مصنوعة من الحديد ومخروطية الشكل ، تمتد مقدمتها إلى أسفل لتحمي أنف الفارس •

ب ـ الدرع : وهي صدّارة مزرّدة تتألف من حلقات متداخلة من الحديد ، وتكون مشقوقة طولياً من أسفلها حتى لا تعوق الفارس عن امتطاء فرسه •

جـ ـ الجرموق أو الألشين : وهو عبارة عن أربطة من القماش أو الجلد تمتد من الركبة إلى القدم •

ـ سلاح الفرسان :

تشكل سلاح الفرسان من القطع التالية :

آ ـ السيف : وهو طويل صليبي المقبض مربوط بحزام على الجانب الأيسر •

ب ـ الحربة (أو الرمح) : طولها ثمانية أقدام يمسكها الفارس بيده اليمنى •

جـ ـ البلطة : وهي قصيرة المقبض تشبه الفأس الحادة ، يعلّقها الفارس على جانبه الأيمن أو خلف ظهره •



الشكل رقم (٤) جنـدي فرنجـي

د ـ الترس : وهو مستطيل الشكل طوله أربعة أقدام ، يحمله الفارس في ذراعة اليسرى .

هـ ـ الفرس : كان الفرس الذي يمتطيـه الفارس مطهماً مزوداً بالسرج والركاب واللجام . وكان المجتمع الاقطاعي ينظر شذراً إلى المحارب الذي يقاتل راجلاً ، فدون الفرس لا يعد المقاتل فارساً .

يتبين مما سبق ان الخدمة العسكرية كانت تتطلب من فارس العصور الوسطى نفقات باهظة ، إذ ينبغي ان يكون لديه طاقم كامل من السلاح واللابس الحربية الثقيلة ، وفرس مطهم ، ومساعد يعتني به وبمطيته ، بالإضافة إلى قدر كاف من الطعام للأشخاص والحيوانات .

ـ المبـارزة :

كانت حيـاة السلم تعني البطالة بالنسبة للفرسـان الأوروبيين في العصور

الوسطى ، ولذا ابتكر هؤلاء الفرسان تقليد المبارزة لمقاومة الملل الذي قد يعتريهم في حالة عدم وجود حرب حقيقية. وكانت تلك المبارزات تتم بطريقة تمثيلية استعراضية، الهدف منها إظهار المهارة الحربية بأقل قدر من الاصابات والدماء . وهناك تقاليد مرعية يجب اتباعها ، وشروط معينة يتفق عليها الفريقان قبل المبارزة . ويتم تحديد يوم معين للنزال بين فريقين من الفرسان يمثلان ضاحيتين أو أسرتين متخاصمتين . ويكون الحكم أحد الفرسان المحايدين . وينتظم المتبارون بملابس الحرب صفوفاً وهم على ظهور خيولهم على طول جانبي ساحة المعركة . وعند إعطاء إشارة معينة يبدأ القتال . وإذا تكسرت السهلم والرماح يواصل المتبارزون المعركة بسيوفهم إلى أن ينتصر أحد الفريقين على الآخر ويجرده من سلاحه .وينال الفريق الغالب شرفاً كبيراً ، فضلاً عن الغنائم ، إذ كان من حقه الاستحواذ على خيل المغلوب وسلاحه ، ما لم يستردها الأخير مقابل مبلغ من المال .

ـ الحيـــاة المنزلية في الحصون الإقطاعية :

آ ـ شـــكل الحصون :

بدءاً من القرن العاشر الميلادي أضحت الحصون الاقطاعية أو القلاع مسرحاً للحياة الاجتماعية لطبقة أمراء الفرسان ، إذ لم يعد الحصن معقلاً يلوذ به أهل المنطقة فراراً من هجمات الأعداء ، بل أضحى المقر الطبيعي للأمير الاقطاعي وأتباعه. لكن الكثيرين من السادة الاقطاعيين كانوا لا يمتلكون حصوناً ، وإنما اتخذوا منزلاً في إحدى قراهم (دوّاراً مشيّداً من جذوع الأشجار والحجارة) مقرّاً دائماً لهم . في البدء كانت الحصون تشيّد من الأخشاب . ولكن منذ نهاية القرن العاشر أضحت تشيّد من الحجارة الكبيرة . وكان الحصن يتألف من ثلاثة طوابق : في الطابق الأسفل توجد الآبار ومخازن الطعام والأسلحة والعدد الحربية . أما الطابق الأعلى فكان مخصصاً لقذف السهام وغيرها من القذائف . وأما الطابق الأوسط فقد استخدم لإقامة السيد وأسرته ، حيث يتكون من قاعة كبيرة وعدد من الغرف الصغيرة المنفصلة . وكانت الغرفة الكبيرة مجهّزة بشموع للاضاءة وبمواقد

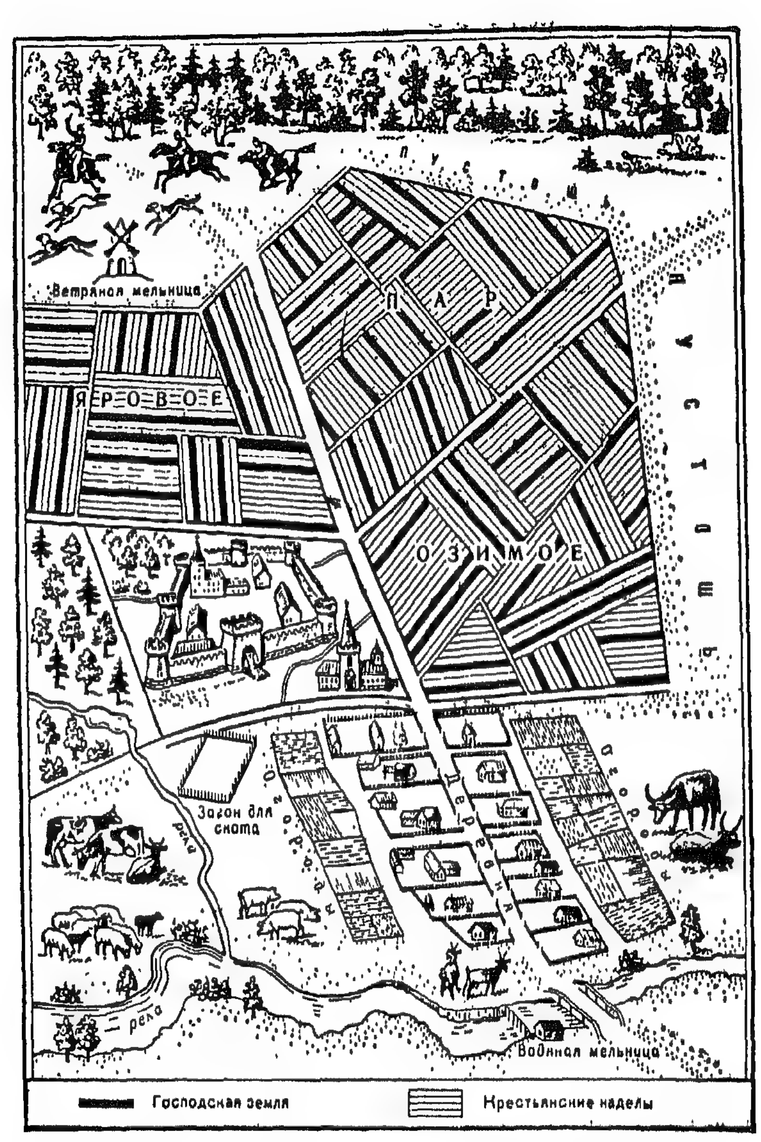
مكشوفة للتدفئة ، وعلى جدرانها علقت بعض الأسلحة والأعلام ، في حين فُرشت أرضها بالحصر. وفي هذه الغرفة كان يجلس السيد الاقطاعي ليتقبل فروض التبعية أو ليعقد مجلساً قضائياً أو غير قضائي . وعند انتهاء السهرة يأوي السيد وأسرته إلى غرفهم المخصصة للنوم ، في حين يُحضر الخدم وسائدهم المصنوعة من القش لينامو في الغرفة الكبيرة حتى الصباح .

ب ـ طعام الفرسان وشرابهم :

كان الطعام يُطهى في مطابخ خارجية ، ثم يحمله الخدم إلى الداخل . وقد تألف طعام السيد الاقطاعي من لحوم الصيد والحيوانات الأليفة ، إلى جانب الخبز والخضار والفطائر والفاكهة . وفي أيام الصيام كان يُسمح بأكل السمك والبيض إلى جانب الخضار والحبوب . وكانت الحلوى نادرة لأن أوروبا لم تكن تعرف قصب السكر قبل الحروب الصليبية ، فاعتمدت في تحلية بعض الأطعمة على عسل النحل. أما التوابل المستوردة من بلدان الشرق الآسيوي فلا تتوافر إلا لكبار الأمراء بسبب ندرتها وغلاء سعرها . لم يعرف أمراءُ أوروبا وفرسانها الكثير من آداب تناول الطعام ، ومن المعروف أنهم تعلموا عادة غسل الأيدي قبل تناول الطعام وبعده من العرب المسلمين خلال الحروب الصليبية. أما الشراب فقد كان من النبيذ والجعة.

ج ـ التسلية :

بالإضافة إلى المبارزة اعتاد الأمراء في أيام السلم على التلهّي بصيد الحيوانات كالغزلان والخنازير والطيور . أما السهرات فكانوا يقضونها في تناول الخمر أو لعب الشطرنج الذي عرفوه من العرب عن طريق الحروب الصليبية . ولم يكن عند أمراء أوروبا وفرسانها ولع" بالمطالعة لأن معظمهم جهل القراءة والكتابة ، لكنهم استخدموا بعض الكتبة لضبط حسابات المزارع . كذلك شغف بعض السادة والسيدات بالاستماع لرواة القصص والشعراء والمنشدين الذين يترددون على الحصون ، وبمشاهدة رقص الدببة أو الجواري .



أراضي الفلاحين الأقنان　　　　أراضي السيد الاقطاعي

الشكل رقم (٥') قريـة إقطاعيـة

ـ أثر الكنيسة في حياة الفرسان وحروبهم :

آ ـ نظم الصلح و « سلام الله » :

أدى النظام الاقطاعي إلى ضعف السلطة الملكية المركزية ، وهذا مما ساعد على نشوب النزاعات المسلحة بين الأمراء الاقطاعيين ، حيث لم تكن هنالك سلطة عليا قوية وقادرة على وضع حد لنشوب تلك النزاعات . وتمثلت تلك النزاعات بحروب شنّها أمير ضد أمير أو لفيف من الأمراء ضد لفيف آخر ، أو تمرد بعض الأمراء ضدمولاهم الملك . ولم تكن الحروب تدوم أكثر من بضعة أسابيع ، لكنها تتجدد باستمرار لأسباب تافهة : كالفصل في خلاف على الأرض ، أو بسبب النساء ، أو لمجرد الرغبة في النهب والاعتداء على المسافرين . وقد أدت تلك الحروب إلى اضطراب حبل الأمن وعدم الطمأنينة والقلق ، حيث انتشرت أعمال القتل والنهب والتخريب في كل مكان من فرنسا وألمانيا وإيطاليا ، وإن اختلفت كثرتها وشدتها بين منطقة وأخرى .

أمام فقدان الدولة وضعف السلطة الملكية المركزية تحركت الكنيسة ساعية إلى وضع حدّ لحروب الأمراء الاقطاعيين وإحلال السلام في أوروبا الغربية . ففي العصر الكارولنجي عندما نشبت الاضطرابات بعد معاهدة فردان ، قامت الكنيسة البابوية بإصلاح ذات البين وسعت جاهدة لمنع المنازعات بين الأمراء الكارولنجيين .

وفي القرن العاشر أخذ الأساقفة في المناطق المعرضة لجنون البارونات الحربي يتبادلون الرأي في وضع حدّ لهذا الوباء ، فتمخض عن ذلك قيام أول حركة لصالح السلام في المجامع الدينية التي انعقدت في عام ٩٨٩ (في شارو في اكيتانيا) وفي عام ٩٠٠ (في ناربونة في سبتيمانيا) . في هذين المجمعين أعلن الأساقفة احتجاجهم على الحروب الداخلية وأذاعوا عقوباتهم الدينية على من يعكر صفو السلام في البلاد . لكن تلك القرارات الدينية لم تكن سوى حكم غير مباشر على الحروب الاقطاعية وإدانة لها .

وتتالى انعقاد المجامع الدينية التي دعت إلى إحلال السلام ، فوضعت المواثيق التي تحرم إحراق الكنائس والاعتداء على رجال الدين ، وسرقة القطعان ، وإيقاف الفلاحين لإجبارهم على افتداء أنفسهم بالمال . كذلك سعى الأساقفة إلى الربط بين الصلح والعدل فوضعوا قرارات دينية تدعو إلى تسوية النزاعات بين الأفراد بموجب الحق والقانون .

وفي القرن الحادي عشر سعى بعض الأساقفة إلى تشكيل قوة منظمة لتنفيذ القرارات الدينية الداعية إلى السلام ، فأصدروا قرارات تفرض على كل مؤمن بلغ الخامسة عشرة من عمره أن يحلف اليمين على مراعاةالسلام والدخول في ميليشيا الأبرشية المكلفة بحماية السلام في المناطق التابعة لها . وعلى هذا النحو تشكل نوع من الحرس الكنسي" مهمته المحافظة على احترام السلام وإحلال التحكيم المبني على الحق محل الظلم الذي تمثله الحروب . وقد أطلق على السلام الذي دعت إليه الكنيسة ورجالها اسم « سلام الله » .

ب ـ « هدنة الله » :

في نحو سنة ١٠٤٠ تبدلت سيماء الحركة السلمية قليلاً ، إذ أضيفت « هدنة الله » إلى « سلام الله » . وكان الهدف من تلك الهدنة هو جعل الحروب الداخلية أكثر صعوبة وأكثر ندرة ، وذلك بإيقافها بحجة احترام ذكرى الأيام الدينية المقدسة. وفي سنة ١٠٤١ صيغت « هدنة الله » برسالة حررها أساقفة إقليم آرل الفرنسي بمساعدة أوديلون رئيس دير كلوني . وقد جاء في تلك الرسالة ما يلي :

« نطلب منكم ، ونتوسل إليكم جميعاً ، يا من تخشون الله وتؤمنون به ، ويا من اشتريتم بدمه ، أن تحافظوا على السلام فيما بينكم لتستحقوا ان تكونوا بهذا في سلام مع الله ولتبلغوا الراحة الازلية . أقبلوا وحافظوا على هدنة الله التي قبلنا نحن بها وحافظنا عليها كما لو نزلت من السماء بوحي من الرحمة الإلهية . إنها تقتضي من جميع المسيحيين أصدقاء كانوا أم أعداء أن يراعوا السلام التام بهدنة تامة من مساء الأربعاء إلى مطلع الشمس في صباح الاثنين » .

وأوضح الأحبار الأسباب التي أوحت بهذا النظام الجديد بقولهم :

« لقد خصصنا لله أربعة أيام : الخميس لصعود المسيح ، الجمعة لذكر صلبه وآلامه ، السبت لدفنه ، الأحد لذكرى قيامته ، لئلا تقع في هذه الأيام أي حرب ولئلا يخشى أحد عدوه » .

وهكذا قضت « هدنة الله » بتحريم الحرب خلال الأيام التي تذكّر بالمراحل الأليمة أو المجيدة من حياة المسيح . وكان لهذا الاختراع نجاح مباشر .

تعممت مع الزمن « هدنة الله » في أنحاء فرنسا ، وامتدت تدريجاً إلى إسبانيا (في سنة ١٠٦٣) ، ثم إلى ألمانيا (في سنة ١٠٨١) ، ثم إلى إيطاليا (في سنة ١٠٨٩) . كذلك صيغت قوانين دينية جديدة تشجب الحروب الاقطاعية ومنها :

« إن المسيحي الذي يقتل مسيحياً آخر إنما يهرق دم المسيح » .

وصدرت قرارات أخرى تزيد من عدد أيام الهدنة ، إذ أعلنت عن الهدنة في كل أسبوع من مساء الأربعاء إلى صباح الاثنين ، ويضاف إلى ذلك أيام جميع أعياد العذراء والقديس يوحنا المعمدان والرسل ووقفات الأعياد الرئيسة وغيرها من الأيام المقدسة . هذا وإن كثرة الأيام التي حرّمت فيها الحرب ، كان من شأنها أن تجعل الحرب شبه مستحيلة عملياً .

وفي آخر القرن الحادي عشر ، عندما أصبحت البابوية على رأس العالم الأوروبي المسيحي ، أخذت على عاتقها قضية السلام ، فعممت جميع القرارات التي كانت قد أصدرتها المجامع الدينية الفرنسية بهذا الخصوص . ويذكر لنا المؤرخ فوشيه شارتر: أن البابا أوربان الثاني ، في مؤتمر كليرمون (١٠٩٥) الذي قررت فيه الحرب الصليبية الأولى ، قد ندد بالحروب الأميرية وما تجره من ويلات ، وأبلغ الأساقفة التعليمات التالية :

« اطلب إليكم بإصرار أن تحافظوا بقوة على الهدنة في كل ابرشية . وإذا خرقها احد لجشع او غطرسة فلا ترددوا بموجب السلطة الإلهية وهذا المجمع المقدس ان تضربوه بالحرمان » .

كذلك أصدر قانوناً آخر ينص على تمتع جميع رجال الدين والنساء بسلام الله في كل يوم من أيام السنة • ونظراً لغلاء المعيشة آنذاك شمل هذا السلام خلال ثلاث سنوات جميع الفلاحين وجميع التجار • وهكذا سجل مؤتمر كليرمون نقطة الذروة التي توصلت إليها نظم السلام ورد الفعل الكنسي ضد الحروب الأميرية (الاقطاعية) وما تجره من أضرار •

لقد نشأت حركة السلام الدينية في جنوب فرنسا ، ثم انتشرت في مختلف أنحاء أوروبا الغربية • وكانت تلك الحركة من أجمل صفحات التاريخ الأوروبي في العصر الوسيط ، كما شرّفت الأساقفة الذين أوحوا بها وغذوها • ولكن من الصعب أن نعيّن الحدود التي نجحت فيها تلك الحركة • ومهما يكن الأمر يمكننا القول إن تلك القرارات الدينية التي هددت دعاة الحرب بالحرمان الكنسي قد خففت من طيش البارونات وجنونهم الحربي •

ويبدو لنا أن الكنيسة كانت تنقصها القوة الضرورية لتفرض احترام قراراتها• إلا أن فكرة السلام التي بذرتها الكنيسة ستنبت نباتاً حسناً ، ذلك أن ملوكاً ، من أمثال غليوم الفاتح وهنري الأول في إنكلترا ، ولويس السادس في فرنسا ، وبعض الاقطاعيين الكبار ، قد خامرتهم فكرة السلام هذه ، فعملوا على ظفرها عندما أتيحت لهم وسائل القوة الضرورية • ولكن يجب أن ننتظر إلى بداية القرن الثاني عشر حتى نرى بعض ثمار تلك الحركة السلمية • فحتى ذلك التاريخ ظلّ النظام الاقطاعي ، بنتائجه السياسية والأخلاقية ، يثقل حياة الدول الأوروبية ويسيطر عليها في كل الظروف (٢٤) •

طبقة الفلاحين

شكلت طبقة الفلاحين القاعدة التي قام عليها هرم المجتمع الاقطاعي ، كما كانت مصدر الرزق الأساسي لذلك المجتمع • فمن الفلاح استمد البابا ورجال الدين والملوك وجميع السادة الاقطاعيين المقومات الأساسية للحياة ، إذ اعتمد هؤلاء على الفلاح كلياً في الحصول على المأكل والمشرب والملبس • وكانت طبقة الفلاحين ، التي صنعت الخبز للعالم الأوروبي في العصور الوسطى ، موضع احتقار النبلاء وازدرائهم في المجتمع الاقطاعي •

تألفت طبقة الفلاحين من ثلاث فئات هي : آ ــ فئة العبيد ، ب ــ فئة الفلاحين الأحرار ، ج ــ فئة الأقنان أو رقيق الأرض •

آ ــ فئة العبيد Slaves :

كانت فئة العبيد في أوروبا الغربية في المرحلة المتوسطة من العصور الوسطى (٨٠٠ ــ ١٢٠٠ تقريباً) أقل عدداً من فئة الفلاحين الأحرار وفئة الأقنان • واقتصر عمل العبيد على الخدمة المنزلية والعمل الزراعي في أراضي بعض الأسياد • ويوضح لنا كتاب « الروك النورماندي » أو كتاب « الحساب الأخير » Domes day Book (الذي يتضمن مسح الأراضي الانكليزية في سنة ١٠٨٦ لتنظيم الضريبة على الفلاحين) نسبة المواطنين الذين كانوا عبيداً في إنكلترا في القرن الحادي عشر • ومع مرور الزمن تناقص عدد العبيد ، إذ تحول معظمهم إلى فئة أقنان الأرض • ويكشف لنا « كتاب الحساب الأخير » عن طائفة من العبيد هبط عددهم في إقطاعية واحدة من اثنين وثمانين إلى خمسة وعشرين في السنوات العشرين الأخيرة قبل إتمام الكتاب المذكور • وفي إنكلترا تلاشت العبودية الحقيقية قبل القرن الثالث

عشر ، بينما ظلت موجودة طوال العصور الوسطى في إسبانيا وإيطاليا وجنوب فرنسا، وكانت العبودية في الدويلات البابوية أقرب إلى الزيادة منها إلى الزوال بنهايـة العصور الوسطى ، حيث شرّع أكثر من بابا العبودية كعقوبة لأعدائهم في ميدان السياسة ، بالإضافة إلى السماح بتجارة العبيد • وكان بعض السادة الكبار يريدون عملاً رخيصاً ، فاستغلوا مراكزهم وقدراتهم المادية لتحويل بعض الأحرار الفقراء والضعفاء إلى عبيد ، وذلك بالقوة أو الإكراه أو بطرائق ملتوية •

ب ـ فئـة الفلاحين الأحـرار :

كانت فئة الفلاحين الأحرار قليلة العدد داخل طبقة الفلاحين • فقد وجد في في القرى الأوروبية بعض الفلاحين الأحرار الذين يملكون مساحات محدودة من الأراضي الزراعية ، ولهم حرية بيعها أو شراء أرض أخرى • وكان لهؤلاء الفلاحين الأحرار الحق في حمل السلاح وفي تزويج بناتهم إو إلحاق أبنائهم بسلك الكهنوت دون التقيد بموافقة السيد الاقطاعي، زيادة على حريتهم في بيع مواشيهم ومحاصيلهم وفق ما تتطلبه مصالحهم الخاصة •

وكان معظم الفلاحين الأحرار أتباعاً يدفعون لسادتهم الاقطاعيين خراج الأرض نقداً أو عيناً ، ويلتزمون في أحوال كثيرة بأن يؤدوا لهم خدمات متنوعة (ما عدا الخدمة العسكرية) • وخضع هؤلاء الأحرار لقضاء السيد المحلّي الذي استمد سلطته من الملك •

ويلاحظ من « كتاب الحساب الأخير » أن نسبة الأحرار كانت كبيرة في مقاطعة نورفولك Norfolk الانكليزية ، حيث وجد فيها ثمانية وسبعون من الأحرار في مقابل سبعة من الأقنان (رقيق الأرض) • لكنّ أساقفة نورويتش Norwich النورمانديين الذين امتلكوا تلك الأرض قد أنزلوا خمسة وستين من الثمانية والسبعين من الأحرار إلى مرتبة العبيد • وكان في مقاطعه كامبريدج أيضاً تسعمائة من الفلاحين الأحرار عند الغزو النورماندي لانكلترا ، وقد هبط عددهم بعد عشرين عاماً من ذلك التاريخ إلى مائتين وثلاثة عشر حراً

فقط .. وهكذا سارت عملية تجريد الفلاحين الأحرار من ممتلكاتهم تدريجاً بعد الفتح النورماندي ، حتى أضحى عدد الفلاحين الأحرار في إنكلترا في منتصف القرن الرابع عشر أقل من نصف عدد السكان .

عاشت فئة الفلاحين الأحرار في ظل ظروف اقتصادية واجتماعية قاسية ، مما ادى إلى تحوّل معظم هؤلاء إلى فئة الأقنان . وقد عدّد لنا احد كتّاب العصور الوسطى مختلف الأسباب التي آلت بالفلاحين الأحرار إلى مرتبة القنيّة واهمها :

أولاً ــ من الجائز أن يكون السيد الاقطاعي قد طلب من الفلاحين الأحرار الاشتراك بحرب فرفضوا ، فعاقبهم بإنزالهم إلى مرتبة القنية .

ثانياً ــ بيع أنفسهم للأسياد . فكثيراً ما كان يذهب فلاح حرٌ فقير إلى أحد السادة الأغنياء ويقول له أعطني مقدار كذا ، فأصبحُ رجلَكَ وأكون رهينة لك .

ثالثاً ــ كان الكثيرون من الفلاحين الأحرار يدخلون عالم القنية بغية الدفاع عن أنفسهم ضد طاغية أو عدوٍّ محليّ ، وذلك بتسليم أنفسهم إلى رجل قوي يحميهم .

رابعاً ــ كثيراً ما كان بعض الفلاحين الأحرار يهبون أرضهم وأنفسهم لكنيسة أو دير ويصبحون أقناناً تابعين لتلك الهيئة الدينية .

ج ــ فئـة الاقنـان (رقيق الأرض) Serfs :

تعريف الاقنـان : شكلت فئة الأقنان القسم الأكبر من طبقة الفلاحين في اوروبا الغربية (في المرحلة المتوسطة من العصور الوسطى) . والقـن هو فلاح يعيش على قطعة من الأرض يمنحه إياها سيد إقطاعي يمتلك الأرض . وكان القن مرتبطاً بالأرض، كما كانت الأرض مرتبطة به ، فهو لا يستطيع تركها إلا بالهرب منها أو بشراء حريته بالمال إذا وافق السيد ، كما ان السيد لا يستطيع طرده منها إلا في حالة رفضه اداءَ واجباته القانونية أو ارتكاب جريمة ما .

وعاش القن دون حماية القانون ، إذ كان يطرد من الأرض ويبدل غيره به حسب مشيئة السيد ، الذي يحق له أن يفعل بالقن ما يشاء عدا أن يقتله أو يشوهه. وفرض على القن حلق شعر رأسه ، لأن ترك الشعر كان من مميزات الأحرار . ولا يستطيع القن أن يدعي حق الملكية الشخصية ، لأن كل ما يمتلكه يُعدّ ملكاً لسيده الاقطاعي . وعلى هذا نستطيع القول إن القن لم يكن عبداً ولا حراً ، وإنما كان وسطاً بين هذا وذاك . فهو لا يتمتع إلا بالقليل من الحقوق المدنية تجاه سيده ، ولكنه ، خارج نطاق علاقته بسيده ، يُعدّ في نظر الكنيسة والدولة حراً ، له ما للأحرار من حقوق وإرادة وحرية في عقد أي اتفاق مع غيره . وقد أُطلق على القن في فرنسا لفظة Serf (Servus) ، وفي إنكلترا لفظة Villein . ونستطيع أن نطلق على الأقنان اسم « أنصاف العبيد » ، أو « أنصاف الأحرار » ، أو « رقيق الأرض » .

وانحدر الاقنان من اربعة مصادر هي :

١ ــ أبناء الأقنان يصبحون أقناناً يرتبطون بأرض والدهم .

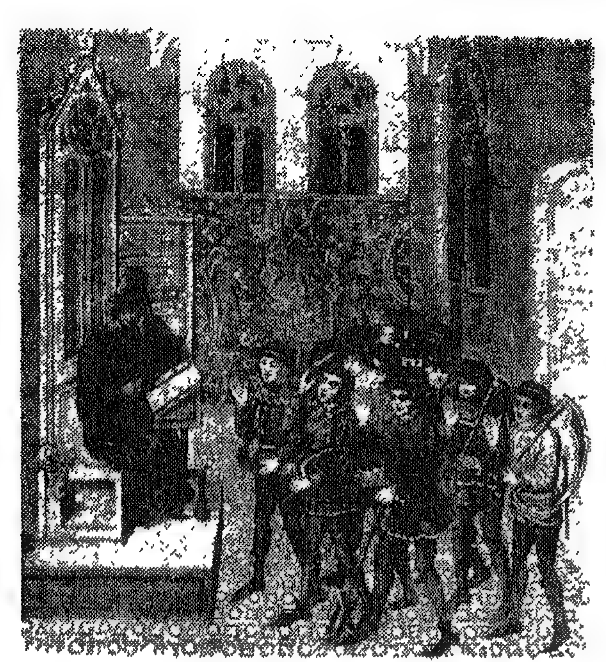
٢ ــ العبيد الذين حررهم أسيادهم يصبحون أقناناً ويستلمون أرضاً يعملون بها .

٣ ــ الفلاحون الأحرار الذين تدهورت أحوالهم المادية يبيعون حريتهم وأرضهم لسيد إقطاعي مقابل مبلغ من المال أو مقابل حمايتهم .

٤ ــ الأحرار من خارج فئة الفلاحين قد ينزلون إلى مرتبة القنيّة بسبب ارتكاب جريمة أو عجز عن توفير أسباب العيش لأنفسهم . ويقول كولتون : كانت فئة الأقنان تزداد بنسبة ما كان يحدث من نقصان في فئة العبيد من جهة ، وفئة الرجال الأحرار من جهة ثانية .

ــ مراسم أو طقوس تسليم الأرض للقن :

اختلفت مراسم تسليم الأرض للقن عن مراسم تسليم الأرض للتابع الحر من



الشكل رقم (٦) سنيور يرسل الفلاحين للعمل في الأرض
(صورة من المخطوطات الفرنسية في القرن الخامس عشر)

طبقة النبلاء • فقد كان القن يستلم الأرض من ناطور السيد الاقطاعي بعد أن يؤدي صيغة معينة من يمـين الإخلاص والتبعية • وبعد أن يتـم تحرير محضر بتسليم الأرض يودع في خزانة محكمة السيد ، كان ناطور السيد يشير بعكازه للقن بدخول الأرض •

ـ واجبات القن تجاه السيد الإقطاعي :

تقسم واجبات القن تجاه السيد الاقطاعي إلى أربعة أقسام هي : الخدمات ، المقررات ، الاحتكارات ، التزامات وضرائب متنوعة •

آ ـ الخدمـات :

وهي أعمال السخرة التي يفرضها السيد على أقنانه ، وتقسم إلى ثلاثة أنواع:

١ ــ السخرة الأسبوعية : كان يفرض على القن أن يعمل ثلاثة أيام في أرض السيد الخاصة، كما يعمل ثلاثة أيام في أرضه التي استلمها من السيد الاقطاعي • أما يوم الأحد فكان العمل فيه محرّماً بأمر من السلطات الدينية العليا •

٢ ــ السخرة الفصلية : ومنها حصاد زرع السيد وجمع محصوله •

٣ ــ السخرة العامة : ومنها شق الطرق وحفر الخنادق وإنشاء الجسور •

ب ــ المقررات :

وهي الضرائب المادية المتنوعة ومنها :

١ ــ ضريبة الرأس : ترتب على كل قن أن يدفع سنوياً للسيد صاحب الأرض ضريبة بسيطة نقدية، أو ضريبة عينية، الغرض منها أن تكون رمزاً للعبودية والتبعية•

٢ ــ ضريبة العُشر : وترتب على القن أيضاً أن يقدم للسيد عُشر إنتاج الأرض من الحبوب والخضار والثمار ، وعُشر إنتاج الماشية والطيور والأسماك المصطادة •

ج ــ الاحتكارات :

احتكر السيد الاقطاعي لنفسه بعض المؤسسات وفرض على أقنانه التعامل معها ، ومنها : الطاحونة ، والفرن ، والمعصرة ، وبئر الماء • وكان كل قن ملزماً بطحن حبوبه في طاحونة السيد ، وخبز عجينة في فرنه ، وعصر عنبه وزيتونه في معصرته ، وذلك مقابل أجر معيّن نقدي أو عينيّ •

د ــ التزامات وضرائب متنوعة :

في القرن الحادي عسر فرض السادة الاقطاعيون مبلغاً من المال على القن الدي يطلب الزواج من خارج أملاك سيده (الدومين) ، ورسماً على القن عند تزويج بناته • وحصل السادة الاقطاعيون ، بوصفهم نواباً للملك ، على حق ممارسة السلطة

القضائية على الأقنان الذين يعملون في أملاكهم • وعادت الحقوق القضائية بفوائد جمّة على السادة الاقطاعيين ، لأنهم كانوا يفرضون غرامات مالية على المذنبين ويستولون على ممتلكات الأشخاص المحكومين بالاعدام • وفرض السادة أيضاً ضريبة ميراث على أبناء القن المتوفى الذين يرثونه في الانتفاع بالأرض • وفي الغالب كانت ضريبة الميراث فرساً أو ثوراً قوياً • وكان من حق السيد أن يرث جزءاً من تركة قنّه المتوفى ، أو التركة كلها •

ـ سبل تحرير القن :

كانت علاقة القن بسيده ذات شقين :

١ ــ تبعية اقتصادية •

٢ ــ عبودية شخصية •

وكانت هنالك سبل عديدة لتحرير القن أهمها :

١ ــ إذا دفع القن مبلغاً معيناً من المال لسيده الاقطاعي بشرط أن يوافق السيد على ذلك ، وأن يدفع المال طرف ثالث ، لأن ما يملكه القن من مال يُعدّ ملكاً للسيد •

٢ ــ إذا دخل القن في سلك الرهبنة ، ولكن منذ أواسط القرن الثاني عشر اشترط أن يوافق السيد على دخول القن في الرهبنة •

٣ ـ إذا هرب القن إلى المدينة ومكث فيها سنة كاملة ويوماً واحداً دون أن يطالب به سيده • وعلى هذا ظهر في العصر الاقطاعي مثل يقول :

« هواء المدينة نسيمُ الحرية » •

ـ أسباب زوال فئة الأقنان :

في أواخر القرن الحادي عشر أخذت فئة الأقنان تتلاشى تدريجاً لأسباب سياسية واقتصادية واجتماعية أهمها :

١ ـ فتحت الحملة الصليبية الأولى الباب أمام نحو عشرة آلاف قنّ تركوا أرضهم للاشتراك في تلك الحملة .

٢ ـ فتحت نشأة المدن وتطورها في المجال الصناعي والتجاري باباً جديداً أمام الأقنان لهجرة الأرض والنزوح إلى تلك المدن .

٣ ـ أخذ كبار الملاكين يحررون أقنانهم بالجملة ، بعد أن ثبت لهم أن الاعتماد على جهود الأقنان غيرُ اقتصادي ، وأنه من الأجدى لهم استخدامُ عمال زراعيين مأجورين .

ومع ذلك فقد ظل نظام الأقنان قائماً في جميع أنحاء أوروبا في القرن الثالث عشر ، إلاّ أنه كان حينئذٍ آخذاً في الاحتضار السريع (٢٥) .



الشكل رقم (٧)
جنود الاقطاعي ينهبون قريــة

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جـ ـ نظام الضياع

أو

(النظام السنيوري)

آ ـ الضيعة وحدة اقتصادية :

نظام الضياع قديم ترجع جذوره إلى أصول رومانية وجرمانية وكلتية . لقد وجدت الضياع في الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولكن تلك الضياع قام اقتصادها على التبادل التجاري مع المدن ، إذ تصدر إلى المدن إنتاجها الزراعي، وتستورد منها إنتاجها الصناعي . أما في العصور الوسطى فقد أضحت الضيعة في أوروبا الغربية وحدة اقتصادية قائمة بذاتها ، لا تربطها بالمدن أو بغيرها من القرى روابط تجارية . فهي تكفي نفسها بنفسها ، وتنتج المواد الغذائية وغير الغذائية اللازمة لاستهلاك أهلها ، ما عدا بعض الكماليات (كالتوابل وأدوات الزينة والألبسة الفاخرة) التي يستوردها الاقطاعي صاحب الضيعة لنفسه وأهله فحسب . أما حوانيت البيع فلم يكن لها وجود في الضيعة على الاطلاق ، وكان لكل ضيعة حدادها ونجارها . وما يتعذر صنعه في الضيعة كانوا يجلبونه من متاجر أقرب المدن .

لقد كانت أسباب الطعام والشراب والكساء متوافرة داخل الضيعة . فالحبوب والثمار والخضروات تنتجها الأرض . والملابس تصنعها نساء الضيعة لرجالهن وأولادهن من صوف الأغنام . أما الجلود والنعال والسروج فيصنعها الرجال . وهكذا ظلت الضيعة الأوروبية حتى القرن الثاني عشر تتبع نظام الاكتفاء الذاتي من الناحية الاقتصادية ، ولم تكن بحاجة ملحة إلى التبادل التجاري مع العالم الذي يقع وراء حدودها . ولكن هذا الأمر لا ينفي وجود بعض المبادلات التجارية مع الضياع المجاورة عن طريق المقايضة ، كأن تجري مقايضة الخنازير بالدجاج ،

والحبوب بالثمار وما شابه ذلك • وهكذا لم توجد أسواق كبيرة لتصريف إنتاج الصياع الزراعي •

ويمكننا أن نتنبه الفلاح الأوروبي في العصور الوسطى بالفلاح الروماني الذي وصفه الشاعر فرجيل(*) بقوله : « وكثيراً ما يعمد سائق الحمار البليد إلى تحميل ظهره بجرار الزيت ، أو بالتفاح الرخيص ؛ وعند عودته من المدينة يحضر معه حجر شحذ أو كمية من الصنوبر المعطوب » •

ب ـ الضيعة وحدة اجتماعية ودينية :

كانت الضيعة الأوروبية في العصور الوسطى وحدة اجتماعية ودينية • لقد اشترك أهل الضيعة في الاحتفال بالأعياد والأفراح ، كما آزر بعضهم بعضاً في الأحزان والأتراح • وتزوج شباب القرية من بناتها في أغلب الأحيان • وكان لكل ضيعة كنيستها وقسيسها • ويعيش القسيس من دخل قطعة أرض يحرثها له الأقنان ويجمعون محصولها سخرة دون مقابل • وتساعد القسيس في إدارة شؤون الكنيسة هيئة تتألف من كبار رجال الضيعة • وكان متوسط تعداد أفراد الضيعة لا يزيد على أربعمائة تقريباً ، عدد البالغين منهم مائتان وخمسون على الأكثر ، وعدد الأطفال مئة وخمسون طفلاً • وعاش أهل الضيعة في عزلة اجتماعية ، إذ قضوا حياتهم فيها من المهد إلى اللحد ، دون أن يشاهدوا من الخلق سوى بعض المارة والزائرين المؤقتين • ولكن أهل الضيعة يعرف بعضهم بعضاً بالاسم •

ـ محكمة الضيعة :

وجدت في كل ضيعة تقريباً محكمة يشرف عليها السيد الاقطاعي صاحب

(*) فرجيل Publius Virgilius
شاعر روماني (٧٠ ق.م ـ ١٩ م) كتب باللاتينية قصائد عديدة في مدح الامبراطور أوغسطس ، وقصائد أخرى عرفت باسم القصائد الريفية وتسمى Giorgics • ومن أهم أعماله ملحمة « الإيادة Aeneid » •

الضيعة • لقد حصل السيد الاقطاعي على الحقوق القضائية بوصفه نائب الملك في ضيعته ، كما صارت محكمته تعالج مختلف أنواع القضايا ، وتفرض على المذنبين شتى أصناف العقوبات • فعندما رسخ النظام الاقطاعي تفرقت كل سلطات الملك ، بما فيها السلطة القضائية ، بين أفراد الهيئة الاقطاعية • لقد صار الكونت يمارس السلطة الملكية في كونتيته كونه ممثلاً للملك • وإذا أعطى الكونت قسماً من أراضيه لأحد الفرسان إقطاعاً كان يمنحه ما يرتبط بالاقطاع من الحقوق القضائية • وكان رئيس محكمة الضيعة Praepositus ينتخب سنوياً كونه ممثلاً اسمياً عن الفلاحين • ولكن هذا الممثل القانوني كان في الواقع يحاول المحافظة على مصالح السيد مثلما يفعل وكيل أعماله الذي يحضر جلسات المحكمة أيضاً • وقد احتفظت محكمة الضيعة الاقطاعية ببعض مظاهر الديموقراطية البدائية ، إذ كان الحكم ، من حيث الشكل ، يصدره الفلاحون أنفسهم بعد حلف اليمين وفقاً للعادات المرعية في كل إقطاعية • وعلى الرغم من تلك الشكليات الديموقراطية فقد كانت الأحكام كلها تميل بميزانها لصالح السيد الاقطاعي •

وكانت محكمة الضيعة تفصل في الخدمات التي لم تتم تأديتها ، والغرامات غير المسددة ، وفي جرائم التعدي على الغير ، واغتصاب الأراضي ، وتلويث آبار القرية ، أو إحداث حفر في الطريق العام ، وفي المخاصمات التي كان مردها أحياناً إلى تعاطي الخمر ، أو إلى عادات الأخذ بالثأر بين الأسر ، او إلى بذاءة اللسان ، إذ فرضت عقوبات مالية على من يخاطب قناً من أقنان السيد (تحقيراً له) بلفظة عبد Slavus أو بلفظة قروي Resticus التي كانت مرادفة لكلمة قن Servus أو لكلمة فلاح Villanus .

ـ موظفو الضيعة :

وجد في كل ضيعة أربعة موظفين هم :

١ ـ وكيل السيد الإقطاعي :

هو الذي يشرف على إدارة أملاك السيد •

٢ ـ رئيس محكمة الضيعة :

كان ينتخب سنوياً من قبل الفلاحين ويشرف على إدارة المحكمة في الضيعة

٣ ـ حارس الدريس :

مهمته حماية الحقول والبساتين من تسلل الحيوانات إليها وإلحاق الأذى بالمحاصيل •

٤ ـ كبير الفلاحين :

مهمته الإشراف على أعمال الحصاد ، ويحمل عصاه ليضرب بها الحصادين المتقاعسين عن العمل •

ـ مساكن الضيعة :

وجدت في الضيعة ثلاثة نماذج من الأبنية هي : قصر السيد الاقطاعي (الدوّار) ، الكنيسة ، أكواخ الفلاحين •

١ ـ قصر السيد الإقطاعي (الدوّار) :

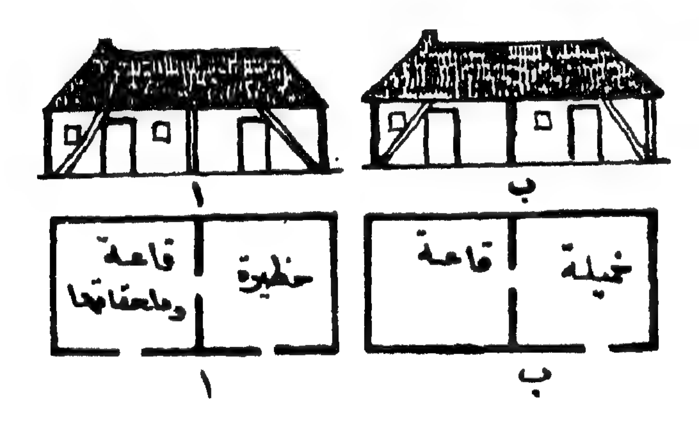
إذا كان السيد الاقطاعي يمتلك ضيعة واحدة ، فإنه يعيش في قصره القائم في هذه الضيعة • أما إذا امتلك أكثر من ضيعة ، فكان يختار إحداها للاقامة فيها ، في حين يعيّن وكلاء عنه يشرفون على إدارة أملاكه في الضياع الأخرى • وكان وكيل السيد الاقطاعي في كل ضيعة يقيم في قصر السيد في تلك الضيعة • وكان قصر السيد الاقطاعي مبنياً من الطوب تحيط به حديقة مسوّرة مزروعة بأشجار الفاكهة، كما بنيت فيها المخازن لحفظ إنتاج السيد والآلات والعربات وغيرها من العدد المستخدمة في فلاحة الأرض • وكان قصر السيد يمثل قسطاً وافراً من الثراء والترف بالنسبة لمستويات الأبنية في ذلك العصر •

٢ ـ الكنيسـة :

على مقربة من قصـر السيد قامت كنيسة الضيعة ، ويلحق بها منزل خاص لقسيس الكنيسة • وبنيت الكنيسة ومنزل القسيس من الطوب • أما المدرسة فلم يكن لها وجود في تلك الضياع •

٣ ـ أكـواخ الفلاحين :

كان الفلاحون الأوروبيون في العصور الوسطى يعيشون في أكواخ مبنية من جذوع الأشجار وفروعها ، غطيت سقوفها وأرضياتها بالطين والقش دون أن تكون لها نوافذ • وفرشت تلك الأكواخ بأثاث مكون من سرير خشبي ومنضدة صغيرة وبعض المقاعد الخشبية ذات ثلاث أرجل ، بالإضافة إلى صندوق وبعض الأواني الحديدية والفخارية • ولم تكن تلك الأكواخ تضاء في الليل ، لأن الشموع اقتصر استعمالها على إضاءة الكنائس وقصر السيد الاقطاعي • وعلى هذا كان الفلاح يأوي إلى فراشه عند مغيب الشمس وينهض صباحاً مع شروق الشمس •



الشكل رقم (٨)
كوخ تاريخه حوالي سنة ١٣٠٠ م

وكان الفلاح هو الذي يبني كوخه ويصنع أثاثه ، في حين تقوم زوجته وبناته بعمل الخبز والطعام وغزل الصوف وحياكة ما يتدثرون به من ثياب . وكان لكل كوخ حديقة صغيرة مسوّرة حوله تزرع ببعض الأشجار المثمرة والخضروات لسدّ حاجة الأسـرة .

ـ تعريف الضيعة والقرية

إن اسمي الضيعة manor والقريـة Villa كثيراً ما يستخدمان في معنيين مترادفين . لكننا نجد في حالات عديدة أن القرية ضمت داخلها زمام ضيعتين أو أكثر . ويقول كولتون إن القرية كانت الوحدة الإدارية والكنسيّة ، في حين كانت الضيعة (الاقطاعية) الوحدة الاقتصادية (الزراعية) . في بعض الحالات نجد القرية التي تألفت من ضيعة وأراضيها يملكها ويديرها سيد إقطاعي واحد . وفي حالات أخرى نجد زمام القرية الواحدة مقسّماً بين عدد من السادة الملاك ، وكل منهم يطلق على الجزء الخاص بـه اسم « ضيعة » . وربما بعدت الضياع ــ التي يملكها فرد واحد أو هيئة دينية ــ بعضها عن بعض خمسين ميلاً أو مئة ، مما يدل على أن نظام الضياع قام من الوجهة الاقتصادية على مجتمعات قروية مبعثرة ترتبط بمالك معيّن يقيم بعيداً عنها أحياناً ، أو يقيم في إحدى الضياع ويعيّن وكلاء له ينوبون عنه في إدارة الضياع الأخرى ، فيجمعون الإيجارات المستحقة ويمارسون حقوقه القضائية .

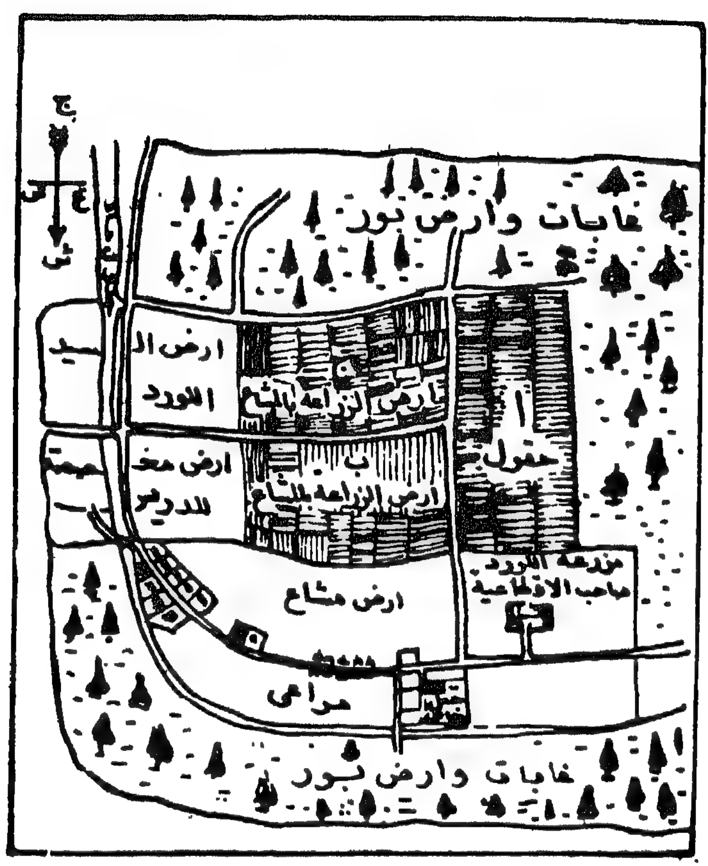
ـ توزيع أراضي الضيعة :

اختلفت الضياع بعضها عن بعض في المساحة وعدد السكان . فالضيعة الصغيرة ضمت نحو خمس عشرة أسرة ، في حين ضمت الضيعة الكبيرة نحواً من خمسين أو ستين أسرة . وقد وزّعت أراضي الضيعة على الأسر ، فاختصت كل أسرة بمساحة معينة . فبعض الأسر حصل على خمسة عشر فداناً ، وبعضها الآخر حصل على ثلاثين فداناً ، وأسر أخرى حصلت على ستين أو مئة وعشرين فداناً . وعلى هذا اختلفت

الحقوق والواجبات التي التزمت بها تلك الأسر وفق مساحة حصتها . وكانت تلك الأراضي توزع على الفلاحين بشروط وقيود ، لأنها في الحقيقة ملك للسيد الذي يمتلك الضيعة ومن فيها من الأقنان ، ولذلك سمّيت (Tenures) بمعنى القابض أو الممسك ، « من اللفظ اللاتيني Tenere بمعنى يمسك » ، لأن الأرض هي التي تمسك بالقن وتربطه بها ، وليس هو الذي يمسك بالأرض ويربطها بشخصه . وهكذا نلاحظ أن الأقنان لا يمتلكون الأرض التي يعملون بها ، وإنما يرتبطون بها مدى الحياة ، ثم صار هذا الارتباط وراثياً . وتجدر الملاحظة إلى أن السيد الاقطاعي كان يحتفظ لنفسه بمزرعة خاصة في الضيعة يُطلق عليها اسم (Demesne) ، وتبلغ مساحتها عادة ثلث الأراضي الصالحة للزراعة في الضيعة . وكان السيد يسخّر الأقنان، دون مقابل، في استثمار تلك المزرعة التي تمده بكل ما يحتاج من ضروريات الحيـــاة .

ـ المراعي والغابات والأنهار :

إلى جانب الأراضي الصالحة للزراعة ، المقسمة إلى حصص بين الفلاحين ، وجدت في كل ضيعة أرض مشاعة تشمل مراعي للماشية . ولم تكن تلك الأرض المشاعة مقسمة إلى حصص مثل الأرض الزراعية ، وإنما كانت من الوجهة القانونية ملكاً لسيد الضيعة الاقطاعي ، ومن ناحية العرف كانت حقاً مشاعاً لجميع أهــل الضيعة لهم عليها حقوق الرعي وجمع الكلأ . ومع ذلك وضعت قيود تحدد أوقات الرعي ونوع الماشية وعددها ، بحيث تتمتع كل أسرة بنسبة ما لها من أرض زراعة في الضيعة ، وذلك مراعاةً للعدالة وضماناً لحماية المراعي من سوء الاستهلاك . أمـــا الماشية الموجودة في الضيعة فكانت المتقدمة منها في السن والصغيرة التي لا حاجة لبقائها تذبح قبل حلول الشتاء وتقدّد لحومها وتملح لتؤكل خلال العام ، بعد أن يُرسل منها للسيد الاقطاعي الحصة الجيدة . والبقية الباقية من الماشية تترك لتقضي فصل الشتاء على الدريس والحشائش المجففة ، التي كانت كثيراً ما تنفذ قبل حلول الربيع ، فتسوء حالة الماشية .



الشكل رقم (٩) رسم تخطيطي يوضح كيفية تنسيق الأرض في إحدى إقطاعيات القرن الثاني عشر التي يبلغ تعداد سكانها نحو ١٥٠ نسمة



الشكل رقم (١٠) عصـا مقـدم الفلاحين

كذلك وجدت بعض المروج المسورة بالأخشاب لحفظ الدريس ، تجمع فيها محاصيل الضيعة ، وتحرس من قبل موظف مختص يمنع تسلل الحيوانات إليها • ووجدت في الضيعة أيضاً بعض الغابات المشاعة ، حيث كان من حق أهل الضيعة استعمال أشجارها كحطب للوقود أو كخشب لإقامة بناء المساكن والأسيجة • وفي بعض الضياع وجدت أنهار يصطاد الفلاحون منها الأسماك ويقدمون للسيد حصته منها •

ـ الدورة الزراعية :

كانت الزراعة في بعض الضياع تتم طبقاً لنظام الحقلين أو الدورتين ، حيث تقسم الأراضي الزراعية في الضيعة إلى قسمين ، أحدهما يزرع والآخر يترك مراحاً (بوراً ، غير مزروع) لإراحته من سنة إلى أخرى بالتناوب • أما في المناطق الأكثر خصوبة فكانت الزراعة تتم طبقاً لنظام الحقول الثلاثة أو الدورة الثلاثية ، حيث تقسم الأراضي الزراعية في الضيعة إلى ثلاثة أقسام : قسم يزرع في الربيع ، وقسم يزرع في الخريف ، والقسم الثالث يترك مراحاً بغير زرع • وفي كل سنة يحدث تبادل بين هذه الأقسام : فالأرض التي زرعت في الخريف تترك في العام التالي مراحة بغير زرع ، والأرض التي زرعت في الربيع تزرع في العام التالي في الخريف ، والأرض التى كانت مراحة في العام السابق تزرع في الربيع • وكان الهدف من إراحة الأرض عدم إجهادها من أجل الحصول على إنتاج أوفر •

ـ التعاون في العمل الزراعي :

كانت أراضي الضيعة الزراعية تقسم إلى قطع طويلة قليلة الاتساع يفصل بينها سياج من أغصان الأشجار أو سلسلة من الحشائش • وفي معظم الأحوال يعاد توزيع تلك القطع على الفلاحين في كل سنة بالاقتراع دفعة واحدة • وقد فرضت طبيعة العمل الزراعي في الضيعة روح التعاون على فلاحيها ، وبخاصة في أيام الحرث والحصاد ، لأن الفلاح الواحد لم تكن لديه القدرة المادية التي تمكنه من العمل

بمفرده في هذين الموسمين • فإذا امتلك محراثاً قد لا يمتلك الثيران اللازمة لجره • فالأراضي ثقيلة التربة ، وبخاصة في شمال أوروبا ، تطلب حرثها استخدام المحراث الثقيل الذي تجره ثمانية ثيران أو أربعة ثيران • وهكذا تطلب حرث الأرض من الفلاحين تعاوناً واشتراكاً • ومثل هذا التعاون كان مطلوباً أيضاً في أعمال الحصاد إذ يشترك فيها جميع أفراد الضيعة من رجال ونساء وأولاد كي يتم جمع الحبوب وتخزينها في أسرع وقت ممكن خشية من تساقط الأمطار • وبعد الحصاد تترك الحقول بما عليها من مخلفات القش والحبوب المتساقطة غذاء لدواجن الضيعة وماشيتها •

وبعد أن يتعاون جميع فلاحي الضيعة على زرع الأرض وجمع محصولها كان ذلك المحصول يقسم بنسبة حصص الأرض التي في حيازة كل أسرة من أسر الضيعة• وهكذا نلاحظ أن النظام الزراعي الذي سارت عليه الضيعة الأوروبية في العصور الوسطى كان تعاونياً لا شيوعياً •

ـ طعام القن وشرابه :

كان طعام القن الأساسي يتألف من الخبز الأسمر والبيض وبعض الخضروات كالفول والبازلاء وغيرها • وربما أسعدته الظروف في إحدى المناسبات بأكل دجاجة أو غيرها من الطيور • لكنه كان لايستطيع أن يتذوق اللحم والسمك إلا نادراً • أما شراب القن فكان النبيذ أو الجعة • ومع ذلك ظل القن قانعاً راضياً بحياته مع ما فيها من ألوان البؤس والشقاء ، إذ كان كثيراً ما يتضور من الجوع في السنين العجاف •

ـ تسلية القن :

لم تكن حياة القن تخلو من بعض ضروب الترويح عن النفس • فإذا حضر إلى الضيعة أحد الحواة أو المهرجين أو رواة القصص ، أو المنشدين ، استبقاه سيد

الضيعة ودعا الفلاحين للمشاهدة والاستماع إلى هؤلاء في حديقة قصره • وفي العصور الوسطى لم تكن عقلية السيد الاقطاعي تختلف كثيراً عن عقلية القن ، إذ كان ما يدخل السرور إلى قلب أحدهما كفيلاً بإدخال السرور إلى قلب الآخر •

ـ المرأة (زوجة القن وابنته) :

إذا كانت زوجات السادة الاقطاعيين وبناتهم قد تمتّعن بقسط من الراحة والتسلية ، فإن زوجات الأقنان وبناتهم حُرمْنَ من هذه النعمة ، لأن قسوة الحياة أجبرتهن على الكفاح والعمل إلى جانب الرجل من أجل الحصول على لقمة العيش • لقد قامت المرأة الفلاّحة بإعداد الطعام والشراب والملبس إلى جانب تربية أولادها داخل المنزل ، كما أسهمت خارج المنزل في بناء الأكواخ وقطع الأعشاب وجمع المحصول وتخزينه • كذلك رحلت بعض الفلاحات من غير المتزوجات والأرامل والعانسات إلى المدن المجاورة ، فاشتغلن في صناعة الجعة والنبيد ، أو غزل الأصواف ونسجها • وكانت هنالك بعض النساء اللواتي أقبلن على الحياة الديرية التي هيأت لهن قسطاً من الثقافة والعمل المفيد (٣٦) •



الشكل رقم (١١)

كوخ الفلاح الفن

الملحق الأول

النظـــام الاقطـاعي

١ ـ يمين التبعية :

يجعل الرجل يديه معاً ، للدلالة على الخضوع والضعة ، ويضعهما بين يدي سيده ، رمزاً لأنه ينذر له كل شيء ، وأنه يبذل الولاء له • فيقبله السيد ويعده بالمحافظة على إيمانه به • وعندئذ يردد الرجل : « سيدي ، إنني أدخل في تبعيتك وعهدك ، وصرت رجلك بالقول والإشارة (أي بحلف اليمين ، ووضع اليدين بين يدي السيد) ، وإني لأقسم وأعد بأن أحافظ على العهد والولاء لك ، إزاء كل الآخرين ، وأن أبذل ما بوسعي من قوة للذود عن حقوقك » •

٢ ـ يمين اخرى للتبعية :

مقـدمة :

تبين الوثيقة التالية ما ساد العلاقة الاقطاعية فعلاً من اضطراب وفوضى • إذ حاز التابع ، في هذه الحالة ، الأرض من أربعة من السادة الاقطاعيين ، وبذل لهم جميعاً التبعية ، وأقسم لهم يمين الولاء ، ودان لهم جميعاً بالخدمة العسكرية • والمعروف أن التابع إنما يبذل تبعيته لسيد إقطاعي واحد ، هو السيد الأكبر ، وهو الذي يدين له قبل كل شيء بالخدمة •



إنني يوحنا سيد تول ، أعلن أنني تابعٌ أصيل للسيدة بياتريس كونتيسة تر
وابنها ثيوبالد ، كونت شمبانيا ، إزاء كل مخلوق ، حياً كان أو ميتاً ، باس
ما بذلته من يمين الولاء للسيد انجوراند كونت كوسى ، والسيد يوحنا ك
اركيس ، فضلاً عن كونت جراندبريه ، فإذا حدث أن أعلن كونت جراندبر
لما حدث من نزاع ، الحرب على الكونتيسة ، وكونت شمبانيا ، فسوف
شخصياً بمساعدة كونت جراندبريه ، وسأبعث للكونت ، وكونتيسة شـ
الفرسان اللازمين لتأدية ما أدين به من الخدمة لهما (الكونت والكونتيسة
الاقطاع الذي حصلت عليه منهما ، أما إذا أعلن كونت براندبريه الحرب على كو
وكونت شمبانيا ، لصالح صاحبه ، وليس لما وقع من نزاع ، فسوف أنهض شخ
لمساعدة كونتيسة وكونت شمبانيا ، وأبعث بفارس واحد إلى كونت جراند
ليؤدي ما أدين به له من الخدمة عن الاقطاع الذي حصلت عليه منه . غير
سوف لا أتوجه إلى بلاد جراندبريه لقتاله .



الشكل رقم (١٢)
الأمير الإقطاعي في قصـره

الملحق الثاني

واجبـات التـابع

حسبما اوردها فولبرت اسقف شارتر (سنة ١٠٢٠)

هذه الفقرة مستمده من رسالة كتبها إلى وليـم دوق آكيتانيا ، الأسقف فولبرت ، الذي يُعَدُّ من أشهر علماء القرن الحادي عشر الميلادي • ويركز الأسقف اهتمامه على واجبات التابع نحو سيده •

★ ● ★

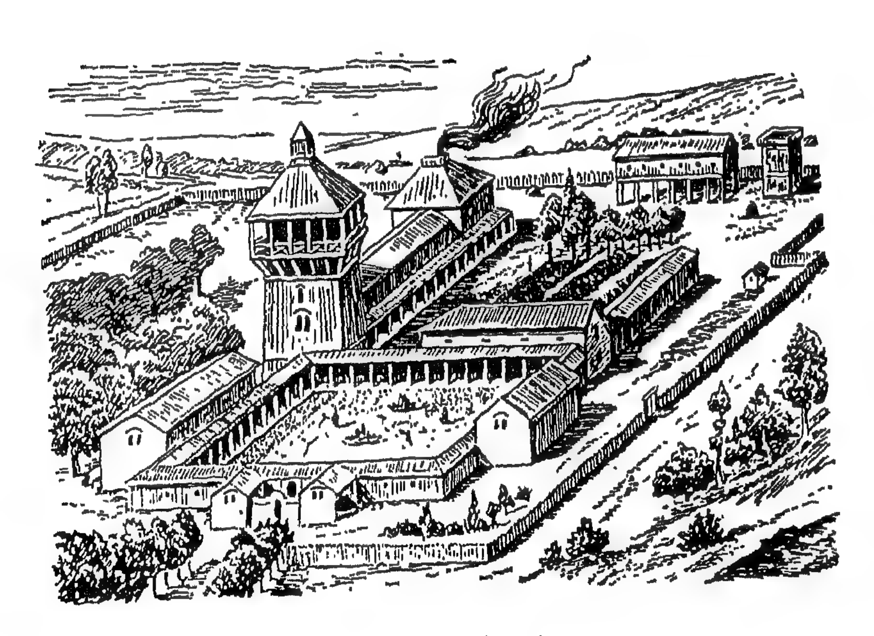
وإذا سألتني أن أكتب عن صيغة يمين الإخلاص أوجز هنا ما يرتبط بهذه اليمين من أمور •

كل من يحلف يمين الولاء لسيده ، ينبغي أن يعي في ذاكرته ، هذه الأمور الستة • التي تتمثل في اجتناب الضـرر ، والتزام السلامة ، والشرف ، والنفع والسهولة ، وتأدية ما كل باستطاعة أن يفعله •

والمقصود من تجنب الضرر ، هو ألا يلحق (التابع) الأذى بجسد السيد ، أما السلامة فتقضي بألا يضر سيده بإفشاء أسراره ، أو تسليم قلاعه التي يستند إليها في المحافظة على سلامته • والمقصود بالتزام الشرف أنه لا يؤذيه في عدالته ولا في كل الأمور التي تتعلق بشرفه ، ويتمثل نفعه في أنه لا يعتدي على أملاك سيده ، أما السهولة فالغرض منها ألا يمنع التابع سيده من فعل الخير ، أو يعسّر لسيده من الأمور ما في وسع السيد أن يقوم بها •

ومع ذلك ، فإنه إذا كان من الصواب أن يتجنب التابع المخلص هذه الأضرار ، فإنه لم يحز إقطاعه مقابل هذا وحده ، إذ ليس كافياً أن يمتنع التابع عن ارتكاب الشر ، بل ينبغي أيضاً أن يفعل الخير . ولذا ينبغي أيضاً أن يخلص في بذل المساعدة وإسداء النصيحة لسيّده في الأمور الستة التي سبق الإشارة إليها ، إذا أراد التابع أن يكون جديراً بإقطاعه ، وأن يكون موطن الثقة التي تنطوي عليها يمين الولاء .

وينبغي على السيد من جانبه أن يؤدي للتابع المخلص ما التزم التابع أن يؤديه له من كل هذه الأمور . فإذا لم يفعل ذلك ، فيعتبر مذنباً سيء النية .



الشكل رقم (١٣)
منزل أمير فرنجي (في القرن السابع)

الملحق الثالث

قيام ارستقراطية ملاك الأراضي

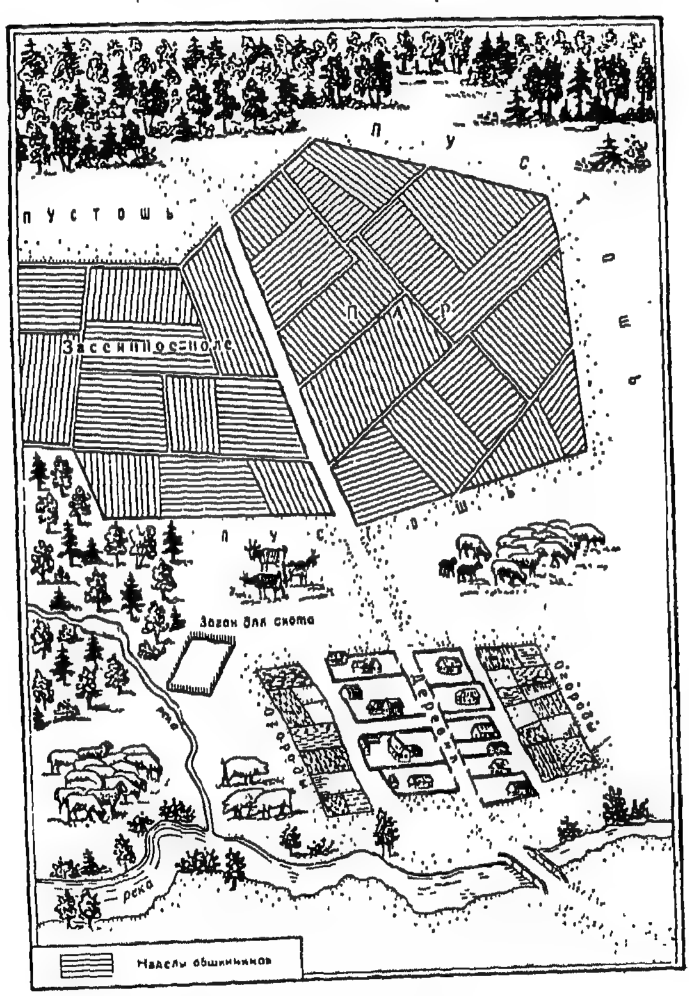
مقـدمة :

فيما يلي معاهدة عُقدت بين اثنين من ملوك الميروفنجيين ، جونترام ملك برجنديا ، وشلدبرت الثاني ، ملك أوستراسيا ، وهي تشرح ما اتخذه الملكان من إجراء ببذل الأراضي لأتباعهما وموظفيهما . وتُعَدُّ هذه المعاهدة بالغة الأهمية في قيام أرستقراطية ملاك الأراضي :

★ ● ★

وفقاً لما عُقِدَ من معاهدات بين جونترام وسيجبرت ذوي الذكرى العاطرة ، تم الاتفاق على أن من بذل من أولئك الأتباع يمين الولاء للملك جونترام ، بعد وفاة الملك كلوثار الأول ، ثم انتقلوا إلى أراضي أخرى ، ينبغي أن يعودوا من الأراضي التي يحلون بها الآن . وتم الاتفاق أيضاً على أن أولئك الذين أقسموا يمين الولاء لسيجبرت ، بعد وفاة كلوثار الأول ، فانتقلوا بذلك إلى بلاد أخرى ، ينبغي أن يعودوا على النحو الذي سبق الإشارة إليه . وعلى هذا القياس ، ما بذله الملكان اللذان سبق ذكرهما ، أو أرادا ، برضى الله ، أن يبذلاه من الأراضي للكنائس ورعاياهم المخلصين لهم ، ينبغي أن يبقى بحوزة الكنائس أو الرعايا . وكل ما صار بهذه الوسيلة قانوناً وعدلاً لأحد رعايا كل من الملكين ، ينبغي أن يبقى

بيد ذلك الشخص على أنه ملك له • وينبغي أن يطمئن كل شخص على ما حازه من نعم الملوك السابقين ، حتى وفاة كلوثار الأول وكل ما جرى انتزاعه من الرعية منذ ذلك الحين ، لابد من رده إليهم على الفور • وتم الاتفاق أيضاً أنه لا يجوز لأحد من الملكين أن يغوي أتباع الملك الآخر ، ولا أن يقبلهم عنده • أما إذا اعتقد بعض الأتباع أن لديهم من الدواعي ما يحملهم على التخلي عن ملكهم ، لما أنزله بهم من الأضرار ، فلابد من تعويضهم عن هذه الأضرار وإعادتهم •



الشكل رقم (١٤)

مخطط قريـة فلاحيـة

الملحق الرابع

الاقتصـــاد الــزراعى

لعل خير وسيلة توقفنا على صورة الاقتصاد الزراعي في القرن التاسع • هي أن ندرس ما ورد في سجلات دير من أكبر الأديرة بالامبراطورية الكارولنجية في مساحة أراضيه ، وهو دير القديس جرمين دي بريه في باريس • جرت هذه الدراسة زمن ايرمينو رئيس الدير (٨١١ — ٨٢٩) ، وتصف معظم ضياع الدير ، والمعروف أنها تناولت أصلاً وصف جميع ضياع الدير ، غير أن الوثيقة ليست كاملة ، وأهم ما ضاع منها ذلك الجزء الذي يتعلق بالأراضي التي بذلها الدير إقطاعات • ومع أن مساحات الأراضي الواردة فيما تبقى من الوثيقة لم تؤلف إلا نحو نصف كل ما يملكه الدير من الأراضي ، فإنها تعدّ بالغة الأهمية ، ولا تتوقع الدقة في مساحة الأراضي ، نظراً لاختلاف المقاييس من مكان إلى مكان ، وما ورد هنا من إحصائيات يدلّ على ما كان للدير من ثروة :

أولاً — ضيعة السيد (الدير) :

أراضي صالحة للزراعة	٦٫٠٤١	هكتار
أراضي الكروم	١٩٦ر	هكتار
أراضي المراعي	١٧٦ر	هكتار
أراضي الكلأ	٦½ر	هكتار
أراضي المستنقعات	١½ر	هكتار
أراضي الغابات	١٠٫٩٢٢	هكتار
المجموع	١٧٫٣٤٥	هكتار
أي	٤٢٫٨٥٥	فداناً إنجليزياً

ثانياً — أراضي المستأجرين (الحائزين) :

أراضي صالحة للزراعة	١٦ر٠٨٨	
أراضي الكروم	٢٣١ر	
أراضي المراعي	٣٢٧ر	
أراضي الكلأ	٨٦ر	
أراضي المستنقعات	—	
أراضي الغابات	٧٧ر	
المجموع	١٦ر٩٠٩	هكتار
أي	٤١ر٧٨٢	فداناً إنجليزياً

تدل هذه الأرقام على الفرق الشاسع بين أرض ضيعة السيد ، وأرض المستأجر • والمقصود بأرض الضيعة ، الأرض التي اختص بها السيد ، الذي اختص بكل إنتاجها • وفي هذا المثال ، كان المفروض من الناحية النظرية ، أن يختص الدير بكل ما ينتج من أراضيه من محصول ، كيما يستهلكه الرهبان • أما أرض الحيازة فهي التي ينالها المستأجرون مقابل قيامهم على زراعة أرض الضيعة ، ولا يتقاضى أربابها أجوراً ، بل يحوزون أراضي مقابل ما يطلبه منهم السيد من حرث الأرض ، وحصاد المحصول ، ونقله بالعربات ، وغير ذلك من الخدمات • ولذا خضعوا لسلطة موظف يختارونه من بينهم ، اشتهر باسم مقدم (Maior) .

ومن مزايا هذا النظام ، أنه لم يعد لاستعمال النقود أهمية مطلقاً • على أنه ينبغي ألا نغفل حقيقة مهمة ، هي ما التزم به المستأجرون من تأدية رسوم أخرى ، فضلاً عن خدمات العمل • فأراضي المستأجرين التي بلغت مساحتها : ٤١ر٧٨٢ فداناً ، تؤدي المقررات الآتية :

	ب	ش	حـ
إيجارات نقدية	٥	٩	١١٥
حصان	عدد	٤	
ثــور	عدد	٥٥	
عجل بقر	عدد	١	
خروف	عدد	١	
نعجــة	عدد	٢٨٨	
حمل (خروف صغير)	عدد	٩٦	
خنزير	عدد	٩٦	
نبيــذ		٢ر١٣٩	مد
شعير		١٦٥	سيستر (مكيال)
قمــح	—	٩٧ر٥	مد
حنطة	—	١ر٠٤٧	مد
شوفان		٧٧	مد
خردل		٥٨	سيستر (مكيال)
حشيشة الدينار		٢٠	(مد) ٧٧ سستر
عربات نقل	عدد	٢	
أخشاب الوقود	عدد	١١	حزمة
ألواح خشب رقيقة		١٠٥	قطعة
ألواح خشب للمنافذ		٤٦	قطعة
ألواح خشب صغيرة		٢٥ر٤٥٨	قطعة
أضلاع براميل		١ر٠١٧	حزمة
أطواق		٥٠٨	
أغصان لصناعة السلال		٣٠٥	حزمة
كتاكيت	عدد	٥	
بيض	عدد	٣٠	

حديد	٢	رطل
مشاعل	عدد	٤٤٠

هذه القائمة تحتوي ما هو مقرر على أرض المستأجرين من رسوم ، ولا يدخل فيها شيء مما يتحصل من أرض السيد . ولنا أن نتساءل هل استهلك رهبان هذا الدير ، الذين لم يتجاوز عددهم ٢١٠ ، كل هذه المقررات فضلاً عن إنتاج ضيعة السيد (الدير) ؟ فإذا افترضنا كثرة عدد خدام الدير ، وما يبذله من ضيافة لكبار الزائرين مع حواشيهم ، فلا بد أن توافر للدير بعد كل ذلك ، فائض كبير من المحصولات الزراعية يستطيع أن يبيعه بالأسواق .

فإذا رجعنا إلى الضياع ذاتها ، فلا بد من الوقوف على مساحتها ، التي بلغت ٨٤٫٦٣٧ فداناً ، بعد خصم ما بذل من الاقطاعات . وباستثناء بعض المناطق بجنوب غربي فرنسا ، وسهل سكسونيا ، اشتد نزوع الفلاحين الأحرار إلى الاستسلام إلى السادة بكل ما يملكون من أراضي . ذلك أن الملاك الفلاحين اكتشفوا أن الحرية عبء ثقيل الوطأة . إذ كان لزاماً عليهم أن يحضروا إلى دار الكونت ، ويؤدوا الخدمة العسكرية ، شديدة الإرهاق ، فضلاً عن ضرورة استخلاص معاشهم مما يحوزون من الأراضي التي تبلغ مساحتها ثلاثين فداناً . ففي سنوات الرخاء ، كان بوسعهم أن يؤدوا كل تلك الواجبات ، أما في السنة التي يخيب فيها المحصول ، كان مستحيلاً على الفلاح أن يتوافر له العدة الحربية اللازمة لتأدية الخدمة العسكرية ، فيصير بذلك تحت رحمة رجال الملك ، ولم يسع الفلاح عندئذ إلا أن يسلم أرضه للسيد ، فيعطيه السيد حيازة الأرض ، ويتحمل بالنيابة عنه مسؤولية الخدمة العسكرية .

والملحوظة الأخرى ، هي أن ثلث أراضي الدير كانت أرض غابات ، وليست هذه نسبة عالية ، نظراً لأن معظم أراضي الدير تقع على مسافة خمسة وعشرين أو ثلاثين ميل من باريس ، ولذا لم يتجاوز الحد العادي للغابات الكثيفة . ومع أنه كان من إنجازات العصور الوسطى المهمة إزالة الغابات ، فإن إزالة الغابات لم تبدأ إلا حديثاً في القرن التاسع عشر (٢٧) .

الفصل الثاني

العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في المدن

المدن ـ الصناعة ـ التجارة

ـ المـدن الرومانيـة :

كان العمران المدني من أهم مهمات الأباطرة وأعظمها في القرنين الأول والثاني الميلاديين ، وكانت ثروة المدن دليلاً واضحاً على الرفاه في عهد الامبراطورية العليا . ولقد تمتعت تلك المدن بحرية ساعدتها على الاتساع والنمو ، كما أسهم في نموها الأمن الذي ساد آنذاك . وتزينت تلك المدن بالمباني العامة ، مثل أقواس النصر والمعابد والمدرجات والمسارح والحمامات والقصور التي تسكنها الارستقراطية المحلية . وفي ذلك العصر لم يتجاوز عدد السكان في معظم مدن أوروبا الغربية عشرة آلاف نسمة ، على الرغم من وجود مدرجات وملاعب فيها يستوعب الواحد منها (٢٤٠٠٠) من المشاهدين ، أما مدينة روما فقد بلغ عدد سكانها في القرن الثالث نحو (٤٠٠ر٠٠٠) نسمة ، وبهذا العدد تضاهي أو تفوق أكبر مدن الشرق مثل الاسكندرية وانطاكية وغيرهما .

كانت المدن الرومانية في عصر الامبراطورية العليا تشكل أوطاناً صغيرة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، او مستعمرات تدار بحرية تامة تحت رعاية الامبراطور . وكان سكان المدن يفخرون بمدنتهم ، كما كان الأغنياء منهم يبذلون المال بسخاء في تزيين تلك المدن .

وجاء القرن الثالث بالشؤم على العمران المدني . وقد حمل البرابرة قسماً من المسؤولية في حدوث ذلك الشؤم والانحطاط .

فالذعر الذي سببته الغارات البربرية الأولى في عامي ٢٥٧ ، ٢٧٥ دفع الغاليين الرومانيين إلى إحاطة المدن بالأسوار ، بعد أن كانت مفتوحة • وقد بدّل بناء تلك الأسوار منظر المدن • فبعد أن كانت آخذة بالاتساع في الامبراطورية العليا ، إذ بها تقتنص بسبب الغارات البربرية • وأدّى حصر المدن بالأسوار إلى التضحية بقسم من منشآتها العمرانية • ففي كثير من المدن بقي المسرح والملعب خارج السور ، وكذلك بعض القصور (الفيلات) التي يسكنها الارستقراطيون ، إذ أنها كانت تبنى غالباً في أطراف المدن • وبنتيجة ذلك أصبح منظر المدن كئيباً ، كما تألمت الحياة الداخلية فيها من هذا التحول •

وإذا كانت الغارات البربرية الأولى سبباً من الأسباب الخارجية التي دفعت الارستقراطيين إلى الهجرة من المدن إلى الأرياف ، فهنالك سبب آخر داخلي ساعد على الإسراع بهجرة هؤلاء الارستقراطيين • ففي زمن السلام والاستقرار والرفاه أعطى الأباطرة الأنطونيون الحرية للمدن ، وعملوا على نهضة الحياة البلدية فيها • غير أن الوضع قد تبدل في عهد الأباطرة السيفيريين ، الذين قلقوا من تزايد حرية المدن وإسراف بلدياتها في الإنفاق على منشآتها العمرانية الخاصة ، فبدأوا يطبقون رقابة شديدة عليها ، وما لبثت تلك الرقابة أن تحولت مع الزمن إلى وصاية ضيقة • فقد عُيّنَ لكل مدينة عامل امبراطوري ، فأصبح هذا العامل سيدها الحقيقي ، بينما جُرّد مجلسُ شيوخ المدينة والحكامُ البلديون فيها شيئاً فشيئاً من امتيازاتهم وسلطاتهم ، ولم يبق لهم سوى توزيع الضرائب بين المواطنين وفرضها عليهم • وبنتيجة هذا الاستبداد الامبراطوري ، الذي ضيق حرية المدن ، ترك الارستقراطيون الوظائف الكبيرة ، وكفّوا عن الإسهام في إدارة مدنهم ، ثم رحلوا إلى الريف ، حيث أضحت الأرض المغذية الحقيقية لهم والمجهزة الأساسية بالخيرات المادية • وعلى هذا النحو غدت الطبقة الارستقراطية في القرنين الرابع والخامس تملك الأراضي الزراعية ، كما تبدلت سيماء المدن الداخلية بعد أن هجرها الارستقراطيون الأغنياء •

بالإضافة إلى ذلك حلّ الجنود البرابرة وزعماؤهم في المدن الواقعة على

الحدود ، وتدريجاً أصبحوا سادة المدن الحقيقيين • وهذا الأمر أدى إلى حدوث تغيير في عادات المدن وتقاليدها •

كذلك طبعت الكنيسة المسيحية المـدن بطابعها الخاص ، بعد أن انتشرت الديانة المسيحية فيها • وبينما كانت الحياة البلدية تشرف على الأفول وتغادر الارستقراطية المدن ، كانت تلك المدن تستقبل العبادة المسيحية الجديدة • بعد ذلك أضحى أساقفة المدن حماة لها يدافعون عنها ضد الغارات البربرية • وعندما رأى الرومانيون أن أباطرتهم قد تخلّوا عنهم ، التمسوا ملاذاً لدى البابا والأساقفة لتنظيم الدفاع عن مدنهم ضد الغزاة البرابرة •

إذا كانت الغارات البربرية الكبرى قد اسهمت بحركة انحطاط المدن التي بدات في القرن الثالث ، فان تلك الغارات ، لم تزعزع النظام الاقتصادي في الغرب الاوروبي، وإنما ادت إلى تباطؤ النشاط الاقتصادي شيئاً فشيئاً • وقد ظهر ذلك الانحطاط الاقتصادي في اوروبا الغربية قبل الفتح العربي الإسلامي ، الذي ضرب الاقتصاد الأوروبي القديم ضربة قاصمة ، إذ افضى إلى إقفال البحر الأبيض المتوسط في وجه التجارة الأوروبية (١) •

ـ انهيار المدن الرومانية القديمة :

تعرضت الامبراطورية الرومانية في القرن الثالث الميلادي لأزمة اقتصادية عرفت بـ « أزمة نظام العبودية » ، إذ أن اعتماد الاقتصاد على عمل طبقة العبيد أدى إلى تقهقر الإنتاج الزراعي والصناعي وشلل التجارة • وعانت المقاطعات الامبراطورية الغربية من نتائج تلك الأزمة الاقتصادية أكثر مما عانته المقاطعات الشرقية ، لأن عدد العبيد في الغرب أكثر من الشرق ، كما قام الاقتصاد في المقاطعات الغربية على جهود العبيد بصورة رئيسة • وكان مردود عمل العبيد ضعيفاً ، لأن العبد الذي يعمل تحت الضرب بالسوط مقابل قوت يومي لا يكاد يسد رمقه ، ليس له مصلحة في زيادة الإنتاج ، لا بلْ سيحاول تخريبه وتعطيله حين تغفل عنه

أعين المراقبين • كذلك يتمرد العبيد مراراً ضد أسيادهم ، واتخذت بعض التمردات طابع الثورات الشعبية ضد السلطات الرومانية ، مما أوقع البلاد بحالة من الفوضى والاضطراب • هذا وقد زاد الأزمة الاقتصادية والسياسية توتراً وخطراً تدفق الغارات البربرية على أراضي القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية •

أدى تفاقم الأزمة إلى انحطاط الصناعة وشلل التجارة في مدن القسم الغربي من الامبراطورية الرومانية ، فالكثيرون من العاملين في حقلي الصناعة والتجارة خرجوا من إيطاليا إلى الولايات الشرقية ووظفوا أموالهم فيها • ولم يعد أصحاب الأراضي الواسعة في الغرب بحاجة ماسّة إلى شراء المصنوعات من المدن ، حيث أصبح لديهم عدد كبير من العبيد والكولون الذين يقدمون لهم مختلف الخدمات الصناعية (كالنجارة والحدادة والخياطة والعمارة وغير ذلك) ، فهم لا يذهبون إلى سوق المدينة إلا لشراء المصنوعات الثمينة النادرة ، كالحرير الصيني والعطور والبهارات ، وما شابه ذلك • وعندما تعطلت الصناعة والتجارة اضطر التجار الكبار إلى تصفية أعمالهم التجارية وشرعوا يشترون الأراضي الزراعية ويستثمرونها بجهود العبيد والكولون • وأما التجار الصغار فقد أفلسوا بسبب ما أرهقتهم به الدولة من ضرائب لا قبل لهم بها • وهكذا فقدت روما والمدن الايطالية سيطرتها الاقتصادية التي كانت قد اكتسبتها في حروب التوسع المتتالية • وأما أنتاجها الصناعي الذي كانت تنتجه في السابق بالكميات الكبيرة فقد تقهقر وتدنّى من حيث الكمية والنوعية •

أما القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، فعلى الرغم من تأثره بأزمة القرن الثالث الاقتصادية ، لم يعانِ ما عاناه القسم الغربي من شلل في الحياة الاقتصادية ، لأن المقاطعات الشرقية لم يقم اقتصادها على جهود العبيد بصورة رئيسية كما هو الحال في المقاطعات الغربية ، وإنما كثر فيها الفلاحون الأحرار والصناع الأحرار • كذلك حافظت مدنها على نشاطها الصناعي والتجاري الموروث عن العهود القديمة والعهد الهيلينستي •

كانت المدن في العصر الروماني مراكز أساسية لتموين الريف والمناطق المجاورة بالمنتوجات الصناعية . ولكن بدءاً من القرن الرابع بدأت المدن تفقد مكانتها كمراكز رئيسة للصناعة والتجارة والتبادل ، حيث أخذت تنشأ في القرى صناعات ريفية تكاد تكون كافية لسد الحاجات المحلية ، فتضاءلت بنتيجة ذلك حاجة الريف إلى مصنوعات المدن . كذلك ساءت نوعية المصنوعات ذات الاستعمال الواسع ، إذ أدى افتقار الفلاحين وتحول معظمهم إلى كولون إلى انحطاط في نوعية المصنوعات الضرورية لهذه الطبقات الفقيرة ، حتى ولو كانت مصنوعة في المدن .

وكانت إدارة المدينة ملقاة على عاتق أعيانها ، فالتزمت فئة منهم تسمى « الكوريال » (وهم موظفو البلدية) بمسؤولية جباية الضرائب المقررة على المدينة وما جاورها من القرى . وانتظم صناع المدن وتجارها في نقابات مهنية كلاً حسب مهنته . وكان لكل نقابة رئيس منتخب أو معين يشرف على تنظيم أمور النقابة وتنفيذ الواجبات الملقاة على عاتقها . وفرضت الدولة على أعضاء النقابات ضريبة مالية وواجبات أخرى متنوعة ، كتقديم حصة من إنتاجهم للدولة ، أو تنفيذ بعض الأعمال دون أجرة . ومن ناحية أخرى خصّت الدولة تلك النقابات ببعض الحقوق والامتيازات ، كحماية مصنوعاتهم المحلية من المنافسة وغير ذلك . وكان عمال مصانع الدولة (كمصانع السلاح والنقود) معفيين من ضريبة الرؤوس ، لكنهم مرتبطون بمهنتهم مدى الحياة ، ويوسمون بالحديد المحمّى على أيديهم ، ليعرفوا في حال هربهم ويعادوا إلى أماكن عملهم من قبل السلطات .

منذ القرن الثالث الميلادي بدأت المدن بالانهيار ، وأخذ الريف ينفصل عن المدينة، كما لجأ إليه كبار الملاكين فاستقروا في ضياعهم وأملاكهم الزراعية .

وكان كبار الملاكين من الموظفين الكبار أو من سلالة القادة العسكريين ، لذلك تمنّعوا عن دفع الضرائب المفروضة على أراضيهم ، أو دفعوها منقوصة ، مما أدى إلى إفلاس خزائن المدن وانهيارها . كذلك أقام هؤلاء الملاكون الكبار المصانع الخاصة في ضياعهم لسد حاجاتهم ، وكانت تعرف باسم « جينيسيا » Genecea

وعمل في تلك المصانع العبيد فأنتجت من السلع ما جعل أهل القرى يستغنون بها عن مصنوعات المدن .

وكلما تداعت الصناعة في المدن حل مكان التاجر (صاحب المهنة) بائع متجول . ولم يمتهن التجارة إلا فئة قليلة من السكان المحليين . وفي زمن الغزوات البربرية الجرمانية أضحت فئة التجار في الغرب الأوروبي من الأجانب ، وبخاصة السوريين واليهود ، الذين كانوا يمارسون تجارة الرقيق والتحف والتوابل والعطور وأدوات الترف الواردة من الشرق ، والتي لم يتقبل على شرائها سوى الملوك والأمراء وكبار الموظفين والملاكين [٢] .

- اثر البرابرة الجرمانيين والعرب المسلمين في حياة المدن الاقتصادية في ضوء نظرية بيرين :

سادت في أوروبا حتى القرن العشرين فكرة مفادها ، أن انحلال الامبراطورية الرومانية والحضارة القديمة كان بسبب الغارات البربرية الجرمانية . لكن هذا الحكم مبالغ فيه ...

وقد خطاه المؤرخ البلجيكي هنري بيرين في كتابه (محمد وشارلمان ، الذي نشر في باريس في سنة ١٩٣٦ م .

يقول بيرين : إن ما يميز العالم القديم طابعه الخاص ، وهو طابع البحر الأبيض المتوسط ، لأن حضارته كانت متمركزة على هذا البحر . وإن عظمة روما ترجع إلى أنها عرفت كيف تجعل من هذا البحر حوضاً داخلياً في امبراطوريتها . ولقد دام العالم القديم بدوام اقتصاد البحر المتوسط . ودلل بيرين على أن الغارات البربرية لم توقف هذا الاقتصاد على الرغم من الاضطرابات التي أحدثتها في حياة الامبراطورية . ولكن الضربة القاصمة كانت على يد الفتح العربي الإسلامي . وعلى هذا لم يكن آلاريك أو آتيلا أو أدواكر أو كلوفس المسؤول الحقيقي عن سقوط الحضارة القديمة ، بل العرب المسلمون ، لأنهم استطاعوا إغلاق البحر

الأبيض المتوسط في وجه المسيحيين الأوروبيين • وهذا الإغلاق جر على اقتصاد العالم الأوروبي نتائج عديدة منها :

١ ــ إنهاء التجارة والمبادلات مع الشرق •

٢ ــ خراب الحياة العمرانية في المدن الاوروبية التي كانت تغذيها اقتصاديا المبادلات مع الشرق •

٣ ــ إلزام الغرب الاوروبي بان يعيش على الاكتفاء الذاتي •

٤ ــ نشوء اقتصاد زراعي مغلق في اوروبا يقتصر على الموارد الزراعية المحلية•

لم يكن لدى المؤرخ البلجيكي بيرين وثائق تاريخية اقتصادية كافية ليثبت فيها صحة نظريته ، لكنه جمع عدة علائم ليدلل بها على أن التحول الاقتصادي في أوروبا قد وقع إبان الفتح العربي الإسلامي ، ولم يفعل ذاك الفتح فعله إلا في بداية العصر الكارولنجي (أي في القرن الثامن) • وتلك العلائم التيلاحظها بيرين بنتيجة دراساته هي :

١ ــ زوال النقود الذهبية من أوروبا بعد أن كانت تصنع بكثرة في عهد الفرنجة الميروفنجيين •

٢ ــ انقطاع ورق البردي المستورد من مصر ابتداء من القرن السابع ، واستبدال النساخين الغاليين رق الحيوانات به •

٣ ــ إضاءة الكنائس بالشموع المصنوعة في أوروبا ، بعد أن كانت تضاء بزيت الزيتون المستورد من شمال إفريقيا •

٤ ــ توقف استخدام الأقمشة والمنسوجات الشرقية في أوروبا •

٥ ــ توقف استخدام النبيذ الفلسطيني ، الذي كان يستعمل في الطقوس الدينية في كنائس الغرب الأوروبي •

٦ ــ توقف استعمال التوابل في الغرب الأوروبي •

ويصل بيرين في نهاية تحليلاته إلى نظريته القائلة بما يلي :

١ – إن الامبراطورية الرومانية لم تسقط بنتيجة الغارات البربرية الجرمانية في القرنين الرابع والخامس ، لأن الجرمان لم يغيّروا الأوضاع الراهنة في هذه الامبراطورية .

٢ – لا تعدّ الغارات البربرية الجرمانية نقطة نهاية للعصور القديمة أو نقطة بداية للعصور الوسطى .

٣ – إن الفتوحات العربية الإسلامية التي أدت إلى فرض سيطرة العرب على معظم شواطىء البحر المتوسط ، هي التي أدت إلى سقوط الامبراطورية الرومانية وانهيار الحضارة المدنية القديمة في أوروبا .

٤ – إن الفتوحات العربية الإسلامية في القرن السابع ومطلع القرن الثامن تعدّ خاتمة العصور القديمة وبداية للعصور الوسطى ، التي تبدأ تحديداً بقيام امبراطورية شارلمان في أواخر القرن الثامن .

في أول الأمر بدت نظرية هنري بيرين جذّابة للعلماء الأوروبيين ، الذين ظنوا أن بيرين حسم قضية انهيار العالم القديم وبداية العصور الوسطى . ولكن فيما بعد تمكن الباحثون الأوروبيون المتخصصون في التاريخ الاقتصادي لمنطقة حوض البحر الأبيض المتوسط في العصور الوسطى ، وبخاصة لوبيز ودانيت وأرشيبالدلويس ونورمان بينز وغيرهم ، من كشف القناع عن زيف نظرية بيرين والمغالطات التي اعتمد عليها للوصول إلى استنتاجاته وآرائه . وهكذا تهاوت نظرية هنري بيرين أمام البحث العلمي الموضوعي ، إذ أثبت العلماء المتأخرون أن الفتوحات العربية الإسلامية ليست هي المسؤولة عن انهيار الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، وإنما كان انهيار تلك الامبراطورية بنتيجة أزمات داخلية وخارجية أخذت تدبّ فيها منذ القرن الثالث الميلادي ، وبالتالي فإن بداية العصور الوسطى أخذت ترتسم معالمها بوضوح في العالم الروماني خلال القرنين الرابع والخامس الميلاديين — أي مع الانحلال الداخلي لهذا العالم ، الذي ترافق مع الغزوات البربرية الجرمانية التي فتحت عصراً جديداً في التاريخ الأوروبي .

لقد كان للحضارة الرومانية القديمة طابع عمراني وصناعي وتجاري • وتلك الحضارة التي تفتحت في القرن الثاني الميلادي في عهد الامبراطورية العليا ، كانت في الواقع حضارة شرقية • ففي إغريقية (اليونان) وأيونيا وسورية ومصر ازدهرت المدن وتوطدت حضارتها بفضل الملكيات الهيلينستية • وفيما بعد قلدت روما تلك الملكيات ونقلت فن العمران المدني إلى الغرب الأوروبي ، فحولت قراه البدائية في إيطاليا وغاليا وإسبانيا إلى مدن غنية مأهولة بالسكان • كان ذلك الجهد عظيماً ، لكنه اصطناعي ، وعيبه أنه كان متأخراً ومنصباً على توسيع العمران المدني • ولم يعش ذلك الرفاه الاقتصادي بعد الظروف الاستثنائية التي تمتعت بها الامبراطورية الرومانية في ظل الأباطرة الأنطونيين • فعندما زالت تلك الظروف السعيدة في القرن الثالث الميلادي ، حل الانحطاط سريعاً وبدا التباين بين الغرب الآخذ بالأفول ، والشرق الذي ظل محافظاً على اقتصاده العمراني التقليدي القديم منذ قرون عديدة •

إن الاختلاف بين الغرب والشرق كان موجوداً قبل الغارات البربرية الجرمانية وقبل الفتح العربي الإسلامي • أما العوائق التي وضعها الفتح العربي الإسلامي في طريق الملاحة الأوروبية في البحر الأبيض المتوسط فلم تكن إلا وقتية ، كما لم يكن لها تلك النتائج التي استخلصها هنري بيرين ، وهي لم تزعزع اقتصاد العالم الغربي لو لم يكن هذا الاقتصاد ملحقاً بالشرق منذ عصور مديدة • ذلك أن مطاليب السكان المدنيين في إيطاليا وغاليا وضرورة تموينهم بالحبوب ، لم تكن لتتأمن إلا باستيرادها من آسيا ومصر وشمال إفريقية • كما أن روما كانت مدينة طفيلية لا تستطيع أن تعيش على مواردها الخاصة وموارد البلاد المجاورة لها التي حاصرها الفتح العربي الإسلامي ، الذي حكم على أوروبا الغربية بالانطواء على نفسها وجعلها تعتمد على اقتصادها الزراعي • وقد أدى انحطاط الغرب الأوروبي وعدم قدرته على الاستغناء عن باقي أقاليم الامبراطورية الرومانية ، وبخاصة الشرق ، إلى السقوط الذي وصفه بيرين •

إن توسع نفوذ الدولة الرومانية بأخذ كل شيء على عاتقها كانت له فوائده

من الناحية السياسية ، لكنه أدى بالمقابل إلى تفاقم الأزمة الاقتصادية . لقد كانت الضرائب باهظة ، لذا هجر الأغنياء المدن وتهدمت الطبقات الوسطى ، كما قامت الثورات وحركات العصيان بسبب التكاليف الساحقة التي تثقل كاهل الفقراء .

وكذا أدى عدم الأمن الناجم عن أعمال السلب والغارات البربرية الأولى إلى جعل المواصلات الداخلية في خطر وشلّ حركة التجارة . وعلى هذا النحو أصيبت حياة المدن بفقر دم شديد أدى بها إلى الإعياء والتقلص والانحطاط . ومن علائم ذلك الانحطاط سيْرُ الذهب في اتجاه الشرق ، واستيراد الغرب دون مقابل يعوض ما دفعه من معدن ثمين . لقد لوحظ ذلك في آخر القرن الرابع الميلادي ، إذ سجّل سيماك محافظ روما ندرة الذهب في أحدى رسائله . واتخذ أباطرة القرن الثالث بعض التدابير لتخفيض قيمة النقد المتداول ، كخلط الذهب بمعادن رخيصة . لكن تلك التدابير أدت إلى ارتفاع الأسعار ، كما تؤدي عادة تدابير التضخم النقدي . وحاول الامبراطور ديوكليسيانوس عبثاً (٢٨٥ ـ ٣٠٦) إيقاف ارتفاع الأسعار بإصدار مرسومه الشهير « المرسوم الأعظم » . كذلك اتخذ تدابير أخرى لتأمين التموين بالمواد الغذائية . وكل ذلك يدل على اقتصاد متعب عاجز عن أن ينجو بوسائله الخاصة .

لقـد استولى ملوك البرابرة على المعـادن الثمينة التي وجدوها في مدن الامبراطورية الرومانية في أثناء فتوحهم ، فواظبوا على ضرب النقود الذهبية . وهناك وقائع تدل على أن المعاملات التجارية بين الغرب والشرق ظلت باقية بعد الغارات البربرية كما كانت في السابق . وكانت تلك المعاملات تجري على أيدي التجار السوريين واليهود . كذلك كانت المعاملات التجارية بين المملكة الفرنجيـة الميروفنجية والشرق تتم في ميناء مرسيليا . وكذا حافظت إيطاليا في عهد القوط الشرقيين على علاقاتها التجارية مع بيزنطة .

وظل البرابرة محافظين على عادات الامبراطورية الرومانية القديمة ، ولم يتبدل البناء الاقتصادي في أوروبا الغربية بسبب الغارات البربرية . غير أن تلك الغارات أحدثت هزة عنيفة زعزعت كيان الامبراطورية الرومانية ، وأدت إلى حدوث تبدلات

في الحياة المدنية والحياة القروية . لكن تلك التبدلات كانت بطيئة ولا يشعر بها ، إلا أنها كانت عميقة . وعندما جاءت الغارات العربية الإسلامية بدورها لتجرف العالم القديم ، قام اقتصاد جديد في أوروبا الغربيـة ، وهو اقتصاد العصر الوسيط (الاقتصاد الزراعي) . ولم يقم ذلك الاقتصاد فجاة ، بل ان الأرض التي انبتته كانت مهياة لقبوله منذ امد بعيد (٣) .

ـ المدن في العهد الميروفنجي :

في أثناء الغارات البربرية الأولى تهدمت بعض المدن مثل ماينس وكولونيا ، لكنها نهضت من جديد في القرن السادس . أما المدن القديمة الأخرى فقد ظلت على حالها حية باقية . ولكن لم تظهر أية مدينة مهمة في العصر الميروفنجي . كانت مدن ذلك العصر صغيرة ، ومثلها المـدن التي يسكنها الملوك ومنها : باريس ، أورليان ، سواسون ، رنس ، متز . ولم تزد مساحات تلك المدن خلال مدة طويلة امتدت من آخر القرن الثالث إلى آخر القرن الحادي عشر .

كان يغلب على تلك المدن الطابع الريفي . ففيها توجد حدائق وكروم ، وفي شوارعها تطوف أسراب الخنازير والبقر والطيور . ولم تستطع تلك المدن أن تتسع خارج السور ، كما كانت متكاثفة على نفسها وتلتصق منازلها ببعض . وكان سكان تلك المدن قلائل لا يتجاوز عدد نفوس أكبرها عشرة آلاف نسمة . وأكثر المدن تراوح عدد سكانها بين ٢٠٠٠ و ٥٠٠٠ نسمة . كان جوها خانقاً ومنظرها حزيناً ، لذا كان الملوك والأمراء يفضلون أن يعيشوا في أملاكهم الريفية .

لم يكن لتلك المدن مجلس بلدي ، وزوال هذا المجلس كان مرتبطاً بالحياة الاقتصادية التي جعلت منها جسداً بلا روح ، حتى إن الكونت جعلها مقراً عادياً له وأخذ يديرها كما يدير الريف بصورة استبدادية . غير أن شخصية أخرى أخذت تحل محل الكونت وهي الأسقف ، لأن سلطته الروحية وثروته جعلت منه مواطناً أصلياً في المدينة ، حتى إن المدينة في آخر العصر الميروفنجي أصبحت بكاملها بين

يديه ، ولم يبق للكونت نفسه مكان لسكناه . وإذا صرفنا النظر عن الفئة الموسرة ، التي تضم عدداً قليلاً من التجار أكثرهم أجانب ، وجدنا سكان المدينة صناعاً فقراء يعيشون على توصيات الكونت والأسقف وبعض الموسرين .

وصفوة القول إن الحياة الاقتصادية في العصر الميروفنجي كانت تسير على خطا الحياة الاقتصادية في الامبراطورية الرومانية الراحلة ، وإن الاقتصاد كان في تدهور مستمر منذ القرن الثالث الميلادي ، والعصر الميروفنجي نفسه يتمم انحطاطاً سابقاً . فامتداد المدن لضعيف وزوال الحياة المدنية ، وفقدان العاصمة أو المدن الجديدة ، كل هذا يدل على أن الحياة الاقتصادية لم تنهض منذ القرن السادس حتى القرن الثامن .

وإذا قلنا بوجود تجارة دولية وصناعة وطبقة تجار ممتهنين ، فما من شك في أن حجم المبادلات كان قليلاً جداً . فمدينة مارسيليا التي كانت ملاحتها تربطها بالقسطنطينية وسورية وشمال إفريقية ومصر وإسبانيا وإيطاليا ، ظلت مدينة صغيرة يبلغ محيطها ٢٥٠٠ متر ، وعدد سكانها يتراوح بين (٨٠٠٠ و ٩٠٠٠) نسمة . ومن المحتمل أن ملاحة مارسيليا كانت تقتصر في كل سنة على إرسال أسطول صغير يتألف من سفن قديمة قليلة المحمول . أما تجارة البذخ فهي بالضرورة متباعدة ولا تمثل وزناً ضخماً من السلع . وفي الحقيقة ان الرأسمال كان في بدء تكونه ، والتجارة الميروفنجية لا تدل على النظام الرأسمالي إلا من بعيد (٤) .

- **المدن في العهد الكارولنجي :**

عندما بسطت روما سلطانها على عالم البحر المتوسط ، اتخذت المدينة أساساً للنظام الإداري في الامبراطورية . وقاوم هذا النظام الغزوات البربرية الجرمانية ، كما ظلت معالمه وآثاره باقية بعد القرن الخامس في غاليا وإسبانيا وإيطاليا . لقد حرص المغيرون الأوائل ، أمثال القوط والفرنجة على المحافظة على النظم الرومانية ، ومنها مجتمع المدينة . وظلت غاليا في زمن الفرنجة الميروفنجيين محافظة على حضارتها الرومانية ، على الرغم مما تعرضت له من تخريب على أيدي الغزاة الأوائل . لقد

تقبل الفرنجة الجرمانيون القوانين الرومانية والعقيدة الرومانية الكاثوليكية ونظام الإدارة المدنية ، كما حافظت غاليا الميروفنجية على النقد والنظام المالي الروماني • وظلت مدن غاليا الميروفنجية إلى حدٍّ ما مراكز تجارية وأسهم التجار إلى حدٍ كبير في تموين المدن • أما في زمن الكارولنجيين فلم يبق شيء من هذا القبيل •

إن ما تعرض له النظام الاجتماعي من الضعف المستمر قضى على خصائص المدينة • وعند حلول القرن الثامن اختفى ما يعرف بأسماء :

« أعيان المدينة » Decuriones ، أو « دار وثائق المدينة » Gesta municipalis أو « حامي المدينة » Defensor Civitatis .

ففي العصر الكارولنجي لم تعد المدينة مركزاً تجارياً يمول بالبضائع سكان القرى المجاورة لها ، كما لم يكن لسكانها طابع سكان المدن الذي كان معروفاً في زمن الميروفنجيين • فالدولة الكارولنجية التي قامت على أساس زراعي لم يكن لديها من الدوافع ما يجعلها تهتم بمصير المدن • ومن المعروف أن قصور الأمراء الكارولنجيين لم تقم في المدن ، وإنما قامت في الريف • أما شهرة مدينة إكس لا شابل فترجع إلى أنها كانت المقر الأثير عند الامبراطور شارلمان ، ولذا فإن أهميتها لم تلبث أن تداعت بعد حكم لويس التقي ، ولم تسترد مكانتها إلا بعد أربعة قرون •

في العصر الكارولنجي عاش المجتمع على الاقتصاد الزراعي • ومن أهم خصائص ذلك الاقتصاد الضيعة التي تكفي نفسها بنفسها من المنتوجات الزراعية والمصنوعات المحلية • وفي ظل اقتصاد كهذا يتعذر تلمس آثار الحياة المدنية • فاذا كان المقصود بالمدينة موضعاً يمارس سكانه الصناعة والتجارة ، فيصح القول إن المدينة لم تكن قائمة في العصر الكارولنجي • وإذا كان المقصود بالمدينة مجتمعاً له شخصيته القانونية ونظمه الخاصة ، فلم يكن للمدينة وجود بهذا المعنى • اما إذا كان المقصود بالمدينة مركزاً للادارة أو حصناً للدفاع فقد كانت هنالك مدن عديدة من هذا النوع في العصر الكارولنجي (٥) •

ـ المدن الاسقفية :

في العصر الكارولنجي أضحت مدن أوروبا الغربية إمّا مراكز أسقفية أو حصوناً عسكرية دفاعية . لقد فرض النظام الكنسي على الأسقف الإقامة الدائمة في المدينة التي بها مقر أسقفيته في الكاتدرائية التي تعدّ مركزاً للادارة الدينية لكلّ الأبرشية التي تشتمل على المدينة القرى الواقعة حولها . ازدادت مكانة رجال الدين منذ زمن الميروفنجيين، فحازوا امتيازاتٍ تتعلق بالقضاء وجمع الضرائب، كما حصلوا على براءات ملكية تحرروا بها من تدخل الكونتات في إدارة المدن والضياع الواقعة داخل ممتلكات الكنيسة . وورد في إحدى براءات شارلمان ما يلي :

« لا تجعل موظفاً عاماً يجرؤ على أن يتدخل بقصد الاستماع إلى الدعاوى او تحصيل الغرامات ، وما حصلت عليه الخزانة العامة حتى الآن من ارباح من الرجال الاحرار والأرقاء وسائر الطبقات ، ينبغي أن يصير إلى خزانة الكنيسة » .

وبفضل ما امتلكت الكنيسة من مساحات كبيرة من الأراضي ازداد جنوحها إلى أن تصبح دولة داخل الدولة . فالأسقف الكارولنجي صار يحكم جنباً مع الكونت ، ومحكمة الأسقف أخذت تنظر فيما يرتكب من جرائم ضد الأخلاق والدين ، في حين لا تنظر محاكم الدولة العامة في قضايا رجال الأسقف ، إلا إذا رفض الأسقف أو ممثله النظر في تلك القضايا . والمعروف أن محكمة الأسقف تنعقد في مقر إقامته . ولما اختفت التجارة في القرن التاسع ، وتحطمت كل آثار حياة المدن وخلت من معظم السكان اتسع نفوذ الأساقفة ولم يعد ثمة من ينافسهم ، فأضحت المدينة منذئذٍ خاضعة بأسرها للأسقف .

واحتفظت المدن في زمن شارلمان بالشكل الذي كانت عليه في زمن الامبراطور قسطنطين الأول . لقد اتخذت تلك المدن شكل مربع أو مستدير يحيط به سور له أبراج ويتصل بالخارج بأربعة أبواب . وصُنعَ السور من جذوع الأشجار الطويلة أو من الطين أو من الكتل الحجرية . وخلْفَ السور من الخارج حُفر خندق عميق وعريض . وكانت المساحة المحصورة داخل السور لا يتجاوز طول ضلعها ٥٠٠ ياردة .

ولا يشغل البناء كل المساحة ، حيث توجد بين المساكن ساحات وحدائق • وعند حدوث غارة يهرع إلى المدينة سكان الضياع المجاورة ليحتموا داخل السور •

وتشكل سكان المدن الأسقفية من رجـال الدين العاملين في الكاتدرائية والمعلمين والتلاميذ بالمدارس الكنسيّة ، يضاف إلى هؤلاء الخدام والعمال من الأحرار والأقنان الذين لاغنى عنهم لتأمين حاجات رجال الدين •

وجرت العادة أن تقام في كل مدينة أسقفية ســوق" أسبوعية يحمل إليها الفلاحون من الأرياف ما لديهم من منتوجات لبيعها • وفي بعض المدن كانت تقام سوق سنوية كبيرة • وعلى أبواب المدينة يجري تحصيل العوائد التي يؤديها كل بائع يدخل إلى المدينة • وتقوم بداخل الأسوار بعض الأبراج التي يقيم بها الأسقف ومعاونوه وقائد الحصن (القسطلان [لفظة قسطلان محرّفة من الكلمة اللاتينية Castellum التي تعني الحصن] •

وفي أماكن خاصة بالمدينة توجد الأجران والمستودعات والمخازن التي يحمل إليها الفلاحون والمستأجرون حصة الكنيسة من محاصيل ضياعها • وفي الأعياد الدينية السنوية يهرع إلى المدينة سكان الأبرشية من الضياع المجاورة ، فيزداد النشاط فيها ويكثر الضجيج بضعة أيام •

هذا العالم الصغير قَبِلَ الأسقفَ رئيساً روحياً وزمنياً ، فاجتمعت في شخصه السلطتان الروحية والدنيوية • وبمساعدة مجلس مؤلف من القساوسه يتولى الأسقف إدارة المدينة والأبرشية Dioces وفقاًللتعاليم المسيحية • وتنظر محكمة الأسقف في القضايا الدينية والمدنية • وكانت للأسقف قوة من رجال السرطة يضبط بوساطتها الأسواق وتحصيل الضرائب • وحرص الأسقف على الاهمام ببناء سور المدينة وترميمه ، وإقامة الجسور على الأنهار المارة في ممتلكات أبرشينه • فالمدينة الأسقفية كانت المركز الإداري لكل الأبرشية • ولم يكن لسكان المدينة الأسقفية وضع ممتاز يختلف من الناحية القانونية عن سكان الأرياف المجاورة • أما القوانين

الخاصة بسكان المدن والاستقلال الذي حازوه في المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى ، فلم يكن لـه وجود في القرنـين الثامن والتاسع • فلفظـة مواطـن (Citizen - Civis) التي تقصد بها النصوص سكان المدينة ، ليست إلا اسماً طبوغرافياً ، ولم يكن لها دلالة قانونية خاصة (٦) •

ـ المـدن العسكرية (الحصون) Burgus :

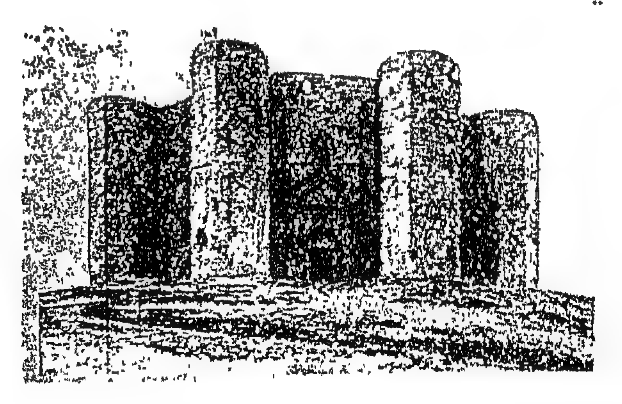
في منتصف القرن التاسع انقسمت امبراطورية شارلمان الكارولنجية إلى أقاليم عديدة يحكمها الكونتات ، الذين استقلوا بالسلطة في أقاليمهم وجعلوا مناصبهم وراثية ، و لايربطهم بالتاج الملكي سوى يمين الولاء • ولم تكن سلطة الدولة المركزية من القوة ما يجعلها تقاوم ذلك التفكك الذي تمّ بالعنف والإكراه • لكن هؤلاء الأمراء الذين استقلوا بالسلطة في أقاليمهم التزموا بحماية ممتلكاتهم وسكانها من المغيرين المسلمين والشماليين والأمراء المجاورين • وعلى هذا اضطروا إلى إقامة مواقع دفاعية حصينة ، وصار يطلق على كل منها من الألفاظ مايدل على أنه حصن ، سواء كانت الألفاظ مستمدة من اللاتينية مثل Castrum ، Castellum أو مـن الألمانيـة Burgus .

وكانت تلك المدينة الحصينة عبارة عن دائر مسوّر يحيط به خندق • ومن هذا الدائر جاء اسم المدينة عند الانكليز (Town) وعند الروس (Gorod) .
وفي داخل الدائر (النطاق) قام برج متين وقلعة أو حصن استقرت به حامية من الفرسان يتولى قيادتهـا نائب الأمـير الذي يدعى القسطلان (قائـد القلعـة Castellan) • وفي كل قلعة دار للأمير ، وكنيسة تلحق بها منازل لرجال الدين ، يضاف إلى ذلك مبني يتخذ مكاناً للمحاكم التي تنعقد في أوقات معينة ويأتي إليها أعضاء المحكمة والمتداعون من خارج القلعة • وفي القلعة أماكن خاصة للأجران والمستودعات والمخازن التي تحفظ فيها المحصولات التي تكفل معيشة سكان القلعة •

كانت القلعة في أول الأمر مؤسسة عسكرية تعمل على توفير الأمن للأمير

وسكان المناطق المجاورة • ومن ثم أصبحت القلعة مركزاً للادارة ، فلم يعد القسطلان قائداً للحامية المرابطة في القلعة فحسب ، وإنما عهد إليه الأمير بالسلطة المالية والقضائية في منطقة شاسعة حول القلعة صارت تعرف في القرن العاشر باسم « القسطلانية » • وهكذا أضحت القسطلانية بالنسبة للقلعة أشبه بالأبرشية بالنسبة للمدينة الأسقفية •

ومع ذلك لم يكن للقلعة صفة المدينة • فسكان القلعة ـ من الفرسان ورجال الدين وموظفي الضياع والموظفين القضائيين والأرقاء المرتبطين بخدمتهم ـ كانوا مستهلكين غير منتجين يعيشون على ما يرد إليهم من محصولات أو ضرائب تجبى من الفلاحين في المناطق المجاورة للقلعة • بالإضافة إلى ذلك لم يشكل سكان القلعة حكومة مستقلة استقلالاً ذاتياً ، ولم يكن لهم قوانين أو نظم خاصة بهم ، وحياتهم لا تختلف عن حياة سائر الناس • ومن الناحية الاقتصادية لم يمارس سكان القلعة النشاط الصناعي أو التجاري • هذا ولم يزد عدد سكان القلعة على بضع مئات من الناس • ومع ذلك كانت للقلعة أهمية كبيرة في تاريخ المدن ، إذ تجمعت فيما بعد حول أسوارها الطوائف الصناعية والتجارية وحولتها إلى مدن حقيقية بعد النهضة الاقتصادية التي ظهرت بوادرها في أوروبا الغربية في القرن العاشر (٧) •



الشكل رقم (١٥)

حصن في إيطاليا على جبل ابوليا (من القرن الثالث عشر)

التطور التجاري في القرنين العاشر والحادي عشر وأثره في نشوء المدن الصناعية التجارية

ـ نشوء التجارة وتشكل طبقة التجار :

قام المجتمع الأوروبي في العصر الكارولنجي على الاقتصاد الزراعي ، حيث كانت الأرض المصدر الأساسي للثروة ، والزراعة الصورة العامة للعمل . على أنه كان للزراعة صفة تجارية . فالفائض عن الاستهلاك من المنتوجات الزراعية كان يبيعه الفلاحون في أسواق المدن الأسقفية ومدن الحصون ، وهذا البيع أدى إلى ظهور عمليات تجارية ضئيلة الحجم . ولكن لم يوجد من التجار المحترفين الذين يمتهنون البيع والشراء سوى بعض الأفراد من السوريين واليهود والايطاليين ، الذين تاجروا بالتوابل والمنسوجات الحريرية وغيرها من منتوجات الشرق ومصنوعاته .

وفي القرن العاشر تخلى الشماليون السكندينافيون عن أعمال الغزو والنهب واهتموا بالأعمال التجارية ، فتم بفضلهم اتصال شمال أوروبا بالامبراطورية البيزنطية والدولة العربية العباسية . أما في الجنوب فقد تابعت البندقية نشاطها التجاري الموروث مع الموانىء البيزنطية والعربية الواقعة على شواطىء البحر المتوسط ، وبذا نهض في شمال أوروبا وجنوبها مركزان تجاريان بفضل جهود السكندينافيين والايطاليين

وغلبت على التجارة في تلك الفترة صفة الانتقال والحركة . فالتجار كانوا ينتقلون في جماعات ويرتحلون براً وبحراً لنقل البضائع المتنوعة : كالقمح والنبيذ

والصوف والقماش وغير ذلك • وبفضل اجتماع هؤلاء التجار سوية استطاعوا أن يقوموا بعمليات تجارية كبيرة • وقد جرت الإشارة في المصادر المعاصرة إلى اتحاد هؤلاء التجار باسم نقابة Confrère ، Caretel ، Hanse ، Gild . وفي القرنين العاشر والحادي عشر ظهر هؤلاء التجار كمحترفين يحصلون على معاشهم من العمل التجاري فحسب • فمن أين جاء هؤلاء التجار ؟•

من المحقق أن احتراف التجارة واتخاذها مهنة ظهر في مدينة البندقية ، إذ أن كاسيدور يشير في القرن السادس إلى البنادقة على أنهم قوم ملاحون تجار • كما أن المعاهدات التجارية التي عقدتها البندقية مع الأباطرة الكارولنجيين والبيزنطيين في القرن التاسع تدل على أن سكانها كانوا يمارسون التجارة • وما شهدته البندقية من تطور تجاري تعود أسبابه إلى استمرار علاقاتها التجارية مع القسطنطينية والمناطق الايطالية الخاضعة لبيزنطة من جهة ، واستمرار تلك العلاقات مع الشرق من جهة ثانية • ويصح أن نعدّ البحّارة البنادقة تلامذة وأخلافاً للملاحين السوريين الذين استمر نشاطهم في ميناء مرسيليا والبحر التيراني حتى زمن التوسع العربي الإسلامي • وفي القرن الحادي عشر أثّرت البندقية في المدن البحرية الأخرى التي أخذت في الظهور ، مثل بيزا وجنوة ، ثم مرسيليا وبرشلونة •

ومنذ القرن العاشر أخذت تظهر في داخل القارة الأوروبية طبقة من التجار المحترفين الذين جرى انتزاعهم من العناصر الفائضة في الحياة الزراعية • هؤلاء العناصر دفعهم حرمانهم من الأرض أن يؤجّروا أنفسهم في أعمال مختلفة ، فاشتغلوا بحارة أو حمالين أو عملوا في المراكب التجارية • وكان بين هؤلاء من اشتهر بالتجربة والخبرة ومعرفة اللغات الأجنبية • فإذا أصاب الواحد منهم ربحاً ضئيلاً حرص بمهارته وخبرته على أن ينمّيه ويستكثره • وهكذا ظهرت بين هؤلاء طبقة من التجار دون أن يكون لديها في البدء رأسمال • وتولّى كثير من هؤلاء التجار المتاجرة ببضائع لم يدفعوا ثمنها ، وإنما اقتسموا الأرباح مع أصحاب السلعة • ولم يمض إلا زمن قصير حتى ظهرت من بين هؤلاء المغامرين الجائلين فئة من التجار الأغنياء المحدثين •

كره النبلاء الاقطاعيون هؤلاء التجار الأغنياء المحدثين وأنكروا عليهم ما أصابوه من أرباح كبيرة فاقت أموالهم . وكانت فكرة احتقار الاشتغال بالتجارة قد تأصّلت عند النبلاء الاقطاعيين باستثناء ما حدث في إيطاليا من إقبال الأسر الارستقراطية النبيلة على استثمار أموالها في العمليات التجارية . أما الكنيسة المسيحية فقد نظرت إلى العمل التجاري كمصدر خطر على سلامة الروح ، وعدّت التجارة شكلاً من أشكال الربا المرفوضة في الشرع المسيحي . وأما القانون الاقطاعي ، الذي جعل الانسان حرّاً ما لم يكن تابعاً لسيد ، فقد عدّ التجار أحراراً ، على الرغم من أن معظمهم كان من أبناء الأرقاء . لكن هؤلاء التجار انتزعوا أنفسهم من الأرض التي نشأوا فيها وأخذوا يطوفون في أنحاء البلاد دون أن يطالب أحد بتبعيتهم له . ولم يطالب هؤلاء التجار بالحرية ، بل جاءتهم الحرية عفواً ، إذ حصلوا على الحرية بحكم العادة والمدة القانونية .

« أقرت القوانين الاقطاعية أن الذي يغادر الضيعة إلى المدينة ويعيش فيها مدّة سنة ويوماً واحداً دون أن يطالب سيّد برجوعه يصبح حرّاً » .

وصار التاجر يخضع لسلطان القضاء العام ، بدلاً من الخضوع لقضاء السيد الاقطاعي أو قضاء الكنيسة . وكفل الملوك الكارولنجيون سلامة التجار فأصدر شارلمان القرارات التي تؤمن الحماية للحجاج والتجار من اليهود والمسيحيين ، كما سار خلفاؤه على نهجه . كذلك حرص الكونتات وغيرهم من الأمراء على أن يجتذبوا التجار إلى أقاليمهم كي يحصلوا منهم على الرسوم التجارية ، ولذا اتخذوا التدابير اللازمة لحماية الأسواق وطرق المواصلات من هجمات اللصوص وقطاع الطرق . وأسهمت الكنيسة في حماية التجار ، إذ أقرت بحرمان اللصوص من الحقوق الكنسيّة ، كما ابتكرت نظام « هدنة الله » و « سلام الله » ، الذي يمنع القتل والاعتداء في أيام عديدة من السنة .

وفي القرن الحادي عشر صاغ التجار لأنفسهم قانوناً تجارياً Jus mercatorum للنظر في القضايا التجارية . وكان ذلك القانون عبارة عن مجموعة من العادات

والتقاليد التي نجمت عن ممارسة التجارة وانتقلت من مكان إلى آخر مع البضائع . وقامت في الأسواق الاقليمية الكبيرة محاكم خاصة يتولى فيها كبار التجار النظر في القضايا الطارئة . وهكذا نال التجار الحرية وقانوناً خاصاً ، فصاروا يضارعون النبلاء ورجال الدين ، كونهم لا يخضعون لما خضع له الفلاحون من سيادة للأمير الاقطاعي أو الكنيسة (٨) .

ـ استقرار التجار في المدن :

وحتم نظام التجارة الناشئة على التجار أن يستقروا في مواضع معينة في الفترات الواقعة بين رحلاتهم . ومن الطبيعي أن يتخذوا لإقامتهم الأماكن التي اشتهرت بسهولة المواصلات ، والتي يطمئن التجار فيها على أموالهم وسلعهم . وعلى هذا لجأ التجار إلى المدن الأسقفية ومدن الحصون التي تسد حاجاتهم .

في أول الأمر أقام التجار في ساحات المدينة وبساتينها داخل الأسوار . ولما ضاقت بهم البقاع داخل السور أقاموا في خارجه ، إذ أقام القادمون الجدد لأنفسهم ربضاً خارج المدن المسورة وشيدوا لهذا الربض سوراً جديداً من الخشب ، وفيما بعد سوراً من الحجارة يحيط به خندق .

ـ اصل المدن (الحصن والربض) :

نستخلص من ذلك أن أصل المدن في العصور الوسطى ، يرجع إلى اتحاد عاملين يختلفان في الزمن والطبيعة . فأول العاملين وأقدمهما هو المدينة الحصن Bourg (Borough) الذي يرجع تاريخه إلى العصر الروماني أو العصر الاقطاعي، وينزل به طائفة من رجال الدين والفرسان والخدم الأرقاء ، ويعيش هؤلاء على ما يقدمه لهم الفلاحون من منتوجات زراعية . أما العامل الثاني ، وهو أحدثهما ، فهو الربض أو الحي التجاري Faubourg ، Portus الذي نشأ بنتيجة تزايد عدد المشتغلين بالتجارة ، الذين أقاموا لأنفسهم مركزاً تجارياً ثابتاً خارج سور الحصن . وتدريجاً فاق العامل الثاني (الربض) على العامل الأول (الحصن) فنشأت المدينة

التجارية بنتيجة اندماج العاملين • فالحصن لم يتطور لأن الحاجات التي كان يؤديها ظلت جامدة ولم تتحرك • أمـا الربض (الضاحية التجارية) فكان أكثر نشاطاً وتطوراً •وكلما ازداد النشاط التجاري اجتذبت الضواحي (الأرباض) إليهـا أعداداً كثيرة من السكان الجدد ، الذين أخذت مساكنهم في الاتساع والامتداد حتى صارت في مستهل القرن الثاني عشر تحيط بالحصون القديمة من كل الجهات : وصار الحصن مجرد حي قديم في وسط المساكن الجديدة • وتدريجاً تحول الربض إلى مدينة جديدة تقابل المدينة القديمة (الحصن) أو تحيط بها • وأخذ الربض يتجاوز المدينة الحصن (البرج) Bourg في الأهمية ، كما اغتصب اسمها ، فأصبح سكانه في القرن الحادي عشر يسمون (البرجوازيين) سكان البروج (المـدن) Bourghers • وكانت هذه المدينة الجديدة نفسها محاطة بسور يحمي ثرواتها من العدوان الخارجي ، ولها كنيستها وسوقها ، وباختصار لقد أصبحت مركزاً حقيقياً للحياة المدنية • على أن لفظة مواطن أو مدني Cives (Citizen) ظلت أيضـاً تستخدم على نحو ما كان يجري استعمالها قديماً • وفي الفلاندر وإنكلترا ظلت تستعمل الألفاظ : Poortmanni ، Poorters التي تدل أيضاً على سكان المدن •

– قدوم العمال والصناع إلى المدن الجديدة :

لم تكن الطبقة المتوسطة التي حلّت في أرباض المدن المحصّنة كلها مؤلفة من التجار الجائلين الذين سبقت الإشارة إليهم ، بل لابد أنها شملت أيضاً عدداً من العمال والصناع الذين يتولون شحن السلع التجارية وتفريغها وإعداد السفن وتجهيزها ، وصناعة عربات النقل والبراميل والصناديق ، وكل ما هو ضروري للتجارة • ومن الطبيعي أن يهرع إلى المدينة الناشئة من الأرياف المجاورة عدد كبير من الناس يسعون للعمل بمهنة أو حرفة ، وكلما تكاثر عدد سكان المدينة ازدادت حاجتها إلى عدد أكبر من العمال والصناع • وبما أنه كان لابد من تأمين احتياجات السكان الجدد من الغذاء واللباس ، فقد توافد من الأرياف المجاورة إلى المدينة الخبّازون واللحّامون وصانعو البيرة والحيّاك والخياطون وغيرهم • وهكذا تشكلت في المدن تجمعات من العمال والصناع والتجار وأصحاب المصارف وغيرهم

من الفئات التي لها علاقة بالعمل التجاري • على هذا الشكل نشأت المدن الصناعية ـ التجارية التي تختلف عن المدن الأسقفية أو المدن الحصون ، التي استخدمها السكان كملجأ في زمن الغارات الخارجية أو الداخلية •

ـ نشوء الصناعة في المدن :

كانت التجارة عاملاً مهماً في تشجيع الصناعة • وحرص التجار على اجتذاب الصناعات من الأرياف إلى المدن وتوطينها فيها • وتعدُّ منطقة الفلاندر خير مثال للتدليل على ذلك ، إذ أن صناعة القماش الصوفي ازدهرت في الريف منذ زمن بعيد • ونجح التجار في اجتذاب النساجين من القرى إلى المدن ، فترتب على ذلك أن فقد النساجون طابعهم الريفي وأضحوا مجرد عمال في خدمة هؤلاء التجار • ومن الطبيعي أن يتدفق على المدينة عدد كبير من الفقراء ، حيث كفلت لهم صناعة الأقمشة العمل والرزق • ومع ذلك كان هؤلاء العمال تعساء ، لأن ما جرى بينهم من تنافس من أجل الحصول على عمل ، حمل التجار على أن يمنحوهم أجوراً منخفضة •

ولم تلبث الصناعات الريفية أن اختفت ، إذ لم يكن بوسعها أن تنافس صناعات المدن التي توافرت لها المواد الخام وأفادت من طرق أكثر تقدماً • وحرص التجار أن تتوافر الجودة فيما يصدرونه من الأقمشة ، فلم يحل القرن الثاني عشر حتى صارت لتجار الفلاندر السيطرة على أسواق أوروبا الغربية دون منازع ، لما اشتهرت به منسوجاتهم من الدقة وجمال الألوان • وكانت صناعة الأقمشة أساس التجارة الأوروبية في العصور الوسطى • كذلك أنشئت الصناعات الغذائية في كل مدينة تقريباً • أما الصناعات المعدنية فقد استيقظت بعد زمن طويل ، ويبدو أنها لم تغذّ التجارة الأوروبية إلا في وقت متأخر جداً •

ترتب على ما جرى من تطور اقتصادي في المدن ظهور صورة جديدة للعلاقات بين الريف والمدينة • لقد أخذت الصناعات الريفية بالاختفاء ، في حين أضحت المدينة تمول الفلاحين بالمصنوعات ، وبذا جرى اقتسام العمل بين المدينة والقرية ، فاختصت

القرية بالزراعة ، في حين اهتمت المدينة بالصناعة والتجارة . وبذلت المدينة كل ما في وسعها من جهود للمحافظة على صفتها الصناعية والتجارية ، فقاومت كل محاولة ترمي إلى إدخال الصناعة والتجارة إلى القرى .



الشكل رقم (١٦) مصنع للأدوات المعدنية

الصورة من كتاب اجريكولا « عن المعادن » الموضوع في سنة ١٥٥٦

ـ تكوّن رأس المال :

يتصل بالتجار تكوّن رأس المال . فإذا كان التجار الأوائل فئة طارئة ، فمن الطبيعي أن يكون رأس مالهم محدوداً جداً . وإذا جرى التسليم بأن التجار كانوا في أول الأمر من ملاكي الأراضي ، فلابدّ أنهم استخدموا في التجارة مبالغ كبيرة استمدوها من بيع الأراضي أو الخراج الذي تكدّس عندهم . والراجح أن شطراً من رأسمال التجار اليهود في مطلع العصور الوسطى استمدوه من بيع الأراضي التي يملكونها . فالمعروف أن اليهود امتلكوا كثيراً من الأراضي في إسبانيا وإيطاليا وغاليا في الفترة الواقعة بين القرنين الخامس والسابع . ولما حلت القوانين القومية مكان القانون الروماني ، فُرض على اليهود أن يبيعوا ما لديهم من الأراضي وأن

يمتهنوا التجارة • غير أن الأرباح التجارية هي التي زادت في رأسمال اليهود في القرنين الثامن والتاسع • على أنه منذ العصر الكارولنجي زاد رأس المال عند التجار المسيحيين أيضاً (٩) ».

ـ أوضاع التجار الاجتماعية :

كان للتطور الاقتصادي الجديد في المدن أثره في النظام الاجتماعي السائد في أوروبا الغربية • فقد كتب هنري بيرين ما يلي :

« إن نشوء المدن يسجل بداية عصر جديد في التاريخ الداخلي لاوروبا الغربية • فحتى ذلك الحين كان المجتمع يضم طبقتين نشيطتين ، الاكليروس والطبقة النبيلة • وعندما اخذت الطبقة البرجوازية مكانها إلى جانبهما تممته او بالاحرى انهته » •

على أن الطبقة المتوسطة (البرجوازية) التي اهتمت بالصناعة والتجارة واجهها من المشكلات والمتاعب ما لم تستطع التغلب عليها إلا بمضيّ الزمن • فحينما حل هؤلاء التجار والصناع بالمدينة الأسقفية أو الحصن ، كان لزاماً عليهم أن يلتمسوا رضى ملاك البقعة التي تقع بها المدينة من الأساقفة أو الكونتات أو السادة الاقطاعيين • وحدث في أحوال كثيرة أن البقعة التي يقع بها الربض تخضعُ لمُلاّكٍ عديدين ، ولأشكال مختلفة من نظم الاستغلال الضريبي • وزاد من تعقيد الوضع تعدد القضاء ، إذ كان لكل من الملاك الذين يشتركون في امتلاك الأرض محكمته الخاصة • وإذا كان التجار الذين حلّوا بالمدن أحراراً ، فإن هذا الوضع لم يكن ينطبق على عدد كبير من العمال والصناع ، الذين هرعوا من القرى المجاورة إلى المدينة ليعملوا فيها • فلقد احتفظ معظم الصناع في المدينة بحالة الاسترقاق التي نشأوا عليها في القرية •

أنكر التجار الأحرار عيوب الرق ، لأن معظم الزوجات اللائي اتخذوهم ينتمين إلى طبقة رقيق الأرض • ومن الطبيعي أن يلحق الرق أبناء التجار من زوجاتهم، نظراً لأن القانون العام يلحق الأطفال بأمهاتهم • وترتبت على هذا المبدأ نتائج

سيئة ، إذ ظهر الرقّ من جديد في المدن ونجمت عن هذا الوضع الشاذ مشكلات كثيرة .

ومن ناحية أخرى ، كلما ازداد عدد أفراد الطبقة المتوسطة في المدينة وصارت بيدها السلطة ، تضاءل شأن طبقة النبلاء التي أفسحت لها الطريق . وترتب على ذلك انسحاب النبلاء الفرسان من المدينة الحصن وإقامتهم في القرية ، بعد أن فقدت الحصون أهميتها الحربية . ففي القرن الثالث عشر اختفت طبقة النبلاء الفرسان من مدن إنكلترا وألمانيا وشمال فرنسا ، حيث رأوا أن من صالحهم أن يبيعوا للتجار والصناع ما يملكون من الأراضي في المدينة وضواحيها ، بعد أن زادت قيمتها بنتيجة تحولها من أراضي زراعية إلى أراضي للبناء ، ولكن نبلاء إيطاليا وجنوب فرنسا (منطقة البروفانس) ظلّوا يقيمون في المدن واستثمروا دخلهم من أملاكهم الزراعية في العمليات التجارية ، وهذا الأمر أدى إلى اختلاف بين نمو مدن إيطاليا وجنوب فرنسا من جهة ، ونمو مدن ألمانيا وإنكلترا وشمال فرنسا من جهة أخرى .

أما طبقة رجال الدين (الاكليروس) فقد استفادت مادياً من نمو الطبقة المتوسطة (الصنّاع والتجار) في المدن ، حيث أجّروا أو باعوا أملاك الكنائس للصناع والتجار المتنامي عددهم . ومن جهة ثانية ازداد دخل رجال الدين من الرسوم التي يدفعها لهم سكان المدن عند قيامهم بمراسم التعميد وعقود الزواج والصلاة على الموتى . كذلك استهوت المدن رهبان الأديرة الفرنسيسكانية والدومينيكانية ، فشيدوا فيها أديرتهم وشاركوا سكانها في أتراحهم وأفراحهم ، ثم أصبحوا قادتهم الروحيين (١٠) .

- حركة تحرير المدن :

أدى التطور الاقتصادي في المدن التجارية الصناعية الناشئة إلى تبدل اجتماعي وسياسي . فنظام مدن الحصون الاقطاعية لم يكن ملائماً لحاجات التجار ، لأن القانون الذي يطبق فيها جرت صياغته لسكان يعملون بالزراعة ويخضعون لحكومة إقطاعية ذات طابع استبدادي تحرص على تقييد الحرية الشخصية وحرية

حيازة الأرض • وكان سيد المدينة الأمير الاقطاعي أو الأسقف يفرض رسوماً إقطاعية نوعيـــة أو نقدية على المحاصيل (العشور) ومعامل البيرة والطواحين والمخابز والسلع التجارية التي تنقل براً أو بالنهر • يضاف إلى ذلك أن الإجراء القانوني لازال محافظاً على التقاليد القديمة ، إذ بقيت الأيْمان ومحاكمات الاختبار (بالماء الساخن أو النار وما شابه ذلك) والمبارزات الوسيلة الوحيدة للمحاكمة •

وعندما تشكلت الطبقة الوسطى من التجار الصناع لم يكن لهذه الطبقة مكانها في التنظيم الاجتماعي المنبثق عن النظام الاقطاعي • فتجار القرن الحادي عشر الغرباء عن الدومين الاقطاعي والآتون من الخارج ، وجدوا أنفسهم على هامش المجتمع،وليس لهم شرط قانوني، ولا يعيشون إلا بفضل حالة واقع•وإذا احترم الأمراء الاقطاعيون حرية التجار الشخصية ، فهم لا يعترفون بها حقاً ، ويحاولون أن يثقلوا معاملاتهم برسوم جائرة ، كحق مرور البضائع وضريبة السوق والغرامات والأتاوات المتنوعة الباهظة التي تشل نشاطهم التجاري • ومن هنا أخذت العداوات والأحقاد تزداد وسببت بالتالي ثورة حقيقية •

كان التجار أقوياء بوسائلهم المادية وبمساعدة العمال والصناع ، الذين تتضامن مطاليبهم معهم ، ولـــذا قاموا يدافعون عن مصالحهم المادية وحريتهم ، ويبحثون في المجتمع عن كسب مكانة رفضت لهم • أما سادة النظام الاقطاعي من الأمراء والأساقفة فكانوا حريصين على المحافظة على نظامهم ، لأنه يكفل لهم مصالحهم الخاصة • وفي بداية الأمر اعترفت الطبقة المتوسطة بحقوق وسلطة أمراء المدن من رجال الدين أو النبلاء الاقطاعيين ، وكل ما أرادت أن تحصل عليه بعض الامتيازات والحقوق التي تلائم حياتهم ونشاطهم الاقتصادي • لكن أمراء المدن لم يستجيبوا لمطالب التجار والصناع ، مما دفعهم للنضال بأساليب ثورية وسلمية من أجل تحرير مدنهم من السلطة الأميرية الاقطاعية والحصول على الاستقلال والحكم الذاتي •

لقد انتظم التجار والصناع في طوائف (نقابات) عكفت على المطالبة بشروط تضمن تثمير الاموال عن طريق التجارة والصناعة ، ومن هذه الشروط :

١ ـ السماح بتضمين ما هو مقرر من ضرائب المدينة نظير مبلغ معلوم .

٢ ـ الإذن بتشريع ما يلزمها من قوانين محلية لتنظيم المعاملات .

٣ ـ الإعفاء من السخرات الاقطاعية الثقيلة .

٤ ـ الاعتراف بحق النظر في القضايا غير الجنائية امام المحكمة الخاصة بالمدينة داخل اسوارها .

٥ ـ الحصول على حق اختيار الموظفين الإداريين .

٦ ـ تحرير الاقنان الذين تتجاوز إقامتهم في المدينة سنة .

تلك على وجه التعميم خلاصة تقريبية للحريات والامتيازات التي امتلأت بها عهود المدن وبراءاتها الاعفائية (Charters) في القرن الثاني عشر ، مع الفوارق المتنوعة في التفاصيل . فعلى الرغم من أن تلك البراءات اختلفت كثيراً في تفاصيلها ، فقد تشابهت جميعها في روحها ومضامينها التي تنص على حرية الأرض التي قامت عليها المدينة ، وعلى أن كل من يعيش في المدينة سنة ويوماً واحداً يعدّ حراً .

وهكذا أخذت قبضة الأمراء الاقطاعيين والأساقفة تخفّ عن المدن في النواحي الإدارية والقضائية والمالية ، حيث أخذت المدن تنتزع تدريجاً من سادتها الاقطاعيين اعترافات بحقوقها واعفاءات من الواجبات الاقطاعية حتى تكتمل تلك الاعترافات والاعفاءات في البراءة التي تنص على حرية المدينة واستقلالها الذاتي في السلطة والإدارة (١١) .

القومونات

ــ القومون :

الاصطلاح «قومون» Commune يعني المدينة التي ارتبطت عناصر سكانها في حلف وحصلت على استقلالها عن طريق ثورة مسلحة ، إلا أن المؤرخين درجوا على إطلاق هذا الاصطلاح على جميع المدن التي تمتعت بنفوذ سياسي واسع . وعلى هذا نستطيع أن نعرف القومون بأنه المدينة التي تتمتع بالاستقلال السياسي والحكم الذاتي وفقاً لقوانين وتنظيمات تخدم مصالح الطبقة الوسطى من التجار والصناع ، ويختار أهلها حكامهم وموظفيهم بأنفسهم دون أن يكون هناك مندوب من قبل سيّد أو حاكم خارجي . أما التزامات القومون نحو السلطة السياسية العليا في الدولة ــ كالامبراطور أو الملك ــ فكانت محددة بمبلغ معين من المال يدفع سنوياً ، وقسطٍ معلوم من الخدمة العسكرية .

ومنذ منتصف القرن الحادي عشر قاد التجار الحركة القومونية ضد القوى السياسية والاقتصادية السائدة في الغرب الأوروبي المتمثلة بأساقفة المدن والنبلاء الاقطاعيين ، ومن خلفهم البابوية والسلطة الامبراطورية . وقد وصل ذلك الصراع ذروته في القرن الثاني عشر الذي شهد انتصار الحركة القومونية . فبعد أن كانت مطامح التجار أن تعترف الطبقة الأولى بشرعية وجودهم كطبقة متميزة لها أهدافها ومصالحها الخاصة ، أخذوا يطالبون باستقلال مدينتهم وأن تحكم نفسها بنفسها وفق أنظمة وقوانين تخدم مصالحهم ومستقبلهم .

ظهرت أولى القومونات الأوروبية في إيطاليا ، حيث كانت السلطة السياسية بأيدي الأساقفة الذين اعتمدعليهم أباطرة الامبراطورية الرومانية المقدسة في توطيد

نفوذهم في إيطاليا • ففي أواخر القرن الحادي عشر اتفق التجار والصناع والنبلاء في بعض المدن الايطالية على تأليف اتحاد أو تحالف (قومون) الغرض منه تحطيم نفوذ أسقف المدينة ، فتمكنوا من تحقيق ذلك • وهكذا ظهرت أولى القومونات الايطالية في صورة قوة سياسية عظمى في إيطاليا • وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر دار صراع مسلح بين الأباطرة والقومونات الايطالية ، فخرجت في النهاية تلك القومونات ظافرة وحققت استقلالاً سياسياً تاماً •

وانتقلت ظاهرة قيام القومونات من إيطاليا إلى فرنسا ثم ألمانيا وإنكلترا • ويمكن القول : إن العصر الذهبي للحركة القومونية في أوروبا الغربية امتد بين سنتي (١١٠٠ — ١٤٠٠) • ومن عوامل نجاح ثورات التجار والصنّاع ضد الأساقفة حكام المدن ، وقوف الملوك والأمراء الاقطاعيين إلى جانب هؤلاء الثائرين ، لأنهم يرغبون بإضعاف نفوذ الأساقفة السياسي • وقد أدى الاستقلال السياسي الذي أحرزته المدن الأوروبية إلى تقدم سريع في الميادين الاقتصادية والحضارية •

غير أن المدن الأوروبية التي حصلت على استقلالها السياسي لم تتشابه في مصائرها النهائية • ففي إنكلترا اندمجت المدن في نظام برلماني حدّ من استقلالها ، لكنه زاد من فائدتها • وفي فرنسا بدأت المدن بحركة قومونية وانتهت بالرضوخ لسلطان الملوك • أما في ألمانيا وإيطاليا فلم توجد حكومة مركزية قوية ، فلا ملك مهيمن على شؤون المدن ، ولا برلمان ضابط لنواحي النشاط المدني ، وهذا ما أدى بالمدن الألمانية والايطالية أن تبلغ أقصى ما تستطيع من قوة واستقلال في العصور الوسطى ، حتى صار عدد منها دولاً داخل الامبراطورية ، وألف بعضها اتحادات للتجارة والحرب ، وأنزل بعضها الآخر بالسلطة الامبراطورية هزيمة ساحقة •

— مجلس القومون :

تولى إدارة القومون مجلس ينتخب أعضاؤه من بين سكان المدينة ، ومهمته الإشراف على المصلحة العامة • ولم ينتخب رئيس لمجلس القومون إلا بعد القرن

الثاني عشر ، حينما اشتد الإحساس بضرورة وجود سلطة مركزية مستقلة • وعلى هذا أخذت بعض القومونات تفوض شؤون الحكم فيها لفئة من أفرادها الأقوياء ، مما أدى إلى قيام بعض الأسر التي استبدت بالحكم وارتبطت أسماؤها بأسماء المدن التي قامت فيها •

ويقوم مجلس القومون بأعمال إدارية عادية ، إذ يشرف على أمور المالية والتجارة والصناعة ، وينظر في تدبير المرافق العامة ، وينظم تموين المدينة ، ويشرف على تجهيز جيش المدينة ومراقبة سلوكه ؛ وينشيء المدارس ويرعى المنشآت الخيرية ، وغير ذلك من أعمال تتطلبها حياة المدينة •

ـ الضرائب :

وابتدعت المدن المستقلة (القومونات) نظاماً ضرائبياً جديداً • ففي النظام الاقطاعي كانت الضرائب التزاماً مالياً محدداً ، بغض النظر عن دخل دافع الضريبة ، وما يتحصل منها يضاف إلى موارد السيد الاقطاعي ، دون أن يخصص قسماً منها للصرف على المصلحة العامة • أما حكومات المدن المستقلة فلم تعترف بالاستثناءات أو الامتيازات ، فكل المواطنين متساون فيما يحصلون عليه من المدينة من مزايا ، وبالتالي فهم يتساوون في الالتزام بأن يسهموا في جمع النفقات • ويتفاوت نصيب كل واحد من سكان المدينة بحسب موارده • وعلى هذا جرى تقدير الضريبة على أساس الدخل ، فظلت مدن عديدة محافظة على هذا المبـدأ حتى نهاية العصور الوسطى ، وكان ما يتحصل من الضرائب ينفق لسد نفقات المدينة العامة •

ـ الصراع بين القومونات :

اشتهرت المدن المستقلة (القومونات) بروح وطنية محلية تنزع إلى التعصب • فنظراً لأن كل مدينة تعد دولة مستقلة ، كانت ترى في المدينة المجارة عدواً منافساً لها • وعلى هذا دخلت القومونات في صراع بعضها مع بعض سببه التنافس السياسي والاقتصادي ، لأن كل قومون حاول توسيع نفوذه بفرض سلطته على الأمراء

الاقطاعيين المجاورين وعلى المدن الصغيرة المجاورة . ففي إيطاليا لم تنقطع الحروب بين المدن المستقلة ، إذ قاتلت المدينة جارتها بسبب الخلاف على الحدود الإدارية والحقوق الاقطاعية ، أو بسبب الأسواق وضرائب الطرق والجسور ، أو بسبب التنافس على الأراضي الزراعية وغير الزراعية المجاورة ، أو بسبب العداوات القديمة والضغائن المتوارثة بين البيوت الاقطاعية الكبيرة . ومثال على صراع المدن الايطالية ما كان بين بيزا وجنوة من التنافس الذي ظل على أشده طالما ظل استغلال كورسيكا وسردينيا بينهما موضوع الخلاف الشديد . كذلك استمر الصراع بين البندقية وجنوة بسبب التنافس التجاري . وتجدر الإشارة إلى أن النزاع والصراع بين البابوية والامبراطورية قد هيج العداوات الداخلية القديمة بين المدن الايطالية وسعّر نيراناً كان سعيرها القديم لهيباً (١٢) .



الشكل رقم (١٧)
صورة تاجرين — رسمها ي. امان (في العصور الوسطى)

النقابات

ـ نقابات التجـار :

كانت النقابات من أهـم العوامل في حيـاة المـدن الأوروبية في العصور الوسطى • فلقد ارتبط تجار المدن في هيئة نقابات أو طوائف أطلق عليها اسـم Gilds ، Hanses ، Contraternities • ونصت البراءات التي حصلت عليها المدن من سادتها الاقطاعيين على حق تجارها في تأليف نقابات أو اتحادات • وكان غرض التجار من تأليف النقابات حماية أنفسهم من اعتداء الأمراء الاقطاعيين من ناحية ، ورعاية مصالحهم التجارية في الأسواء البعيدة من ناحية ثانية • كذلك أخذت نقابات التجار تنظم شؤون التجارة داخل مدنها ، ففرضت على كل فرد خارج النقابة يريد مباشرة نشاط تجاري في المدينة أن يخضع لتعاليم النقابة وأن يدفع رسماً معيناً مقابل السماح له بمزاولة عمله • وحرصت نقابات التجار على حماية مستوى الإنتاج والبضائع والتمسك بمبادىء الأمانة وعدم الغش •

وتدريجاً صارت الطبقة المتوسطة فئة ممتازة بين سائر سكان الإقليم ، إذ انتقلت من مجرد فئة اجتماعية تباشر التجارة أو الصناعة إلى طائفة قانونية اعترفت بها السلطة الحاكمة • من هذا الوضع القانوني حصلت هذه الطبقة على نظام مستقل في القضاء • واستلزم القانون الجديد قيام محكمة جديدة يستطيع أعضاؤها المختارون من بين سكان المدينة أن يوفروا العدالة ، التي ينشدها سكان المدينة •

ـ النقابات الحرفيـة :

عند استقلال المدينة لم يكن بها إلاّ نقابة واحدة تضم كل سكان المدينة من تجار وصناع وعمال ، ويؤلف موظفو النقابة الهيئة الحاكمة في المدينة • ومع الزمن

أخذت الاختلافات على المصالح المادية والاقتصادية تظهر بين التجار والصناع • فالتجار الذين احتكروا البيع والشراء حصلوا على أرباح وفيرة تفوق بكثير ما حصل عليه الصناع الذين يصنعون السلع • وعلى هذا استاء الصناع من التفاوت بين دخلهم ودخل التجار ، فأخذوا ينسحبون بالتدريج من نقابة المدينة ويكونون لأنفسهم نقابات مستقلة • على أن إنشاء النقابات الحرفية كان عملية بطيئة وطويلة الأمد امتدت منذ أواخر القرن الحادي عشر حتى أواخر القرن الثالث عشر • وفي نهاية المطاف شكل أفراد كل حرفة نقـابة خاصـة ، فنشأت نقابات للجزارين ، والخبازين ، وصناع السيوف ، والصاغة ، والدباغين ، وصناع الجلود ، وصناع الأحذية ، وبائعي الكتب ، وصناع الورق ، والصيارفة ، والقمّاشين ، والأطباء ، والحدادين ، والنجارين ، وأصحاب الفنادق وغيرهم • وبازدياد التخصص في الصناعة ازداد عدد النقابات ، وأدى ذلك إلى نشوب خلافات بينها حول حدود تخصصها • ومن الأمثلة على ذلك فقد حرم على صانع الأحذية الجديدة أن يصلح حذاء مستعملاً ، كما حرم على الإسكافي أن يصنع حذاء جديداً ، وذلك من باب احترام التخصص •

ـ قوانين النقابات الاقتصادية :

كان الغرض الأساس من تشكيل النقابات المهنيّة هو رعاية المصالح الاقتصادية لأعضائها ، لذا فقد وضعت تلك النقابات القوانين التي تحمي مصالحها وتنظم العلاقات بين أفرادها ، ومنها :

١ ـ لا يسمح لصانع أن يباشر حرفة في مدينة إلا إذا كان عضواً في النقابة التي تضم المشتغلين بهذه الحرفة •

٢ ـ لا يجوز استيراد سلع تجارية إلى المدينة إذا ترتبت على ذلك منافسة المنتجات المحلية •

٣ ـ لا يُسمح لشخص بالدخول في النقابة إلا بعد أن يقدم أدلة كافية على ولائه الديني وإخلاصه السياسي ومهارته الفنية •



الشكل رقم (١٨)
صناعة الأواني الزجاجية بطريقة النفخ

٤ ـ تحديد ساعات العمل وأجور العمال المهنيين •

٥ ـ تحديد شكل السلع وسعر الكلفة والمبيع •

٦ ـ يدفع الصبي التلميذ الذي يريد تعلم مهنة رسماً ليقبل في الحرفة ، ويتعهد بطاعة معلمه (الأستاذ ، الأسطى)(*) والحرص على مصالحه ، والعمل تحت إشرافه مدة تتراوح ما بين عامين وسبعة أعوام •

(*) اسطاذ : كلمة فارسية معناها معلم ، وعرّبت إلى أستاد بمعنى معلم الثقافة ، واسطى بمعنى معلم الحرف .

٧ ــ بعد أن يقضي الصبي في الحرفة المدة المحددة يصبح عاملاً مهنياً ويستطيع أن يشتغل مقابل أجر يومي محدد .

٨ ــ يمكن للعامل أن يصبح معلماً (أستاذاً ، أسطى) عندما يثبت إجادته لصنعته ، كأن يصنع قطعة فنية تشهد على براعته ، وتقرر ذلك لجنة متخصصة من أعضاء النقابة . لكن الرغبة في الاحتكار والاستئثار بأرباح المهنة جعلت من الصعب على العامل المهني أن يصبح معلماً إلا إذا كان ابناً لمعلم أو زوجاً لابنته .

٩ ــ حددت النقابات طريقة البيع وللمقاييس والمكاييل والموازين المستعملة بطريقة تضمن حقوق البائع والشاري .

١٠ ــ يحرّم على المعلمين الاستغناء عن العمال وطردهم دون مبرر .

١١ ــ يحرّم على العمال ترك عملهم قبل انقضاء المدة المتفق عليها .

١٢ ــ الصبيان والعمال والمعلم يعملون في منزل المعلم أو في محل ملحق به ، ويبيع المعلم إنتاجه في هذا المحل أو في سوق المدينة .

ــ الدور الاجتماعي للنقابات :

بالإضافة للدور الاقتصادي ، كان للنقابات دور اجتماعي . فلقد كان أعضاء النقابة يشتركون جميعاً في إحياء الأعياد والحفلات الخاصة بهم . كذلك قدمت النقابات خدمات اجتماعية متنوعة لأعضائها ، ومنها تقديم المساعدة المادية لمن يصاب منهم بمرض أو عجز . وإذا مات أحد أعضاء النقابة اشترك الأعضاء الآخرون في تشييعه وقدموا المساعدات لزوجته وأولاده . وكان لكل نقابة كاهن خاص تساعده هيئة دينية مختارة من بين أعضاء النقابة .

ــ الدور السياسي للنقابات :

غدت النقابات على جانب كبير من النفوذ السياسي ، وبخاصة في المدن الحرة المستقلة عن الحكام والملوك والأساقفة . فلقد نجحت النقابات في السيطرة

على الأداة الحكومية ، بعد سلسلة من الثورات امتاز بها تاريخ المدن الأوروبية في القرنين الثالث عشر والرابع عشر • وقد نشب صراع بين نقابات التجار والنقابات الحرفية ، لأن أعضاء نقابات التجار ، الذين سيطروا في أول الأمر على المدينة ، لم يرغبوا في التخلي عن سلطتهم ، أو في مشاركة النقابات المهنية بالسلطة • أما النقابات المهنية فلم تقبل بأن يتولى التجار وحدهم السلطة في المدينة ، فأعلنت الثورات ضدهم ، وانتهت تلك الثورات في آخر الأمر بأن يكون للنقابات المهنية نصيب في حكومة المدينة •

ـ مثالب النقابات ومساوئها :

على الرغم من أن النقابات حققت فوائـد عديدة لأعضائها مـن الناحيتين الاقتصادية والاجتماعية ، فإنها من جهة ثانية كان لها بعض المثالب • فازدياد نفوذ النقابات وسلطانها أدى بها فيما بعد إلى التعسف في استخدام ذلك النفوذ والسلطان• فلقد لجأت إلى حماية أعضائها من المنافسة عن طريق تحديد عدد الصبيان الذين يقبلون لتعلم الحرفة من جهة ، وعن طريق مطالبة السلطة الحاكمة في المدينة بفرض ضرائب على البضائع المستوردة من جهة ثانية• وفيما بعد غدا من الصعب على العامل المهني أن يدخل في دائرة النقابة ، فأصبح يتسلم المواد الخام اللازمة لعمله من رئيس النقابة ليصنعها في منزله ، بعد أن كان يعمل في منزل معلم المهنة • وفي هذه الحالة أصبح العامل أكثر تعرضاً للبطالة •. وحاول بعض العمال المهنيين أن يؤلفوا لأنفسهم نقابات خاصة لمهاجمة المعلمين (الأساتذة) غير أن هؤلاء المعلمين أحبطوا جهود العمال الأحرار بفضل ما نالوه دائماً من مساعدة حكومة المدينة •

وإذا كان نظام النقابات قد حرص على المحافظة على النوعية الجيدة للسلعة ، فان ذلك النظام كان له من جهة اخرى اثر واضح في عرقلة التقدم الصناعي وتاخير تطوره ، لان كل نقابة اشترطت على المشتغلين بالصنعة عدم استعمال آلة او وسيلة جديدة لا تقرّها النقابة ، وهذا ما قتل روح الابتكار والتجديد •

وعلى هذا اضطر المبدعون إلى أن يعملوا خارج دائرة اختصاص النقابات •

فمثلاً كانت الطريقة المألوفة في القرن الثاني عشر في تبييض القماش هي أن يوضع القماش في الماء ، ثم يجري الضغط عليه بألواح عريضة من الخشب • وفي أواخر القرن الثاني عشر خطر لأحد الأشخاص أن قوة دفع الماء تستطيع أن تؤدي تلك العملية بنجاح • وترتب على ذلك أن ظهرت معاسل التبييض ، لكن تلك المغاسل أقيمت خارج المدن بعيداً عن حدود اختصاص النقابات ، وفي أرض يملكها سيد أو نبيل قوي لا تجرؤ النقابات على رفض قبول ما ينتج من مغاسله • ومن المعلوم أن قدراً كبيراً من صناعة الصوف المتطورة بانكلترا في أواخر العصور الوسطى قد نمـا في الأرياف بعيداً عن دائرة سلطة النقابات في المدن [١٣] •



الشكل رقم (١٩)

صناعه السجاد في العصور الوسطى

طرق النقل التجارية

ـ الطرق البريـة :

اعترضت التجارة الأوروبية في العصور الوسطى عقبات أهمها ضعف وسائل المواصلات ، وصعوبة انتقال التجار ونقل البضائع من مكان إلى آخر • لقد اختفت الطرق الرومانية القديمة المرصوفة بالأحجار واستخدمت بدلاً عنها طرق ترابية تغمرها الأوحال عند هطول الأمطار • كذلك انهارت الجسور المقامة على الأنهار بنتيجة الإهمال • واستخدم التجار البغال والخيول في نقل البضائع ، وبعضهم استخدم عربات بدائية ذات دولابين أو أربعة دواليب • واهتمت الكنيسة بإنشاء الطرق وصيانتها ، إذ أعلنت أن رعاية الطرق من أعمال البر يجازى القائم بها بحسن الثواب والغفران • كذلك دأبت الحكومات الأوروبية في العصور الوسطى على تشجيع إنشاء الطرق وحمايتها من اللصوص وقطاع الطرق • وتجمع التجار على هيئة قوافل واستأجروا الحراس المسلحين لحماية قوافلهم وردع المعتدين • كذلك ارتبطت بعض المدن التجارية مع بعضها بعض في هيئة أحلاف لحماية تجارها وبضائعها ، كما فعلت مدن العصبة الهانزية (الهنسية) • ومع تطور التجارة ازداد عدد الفنادق والخانات على الطرق التجارية لينزل فيها التجار في أثناء سفرهم • وقد أسهمت الكنائس والأديرة في هذا المجال ، فاستقبلت التجار وغيرهم من المسافرين •

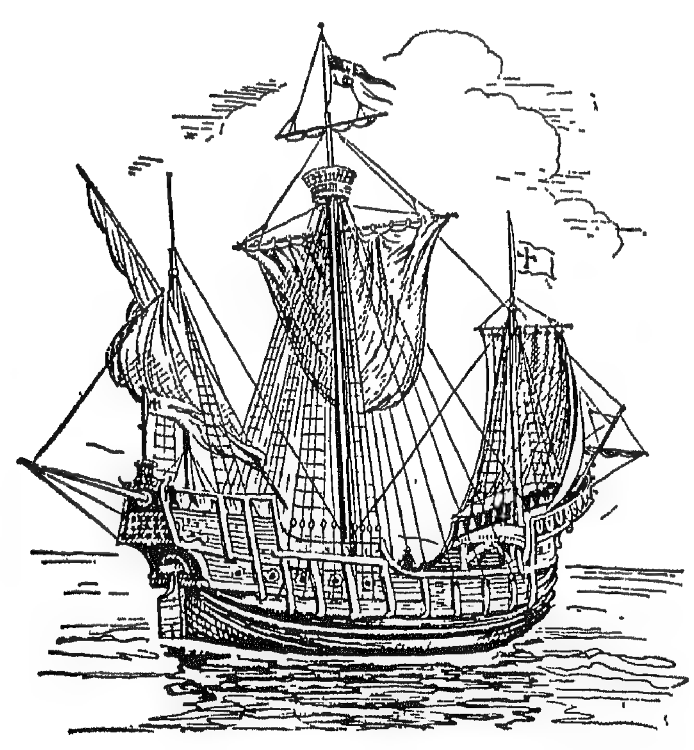
ـ النقـل النهري :

إلى جانب الطرق البرية استخدم التجار الطرق النهرية في نقل بضائعهم إلى المدن القريبة والبعيدة أو إلى الأسواق الشهيرة • ولم يسلم النقل النهري أيضاً من

عقبات أهمها تجمد مياه الأنهار في الشتاء ، وأخطار الفيضانات في الربيع ، ودفع المكوس التجارية إلى جميع الأمراء الذين يمر النهر في دائرة أملاكهم • وسعى تجار المدن النهرية إلى تأليف اتحادات لجمع الضرائب وصرفها على تعميق مجاري الأنهار وتطهيرها ، وبناء أحواض للسفن النهرية •

ـ النقـل البحري :

امتاز النقل البحري عن النقل البري والنقل النهري بعدم وجود مكوس أو ضرائب على السفن التي تعبر البحار ، كما امتاز بضخامة الحمولة التي تستطيع السفن البحرية نقلها • وكانت السفن البحرية في أول الأمر تلتزم السير قرب الشواطىء ، خوفاً من أن تغرق أو تضل الطريق • ولكن عندما نقل الأوروبيون



الشكل رقم (٢٠)
سفينه من سفن العصور الوسطى

عن العرب المسلمين استخدام البوصلة في القرن الرابع عشر تجاسر قادة السفن على الإبحار في أعماق البحار باطمئنان ٠ ورافق ذلك تقدم المعلومات البحرية الخاصة بالمواقع الجغرافية واتجاه الرياح ، وتطور فن بناء السفن القادرة على نقل حمولة كبيرة وركاب عديدين ٠ وظلت السفن في العصور الوسطى تسيّر بالمجاذيف واستخدم العبيد في هذا العمل الشاق ٠

ولما كانت البحار غير خالية من القراصنة فقد اضطر التجار إلى تجميع سفنهم في شكل أساطيل مزودة بالسلاح والرجال لردع العدوان ٠ وعملت المدن التجارية على تطهير البحار من القراصنة ، فطهّرت البندقية البحر الأدرياتيكي ، كما طهرت مدن العصبة الهانزية بحر الشمال وبحر البلطيق ٠ ومن العقبات التي عاني منها النقل البحري العرف السائد بأن جنوح أية سفينة مرغمة إلى شاطىء ما ، يجعلها غنيمة لصاحب الأرض التي جنحت إليها (٤١) ٠



الشكل رقم (٢١)

مستودع بضائع (صوره على الخشب من القرن السادس عشر)

الأســواق

في القرنين التاسع والعاشر الميلاديين لم تعرف أوروبا الغربية سوى أسواق محلية أسبوعية ، الهدف من إقامتها سد الحاجات اليومية البسيطة للمنطقة المجاورة. وكان يذهب إلى تلك الأسواق الأقنان والفلاحون الأحرار لبيع منتوجاتهم الزراعية والحيوانية والنسيجية . ولكن بدءاً من القرن الحادي عشر استلزم ازدياد النشاط التجاري نشوء أسواق كبرى في جنوب أوروبا وغربها للقيام بعمليات تجارية واسعة النطاق . في تلك الأسواق أخذ التجار المحترفون يلتقون لإتمام صفقات تجارية كبيرة ، بغض النظر عن احتياجات المنطقة المحلية التي تقام فيها السوق . وأبرز مثل لهذا النوع من الأسواق الكبيرة سوق الشامبانيا .

ـ أسواق الشامبانيا :

في النصف الثاني من القرن الثاني عشر أفادت مدن إقليم الشامبانيا (في شمال شرق فرنسا) مثل : بروفن ، تروا ، لايني ، بار ، من وقوعها على الطريق التى تصل البحر المتوسط ببحر الشمال ، فصارت ملتقى تجار الجنوب بتجار الشمال . واكتسبت تلك الأسواق شهرة كبيرة ، إذ أضحت مركزاً لتجارة دولية تتبادل فيها الأقمشة الشمالية (الفلاماندية) من جهة ، والتوابل والحرائر الشرقية من جهة أخرى . ونظراً للفوائد العظيمة التي جناها حكام إقليم الشامبانيا ، فقد دأبوا على العناية بالأسواق فحموا التجارة وأسسوا المشافي والفنادق ، وكذلك عينوا مشرفين وملاحظين للأسواق يعملون على حفظ النظام فيها ويفصلون في المنازعات التي تنشأ بين التجار ، كما يحملون أختام السوق لختم العقود التجارية .

وسارت أسواق الشامبانيا وأمثالها وفق تنظيمات دقيقة أشرف على تنفيذها

موظفو الكونت الذي يتبعه السوق • وقد روعي تسلسل مختلف أسواق الإقليم زمنياً ، بحيث تستغرق السنة بأكملها ولا يأتي إثنان منها في وقت واحد • وكان التجار يحضرون قبل موعد السوق بأسبوع لإعداد بضائعهم وتنظيم عرضها على خوانات (طاولات) في سوق الساحة العامة أو على الطريق العام • وفي المدة المحددة لعمل السوق كان يُعلن عن فتح أبوابه صباح كل يوم ، وعن غلقها في المساء عن طريق دق الأجراس •

وكان كل سوق يدوم من ثلاثة اسابيع إلى ستة • في الأيام العشرة الأولى كان لا يسمح إلا ببيع الأصواف • وفي الأيام العشرة الثانية تباع الجلود والفراء • اما في الأيام العشرة الثالثة فتباع البضائع التي توزن وتكال • واخيراً تترك خمسة ايام للتجار يجردون فيها بضائعهم ويتممون حساباتهم ويدفعون ما عليهم من رسوم لموظفي الكونت ، مع مراعاة ختم العقود المهمة بخاتم السوق •

وبفحص عقود تجار أسواق الشامبانيا يمكننا أن نأخذ فكرة عامة عن البضائع التي كانت تعرض في تلك الأسواق ومنها : الحرائر والتوابل المستوردة من الشرق الإسلامي والبيزنطي ، والأقمشة الصوفية الآتية من الفلاندروز وإيطاليا ، وألياف القنب الوافدة من بريتاني (في غرب فرنسا) ، والفراء المحضرة من روسيا والبلدان السكندينافية ، والمنتجات الحديدية والجلدية المجلوبة من ألمانيا ، والنبيد والخمور الواردة من فرنسا وإسبانيا •

وفي نهاية القرن الثالث عشر كشف عن مؤشرات أفول في نشاط أسواق الشامبانيا لأسباب كثيرة منها :

آ ـ ضم ملك فرنسا فيليب الرابع (الجميل) ١٢٨٥ ـ ١٣١٤ م إقليم الشامبانيا إلى الأملاك الملكية وفرض ضرائب باهظة على الواردات والصادرات •

ب ـ فتحت طرق تجارية برية جديدة في جبال الألب تصل مباشرة شمال إيطاليا بالبلاد الرينانية في الشمال •



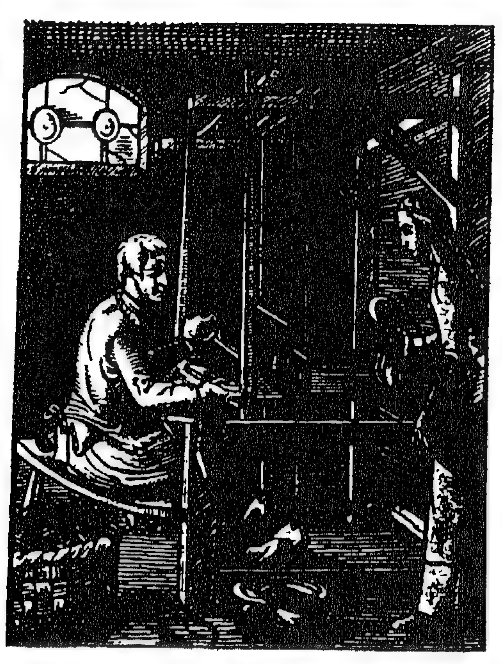
الشكل رقم (٢٢)
معرض بضائع في سوق الشامبانيا



الشكل رقم (٢٣)
هجوم الفرسان على قافلة تجارية

جـ ـ افتتح تجار البندقية في سنة ١٣١٧ خطاً ملاحياً بحرياً يتجه عبر مضيق جبل طارق مباشرة إلى إنكلترا وإقليم الفلاندروز في شمال فرنسا .

د ـ أنشأت الشركات التجارية والمالية الكبرى فروعاً لها وأسواقاً دائمة في المدن الهامة مثل باريس وغيرها ، فلم يعد للأسواق الموسمية كسوق الشامبانيا دور مهم (١٥) .



الشكل رقم (٢٤)

صناعة النسيج (رسمها ي. امّان في العصور الوسطى)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

المصــارف

ـ نشأة المصارف :

لماكان كثير من الأمراء الإقطاعيين يتمتعون بحق سك العملة الخاصة بهم ، فإن الأسواق الأوروبية وجدت نفسها في حاجة إلى صيارفة يبدلون النقود للتجار ، كل بالعملة التي يستطيع أن يتعامل بها في بلده . ويُعد عمل هؤلاء الصيارفة النواة الأولى للنظام المصرفي الرأسمالي . وكان الصرّاف في العصور الوسطى يحتفظ بصندوق قوي متين يضع فيه نقوده ، مما جعل بقية الأفراد يلجؤون إليه لإيداع أموالهم في مأمن عنده . ولم تلبث أن استخدمت في إيطاليا الحوالات والكمبيالات كوسيلة لتجنب نقل العملة الذهبية والفضية النفيسة ، خوفاً عليها من التعرض للاغتصاب . كذلك أخذ يظهر نظام الدفع بالشيكات بحيث يرسل التاجر إلى الصراف ورقة يأمره بدفع مبلغ محدد إلى تاجر له دين عليه . واستخدمت هـذه الوسيلة في المعاملات المالية داخل البلد الواحد وخارجه .

وعندما استكشف الصّراف أن الودائع التي لديه أكثر من حاجة عمـله اليومي استغلها في الإقراض بفائدة ، مما جعل الصيارفة يقومون بوظيفة أخرى من وظائف البنوك . ولم يجد أفراد الطبقة الارستقراطية (كبار الملاكين والحكام) وسيلة لسد نفقاتهم المتزايدة سوى الاقتراض بفائدة من التجار الذين لبـوا رغباتهم .

وفي المرحلة الأولى من العصور الوسطى انفرد اليهود بإقراض الأموال بفوائد ، مما مكنهم من السيطرة على الحياة المالية في أوروبا . وكانت الكنيسة المسيحية تحارب أكل الربـا الذي نهى عنه السيد المسيح حسبما جاء في الأناجيل . جاء في

إنجيل لوقا ، الإصحاح السادس ، ٣٥ مايلي : « أحبوا أعداءكم وأحسنوا وأقرضوا، وأنتم لا ترجون شيئاً » .

لكن اتساع نطاق النشاط التجاري جعل بعض التجار المسيحيين يتحايلون على تعاليم الأناجيل التي تمنع الإقراض مقابل الربا ، فأخذوا يوقّعون المقترض على عقد ، بأن يدفع ألف فلورين في وقت محدد دون فائدة ، في حين لا يقرضونه سوى تسعمئة فلورين (عملة أوروبية) ، وبذا تكون فائدة القرض مئـة فلورين ، لكنها لم تدوّن في العقد .

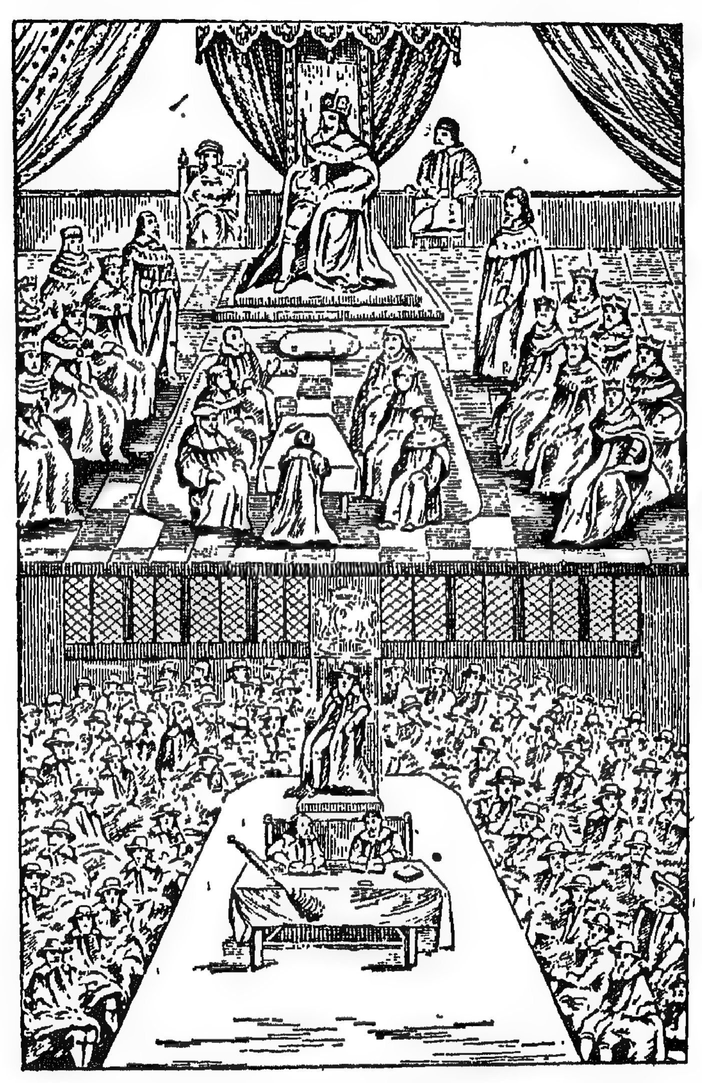
وفي أوائل القرن الثالث عشر ابتكر أحد التجار الايطاليين حيلة على تعاليم الأناجيل ، إذ أقرضَ الحكومةَ الانكليزية مبلغاً من المال ، على أن تسدد الحكومة قيمة هذا المبلغ بالأصواف ، وقد روعي في العقد أن تكون قيمة الأصواف التي ستسلم للتاجر أكبر من قيمة المبلغ الذي دفعه للحكومة ، وبذلك حصل التاجر الايطالي على فائدة القرض . وبهذه الطرق استطاع الايطاليون أنيشتغلوا بأعمال الصيرفة ليحلوا محل اليهود .

في القرن الثاني عشر أخذت الدول الأوروبية القومية مثل إنكلترا وفرنسا وإسبانيا تضطهد اليهود وتطردهم من بلادها لمسلكهم الاستغلالي المشين في مجال الإقراض بالربا . وكانت تلك الدول قد منعتهم منذ القرن الثامن من حيازة الأرض والعمل بالزراعة ، فاضطروا إلى العمل بالتجارة وإقراض القروض مقابل الحصول على فائدة ، مع العلم أن بعض أسفار توراة اليهود تنهى اليهودي عن إقراض المال بفائدة ليهوديّ آخر . لكن هذا النهي لا ينطبق على الشعوب التي تعتنق أدياناً أخرى . لقد جاء في التوراة (سفر الخروج ، الإصحاح الثاني والعشرين ٣٥–٣٧) ما يلي :

« إن اقرضت فضة لشعبي الفقير الذي عندك فلا تكن له كالمرابي ، لا تضعوا عليه ربـا » .

وفي القرن الثالث عشر ظهرت في إيطاليا عدة بيوت مالية كبيرة أهمها بنـك

القديس جورج في جنوا . كذلك ظهرت في فلورنسا عدة بنوك تعد أول نموذج للبنوك الدولية ، إذ كان لبعضها فروع امتدت من إنكلترا وفلاندروز غرباً حتى أطراف البحر المتوسط شرقاً ، كما قامت بتقديم خدماتها واستشاراتها المالية للملوك والبابوات (١٦) .



الشكل رقم (٢٥)
البرلمان الانكيزي

العصبة الهانزية

ـ العصبة الهانزية (أو الهنسية) :

برزت المدن الألمانية كقوة اقتصادية (صناعية ـ تجارية) منذ القرن الثاني عشر • وقد دعمَ بعضُ الملوك الألمان تلك المدن ومنحوها الامتيازات للحدّ من نفوذ الأمراء الاقطاعيين والأساقفة وتسلطهم على شؤون الحياة الاقتصادية والسياسية في البلاد • وعلى هذا أضحت طبقة الصناع والتجار قوة فاعلة في حياة المدينة الألمانية واقتصادها • وشكّلَ هؤلاء الصناع والتجار النقابات كي ترعى مصالحهم وتدافع عن حقوقهم • وقد ترك التجار الألمان الأمراءَ الاقطاعيين والأساقفة يتقاتلون مع الملوك والأباطرة على السلطة السياسية واهتموا بتدعيم نشاطهم التجاري داخل ألمانيا وخارجها •

ومنذ القرن الثاني عشر اتجه تجارمدن شمال شرق ألمانيا ـ وعلى رأسها هامبورغ وليوبك ـ شرقاً وأسسوا مراكز لعملياتهم التجارية في نوف غورود في روسيا وبرغن في النرويج ووتن في السويد ويزبي في جزيرة غوتلاند ببحر البلطيق، في حين اتجه تجار مدن شمال غرب ألمانيا ـ وعلى رأسها كولونيا ـ نحو الغرب واتخذوا من مدينة بروج (بروجز) في فلاندروز (في بلجيكا الحالية) ومدينة لندن وغيرها مراكزَ رئيسة لعمليات التبادل التجاري • وأطلق الانكليز على التجار الألمان وغيرهم من تجار البلاد الواقعة شرق إنكلترا اسم « ايسترلنغ » أي الشرقيين Easterling • ومن هذه اللفظة اتخذ الانكليز فيما بعد صفة مختزلة وهي Sterling ـ أي استرليني ـ لتصبح اسماً للوحدة النقدية الذهبية في إنكلترا (الجنيه الاسترليني) حتى الوقت الحاضر •

ولم تكن التجارة الألمانية آمنة وسط مظاهر الفوضى السياسية التي عمّت ألمانيا ، ولذا وجد التجار الألمان أنفسهم في حاجة إلى الاتحاد لحماية مصالحهم التجارية من قراصنة البحار ولصوص الطرق البرية وابتزاز الأمراء الاقطاعيين ، الذين يفرضون المكوس الباهظة على القوافل التجارية التي تمرّ في أراضيهم ، بالإضافة إلى مقاومة بعض الشعوب والسلطات في الدول المجاورة . وعلى هذا اتحدت مدينتا ليوبك وهامبورغ (في سنة ١٢٣٠ أو ١٢٤١) ، ثم انضمت إلى هذا الاتحاد بعض المدن المجاورة والمدن الواقعة خارج ألمانيا حتى شمل محيطه جميع المدن الهامة من نوف غورود في روسيا إلى بروج في بلجيكا الحالية . لكن ذلك الاتحاد ظل اتحاد تجار فحسب ، إذ لم يكن للنبلاء الاقطاعيين أو أصحاب المهن الصناعية شيء من السلطان في هذه الجمهوريات التجارية .

ووصل الاتحاد التجاري بين المدن الألمانية إلى ذروته في أواسط القرن الرابع عشر بقيام ما عرف باسم « العصبة الهانزية » Hansteatic League في سنة ١٣٥٠ م تحت زعامة مدينة ليوبك . وهذه التسمية مشتقة من الكلمة الألمانيا هانسا Hansa التي تعني اتحاداً أو مجموعة من الرجال التجار أو المحاربين . وتتلخص الأهداف الأساسية للعصبة الهانزية في حماية تجارتها من الأعداء والمنافسين ، بالإضافة إلى التوسع في الحصول على المزيد من الامتيازات التجارية . ولتحقيق هذه الأهداف أنشأت العصبة الهانزية قوة بحرية ضخمة وجيشاً برياً وبحرياً . حتى أصبح ملوك أوروبا يخشون بأسها وينشدون محالفتها . ودفعت المدن التجارية الأعضاء في العصبة ضرائب منتظمة للانفاق على جيش العصبة وأسطولها . واستطاعت قوات العصبة الهانزية أن تلحق الهزيمة بملك الدانيمارك والديمار (١٣٤٠ — ١٣٧٥) ، الذي حاول فرض الضرائب على السفن الألمانية التي تبحر في المياه الدانيماركية، كما أجبرت السلطات الدانيماركية على التعهد بألا تختار ملكاً إلا بموافقة العصبة الهانزية . وفي سنة ١٤٩٨ كتب السائح الايطالي إيناس سلفيوس ما يلي : « إن مدينة ليوبك الألمانية بلغت من وفرة الثروة والقوة ما جعل كلاً من الدانيمارك والسويد والنرويج يرى من الطبيعي أن يكون تعيين ملوكها أو عزلهم رهن مشورتها المحليّة » .

وفي النصف الثاني من القرن الخامس عشر الميلادي أخذت عصبة المدن الهانزية (الهنسية) تسير في طريق الانحلال تدريجاً حتى ذهب عنها سلطانها وغناها . وأسباب ذلك الانهيار عديدة ومختلفة ، منها الداخلية ، ومنها الخارجية . ونحاول هنا أن نتلمس بعض تلك الأسباب :

١ ــ حارب الأمراء الألمان الاقطاعيون العصبة الهانزية بعد أن رأوا في ازدهارها خطراً على سلطانهم ونفوذهم .

٢ ــ نشب نزاع مسلح طويل الأمد بين مدن العصبة من جهة ، والمدن الألمانية الأخرى (غير المنضمة إلى العصبة) من جهة ثانية ، لأن العصبة رفضت قبول انتساب تجار المدن الأخرى إليها ، في حين سمحت تلك المدن لتجار العصبة بالتردد عليها للقيام بأعمال تجارية .

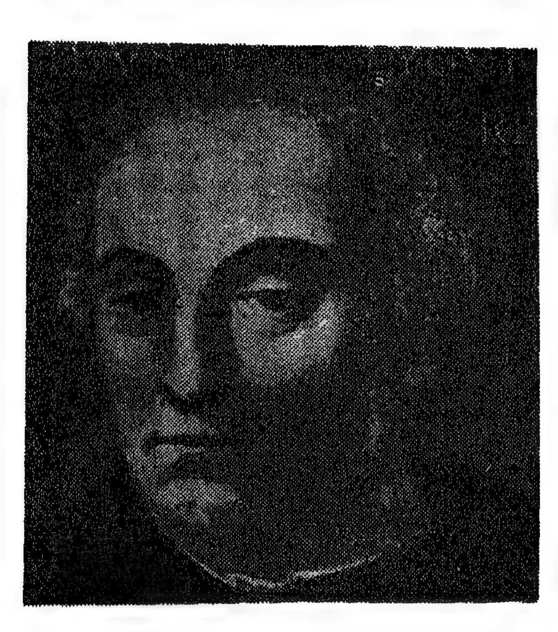
٣ ــ ظهور التحاسد والتنافس بين المدن الأعضاء في العصبة ، برغم ما بينها من مصالح ومنافع مشتركة .

٤ ــ أدى تطور الأوضاع السياسية في أواخر القرن الخامس عشر إلى ظهور الملكيات القومية في أوروبا ، فحولت المدن المنضمة إلى العصبة ولاءها للمملكة التابعة لها ، وصار هذا الولاء أقوى من الولاء للشركة العامة للتجار الألمان General Company of German Merchaants ، وهو الاسم الرسمي لعصبة المدن الهانزية .

٥ ــ كانت العصبة الهانزية تحصل على أرباح كبيرة من صيد أسماك الرنجة الموجودة في بحر البلطيق . ولكن في سنة ١٤٢٥ حوّلت أسماك الرنجة أنوفهـا عن شواطىء بحر البلطيق وهاجرت ــ لأسباب طبيعية مجهولة ــ إلى بحر الشمال المجاور لانكلترا ، فخسرت مدن العصبة الهانزية أرباحها الكبيرة من صيد تلك الأسـماك .

٦ ــ أحدث استكشاف الطريق البحري إلى الهند واكتشاف أمريكا انقلاباً كبيراً في اتجاهات التجارة الأوروبية ، فأصبحت هذه التجارة تتجه نحو الجنوب

والغرب ، دون أن تستطيع مدن العصبة الهانزية مسايرة تلك التطورات الجديدة ، إذ هيمن البرتغاليون والاسبان والهولنديون والانكليز على التجارة الدولية الجديدة (١٧) .



الشكل رقم (٢٦)
كريستوف كولومبس

الباب الثاني

الحيــاة الدينيــة

في أوروبا العصور الوسطى

الفصل الأول

نشأة المسيحية وانتشارها

الفصل الثاني

البابوية وتنظيم الكنيسة الغربيــة الأوروبية

الفصل الثالث

الرهبانيّــة والديريــة



الفصل الأول

نشأة المسيحية وانتشارها

- ظهور المسيح :

كان اليهود في القرن الأول قبل الميلاد يعتقدون بأنهم « شعب الله المختار » وينتظرون مجيء المسيح الذي تعدهم به التوراة ليحقق لهم الظفر والانتصار على جميع الشعوب • وفي هذا المناخ من القلق العام ظهر المسيح المنتظر •

ولد السيد المسيح (عيسى بن مريم) في مدينة بيت لحم بفلسطين في عهد الامبراطور الروماني أوغسطس (توفي سنة ١٤ ميلادية) ، وكانت فلسطين في ذلك الحين تخضع للحكم الروماني • وقضى يسوع (المخلّص أو المنقذ من خطيئة آدم الأولى المتمثلة بمخالفة وصيّة الله والأكل من ثمار شجرة التفاح) شبابه في مدينتي الناصرة والخليل • وفي الثلاثين من عمره جابَ فلسطين ونادى بنفسه المسيح أي « رسول الله » و « ابنه » • انضمّ إلى المسيح اثنا عشر تلميذاً ، وظلّ طوال ثلاث سنوات يكرز في أوساط اليهود ويبشرهم بالحادث الجديد ـ الإنجيل ـ (البُشرى) وهو الوعد بالعدل والسلام • وقد آمن بعض اليهود بتعاليم المسيح الجديدة ، في حين عارضه الآخرون الذين ينتظرون مسيحاً قوياً ماجداً يحقق لهم الانتصار على جميع الشعوب •

استاء أحبار اليهود من تعاليم السيد المسيح الجديدة لأنه يجعل محبة الله والإخاء بين الناس فوقَ تعاليم التوراة (الناموس) ، فأثاروا ضده السلطات الرومانية بفلسطين ، التي رأت أيضاً في تعاليمه تحريضاً يمكن أن ينقلب إلى حركة

ثورية ضد الحكم الروماني . وعلى هذا استجاب الحاكم الروماني بفلسطين بيلاطس النبطي لمطلب المحكمة اليهودية العليا وأمر جنوده بقتل السيد المسيح « فصُلبَ » على رابية الجلجلة التي تقوم عليها اليوم كنيسة القيامة في شمال مدينة القدس [1] .

ـ تعاليـم المسيح :

لم يكن في نيّة السيد المسيح أو تلاميذه تأسيسُ دين جديد ، بل إتمام كتاب « العهد القديم » (التوراة) في داخل اليهودية . فلقد أكّد تمسكه بالناموس اليهودي وقال إنه لم يأتِ ليُلغي ذلك الناموس بل ليتممه . ولكن في الواقع ابتعدت تعاليم السيد المسيح عن المفاهيم اليهودية . فاليهود رأوا ان الله إلههم وحدهم ، بينما قال السيد المسيح إن الله إله لجميع الشعوب دون تمييز . وقد رأى اليهود أيضاً أن إلههم يهوه هو الرب الجبّار الذي ينتقم لهم من أعدائهم ، بينما قال السيد المسيح إن الله هو إله المحبة والخير والعفو عن خطايا خلقه . كذلك نظر اليهود إلى الشعوب الأخرى غير اليهودية نظرة عداء وطلبوا من إلههم يهوه أن يقف إلى جانبهم ضد تلك الشعوب . أما السيد المسيح فقال إن جميع الناس اخوة ويجب أن يحبوا بعضهم بعضاً ، ويعفوا عن الذنب ، ويقابلوا السيئة بالحسنة . ومن جهة أخرى تمسك اليهود بتطبيق تعاليم التوراة بما فيها من حسن وسيء ، بينما دعا السيد المسيح إلى تطبيق مكارم الأخلاق التي هي أعلى من الناموس اليهودي نفسه .

وظهر التعارض أيضاً بين تعاليم السيد المسيح والنظم التي قامت عليها الدولة الرومانية ، مع أن تلك التعاليم لم تكن تمثل نظرية ثوريـة تدعو إلى تحريض الجماهير ضد السلطات الرومانية الحاكمة ، وأقوال السيد المسيح صريحة في هذا المجال ومنها قوله :

« أعطوا ما لقيصر لقيصر ، وما لله لله » . كذلك علّم تلميذه بطرس أن : « لا سلطة إلا من الرب ، فمن يعارض السلطة يقاوم النظام الذي أقره الرب » .

لكن السيد المسيح وتلاميذه رفضوا تأليه الامبراطور الروماني وعبادته ، كما رفضوا الخدمة في الجيش الروماني ، فرأت السلطات الرومانية في هذا الرفض أمراً يفكك الروابط التي تربط شعوب الامبراطورية ويشكل خطراً على السلطات الحاكمة .

كذلك نظرت الطبقات الغنية المسيطرة في المجتمع الروماني إلى دعوة المسيحية إلى المساواة والعدل والكفاف الاقتصادي بمثابة إنذار موجّه لها للكف عن استغلال جهود الفقراء الكادحين ، كما خشيت أن تنقلب تلك الدعوة إلى ثورة شعبية تطيح بالأوضاع الاجتماعية القائمة على الفروق الطبقية . وعلى هذا تعاضدت الطبقات العليا الغنية مع السلطات الرومانية الحاكمة في شنّ حملات الاضطهاد المتكررة ضد المسيحيين منذ القرن الأول حتى العقد الأول من القرن الرابع الميلادي . لكن تلك الاضطهادات فشلت في تحقيق أهدافها ، فظلّت المسيحية آخذة في الانتشار حتى حظيت بالاعتراف بشرعية وجودها من قبل السلطات الرومانية (٢) .

ـ العوامل التي ساعدت على انتشار المسيحية :

هناك عدة عوامل ساعدت على انتشار المسيحية وانتصارها نذكر أهمها :

١ ـ قوة إيمان المسيحيين الأوائل وجهودهم الفائقة في نشر المسيحية ، بما في ذلك استشهادهم برحابة صدر في سبيل انتصار عقيدتهم .

٢ ـ كانت المسيحية ديناً سماوياً عاماً لجميع البشر ولجميع الطبقات الاجتماعية دون تمييز ، في حين كانت اليهودية ديناً خاصاً لشعب « مختار » .

٣ ـ سموّ المفاهيم الأخلاقية في المسيحية .

٤ ـ قصة حياة المسيح وتضحيته بنفسه في سبيل إنقاذ البشرية كان لها جاذبية مميزة وتأثير فعّال في نفوس مختلف الشعوب .

٥ ـ الفراغ الروحي الذي تعانيه مجتمعات الامبراطورية الرومانية ، على الرغم من انتشار عقائد دينية متنوعة أهمها : عبادة الامبراطور الروماني ، عبادة

مثرا إله النور الفارسي الأصل ، عبادة إيزيس وأوزوريس المصرية ، عبادة سيبيل التي أصلها من آسيا الصغرى ، عبادة يهوه اليهودية العنصرية المنغلقة والمخصصة لشعب « مختار » • يضاف إلى ذلك بعض العقائد الفلسفية مثل الرواقية والأبيقورية والافلاطونية الحديثة التي ظل انتشارها محدوداً في الأوساط الثقافية •

٦ــ ساعد اتساع الامبراطورية الرومانية وخضوعها لسلطة مركزية في روما على انتقال المبشرين المسيحيين بأمانٍ بين المدن والولايات الرومانية •

٧ ـ ساعدت هيمنة اللغة الآرامية (السريانية) في الوطن العربي ، واللغة اليونانية في القسم الشرقي من الامبراطورية الرومانية ، واللغة اللاتينية في القسم الغربي من الامبراطورية على انتقال التعاليم المسيحية بسهولة إلى مختلف أرجاء الامبراطورية ، حيث وجد مبشرون يتقنون هذه اللغات أو بعضها •

٨ ـ كان الخوف من الموت يتملك البشر • لكن موت المسيح وبعثه حياً ، والايمان بعودته يوم القيامة ليبعث البشرية من الموت ـ كل هذا بعثَ في نفوس المؤمنين أملاً بالعودة إلى الحياة ثانية ، مما حبَّبَ إليهم الموت وجعله أمراً مألوفاً لديهم ، وعلى صخرة هذا الأمل قامت المسيحية [٣] •

ـ انتشار المسيحية وانتقالها إلى روما :

بعد موت السيد المسيح قام تلاميذه الحواريون بإتمام رسالته التي عهد بها إليهم بقوله :

« إذهبوا الآن وتلمذوا كل الأمم معمدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس » ، أو بقوله : **« إذهبوا إلى العالم اجمع واكرزوا بالانجيل للخيقة كلها »** •

وخرج هؤلاء التلاميذ من فلسطين وطفقوا ينشرون الديانة المسيحية في مختلف أنحاء سورية ومصر وآسيا الصغرى وغيرها من البلدان • وأضاف الرسل والتلاميذ إلى رسالة السيد المسيح وحياً ممجداً وهو موت المسيح ودفنه في القبر ، ثم قيامته

في اليوم الثالث من الدفن وظهوره إلى تلاميذه قبل أن يصعد إلى أبيه في السموات العـُـلى .

ويحتوي ((العهد الجديد)) الأناجيل الأربعة وهي : إنجيل القديس متى ، إنجيل القديس يوحنا ، إنجيل القديس لوقا ، إنجيل القديس مرقس . يضاف إلى ذلك رسائل القديس بولس واعمال الرسل ورؤيـا القديس يوحنا .

وأشهر المبشرين بالدين المسيحي بولس تارسا ، الذي كان في السابق يهودياً أصله من كيليكيا ، كما كان خصماً للمسيحيين . وعندما بدا لبولس وهو في طريقه إلى دمشق السيد المسيح بعد موته آمن َ به وغدا القديس بولس . بعد اعتناقه المسيحية جاب َ بولس سورية وآسيا الصغرى وقبرص واليونان مبشراً بالدين الجديد ، ومن ثم ذهب إلى روما عاصمة الامبراطورية الرومانية وعاش فيها ردحاً من الزمن لاقى خلاله الاضطهاد على أيدي السلطات الرومانية في زمن الامبراطور نيرون .

كذلك بشّر القديس مرقص في مصر وأسس فيها الكنيسة المسيحية . وأيضاً قام الرسل والحواريون الآخرون بنشر التعاليم المسيحية في مختلف البلدان .

واشتهر أيضاً من تلاميذ السيد المسيح القديس بطرس [الاسم بطرس تعريب لكلمة بترا Petra في اليونانية ومعناها الصخرة ، وبطرس هذا كان اسمه سمعان ابن يونا] الذي يـُعدّ زعيم الحواريين ومقدم الرسل ، لأن السيد المسيح لقّبه بالصخرة التي سيبني عليها كنيسته . لقد خاطب السيد المسيح سمعان بن يونا قائلاً :

((وأنا أقول لك أيضاً : انت بطرس (أي الصخرة) ، وعلى هذه الصخرة ابني كنيستي ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها ، وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات ، فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطاً في السموات ، وكل ما تحله على الأرض يكون محلولاً في السموات)) .

وهكذا اصطفى السيد المسيح القديس بطرس وقدّمه على سائر الرسل المسيحيين •

ويُرْوى أن القديس بطرس أول من نقل المسيحية من سورية إلى مدينة روما وأسس فيها كنيسة مسيحية سرّية ، لكنه لقي فيها التعذيب ثم القتل على أيدي السلطات الرومانية في عهد الامبراطور نيرون • وبناءً على مخاطبة السيد المسيح لبطرس بقوله : « أنت الصخرة وعلى هذه الصخرة أبني كنيستي » عَدَّ القديس بطرس خليفة السيد المسيح في الأرض واستمد سلطته منه مباشرة • وبما أن القديس بطرس أول من أسس كنيسة مسيحية في روما ، فقد عَدَّ رجال الدين الأوروبيون أسقف روما خليفة للقديس بطرس (نائب المسيح في الأرض) ، وبالتالي فهو رئيس أساقفة العالم المسيحي كله ، وبيده سلطة الحل والربط • يضاف إلى ذلك اقتناع الشعوب العربية واليونانية واللاتينية بأن مدينة روما تمتاز على سائر المدن المسيحية بشيء من الاحترام والقدسية لاحتوائها على رفات القديسيْن بطرس وبولس • وقد جاء في موعظة ليوحنا الذهبي الفم ما يلي :

« ... احب روما من اجل هذين العميدين الاثنين (بطرس وبولس) اللذين ارتكزت على اكتافهما صروح الكنيسة ... » •

وعلى هذه الأسس والمعتقدات بنيت النظرية البطرسية فيما بعد (٤) •

ـ اضطهاد المسيحيين :

شكلت المبادىء المسيحية التي وضع أسسها السيد المسيح وتلاميذه خطراً كبيراً على الطبقات الغنية والسلطات الرومانية ، فشنت اضطهادات متكررة ضد المسيحيين • وكان أول شهداء المسيحية السيد المسيح نفسه ، الذي « صُلبَ » بأمر من الحاكم الروماني بفلسطين وبدسيسة من اليهود • وفي عهد الامبراطور كلود (٤١ ــ ٥٤ م) طُرِدَ المسيحيون الأوائل المعروفون من مدينة روما • أما في عهد الامبراطور نيرون فقد أحرق اليهود بعض أحياء روما واتهموا المسيحيين بذلك ، فأصدر الامبراطور مرسوماً يقضي بألاّ يكون أحدٌ مسيحياً • وبعد صدور هذا

المرسوم أخذ المسيحيون يتعرضون للملاحقة والاضطهاد من قبل السلطات الرومانية، فلاقى الكثيرون حتفهم ، ومنهم القديس بطرس والقديس بولس وعدد كبير من رؤساء الكنائس • ويشير المؤرخون إلى عشرة اضطهادات كبيرة تعرض لها المسيحيون (بين سنتي ٦٤ — ٣١٣ ميلادية)، لكن تلك الاضطهادات لم تكن جميعها عامة وشاملة • وعلى الرغم من الاضطهاد الذي لقيه المسيحيون فقد تميز القرن الثالث الميلادي بسعة انتشار المسيحية ، إذ زادهم الاضطهاد قوة واندفاعاً ، فصار بعض المسيحيين يلتمس الشهادة طريقاً مباشراً إلى الحياة الأبدية • وقد أشار إلى سعة انتشار المسيحية ترتولين (في سنة ١٩٧ م) بقوله :

« كان دمُ المسيحيين كالبـذار » •

لقد أتى اضطهاد المسيحيين بنتيجة عكسية بالنسبة لسياسة السلطات الرومانية، لأن روح الشجاعة والصبر والايمان التي واجه بها شهداء المسيحية مصيرهم أصبحت موضع إعجاب الكثيرين من الوثنيين ، فأقبلوا على اعتناق المسيحية • وهكذا أضحت المسيحية في القرن الثالث الميلادي قوة خطيرة بسبب ازدياد عدد أتباعها ازدياداً مطرداً ، وهذا ما دفع الامبراطور الروماني ديوكليسيانوس (٢٨٤ — ٣٠٥) إلى التطرف في قمعها ، لأن ازدياد عدد المسيحيين في صفوف الجيش هدد بالقضاء على ولاء الجند للامبراطور والامبراطورية • ففي سنة ٣٠٣ م أصدر ديوكليسيانوس عدة مراسيم إمبراطورية يأمر فيها بهدم كنائس المسيحيين ومنعهم من الصلاة وإحراق كتبهم وسجن قساوستهم وطردهم من صفوف الجيش والوظائف الحكومية • لكن تلك المراسيم لم تردع المسيحيين عن إيمانهم ، فأصدر ديوكليسيانوس مراسيم لاحقة يأمر فيها بتعذيب المسيحيين وقتلهم ، فلاقى الكثيرون منهم حتفهم على أيدي السلطات الرومانية ، مما جعل المسيحيين يطلقون فيما بعد على الفترة الأخيرة من حكم ديوكليسيانوس **« عصر الشهداء »** [٥] •

ـ اسباب اضطهاد المسيحيين :

أهم الأسباب التي دفعت السلطات الرومانية لاضطهاد المسيحيين هي التالية :

١ ــ رفض المسيحيون عبادة الامبراطور الروماني وآلهة روما الوثنية ، وهذا الرفض يدل على عدم الولاء للدولة الرومانية وامبراطورها ، ويُعدّ من العوامل المفككة لوحدة الامبراطورية •

٢ ــ بدت التعاليم المسيحية كأنها ثورة اجتماعية ــ اقتصادية ضد الاستغلال والتفاوت الطبقي السائد في الامبراطورية الرومانية آنذاك ، إذ قال السيد المسيح : « ما أعسرَ دخول ذوي المال إلى ملكوت الله ••• مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنيّ ملكوت الله » •. ولهذا تخوف الارستقراطيون الأغنياء من تلك التعاليم ، لأنها تشكل خطراً على مصالحهم الاقتصادية والاجتماعية والسياسية •

٣ ــ تخوفت السلطات الرومانية من اجتماعات المسيحيين السرّية لممارسة عبادتهم ، وخشيت أن تتحول حركتهم الدينية إلى حركة ثورية تقوض النظــام القائم في الامبراطورية •

٤ ــ اتخذ اليهود موقفاً عدائياً من المسيحيين ولفقوا التهم والافتراءات ضدهم، كما حرضوا السلطات الرومانية على اضطهادهم ، لأن التعاليم المسيحية تتناقض في كثير من الأمور مع التعاليم اليهودية •

٥ ــ رفض المسيحيون تأدية الخدمة العسكرية الالزامية ، وهذا الرفض يشكل خطراً على تنظيم الجيش وولائه للامبراطورية •

٦ ــ تخوفت السلطات الرومانية من انتشار المسيحية في الأراضي الخاضعة للدولة الفارسية ــ العــدوة التقليدية للرومــان ــ ، وخشيت أن يقف هؤلاء المسيحيون إلى جانب الفرس في حروبهم مع الرومان (٦) •

ــ اعتراف قسطنطين الكبير بالمسيحية ومرسوم ميــلانو :

إن الاضطهاد العنيف الذي مارسه الامبراطور ديوكليسيانوس ضد المسيحيين جعلهم يتمسكون بعقيدتهم أكثــر فأكثر • ولمس الحكام الرومان الذين خلفوا ديوكليسيانوس النتائج السلبية لسياسة اضطهاد المسيحيين ، فقرروا العدول عنها •

ففي سنة ٣١١ م أصدر الامبراطور (الأوغسطس) غاليروس (بالاتفاق مع القياصرة الثلاثة قسطنطين وليكينوس ومكسيمينوس) براءة في مدينة سارديكة تنص على السماح للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية بشرط ألا يخلّوا بالنظام • وفي سنة ٣١٣ م اجتمع قسطنطين بزميله ليكينوس ، الذي جاء إلى مدينة ميلانو بإيطاليا ليتزوج من قسطنطينة أخت قسطنطين ، وتشاور معه بأمور الدولة ، فقررا إعلان حرية المعتقد في جميع أنحاء الامبراطورية وتنفيذ براءة سارديكة التي سمحت للمسيحيين بممارسة شعائرهم الدينية •

وقد جاء في « مرسوم ميلانو » ما خلاصته : « نحن قسطنطين اوغسطس وليكينوس اوغسطس ، بعد تداول الرأي في ميلانو تبين لنا ان مصلحة الدولة تقتضي منح المسيحيين وجميع الرومانيين حق اتباع الدين الذي يختارونه » •

وبهذا التشريع الجديد انتهى عصر الاضطهاد واعترفت السلطات الرومانية بشرعية وجود الديانة المسيحية ، كما أصبحت الكنائس المسيحية تتمتع بحق التملك • لكن المسيحية لم تصبح في ذلك الحين ديانة رسمية للدولة الرومانية ، بل صارت متساوية مع الأديان الوثنية الرومانية •

في سنة ٣٢٤ م انتصر قسطنطين في حربه مع زميله ليكينوس وصار حاكماً وحيداً في الامبراطورية الرومانية ، فأصدر مرسومين ينصان على وجوب إنهاء اضطهاد المسيحيين ومنح حرية المعتقد للمسيحيين والوثنيين على السواء • وعلى الرغم من مبدأ المساواة الذي أعلنه الامبراطور قسطنطين ، فقد كانت ميوله نحو المسيحية أقوى من ميوله نحو الوثنية ، إذ أنه قدّم الأموال لبناء الكنائس المسيحية ، ومنح الأساقفة المسيحيين سلطة قضائية • وبتأثير التعاليم المسيحية أصدر قسطنطين بعض القوانين التي تحرّم الخطف والاغتصاب والتسرر والعهر ، كما تحدد حالات الطلاق وتوصي بحماية الأرامل واليتامى والمساكين • وكان لعطف قسطنطين على الكنيسة المسيحية وقع عظيم في الأوساط المسيحية ، فأطلق عليه المسيحيون فيما بعد لقب **« القديس قسطنطين »** • وعلى الرغم من هذا فلاتزال قضية اعتراف الامبراطور البيزنطي الأول قسطنطين بالمسيحية موضوع جدال بين

الباحثين المعاصرين ؛ فبعض الباحثين يرى أن اعتراف قسطنطين بالمسيحية كان تعبيراً عن إيمانه بهذه الديانة ، وبعضهم الآخر يرى أن اعترافه بالمسيحية كان لخدمة أهدافه السياسية (٧)

ـ الاريوسية ومجمع نيقية الديني :

بعد اعتراف الامبراطور البيزنطي قسطنطين الأول بشرعية وجود الديانة المسيحية نشبت الخلافات العقائدية بين المسيحيين أنفسهم . وأول خلاف عقائدي نشب في مصر بين كاهن مثقف من الاسكندرية يدعى آريوس، وبطريرك الاسكندرية أثناسيوس الكبير .

لقد انكر آريوس الوهية السيد المسيح ودعا إلى الاعتقاد بإله واحد هو الآب ، اما الابن (اي المسيح) فهو مخلوق من العدم بإرادة الآب ، كما يحمل صورته وإرادته وقدرته ومجده . لكن الابن لا يتساوى مع الآب وإن المسيح ليس إلهاً .

اما البطريرك اثناسيوس الكبير فقال : إن فكرة الثالوث المقدس (الآب والابن والروح القدس) تحتم أن يكون الابن مساوياً للإله الآب تماماً في كل شيء بحكم انهما من عنصر واحد بعينه ، وإن كانا شخصين متميزين . وهكذا كان اتباع آريوس من الموحدين ، في حين كان اتباع أثناسيوس من الثالوثيين اي من المؤمنين بوحدة الثالوث المقدس .

وعندما اشتد الجدل وتفاقم النزاع بين أنصار المذهب الاريوسي ، وأنصار المذهب الأثناسيوسي ، خشي الامبراطور البيزنطي قسطنطين أن تؤدي الخلافات العقائدية إلى فوضى ومشكلات تهدد الأمن والسلام في ولايات الامبراطورية ، فحاول أن يوفق بين المذهبين ، إذ أوفد إلى مصر الأسقف هوسيوس وحمّله رسالة إلى رؤوس الطرفين المتخاصمين يقول فيها ما معناه : إن السلم أهم بكثير من مثل هذه المشادات العقائدية ، وإن مصلحة الدولة تتطلب أن يتساهل الطرفان للوصول إلى حل مرضٍ . لكن الأسقف هوسيوس أخفق في محاولته حل الخلاف العقائدي،

فاقترح عقد مجمع ديني مسكوني (عالمي) للنظر في هذا الخلاف • قبلَ الامبراطور قسطنطين هذا الاقتراح ووجه الدعوة إلى جميع أساقفة الامبراطورية للاجتماع في مدينة نيقية (في آسيا الصغرى) ، فلبى الدعوة نحو ثلاثمائة أسقف أكثرهم من الولايات المشرقية •

في سنة ٣٢٥ انعقد المجمع المسكوني بمدينة نيقية ، فكان اول مجمع ديني عالمي في تاريخ الكنيسة المسيحية •

حضر الامبراطور قسطنطين الجلسة الافتتاحية وألقى كلمة دعا فيها الأساقفة إلى توحيد الصفوف والآراء • ناقش المؤتمرون البدعة التي جاء بها آريوس ، فأيدها عشرون أسقفاً ورفضها الآخرون الذين يشكلون الأكثرية • وهكذا أدان معظم الأساقفة المجتمعون في نيقية البدعة الاريوسية وحكموا على آريوس وأنصاره بالحرمان من الكنيسة ، فأيد الامبراطور قسطنطين هذا الحرمان وحكم على آريوس بالنفي إلى ايلّيريا •

ووضع الأساقفة المجتمعون في نيقية (سنة ٣٢٥) دستور إيمان للمسيحيين لايزال باقياً حتى اليوم ، بعد تعديله في المجمع المسكوني الثاني (سنة ٣٨١) • وقد جاء في هذا الدستور ما يلي :

« إن المسيح ليس مخلوقاً من العدم ، بل هو مولود من جوهر الآب قبل الدهور (اي منذ الأزل) ، ومساوٍ للآب في الجوهر ، وهو إله حق من إله حق ، ومن اجل البشر وخلاصهم نزل من السماء وتجسّد وتأنس (اي اصبح إنساناً) وتالم ومات ، ثم قام في اليوم الثالث وصعد إلى السماء ، وسياتي ليدين الأحياء والأموات » •

كذلك سنّ مجمع نيقية الأول عشرين قانوناً لتنظيم الكنيسة المسيحية •

بعدما انفضّ مجمع نيقية الديني وعاد الأساقفة إلى أبروشياتهم ، أخذ بعضهم يتحدث عن صحة آراء آريوس • وطفق الاريوسيون ينشطون ، فازداد عددهم في الولايات الشرقية • وفي سنة ٣٣٠ أقنع يوسيبيوس أسقف مدينة نيكوميدية (في

آسيا الصغرى) الآريوسيّ ، الامبراطورَ قسطنطين بصحة آراء آريوس ، فأعاد الامبراطور آريوس من منفاه . وفي سنة ٣٣٠ أيضاً عقد الأساقفة الاريوسيون مجمعاً دينياً في مدينة انطاكية السورية وعزلوا بطريركها أفسيتاثيوس الأثناسيوسي وعينوا في مكانه بطريركاً اريوسياً . . وفي سنة ٣٣٣ عقد الأساقفة الاريوسيون أيضاً مجمعاً دينياً في مدينة قيسارية بفلسطين ودعوا إليه بطريرك الاسكندرية أثناسيوس فلم يحضر . وبعدها في سنة ٣٣٥ عقدوا مجمعاً دينياً في مدينة صور ودعوا إليه أثناسيوس ، فحضر ، فقطعوه (أي حرموه من الكنيسة) .

وفي سنة ٣٣٦ دعا الامبراطور البيزنطي قسطنطين الأول إلى انعقاد مجمع ديني في القسطنطينية ، فكان الأساقفة الآريوسيون يشكلون الأكثرية ، فحكموا على البطريرك أثناسيوس بالنفي ، فنفي إلى غاليا بأمر من الامبراطور قسطنطين ، وظلّ فيها منفياً حتى أعاده الامبراطور جوليانس المرتد (٣٦١ ــ ٣٦٣) .وهكذا انتصر الاريوسيون وأيدهم الامبراطور ، كما ظلّ آريوس في العاصمة البيزنطية حتى توفي في سنة ٣٣٦ ، ثم توفي بعده الامبراطور قسطنطين في سنة ٣٣٧ ، بعد أن تمّ تعميده وهو على فراش الموت على يد أسقف مدينة نيكوميدية الآريوسيّ .

نلاحظ من تتبـع الأحداث تذبذب الامبراطور قسطنطين الأول في سياسته الدينية . فلقد ايـّد النيقيويين الاثناسيوسيين عندما كانوا الاكثرية ، ثم ايـّد الآريوسيين عندما صاروا الاكثرية . ولعل ازدياد عدد الآريوسيين في الشرق دفع الامبراطور قسطنطين إلى تغيير رأيـه وتاييدهم بعد ان نقل العاصمة من روما إلى القسطنطينية في سنة ٣٣٠ ، مما استلزم استرضاء اهالي الجـزء الشرقي مـن الامبراطورية (٨).

ـ انتقال المسيحية إلى برابرة اوروبا على المذهب الاريوسي :

بعد وفاة الامبراطور قسطنطين الأول (في سنة ٣٣٧) تقاسم أبناؤه الثلاثة حكم الامبراطورية ، فتولّى قسطنطين الثاني الغرب (إيطاليا وغاليا وقسماً من شمال إفريقيا) ، وتولّى كونستانتيوس الشرق بأكمله ، في حين تولّى كونستانس

ايلّيريا وقسماً من شمال إفريقيا • وسعى كلٌّ من هؤلاء الأخوة إلى توطيد نفوذه عن طريق تأييد المذهب السائد في البلاد التي يحكمها ؛ فعمل كونستانتيوس على تأييد الاريوسية وتشجيعها في الشرق ، في حين دأب أخواه على تأييد الأثناسيوسية النيقيوية في الغرب • وفي سنة ٣٥٠ صار كونستانتيوس امبراطوراً وحيداً وحكم الامبراطورية بأكملها حتى سنة ٣٦١ ، فعمل على فرض المذهب الآريوسي على الأجزاء الغربية من الامبراطورية ، مما جعل كفة الاريوسية ترجح في الامبراطورية البيزنطية • ولم تعرقل الردّةُ الوثنية (في عهد الامبراطور جوليانوس الذي ارتد من المسيحية إلى الوثنية بين سنتي ٣٦١ — ٣٦٣) انتشارَ الآريوسية ، لأن تلك الردة انتهت بوفاة الامبراطور المرتد • وحكم بعده الامبراطور جوفيانوس لمـدة سنة واحدة (٣٦٣ — ٣٦٤) ، ثم خلفه في الحكم أخوان هما : فالانتينيانوس الأول في الغرب (٣٦٤ — ٣٧٥) ، وكان نيقيوياً أثناسيوسياً ، وأخوه فالانس في الشرق ، (٣٦٤ — ٣٧٨) وكان اريوسياً ومشجعاً للاريوسيين •

وخلف فالانس عـلى عـرش القسطنطينية الامبراطور تيودوسيوس الأول (٣٧٨ — ٣٩٥) ، فدعا إلى عقد المجمع الديني المسكوني الثاني في القسطنطينية (في سنة ٣٨١) ، فأقر ذلك المجمع إدانة المذهب الاريوسي وتأييد المذهب النيقيوي الأثناسيوسي ، وبذا قُضي على المذهب الاريوسي وأخذت الاريوسية تضمحل وتتلاشى داخل حدود الامبراطورية البيزنطية ، في حين ظلت آخذة بالانتشار بين برابرة أوروبا من القبائل الجرمانية •

من خلال عرض الأحداث نلاحظ أن معظم الأباطرة الذين حكموا الامبراطورية البيزنطية منذ سنة ٣٣٠ حتى سنة ٣٨١ قد أيدوا الاريوسية وشجعوها • وإلى تلك الفترة بالذات يعود انتقال المسيحية على المذهب الاريوسي إلى البرابرة الجرمانيين• ففي سنة ٣٤١ رسم يوسيبيوس أسقف نيكوميدية الآريوسيّ شخصاً يونانيـاً من كبادوكيا بآسيا الصغرى يدعى أولفيلا أسقفاً وأرسله ليقيم بين القوط الغربيين الذين نزلوا شبه جزيرة البلقان وبشّرهم بالدين المسيحي على المذهب الاريوسي • وتمكن أولفيلا من ترجمة الإنجيل من اللغة اليونانية إلى اللغة القوطية ، مما هيأ

للقوط الاطلاع على التعاليم المسيحية واعتناقها • ونقل القوط الغربيون الاريوسية إلى القوط الشرقيين ، ثم اعتنقها على التوالي الجبييديون والوندال والروغ والآلاماني والثورنجيون واللومبارديون •

وكان لاعتناق معظم البرابرة المذهب الاريوسي نتائج سياسية سلبية بالنسبة لهم ، لأن الجرمانيين باعتناقهم هذا المذهب وضعوا حائلاً بينهم وبين الرومان الكاثوليك •

لقد بدا يرتسم شكل جديد للوطنية الرومانية امتزجت فيه فكرة الامبراطورية وفكرة الكاثوليكية معاً، وهذا الشعور حال دون انصهار العناصر البربرية الاريوسية مع العناصر الرومانية الأصلية الكاثوليكية في الممالك الجرمانية التي نشأت على أراضي الامبراطورية الرومانية •

كانت مقدرات الشعوب الجرمانية مرتبطة بموقفها الديني والمذهب الذي تعتنقه • فالشعوب التي اعتنقت المذهب الاريوسي كان ذلك المذهب شؤماً عليها • لقد استنكر الاريوسية مجمع نيقية المسكوني الأول ، كما لعنها بابا روما واستهجنها جميع رجال الدين الغربيين في إيطاليا وغاليا وإسبانيا ، وقالوا لأبناء كنائسهم الكاثوليكية إن المؤمن بالمذهب الآريوسي عدو السيد المسيح ، وإن في الآريوسية تحدياً لألوهية عيسى بن مريم •

وعلى هذا أدى اعتناق القوط الغربيين والقوط الشرقيين والبرجنديين والوندال المذهب الاريوسي إلى زوال ممالكهم التي اقاموها في اراضي الامبراطورية الرومانية •

وعبثاً حاول ثيودوريك الاريوسي ملك القوط الشرقيين أن يطبق التسامح الديني مع الكاثوليك في إيطاليا • وقد قال في هذا الشأن :

« إننا لا نستطيع أن نفرض ديناً لأنه لا يمكن إجبار إنسان على الايمان رغماً عنه » •

أمّا جيزريك ملك الوندال وخلفاؤه الآريوسيون فقد كانوا يضطهدون الكاثوليك في المملكة الوندالية التي أسسوها في شمال إفريقيا (٤٢٩ ــ ٥٣٤) . ولقد دامت ذكرى تلك الاضطهادات طويلاً ، إذ نرى غريغوري التوري (أسقف مدينة تور بفرنسا) كاثوليكي المذهب يتطرق في أواخر القرن السادس في كتابه الثاني لتاريخ الكنيسة إلى جرائم الوندال الاريوسيين .

وعلى نقيض ذلك اعتنق البرابرة الفرنجية الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، مما ادى إلى بقاء دولتهم واستمرارها .

ففي سنة ٤٩٦ اعتنق كلوفس (ملك الفرنجة الميروفنجي) الديانة المسيحية على المذهب الكاثوليكي ، إذ تمّ تعميده مع ثلاثة آلاف من كبار رجاله على يد أسقف مدينة ريمس الفرنسية . وكان لذلك الحدث أهمية كبيرة في تاريخ أوروبا في العصور الوسطى . فلقد شبّه غريغوري التوري اعتناق كلوفس المسيحية الكاثوليكية باعتناق الامبراطور البيزنطي قسطنطين الأول المسيحية وأطلق عليه اسم : « قسطنطين الجديد » . وترتبت على اعتناق كلوفس المسيحية على المذهب الكاثوليكي نتائج سياسية إيجابيـة بالنسبة للفرنجة عـلى الصعيدين الداخلي والخارجي . ومن تلك النتائج ما يلي :

١ ــ كسب كلوفس ولاء سكان غاليا من الكلت والرومان الكاثوليك مما ساعد على إقامة قاعدة شعبية صلبة للحكم الفرنجي في غاليا وتثبيت أركانه .

٢ ــ حدث تآلف وتعاون وامتزاج بشري وحضاري بين الفرنجة (الجرمان) والكلتيين والرومان المقيمين في غاليا ، مما جعل تلك الشعوب جنساً واحداً يكوّن أمة واحدة . وهكذا صارت الوحدة الدينية الروحية التي تجمع تلك الشعوب أساساً ثابت الدعائم لدولة كلوفس وخلفائه من الملوك الميروفنجيين والكارولنجيين .

٣ ــ انتشرت المسيحية الكاثوليكية في أوروبا الغربية على نطاق واسع بنتيجة الجهود التي بذلها ملوك الفرنجة في هذا المجال .

٤ ـ قام تحالف بين ملوك الفرنجة والبابوية تمخض عنه وقوف البابوية إلى جانب هؤلاء الملوك في حروبهم التوسعية وإعطاء تلك الحروب مع القوى الجرمانية الأريوسية طابعاً دينياً عقائدياً • وبالمقابل وقف ملوك الفرنجة إلى جانب البابوية ورجال الدين الكاثوليك في الغرب الأوروبي ودافعوا عن أملاكهم وثرواتهم فمنعوا البرابرة من اغتصابها •

٥ ـ صار كلوفس وخلفاؤه من ملوك الفرنجة حلفاء مرغوباً فيهم من قبل الأباطرة البيزنطيين لوقوفهم ضد ملوك البرابرة الجرمان الآريوسيين •

وهكذا كان اعتناق كلوفس المسيحية على المذهب الكاثوليكي السائد في روما لأهداف سياسية اكثر من اية اعتبارات اخرى • وكان عمله هذا خطوة سياسية ناجحة جداً ، إذ اعطت نتائجها الايجابية في عهده وعهد خلفائه من ملوك الفرنجة الميروفنجيين والكارولنجيين (٩) •

ـ نشاة الكنيسة المسيحية وتنظيمها :

الكنيسة لفظ مأخوذ عن الكلمة اليونانية « إكليزا » وتعني المجلس أو الجماعة • والكنيسة مكان العبادة والصلاة عند المسيحيين ، كما تطلق أيضاً على جماعة المؤمنين بالدين المسيحي أو بمذهب من مذاهبه •

كانت الكنيسة في بادىء أمرها هيئة بسيطة من المؤمنين تختار واحداً من الكبراء ليكون كاهناً يرشدها ، وواحداً أو أكثر من القراء أو السدنة أو الشمامسة ليساعدوا الكاهن في إقامة الصلاة أو الحفلات الدينية كحفلة التعميد أو الزواج وغيرها •

ولما كثر عدد المؤمنين اختاروا لأنفسهم في كل مدينة رئيساً دينياً سمّوه إبسكوبس Episcops أي مشرفاً أو أسقفاً • ولما ازداد عدد الأساقفة أصبحوا بحاجة إلى من يشرف على أعمالهم وينسّقها ، فاختاروا في كل ولاية رئيس أساقفة Archepiscops وسمّوه مطراناً • وفي القرن الرابع صار يشرف على جميع رجال

الدين في العالم المسيحي ستة بطاركة يقيمون في القسطنطينية وروما وانطاكية والقدس والاسكندرية وقرطاجة • وفي أدنى السلّم الكهنوتي يأتي القسيس أو الكاهن في القرية • وهكذا ظهر سلّم كهنوتي متدرج يشبه إلى حد كبير سلّم الوظائف الإدارية في الامبراطورية الرومانية •

وكان الأساقفة ورؤساء الأساقفة يجتمعون بنـاء على دعوة من البطريرك (البطرك) أو الامبراطور في مجامع دينية • فإذا كان المجمع الديني يمثّل أساقفة ولاية بمفردها ، أو أساقفة إقليم بمفرده سمّي « مجمع الولاية » أو « المجمع الإقليمي » وإذا كان المجمع يمثل جميع ولايات الامبراطورية في الغرب والشرق سمّي « مجمعاً عاماً أو مسكونياً » (نسبة إلى المسكونة ، والمقصود بها الكرة الأرضية) • أما إذا كان المجمع الديني يمثل كنائس الشرق البيزنطي وحده ، أو يمثل كنائس الغرب الأوروبي وحده سمّي « المجمع الكلّي » • وإذا كانت قرارات المجمع الديني ملزمة لجميع المسيحيين في العالم سمّي « المجمع الأكبر » • أما المجمع الذي يجتمع فيه قساوسة أسقفية واحدة برئاسة الأسقف فقـد سمّي « المجمع الأسقفي » •

في القرون الثلاثة الميلادية الأولى لم يكن يطلب إلى القسيس (الكاهن) أن يظل عازباً ، بل كان بمقدوره أن يحتفظ بزوجته إذا كان قد تزوج بها قبل رسامته • ولكن لم يكن يجوز للقسيس أن يتزوج بعد أن يلبس الثياب الكهنوتية ، كما لم يكن يجوز لرجل تزوج باثنتين أو بأرملة ، أو طلّق زوجته ، أو اتخذ خليلة أن يصبح قسيساً • وفي القرن الرابع ظهر بعض المتطرفين المسيحيين الذين عارضوا زواج القسيس • ومع أن مجمع جنجرا الديني (في سنة ٣٦٢) أقر زواج القسيس فقد ظلّت الكنيسة تنصح قساوستها بأن يظلوا بلا زواج • وفي عام ٣٨٧ أمر البابا سيريسيوس بتجريد كل قسيس يتزوج أو يبقى مع زوجته التي تزوج بها من قبل • وأيّد هذا القرار كل من جيروم وامبروز وأوغسطين ، في حين لقي مقاومة متفرقة جيلاً بعد جيل ، فلم يطبّق بصورة مطلقة في الغرب الأوروبي •

إن قيام هيئة كهنوتية إلى جانب هيئة موظفي الدولة ، كان لابدّ أن يخلق

نزاعاً على السلطة بينهما ، إلا إذا خضعت إحدى الهيئتين للأخرى . وعلى هذا خضعت الكنيسة للدولة في الشرق البيزنطي . أما في الغرب اللاتيني فقد أخذت كنيسة روما البابوية تناضل دفاعاً عن استقلالها بضعة قرون ، ثم أخذت بعدئذٍ تحارب لفرض سيادتها على الدولة والسلطة الامبراطورية .

وكان اتحاد الكنيسة والدولة يتطلب أحياناً تعديلاً في مبادىء المسيحية . من ذلك أن ترتليان (أو ترتولين) القرطاجي وأوريجين الاسكندري كانا يعلمان من قبل أن الحرب غير مشروعة في جميع الأحوال . أما عندما أصبحت الكنيسة تحت حماية الدولة ، فقد رضيت بالحروب التي تراها ضرورية لحماية الدولة أو الكنيسة .

بعد اعتراف الامبراطور قسطنطين الأول بالديانة المسيحية أخذت الكنيسة تحصل تدريجاً على امتيازات خاصة من الحكومة الامبراطورية ؛ منها حق الحصول على الهبات وحق الإعفاء من الضرائب ، وحق الأساقفة بالفصل في المنازعات التي تنشأ بين المسيحيين . وهكذا ازدادت ثروة الكنيسة ، إذ امتلكت الأراضي الواسعة التي قام العبيد والكولون بفلاحتها ، كما أغدق عليها الأباطرة والحكام والمؤمنون الهبات والهدايا والأموال . كذلك ازدادت ثروة الأساقفة وعظم نفوذهم ، مما أدى إلى اختفاء روح الأخوة والبساطة والمساواة التي امتاز بها المسيحيون الأوائل ، وحلّت محلها مسحة من القسوة والتعالي والتباعد بين رجال الدين ورعاياهم المسيحيين . فلقد صار الأسقف يجلس على عرشه الأسقفي كما كان يفعل الحاكم الروماني من قبل ، وأحاط نفسه بالحشم والخدم والأتباع والموظفين .

لم يضع السيد المسيح لاهوتاً منظماً ، وإنما علّم الناس أسلوباً جديداً في الحياة . في البد نشر تلاميذ السيد المسيح الدعوة المسيحية بين أناس بسطاء غير مثقفين ، واقتصرت دعوتهم على تعليم المسيحيين أسلوبَ المسيح في الحياة . وفيما بعد انتشرت المسيحية بين المثقفين ، فأخذوا يتساءلون عن العلاقة بين الله والمسيح ويستفسرون عن طبيعة الملائكة وعن كيفية تحول الخبز والنبيذ إلى لحم المسيح

ودمه . وعلى هذا أصبحت الحاجة ماسة لوضع دراسات لاهوتية تقنع المسيحيين المثقفين . وقد قام بهذه المهمة مجموعة من كبار المفكرين المسيحيين الذين عرفوا الفلسفة والمنطق ولاسيما الفلسفة الأفلاطونية الحديثة ، فأفادوا منها في تقديم العقائد المسيحية بصورة يتقبلها المثقفون ، كذلك عملوا على التوفيق بين تعاليم المسيحية من جهة ، ومطالب الدولة والكنيسة في عهدهما الجديد من جهة أخرى . وقد أطلق على هؤلاء المفكرين ـ الذين وضعوا أدباً مسيحياً جديداً يساعد على فهم العقائد المسيحية ـ لقب « آباء الكنيسة » ، وأشهرهم : جوستين النابلسي ، ترتليان (أوترتولين) القرطاجي ، كليمنت الاسكندري ، أوريجين الاسكندري (١٨٥ ـ ٢٥٤) ، أثناسيوس الاسكندري ، باسيلوس الكيساري ، امبروز (٣٤٠ ـ ٣٩٧) ، جيروم (٣٣١ ـ ٤٢٠) الذي ترجم التوراة السبعينية والأناجيل من اليونانية إلى اللاتينية وسميت ترجمته هذه « الفلغاطة » ، أوغسطين الجزائري (٣٥٤ ـ ٤٣٠) الذي من أهم آثاره الأدبية « اعترافات أوغسطين » و « مدينة الله » (١٠) .

ـ اسرار الكنيسة المسيحية :

أسرار الكنيسة سبعة وهي :

١ ـ المعمودية ، ٢ ـ الميرون ، ٣ ـ القربان المقدس ، ٤ ـ التوبة ، ٥ ـ الكهنوت ، ٦ ـ الزواج ، ٧ ـ مسح المرضى بالزيت .

وكلمة « سرّ » التي تستعملها الكنيسة لا تعني « سراً » بالمعنى المألوف للكلمة أي الغموض وعدم الوضوح ، وإنما تعني طقساً دينياً ، وهي عبارة عن فعل حسّي وروحي معاً يقوم به رجال الكنيسة ويمارسونه مع المؤمنين المسيحيين .

١ ـ سرّ المعمودية :

المعمودية سرٌ يغسلُ به المؤمن بالماء والروح القدس جسداً وروحاً . ولقد رسم السيد المسيح هذا السرّ عندما أرسل تلاميذه إلى العالم وقال لهم : « اذهبوا وتلمذوا جميع الأمم ، وعمدوهم باسم الآب والابن والروح القدس » (إنجيل متى،

٢٨ ، ١٩) • فالغسل بالماء يعني تطهير الجسد من دنس الخطيئة الأولى « خطيئة حواء وآدام التي أدت إلى خروجهما من الجنة وهبوطهما إلى الأرض حسب ماجاء في التوراة » •

وصلاة الكاهن على الماء الذي يغتسل به المعمّد تجعله مقدساً وتؤدي إلى حلول نعمة الروح القدس في نفس المعمد فيولد ولادة روحية جديدة ويصبح من أتباع السيد المسيح وعضواً حيّاً في كنيسته المقدسة • ويمكننا القول إن المعمودية ترمز إلى انتماء المعمد إلى المسيح والمسيحية • ويتم التعميد بتغطيس المعمّد ثلاث مرات في الماء ، أو بسكب الماء على رأسه ثلاث مرات ، رمزاً إلى الثالوث المقدس : الآب والابن والروح القدس •

يقوم بالتعميد الكاهن ويقول في أثناء التعميد ما يلي : « يُعمد عبد الله (فلان) باسم الأب والابن والروح القدس » •

٢ ـ سرّ الميرون :

سرّ الميرون هو دهن الطفل المعمّد بالميرون المقدس (مع رسم إشارة صليب على جسده) لكي ينال موهبة الروح القدس • ويقوم بهذا العمل الكاهن بعد تغطيس المعمّد بالماء مباشرة • ويصلي الكاهن في أثناء عملية الدهن بالميرون قائلاً : « خَتْمُ موهبة الروح القدس ، آمين » ـ أي أن المعمّد خُتم بطابع الروح القدس • ويقصد من هذا العمل تقديس المعمّد جسداً وروحاً ، وتثبيت الايمان في نفسه بقوة الروح القدس •

والميرون كلمة تعني الطيب ، وهو سائل مركب من زيت وعطور يصلي عليه الأسقف فيقدسه بوساطة الروح القدس ، ثم يوزعه على الكهنة ليدهنوا بـه المعمّدين •

٣ ـ سرّ القربان المقدس او التناول :

وهو سرّ يقوم به الكاهن في بعض المناسبات الدينية (في القداس الإلهي)

تنفيذاً لوصية السيد المسيح ، ويتم باعطاء المصلين في الكنيسة قطعة من الخبز وملعقة صغيرة من النبيذ بعد الصلاة عليهما لتقديسهما •

وترمز قطعة الخبز إلى جسد السيد المسيح ، كما ترمز ملعقة النبيذ إلى دمه • وهكذا يتحول الخبز والنبيذ بوساطة الروح القدس إلى جسد المسيح ودمه • ويعود أساس هذا السر إلى حديث السيد المسيح مع تلاميذه في الليلة التي سبقت « صلبه » ، حيث اجتمع بتلاميذه في علية وتناولوا معاً طعام العشاء « السري » أو « الرباني » • وفي أثناء العشاء أخذ السيد المسيح خبزاً فكسره وناولهم إياه قائلاً : « هذا هو جسدي يبذل من أجلكم ، اصنعوا هذا لذكري » • ثم تناول كأساً من النبيذ وقال : « هذه الكأس هي العهد الجديد بدمي الذي يُهرق من أجلكم » (انظر إنجيل لوقا ٢٢ : ١٩ ــ ٢٠) • ويرمز هذا السر إلى تضحية السيد المسيح بجسده ودمه من أجل خلاص البشر من الخطيئة الأولى • والهدف من ممارسة هذا السر هو اتحاد من يتناول القربان المقدس مع السيد المسيح اتحاداً بجسده ودمه • فقد جاء في إنجيل يوحنا (٦ : ٤٦) عن لسان السيد المسيح ما يلي : « من أكل جسدي وشرب دمي ثبت في وثبت فيه » • ويجب على المؤمن قبل الاشتراك في تناول القربان المقدس أن يستعد لهذا العمل بالتوبة والصلاة والأعمال الصالحة • ويطلق على عملية تناول القربان المقدس اسم « ذبيحة القداس الإلهي » ، لأنها ترمز إلى تضحية السيد المسيح بجسده ودمه من أجل مغفرة الخطايا للبشر • وقول السيد المسيح « اصنعوا هذا لذكري » يعني أنه أوصى الرسل وخلفاءهم من رجال الدين بإقامة القربان المقدس حتى مجيئه الثاني في يوم الدينونة •

٤ ــ سر التوبة والغفران :

التوبة اعتراف الانسان بالخطايا التي ارتكبها وتعهده بعدم العودة إلى ارتكابها ، بالإضافة إلى حلول الروح القدس على التائب لغفران خطاياه • ويتم هذا الغفران من الله على يد الكاهن الذي سمع اعتراف الانسان المخطىء بخطاياه ، ثم أرشده إلى طريق الصلاح •

ومؤسس سرّ التوبة والغفران هو السيد المسيح الذي منحه لرسله وخلفائهم من رجال الدين • ففي إنجيل يوحنا (١٠ : ١٩ — ٢٣) ورد أن المسيح ظهر لتلاميذه بعد بعثه من القبر في اليوم الثالث من مماته وقال لهم ما يلي : « خذوا الروحَ القدس ، من غفرتم لهم خطاياهم تُغفرُ لهم ، ومن أمسكتم عليه الغفران يُمسكُ عليهم » • وقد أخذ الرسل عن السيد المسيح واجب القيام بهذا السرّ ، ثم منحوه لخلفائهم من رجال الدين الذين مازالوا يمارسونه حتى الوقت الحاضر •

٥ — سرّ الكهنوت :

الكهنوت سرٌ من أسرار الكنيسة ، يتم بوساطة الأساقفة ، ويمنح للكاهن الذي يليق لخدمة الكنيسة • وقد رسم السيد المسيح هذا السر عندما اختار الرسل الاثني عشر ، ثم أرسلهم إلى الكرازة (التبشير بتعاليم المسيح) قائلاً لهم : « كما أرسلني الاب أرسلكم أنا أيضاً » • وهكذا تسلم الرسل سرّ رسامة الكهنوت من السيد المسيح وسلموها بدورهم للأساقفة الذين أخذوا يضعون أيديهم على رؤوس الكهنة المرتسمين قائلين لهم : « وأما النعمة المعطاة فهي السلطان الرعوي على رعية السيد المسيح » •

وفي الكهنوت ثلاث درجات : الشمّاس ، القسيس ، الأسقف • فالشمّاس لا يحق له ممارسة أسرار الكنيسة وإنما يساعد القسيس أو الأسقف على إتمامها ، ويرسم من قبل الأسقف • أما القسيس فيحق له ممارسة أسرار الكنيسة ، وينال هذه السلطة من الأسقف بوضع اليد عليه ومنحه سلطة الروح القدس • وأما الأسقف فيحق له ممارسة جميع أسرار الكنيسة والقيام بتنفيذها • وقد عرفت الكنيسة المسيحية هذه الدرجات الكهنوتية الثلاث منذُ عهد الرسل الأوائل •

ويجب أن يكونَ المرشحُ لسلك الكهنوت ذا سيرةٍ حميدة ، ليُصبحَ مثالاً وقدوة للمؤمنين ، وأن يكون مدفوعاً إلى الكهنوت برغبة صادقة لتنفيذ تعاليم السيد المسيح ، وأن يكون في السن القانونية المناسبة ويحوز على الثقافة الدينية

اللازمة . وفي البدء لم تشترط الكنيسة على رجال الكهنوت البتولية (العزوبة) ، فكان هناك كهنة متزوجون ، وكهنة غير متزوجين ، ولا يزال الأمر على هذه الحال .

٦ ــ سر الزواج :

الزواج سرٌ مقدس يربط بين رجل وامرأة راغبين في الاقتران دون مانع شرعي ، فتُمنح لهما النعمة الإلهية بصلوات الكاهن ، مما يُعزّز رباط الحياة الزوجية ويقدسه . ويُعدُّ هذا السر مقدساً في تعاليم التوراة ، حيث جاء في سفر التكوين (تكوين ١ : ٢٧ ــ ٢٨) ما يلي : « فخلق الله الناس على صورته ... ذكراً وأنثى ... وقال لهم : انموا واكثروا واملؤوا الأرض ... » وثبّت السيدُ المسيح سرَّ الزواج بقوله : « لذلك يترك الرجل أباه وأمه ويلزم امرأته فيصير الاثنان جسداً واحداً ، فما جمعه الله لا يفرّقهُ البشر » (إنجيل متى ١٩ : ٤ ــ ٦) ويقول القديس بولس : « إن هذا السر لعظيم » (رسالة افسس ٥ : ٣٢) ، كما يشبّه اتحاد الرجل بالمرأة باتحاد السيد المسيح بالكنيسة . ويستنتج من ذلك واجب خضوع النساء لرجالهن ، وواجب محبة الرجال لنسائهن على غرار خضوع الكنيسة للمسيح ومحبة المسيح للكنيسة .

٧ ــ سر مسحة المرضى بالزيت المقدس :

إن مسحة المرضى سر مقدس يقوم به الكاهن ، فيمسح جسد المريض بزيت مقدس على شكل صليب ويتلو صلوات طالباً فيها من الله الشفاء للمريض ومغفرة خطاياه . وهذه المسحة تُعطي المريض تعزيةً وصبراً على احتمال الأوجاع ولا يتقبل هذا السر إلا المريض التائب عن خطاياه لذا يليق به أن يعترف بخطاياه ويتناول القربان المقدس قبل أن يمسح بالزيت المقدس . وجاء في إنجيل مرقس (٦ : ٧ــ١٣) « فمضوا (الرسل) يدعون الناس إلى التوبة وطردوا كثيراً من الشياطين ودهنوا كثيراً من المرضى فشفوهم » (١١) .

الملحق الأول

مرسوم ميــلان سنة ٣١٣

نظراً لما رأيناه من أنه لا ينبغي إنكار حرية العبادة ، بل لابد للشخص بإرادته وفطنته ، الحق في أن يدعي الأشياء المقدسة ، وفقاً لما توافر للفرد من حرية الاختيار، فإنه سبق لنا ، منذ زمن ، أن أمرنـا المسيحيين بالمحافظة على إيمانهم بمذهبهم وعبادتهم ، غير أنه نظراً لما تعرض له هذا الحق من قيود كثيرة مختلفة ، بعد صدور المرسوم الذي حصل بمقتضاه المسيحيون ، الذين سبق الإشارة إليهم على هذا الحق ، كأن جرى بطريق الصدفة ، أن عدداً منهم قد مُنعوا من ممارسة دياناتهم • ولذا فإنه حينما اجتمعنا سوياً في ميلان ، أنا الامبراطور (أغسطس) قنسطنطين ، وأنا الامبراطور (أغسطس) ليسينيوس ، وتناقشنا في كل ما يتعلق بمصلحة الدولة وأمنها • واعتقدنا أن هذين الأمرين ، وسائر الأمور التي تنطوي على عبادة الله ، والتي رأينا أنها تقيد معظم الناس ، لابد من معالجتها أول الأمر ، حتى يتسنى لنا أن نبذل للمسيحيين ولسائر الناس ، الحق في أن يكونوا أحراراً في أن يتبع كل منهم ما شاء من الديانة ، وبذلك فإن أياً كان الإله على عرشه بالسماء ، ليَحبونا ، نحن وسائر أولئك الذين يخضعون لسلطاننا ، بالعطف والسلام • وقد انتهينا في اطمئنان وتعقل تام إلى قرار بأنه لابد أن تتخذ هذه السياسة ـــ يقضي رأينا أننا لا ننكر على أحد أياً كان ، الحرية في أن يتبع إما ديانة المسيحيين ، وإما ما يختاره لنفسه من ديانة ، يعتقد أنها خير ما تلائمة ، حتى ينعم الله الأكبر ، الذي نبذل له الطاعة عن طيب خاطر ، علينا في كل الأمور بفضله وعطفه • ولذا نود أن ننهي إلى سيادتكم ، أننا وطدنا العزم على أنه لابد أن نزيل كل القيود ، الواردة في رسائلنا التي سبق توجيهها إليكم ، والتي تتعلق بالمسيحيين ، والتي فيما يبدو كانت لا تتفق مع رحمتنا ـ فينبغي إزالة هذه القيود ، ولنجعل ، دون قيد ، أولئك الذين يودون اتباع ما سبق الإشارة إليه من ديانة المسيحيين ، أن يتبعوها دون أن يتعرضوا

للازعاج أو التدخل • لقد شعرنا أنه لابدّ أن نوافيكم بكل ما يتعلق بذلك من بيانات كاملة ، حتى تطمئن سيادتكم إلى أننا بذلنا للمسيحيين الذي سبق الإشارة إليهم حرية تامة غير مقيدة ، في اتباع دياناتهم • يضاف إلى ذلك ، أنه متى تبين لسيادتكم اننا منحنا هذه الحرية للمسيحيين ، الذين سبق ذكرهم ، فسوف تدرك أننا منحنا أيضاً حرية دينية تامة مماثلة لغير المسيحيين إذ أن هذه المنحة بالغة الأهمية للسلام في أيامنا : وإذا صار جلياً لكل فرد أن يعبد ما يشاء من الديانة ، أصدرنا هذا ، حتى لا يتبادر أننا أسأنا لديانة من الديانات •

يضاف إلى ذلك أننا قررنا فيما يتعلق بالمسيحيين ، أنه إذا حدث أن أماكن درج المسيحيون من قبل على الاجتماع بهـا ، وجرت الإشارة إليها فيما سبق إنفاذه لسيادتكم من رسائل ، اشترتها خزانتنا أو أشخاص آخرون ، فلابد أن تعود للمسيحيين دون أن يؤدوا عنها مالاً ، أو كل ما يعتبر ثمناً لها ، دون غش أو إيهام ، ومن حاز أمثال هذه الأماكن على أنها هدايا ، ففي وسعهم أن ينالوا من عطائنـا ما يرضيهم ، بأن يلجؤوا إلى نائبنا ، الذي سوف يهتم بمصالحهم • ولابد من تسليم هذه الأشياء عن طريقكم إلى الجماعة المسيحية دون إبطاء ، ونظراً لما هو معروف عن المسيحيين أنهم لم يملكوا فحسب تلك الأماكن ، التي درجوا على الاجتماع بها ، بل أيضاً تلك التي تعتبر من أملاكهم ، كهيئة ، أي الأماكن التابعة للكنائس لا للأفراد ، فإننا أوردنا هذه الأماكن في القانون المسطر بعاليه ، فنأمر بإعادتها إلى المسيحيين ، دون مناقشة أو جدال • ويجري هنا تطبيق القرار السابق ، الذي يقضي بأن أولئك الذين يعيدون هذه الأماكن ، دون أن يحصلوا على ثمن لها ، فلهم أن يأملوا ، حسبما أمرنا ، في الحصول على تعويض من قبلنا • ولابد أن تظهر وساطتك الفعالة في جانب جماعة المسيحيين التي سبق الإشارة إليها ، فيلقى بذلك أمرنا الطاعة دون إبطاء ، ويسود السلام العام بفضل رحمتنا • وبهذه الوسيلة سوف يستمر العطف الإلهي طوال عهدنا ، لصالحنا وللصالح العام • وكيما يقف جميع الناس على صورة من هذا القرار وعلى إنعامنا ، يحسن بك أن تنشر هذه الرسائل في كل مكان ، وأن تنهي بها إلى جميع الناس ، حتى لا يخفى أمر إنعامنا وكرمنا •

الملحق الثاني

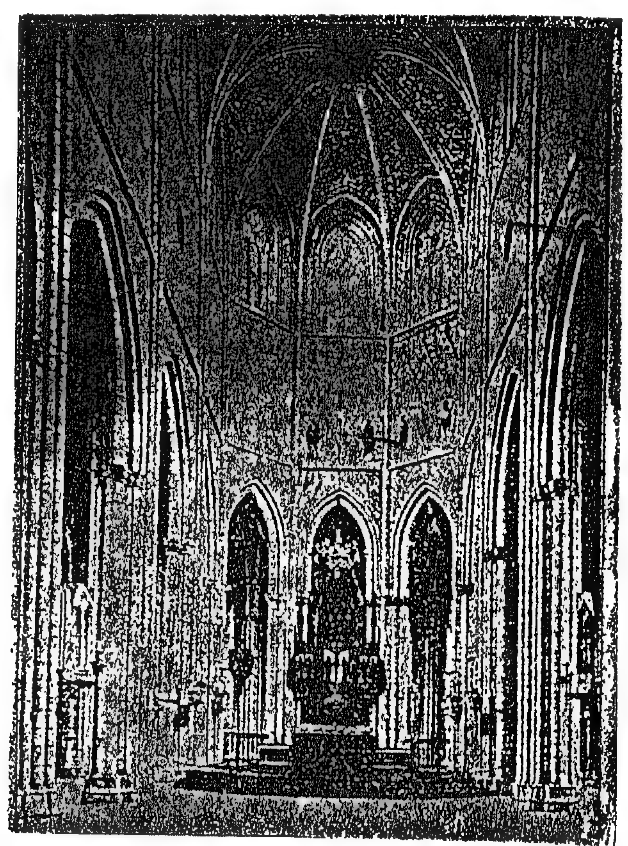
النص الكامل لدستور الايمان عند المسيحيين

وضع هذا الدستور الأساقفةُ المجتمعون في المجمع الديني الأول الذي انعقد في مدينة نيقية سنة ٣٢٥ ، ثم أضيفت إليه بعض الإيضاحات في المؤتمر الديني الثاني الذي انعقد في القسطنطينية سنة ٣٨١ بدعوة من الامبراطور البيزنطي تيودوسيوس الأول . وهو لايزال على تلك الصيغة حتى الوقت الحاضر .

★ ● ★

« نؤمنُ بإلهٍ واحدٍ . آبٍ ضابطِ الكلّ . خالقِ السماءَ والأرض . كلّ ما يُرى وما لا يرى . وبربٍّ واحدٍ يسوع المسيح . ابنِ الله الوحيد . المولودِ من الآب قبل كل الدهور . (إله من إله) نورٌ من نور . إلهٌ حق من إلهٍ حق . مولودٌ غيرُ مخلوق . مساوٍ للآب في الجوهر . الذي به كان كلُّ شيء . الذي من أجلنا نحن البشر . ومن أجل خلاصنا . نزلَ من السماء ، وتجسّدَ من الروح القدس ، ومن مريم العذراء ، وتأنس ، وصُلبَ عنا على عهد بيلاطس البنطيّ . وتألم وقُبرَ وقام في اليوم الثالث كما في الكتب . وصعد إلى السماء ، وجلس عن يمين الآب . وأيضاً يأتي بمجدٍ عظيم ، ليَدينَ الأحياء والأموات ، الذي لا فناءَ

لثلكه • وبالروح القدس الرب المحيي ، المنبثقِ من الآب [والابن][1] ، الذي هو مع الآب والابن ، يُسجد له ويُمجّد ، الناطقِ بالأنبياء • وبكنيسة واحدة ، جامعة ، مقدسة ، رسولية • ونعترفُ بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا • ونترجى قيامةَ الموتى ، والحياةَ في الدهر الآتي • آمين » •



الشكل رقم (٢٧)

كنيسة في مدنية أوبسال في السويد (القرن ١٣ ــ ١٥)

---

(١) اضافت الكنيسة الكاثوليكية فيما بعد كلمة (الابن) إلى دستور الايمان ، فعارضت الكنائس الشرقية الأورثوذوكسية هذه الإضافة ــ لمعرفة المزيد عن هذا الموضوع راجع كتابنا : الحضارة البيزنطية ، ص ٢٠٨–٢١٣ •



الفصل الثاني

البابوية وتنظيم الكنيسة الغربية الأوروبية

ـ نشـأة البابويـة :

منذ ظهور المسيحية وبدء انتشارها انتظم المسيحيونْ في كنائس يوجه كلاً منها أسقف يُنتخب من قبـل جماعة مـن المؤمنين ، ويساعده على مهماته بعض القساوسة والشمامسة • وعدّتْ كل جماعة مسيحية أسقفَها خليفةً للمبشر الأول الذي بشّرَ بالمسيحية في أرضها • وامتاز التنظيم الكنسي في العصر المسيحي الأول بالبساطة المطلقة ، إذ لم تقـم حدود فاصلة بين رجـال الدين وسائر الجماعات المسيحية • وتدريجاً تشكل نظام التسلسل في السلطات الكنيسية حسب التقسيمات الإدارية في الامبراطورية الرومانية : : أسقف في المدينة ، رئيس أساقفة (مطران) في عاصمة كل أبروشية ، بطريرك في أمهات المدن المسيحية وهي : القدس ، انطاكية، الاسكندرية ، قرطاجة ، روما ، وفيما بعد القسطنطينية •

وكان هؤلاء البطاركة الستة يشكلون أعلى سلطة كنسيّة ، ويتبع كل واحد منهم رؤساء الأساقفة الذين يشمل نفوذ الواحد منهم عدة أسقفيات ، ثم الأساقفة الذين يشرف كل منهم على شؤون الكنيسة في إقليم معين يتبع كرسيه الأسقفي • وفي أدنى السلّم الكهنوتي يأتي قسيس القرية الذي يتبع أبرشية معيّنة • وهكذا ظهر سلم كهنوتي متدرج في المناصب يشبه إلى حد كبير سلم الوظائف الإدارية في الامبراطورية الرومانية •

بعد الاعتراف بالديانة المسيحية في عهد الامبراطور قسطنطين الأول تحولت الكنيسة من منظمة بسيطة ديموقراطية إلى هيئة ذات إدارة بيروقراطية مركزية •

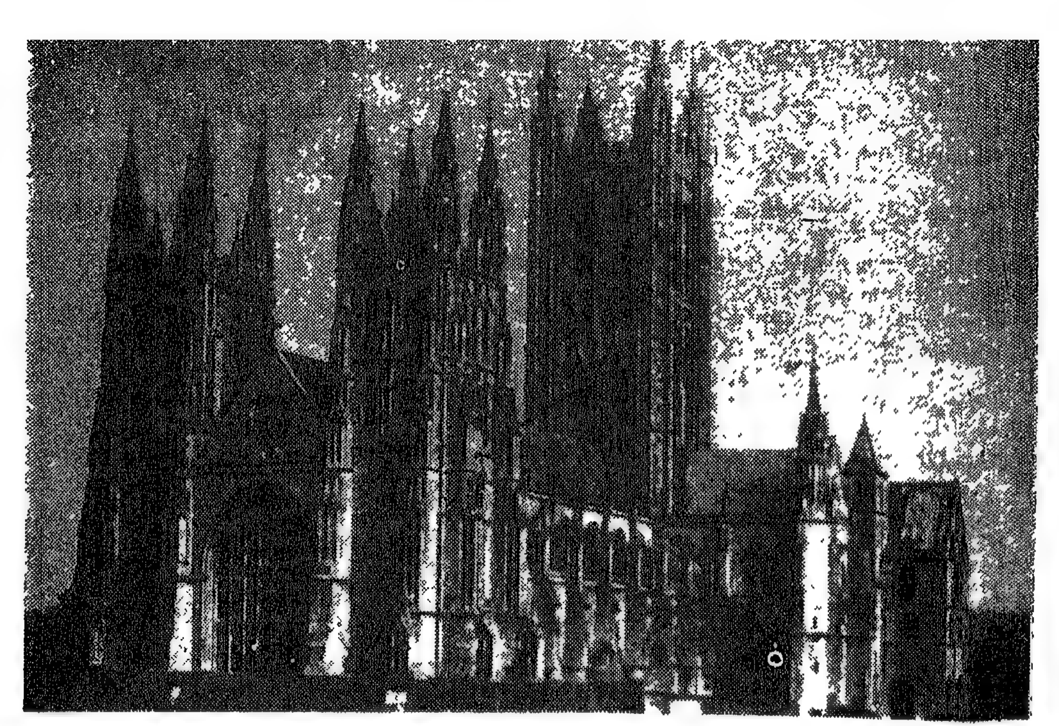
كذلك أدّت الثروة الكبيرة والهبات التي أُغدقت على الكنيسة إلى اختفاء روح البساطة والأخوة والمساواة ، إذ حلّت محلها مسحة من الأبهة والتعالي والتباعد عن جمهور المؤمنين • لقد تشبّه الأساقفة بالأمراء وأحاطوا أنفسهم بالحشم والخدم والموظفين ، كما أقاموا في قصور تفوق قصورَ الحكام في مظاهر الأبّهة والرفاه والعظمة •

إن محاكاة الكنيسة في تنظيمها لنظام الحكومة الامبراطورية تطلب قيام شخصية عظيمة على رأسها ، كما يقوم الامبراطور على رأس الامبراطورية • لكن تطور الأحداث في القسم الشرقي من الامبراطورية بشكل مختلف عن القسم الغربي أدى إلى وجود فارق بين الكنيسة الشرقية والكنيسة الغربية •

ففي الشرق أسلمت كنيسة القسطنطينية وغيرها من الكنائس زمامها للأباطرة البيزنطيين ، الذين ازداد تدخلهم في شؤون الكنيسة والمنازعات العقائدية ، حتى غدا إمبراطور القسطنطينية يمثل نوعاً من القيصرية البابوية Caesaro - Papism أي الجمع بين السلطتين السياسية والدينية • فالتقاليد الرومانية القديمة ، التي كانت تجعل من الامبراطور الرئيس الديني الأعلى والمشرف على شؤون رعاياه الدينية ، ظلت سائدة في العهد المسيحي ، وأصبح الأباطرة البيزنطيون يتمتعون بسيادة دينية على الكنيسة المسيحية ، ويعدّون أنفسهم حماةً لها والمحافظين على النظام والوحدة فيها • ومن جهة ثانية صارت الكنيسة تعتمد اعتماداً كبيراً على الدولة ، لتثبيت دعائمها وترسيخ سلطانها ونشر عقيدتها •

وكانت لسياسة التعاون بين الكنيسة والدولة ، التي ابتدأها الامبراطور قسطنطين الكبير ، نتائج إيجابية مفيدة لكل منهما • بيدَ أنّ هذا التعاون لم يدم بصورة مستمرة ، بل كثيراً ما كان ينشب النزاع والصراع بينهما عندما تتناقض مصالح الطرفين •

أما في الغرب الأوروبي فقد تطورت الأمور بشكل مغاير عمّا في الشرق البيزنطي • لقد برزت كنيسة روما كقوة روحية وسياسية وتحققت لها السيادة



الشكل رقم (٢٨)

كنيسة في مدينة كنتربورغ – القرن ١١–١٥

الفعلية على جميع كنائس أوروبا الغربية • كذلك لم يخضع أسقف روما الذي صار بابا لسلطة امبراطور القسطنطينية • وادّعى بابا روما الزعامة الدينية على جميع الكنائس المسيحية • لكن هذا الادعاء لم توافق عليه الكنائس الشرقية في القسطنطينية وانطاكية والقدس والاسكندرية ، في حين وافقت عليه جميع كنائس أوروبا الغربية •

– العوامل التي ساعدت على بروز زعامة البابوية :

وُجدت عدة عوامل هيأت لبابا روما السلطة العليا على جميع أساقفة الغرب الأوروبي ، والادعاء بالزعامة العالمية على جميع الكنائس المسيحية ، وهذه العوامل هي :

١ ـ تأتي أهمية الأسقف من الأهمية السياسية والاقتصادية والتاريخية للمدينة التي يقوم فيها كرسيه الأسقفي . وإذا كان الشرق غنياً بمدنه الكبيرة والعظيمة ، فإن الغرب في المرحلة الأولى من تاريخ المسيحية لم توجد فيه مدينة تضاهي مدينة روما ذات الماضي العريق والشهرة الواسعة . ولهذا ليس من الغريب أن يتمتع أسقف روما بمكانة خاصة مستمدة من أهمية مدينته ، وأن يستغل هذه الأهمية في تحقيق سموّه وزعامته على أسقفيات الغرب الأوروبي .

٢ ـ ارتبطت مدينة روما ارتباطاً أبدياً بذكرى رسول المسيح القديس بطرس، الذي أسس أول كنيسة مسيحية في روما . وكان المسيح قد فوّض إلى بطرس تأسيس الكنيسة المسيحية وخوّله سلطة العقد والحل . وساد الاعتقاد منذ مطلع العصور الوسطى في كنائس أوروبا الغربية أن أسقف روما هو خليفة القديس بطرس . وبما أن القديس بطرس كان نائباً للمسيح في الأرض ، فإن خليفته أسقف روما يعد نائباً للمسيح في الأرض ومعصوماً عن الخطأ .

وآمن المسيحيون بصدق السرّ الإلهي المكنون ، وفي انتقال ذلك السرّ بالرواية الشفوية إلى الذين تولّوا الأسقفية الروحانية خلفاً عن سلف . وعلى هذا ساد الاعتقاد في الغرب الأوروبي المسيحي أن السرّ الإلهي انتقل شفوياً من السيد المسيح إلى نائبه القديس بطرس ، ثم انتقل ذلك السرّ الإلهي إلى خلفائه أساقفة روما . ومن هنا تأتي أهمية السدة الرسولية (الكرسي البابوية) الدينية .

يُضاف إلى ذلك اقتناع جميع المسيحيين في العالم بأن روما تمتاز عن سائر المدن المسيحية الكبرى بشيء من الهيبة والقدسية ، لاحتوائها على رفاة القديسيْن بطرس وبولس .

٣ ـ إن التجاء بعض الأساقفة إلى أسقف روما لاستئناف الأحكام القضائية التي أصدرتها المجامع الدينية الإقليمية بحقهم جعل أسقف روما بمثابة الحكم الأكبر والسيد الأعلى . ففي سنة٣٤٣ التجأ القديس أثناسيوس الكبير بطريرك الاسكندرية السابق إلى بابا روما للنظر في الحكم الصادر ضدّه من المجلس الديني في مدينة

صور ، الذي عقده الأساقفة الاريوسيون (في سنة ٣٣٤) واتخذوا فيه قراراً بالعفو عن آريوس وأتباعه ، وبعزل أثناسيوس المعارض للاريوسية عن منصبه .

٤ ـ وقف أباطرة روما إلى جانب البابا ودعموا سلطته . ففي سنة ٤٥٥ أصدر فالانتينيانوس الثالث امبراطور روما مرسوماً يقضي بخضوع جميع أساقفة الغرب الأوروبي للبابا .

٥ ـ إن سقوط عرش روما الامبراطوري بأيدي البرابرة (في سنة ٤٧٦) جعل البابا سيداً سياسياً وحيداً في الغرب الأوروبي ، كما كان في الوقت نفسه بعيداً عن سلطان إمبراطور القسطنطينية البيزنطي . وهكذا أدى زوال السلطة الامبراطورية من الغرب إلى حلول البابوات محلّ الأباطرة في روما .

٦ ـ عندما انهار المجتمع الروماني تحت ضغط الغارات البربرية الجرمانية لم يبقَ في الغرب الأوروبي من قوة تقف في وجه البرابرة سوى الكنيسة البابوية . لقد انهارت القوى السياسية أو هربت ، فلم يبقَ سوى البابوات وأساقفتهم ، الذين ثبتوا في مراكزهم وقاموا بالتفاوض مع البرابرة الغزاة ، كما اضطلعوا بمسؤولية إدارة شؤون المدن . فالبابوات ـ لا الأباطرة ـ هم الذين حالوا بين الهون والمدنية الرومانية في إيطاليا ، وهم الذين حموا روما من احتلال اللومبارديين . وهكذا تحملت البابوية أعباء حماية الغرب الأوروبي من الغزو البربري ، مما رسّخ سلطتها وزاد في نفوذها .

٧ ـ حين خيّم على أوروبا ظلام الغارات البربرية ، ظلّ الكرسي البابوي كأنه المنارة المضيئة في الظلام الدامس . ففي وسط العاصفة الصاخبة والفوضى التي أحدثتها الغارات البربرية ، ظلّ البابوات ورجال الدين وحدهم الذين يعرفون القراءة والكتابة ، وشكلوا الطبقة المثقفة التي وجّهت الثقافة لمصلحة الكنيسة البابوية . وهكذا أضحت البابوية صاحبة الصدارة الفكرية ، والهيئة الوحيدة في أوروبا الغربية التي حافظت على التراث الثقافي ، كما عملت على نشر التعليم الذي اتخذ طابعاً دينياً .

٨ ـ إن تعاقب عدد من الشخصيات القوية على الكرسي البابوي أسهم في بروز البابوية وتحقيق سيادتها السياسية والدينية في الغرب الأوروبي ، مما دفع بعض المعاصرين في المرحلة الأولى من تاريخ العصور الوسطى أن يطلقوا على البابا لقب « ملك الملوك ، أمير الأمراء » .

فبفضل الحكمة التي أظهرها البابا كالستس (٢١٩ ـ ٢٢٣) استطاعت البابوية أن تفتح أوروبا وتجعل فيها أمماً مسيحية تابعة لها منذ القرن الرابع الميلادي . لقد أعلن هذا البابا عن استعداده أن يغتفر خطيئة الزاني ومرتكب الفحشاء بالتوبة، مما أدى إلى اتساع انتشار المسيحية . إذ من المعروف أنه لا يستطيع الحياة الفاضلة من البشر إلا الأقلّون ، ولو أن الكنيسة البابوية اقتصرت على أولئك الأتقياء ولم توسع من رحمتها للخاطئين ، لما استطاعت أن تحوّل أوروبا كلها من الوثنية إلى المسيحية .

وكتب البابا داماسيوس الأول (٣٦٦ ـ ٣٨٤) مؤلفاً استعرض فيه مكانة كرسي روما الأسقفي وأكد سيادة البابوية وسموّها . كذلك عهد هذا البابا إلى القديس جيروم بترجمة الأناجيل من اليونانية إلى اللاتينية .

أما خليفته البابا سيريكيوس (٣٨٤ ـ ٣٩٩) ، فترجع إليه أولى المراسيم البابوية ، كما بقيت من عهده بعض خطابات رسمية تناولت مسائل معروضة على أسقف روما لبتّها .

وبفضل الجهود التي بذلها البابا ليون الأول (٤٤٠ ـ ٤٦١) في تنظيم الكنيسة روحياً وإدارياً ارتقت الكنيسة البابوية ورسخت سلطتها في الغرب الأوروبي . لقد عمل هذا البابا بلا كلل من أجل رفع المستوى التعليمي والأخلاقي لرجال الدين في الغرب الأوروبي ، كما بذل جهوداً كبيرة في سبيل تطوير القانون الكنسي وترسيخه ، والتأكيد على سموّ سلطة البابا ، كونه يمثل السيد المسيح على الأرض .

وفي عهد البابا غريغوري الأول تحققت للبابوية سيادتها الفعلية ،

حيث دانت لسلطته الكنائس الغربية كلها ، بوصفه خليفة للقديس بطرس . لقد وضع البابا غريغوري الكبير برنامجاً سارت على هديه البابوية على مدى قرنين من الزمن . وقد قام ذلك البرنامج على التحالف مع الأديرة البندكتية من جهة ، والتحالف مع المملكة الفرنجية في غاليا من جهة ثانية .

فبفضل التحالف مع الأديرة البندكتية انتشرت المسيحية التابعة للبابوية في مختلف أنحاء أوروبا الغربية .

وبفضل التحالف مع ملوك الفرنجة حصلت البابوية على دعم سياسي وعسكري من قبلهم ، مما مكّنها من الصمود في وجه الخطر اللومباردي الذي هددها بالزوال . وترتب على ذلك التحالف تحطيم المملكة اللومباردية على يدي شارلمان ، وبقاء البابوية محتفظة بممتلكاتها الايطالية .

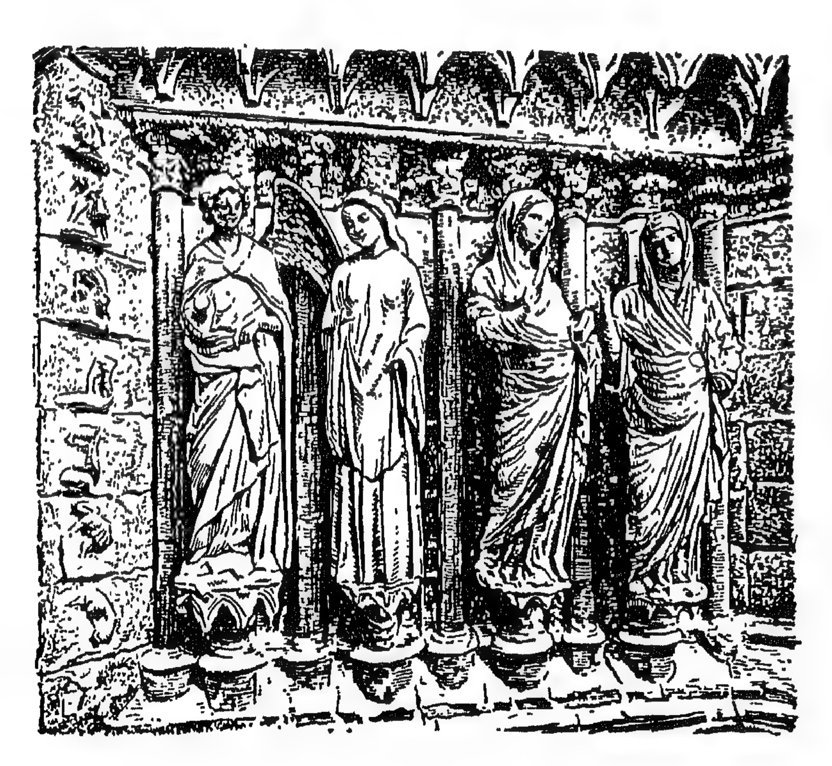
٩ ـ أسهم نقل عاصمة الامبراطورية من روما إلى القسطنطينية في بروز البابوية كقوة سياسية ودينية مستقلة في الغرب الأوروبي . لقد احتلّ بابا روما مكان الامبراطور في الغرب ، وورث سلطته كحاكم مطلق ومصدر للتشريع . فلو ظلّ الأباطرة مقيمين في روما لما استطاع البابوات أن يتجنبوا المصير الذي آل إليه البطاركة البيزنطيون في خضوعهم لسلطة الامبراطور .

١٠ ـ ومما أسهم أيضاً في بروز زعامة البابوية في الغرب الأوروبي انقسام الكنائس الشرقية بعضها على بعض ، ونشوب الخلافات العقائدية بين كنيسة القسطنطينية وكنائس الوطن العربي من جهة ، وبين الكنيسة المصرية في الاسكندرية والكنيسة السورية في انطاكية من جهة أخرى . ففي غمرة الصراع المذهبي كانت كل واحدة من تلك الكنائس تحاول كسب كنيسة روما البابوية إلى جانبها .

١١ ـ في أواخر القرن الثامن انتصرت البابوية عقائدياً في نضالها ضد سياسة منع تقديس الأيقونات ، التي مارسها الامبراطور البيزنطي ليون الأيسوري وابنه قسطنطين الخامس . ففي سنة ٧٨٧ أقر المجمع المسكوني السابع ، الذي

دعت إلى انعقاده الامبراطورة إيرين ، العودة إلى تقديس الأيقونات ، فرحّبت البابوية بهذا القرار الذي طالما ناضلت طويلاً من أجله • وكانت العودة إلى تقديس الأيقونات انتصاراً لآراء البابوية في هذا الشأن ، وهذا ما رسّخ بدوره السلطة البابوية في الغرب الأوروبي •

١٢ ــ إن الممتلكات الواسعة التي امتلكتها البابوية في إيطاليا هيأت لها دخلاً كبيراً جعلها في غنىً عن مساعدة الحكام العلمانيين • وعلى هذا وفّرت ثروة البابوية العظيمة القاعدة الاقتصادية لرسوخ سلطة البابا واستقلاله سياسياً ودينياً واقتصادياً ، كما مكنته تلك الموارد المالية من تجييش الجيوش أحياناً للدفاع عن سلطته وممتلكاته •



الشكل رقم (٢٩)

تماثيل القديسين بجانب باب كنيسة روما الغربى

ـ البـلاط البـابوي :

كان البلاط البابوي في العصور الوسطى أشبه ببلاط الملوك والأباطرة . وقد عاش البابا في ذلك البلاط زعيماً دينياً وسياسياً ، تحيط به مظاهر العظمة والفخامة ، ويلقّب بأرفع الألقاب « الحبر الأعظم ، ملك الملوك ، أمير الأمراء .. » . وتدريجاً صار ذلك البلاط مركزاً لجهاز حكومي كبير ينقسم إلى عدة إدارات منها :

آ ـ الديـوان البـابوي :

تطلّب تنفيذ سياسه البابويه الواسعه وجودَ جهاز إداري مركزي كبير . وعلى هذا صار الديوان البابوى أعظم جهاز إداري عرفته أوروبا في العصـور الوسطى . إن تطور السلطة البابويه التدريجي رافقه تطور في جهازها الإداري ، فظهر نـوع مـن التخصص ، إذ اختصت كل مجموعة مـن الموظفـين بعمـل إداري معيّن . وكانت الرسائل التي تصدر عن الديوان البابوي تنسخ على نسختين لتحفظ إحداهما في أرسيف البلاط البابوي .

ب ـ المندوبون البـابويون :

عبّر البابا عن سيادته بإرسال المندوبين البابويين إلى مختلف أنحاء العالم المسيحي ، لحضور المجامع الدينية ، أو للنظر في بعض القضايا السياسية والاجتماعية وتمتع هؤلاء المندوبون بصلاحيات واسعة ، حيث عقدوا المجامع الدينية الإقليمية في الجهات التي قصدوها ، كما فصلوا في بعض القضايا الهامة التي عُرضت أمامهم . ولم يكن أحد يستطيع أن ينقض قراراتهم سوى البابا الذي أرسلهم في مهماتهم .

ج ـ المحكمـة البـابوية :

تطورت المحكمة البابوية تدريجاً حتى غدت في القرن الثاني عشر تنظر في جميع القضايا المعروضة عليها من مختلف أنحاء الغرب الأوروبي . وصارت تلك المحكمة

تقبل استئناف القضايا التي حكمت فيها المحاكم الكنسيّة الإقليمية • وكان البابا ينظر بنفسه في تلك القضايا المستأنفة أو يحيلها إلى بعض الكرادلة ، أو إلى بعض كبار رجال الدين في البلد الذي أتت منه القضية • وقد أدى هذا النشاط القضائي إلى اتساع أفق القانون الكنسي وظهور فئة من القانونيين في البلاط البابوي ليستشيرهم البابا ويبني أحكامه على آرائهم •

د ـ المراسيم البابوية :

كانت الأوامر والقرارات البابوية تصدر على شكل مراسيم تكتب باللاتينية على رقاق كبيرة • وكان كل مرسوم من المراسيم البابوية يبدأ عادة بعبارة : « الأسقف (فلان) خادم خدّام الله » • وتحتوي المراسيم على توقيع البابا وخاتمه (الرمز أو الشعار) ، كما تحتوي بعض المراسيم الكبرى على توقيعات عدد من الكرادلة بالإضافة إلى توقيع البابا • وكانت صياغة المراسيم البابوية تتمّ وفق قواعد دقيقة تحدد أسلوبها وألفاظها وخطها والكيفيّة التي تختم بها ، ولذا تطلبت صياغتها وجود موظفين مختصين بهذا الأمر في الديوان البابوي •

هـ ـ الإدارة المالية والإيرادات :

وجدت في البلاط البابوي إدارة مالية لحساب الإيرادات والمصروفات • وتعددت الإيرادات التي تغذّي الخزانة البابوية بالأموال ومنها ما يلي :

١ ــ موارد ممتلكات البابوية العقارية في إيطاليا •

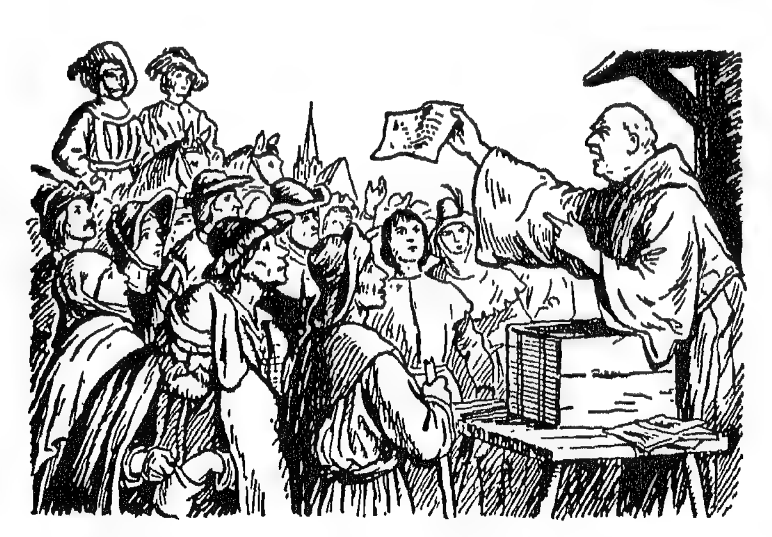
٢ ــ موارد الحقوق الاقطاعية التي أحرزتها البابوية ، حيث اضطرت بعض المؤسسات الكنسيّة والديرية ، التي تعرضت لظروف صعبة ، أن تدخل تحت حماية البابوية ، مقابل دفع أتاوة محددة • كذلك وُجدَ بعض الملوك والأمراء الذين أحسوا بضعفهم وحاجتهم إلى حماية البابوية ، فسلّموا أراضيهم وممتلكاتهم إلى البابوية ، على أن يعودوا ويستلموها منها كإقطاع ويقدموا لها حصةً من إنتاجها •

٣ ــ كانت بعض الأديرة تطلب من البابوية تحريرها من سلطة الأسقف الذي يقع الدير ضمن دائرته الأسقفية ، مقابل أن تقدم للبابوية ضريبة سنوية معينة .

٤ ــ وكذا كان بعض الأساقفة يطلبون من البابوية تحريرهم من التبعية لرئيس الأساقفة الذي تقع الأسقفية داخل منطقة سلطته ، مقابل دفع ضريبة سنوية معينة لخزانة البابوية .

٥ ــ أصيب بعض البابوات بمرض السيمونية (بيع الوظائف الدينية) ، فباعوا المناصب الدينية العالية مقابل مبلغ معيّن من المال .

٦ ــ في مرحلة الحروب الصليبية جنت البابوية أموالاً كثيرة من الشعوب الأوروبية بحجة تمويل تلك الحروب . لكن تلك الأموال لم تصرف كلها على المشروع الاستعماري الذي جمعت من أجله ، بل ذهب القسم الأكبر منها إلى الخزانة البابوية . بالإضافة إلى ذلك ظلّت تلك التبرعات (أو بالأحرى الضرائب) تجمع بعد توقف الحروب الصليبية .



الشكل رقم (٣٠)
بيع صكوك الغفران

٧ـ باعت البابوية الملايين من صكوك الغفران للذين يرغبون بغفران خطاياهم ودخول الجنّة ، مقابل مبلغ معين من المال ٠

٨ ـ في سنة ١١٩٩ أصدر البابا أنوسنت الثالث أمراً إلى جميع أساقفة أوروبا الغربية التابعين للبابوية بأن يرسلوا إلى الخزانة البابوية سنوياً جزءاً من أربعين ($\frac{١}{٤٠}$) من دخل ممتلكات أسقفياتهم ٠

وهكذا أمست خزانة البابوية تمتلك في القرن الثالث عشر من الموارد المالية ما يعادل دخل معظم ملوك أوروبا الغربية [٢] ٠

ـ جهاز الكنيسة البابوية :

استطاعت الكنيسة الغربية الأوروبية في العصور الوسطى أن تنشر نفوذها وتقوم برسالتها الدينية والثقافية والاجتماعية عن طريق جهاز محكم البنيان امتدت أطرافه إلى جميع أنحاء أوروبا الغربية ٠ فقد كان البابا على رأس الكنيسة الغربية ويتمتع بالسلطة التامة على جميع رجال الدين الدنيويين (غير الديريين النظاميين) في الغرب الأوروبي ٠

ويأتي في الدرجة الثانية بعد البابا من حيث المكانة والسلطة الكرادلة (مفردها كردينال) وهم مجموعة مختارة من كبار الأساقفة يعيشون في البلاط البابوي ويعملون مستشارين للبابا ، كما يقومون بالمهمات التي يكلفهم بها ٠ وانقسم العالم المسيحي الغربي إلى أسقفيات واسعة ازداد عددها تدريجاً مع اتساع انتشار المسيحية ٠ وعلى رأس كل أسقفية يقوم أسقف يشرف على شؤون الكنائس ورجال الدين في أسقفيته ٠ ويتبع كل أسقفية عدد من القساوسة يقومون بالخدمات الدينية في كنائس المدن والقرى [٣] ٠

ـ دخل الكنيسة :

كان تأسيس الكنائس المحلية يتم بوساطة الأساقفة أو الحكام العلمانيين ٠

أما دخل الكنيسة فكان يستأثر به مؤسس الكنيسة ، ويسمح للقس (أو القسيس) الذي يرعى فيها الشؤون الدينية بجزء من هذا الدخل . ومنذ القرن الثامن فرضت ضريبة كنسية وهي ضريبة العشور التي تلزم جميع مستثمري الأراضي بتقديم عشر (١/١٠) إنتاجها لصالح الكنيسة . وكان ذلك الدخل يصرف قسم منه على صيانة الكنيسة وتحسينها ، والقسم الباقي ينتفع به القساوسة والأساقفة وغيرهم من رجال الدين (الأكليروس) . وعندما تقدمت النظم الاقطاعية صار لكل كنيسة أملاك خاصة بها آلت إليها عن طريق الهبة من السيد الاقطاعي صاحب الأرض .

ـ قسيس القرية :

عاش قسيس كنيسة القرية على نصيبه من غلة أراضي القرية .وكان ذلك القسيس يخضع من الناحية العلمانية للأمير الاقطاعي الذي تقع الكنيسة في أرضه ، في حين يخضع من الناحية الدينية للأسقف الذي يتبعه . وقد ألقيت على عاتق ذلك القسيس مهمة الربط بين الكنيسة الأسقفية المركزية من جهة ، والفلاحين وعامة الناس في القرية من جهة ثانية .

ونصت قرارات المجامع الدينية مراراً على ضرورة مراعاة الدقة في اختيار القسيس ، فلا يجوز لأسقف أن يرسم قسيساً غير متعلم ، وعليه أن يتأكد من استقامته وسلامة أخلاقه قبل رسامته ، كما لا يجوز أن يرسم قسيس يقل عمره عن خمسة وعشرين عاماً . ومع ذلك فقد وجد بين هؤلاء القساوسة من عُرف بسوء السيرة ، ومن عرف بالاستقامة والصلاح .

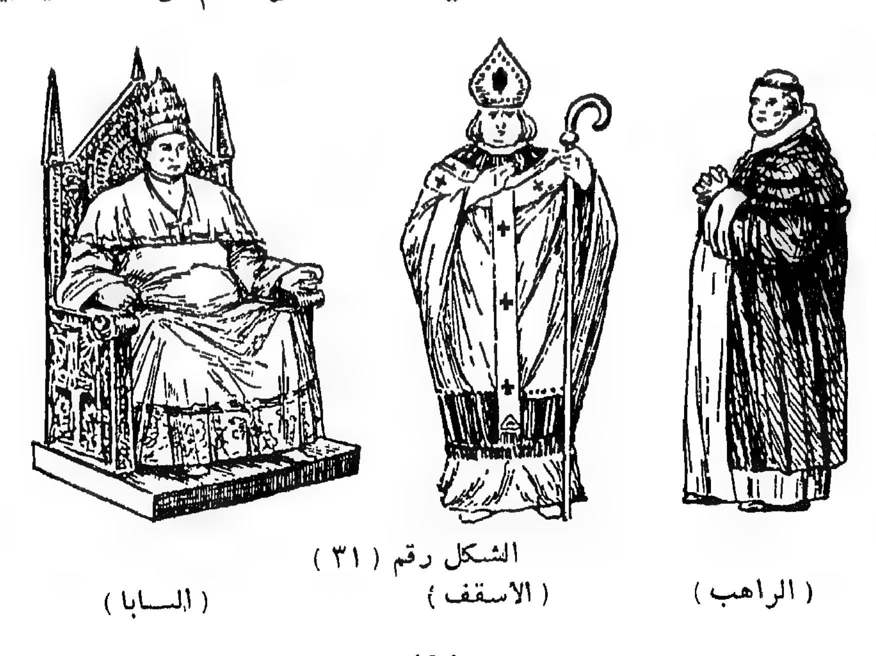
ـ الأسقف :

كان الأسقف الرئيس المباشر للقسيس في الهيئة الكهنوتية . ويقيم الأسقف في كاتدرائية (كنيسة مركزية) تقوم في المركز الرئيس لأسقفيته ، وسميت بهذا الاسم لأن بها كرسي الأسقف (كاتدرا) Cathedra . وتمتع الأساقفة بسلطان واسع في الإشراف على شؤون أسقفياتهم وتوجيه القساوسة التابعين لهم ، مستلهمين

واجباتهم من قول بولس الرسول : « احترزوا إذاً لأنفسهم ولجميع الرعية التي أقامكم الروح القدس فيها أساقفة لترعوا كنيسة الله التي اقتناها بدمه » (العهد الجديد ، سفر أعمال الرسل ، الإصحاح العشرون ، ٢٨) .

– رئيس الأساقفة :

في القرن السابع اتضحت ضرورة إيجاد حلقة جديدة في التنظيم الكنسي بين البابوية من جهة ، وأساقفة البلد الواحد من جهة ثانية . وقد تمخض عن ذلك قيام أسقفية كبرى في كل إقليم واسع يرأسها رئيس أساقفة Arch-bishop له حق الزعامة والسلطة على جميع أسقفيات ذلك الإقليم . فإذا تعدد رؤساء الأساقفة في الدولة الواحدة فإن العرف جرى على أن تكون الزعامة لأقدمهم . وهكذا وجد في إنكلترا في العصور الوسطى رئيس أساقفة في كل من مدينتي نيويورك وكانتربوري ، يشرف كل منهما على عدد كبير من الأسقفيات التابعة له . ولكن الزعامة الدينية في إنكلترا كلها كانت لرئيس أساقفة كانتربوري . ومثل ذلك يقال عن رئيس أساقفة مينز في ألمانيا ، ورئيس أساقفة ريمس في فرنسا . وعلى الرغم من أن أسقفية ريمس



الشكل رقم (٣١)

(الراهب)　　(الأسقف)　　(البابا)

لم تكن أقدم أسقفيات فرنسا ، فقد وصلت إلى مكانة الزعامة بفضل دعم ملوك الفرنجة لها ٠

ـ صلاحيات الأسقف :

تمتع الأسقف بحقوق قضائية وسلطات واسعة كونه نائباً عن البابا في أسقفيته وكان الأسقف مسؤولاً أمام البابا عن أعماله ومقيداً في إدارته لشؤون الأسقفية بالتشريع الكنسي العام وبالأوامر البابوية ٠ ولا يمكن عزل الأسقف من منصبه إلا بأمر البابا وحده ٠ لكن سلطة الأساقفة تناقصت إلى حدٍّ ما بعد أن تحررت الأديرة ـ عقب حركة الإصلاح الكلونية ـ من سيطرة الأساقفة الذين تقع الأديرة داخل دوائر نفوذهم ٠

ـ قواعد تعيين الأسقف :

في أوائل الأمر لم تكن هناك قواعد ثابتة تحدد كيفية تعيين الأساقفة في مناصبهم ٠ ففي عصر الغزوات البربرية الجرمانية كان لقساوسة الأسقفية ورعاياها حق انتخاب أسقفهم ٠ غير أن ملوك الفرنجة سرعان ما ادعوا لأنفسهم هذا الحق وصاروا يعينون من يختارونه في الأسقفيات الشاغرة ، على الرغم من صيحات الاحتجاج التي صدرت ضد هذا التصرف من المجامع الدينية في أورليان (في السنوات ٥٣٣ ، ٥٣٨ ، ٥٤٩) ، وكليرمونت (في سنة ٥٣٥) ، وباريس (في سنة ٥٥٧) ٠ وقد غالى شارل مارتل في هذه السياسة ، فأخذ ينعم بالوظائف الأسقفية على المخلصين من أتباعه ، وبذلك وضع أساس سابقة اتبعها بقية ملوك الجرمان في ألمانيا وإنكلترا وغيرها حتى القرن العاشر الميلادي ٠

وبما أنه لم يوجد في القانون الكنسي ما ينص على حق الملك في تعيين الأساقفة ، فقد تشجع رجال الدين المصلحون على معارضة هذا التقليد العلماني ٠ وكان من أشهر هؤلاء المصلحين الكردينال هيلد براند (أي الشعلة المضيئة) الذي ارتقى العرش البابوي باسم غريغوري السابع ما بين سنتي ١٠٧٣ ـ ١٠٨٥ ٠ فلقد

اتخذ هذا البابا قراراً حاسماً (في مجمع روما الديني في سنة ١٠٧٥) بمنع التقليد العلماني ، الأمر الذي أوقع البابوية في صراع طويل مع الامبراطور الألماني وغيره من حكام أوروبا الغربية .

لكن ذلك الصراع انتهى أخيراً بإقرار حق البابوية كاملاً في تقليد الأساقفة مهمات مناصبهم ، وحرمان الحكام العلمانيين من كل حق في هذا التقليد (التعيين في المنصب) . وحدد البابا غريغوري السابع الهيئة التي تقوم بانتخاب الأسقف ليعتمد البابا ذلك الاختيار ويقلد الأسقف مهمات منصبه . وقد تشكلت تلك الهيئة من قساوسة الأسقفية ورعيتها ، واكتفى البابا غريغوري السابع بأن يقسم الأساقفة المنتخبون من قبل تلك الهيئة الشعبية يمين الولاء والطاعة للبابا . وفي القرن الثاني عشر اقتصر تشكيل تلك الهيئة على قساوسة الأسقفية فقط .

وفي المجمع الديني الذي عقد في روما في سنة ١١٧٩ اتخذ قرار ينص على ألا يقل عمر المرشح لمنصب الأسقف عن ثلاثين سنة ، وأن يكون متعلماً وذا شخصية تتناسب مع جلال وظيفته . كذلك وافق المجمع الديني الذي عقد في روما في سنة ١٢١٥ على الطريقة المذكورة أعلاه في انتخاب الأسقف ، واحتفظ البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) للبابوية بحق رفض الاختيار إذا كان المرشح غير لائق لوظيفة الأسقف ، كذلك لجأ هذا البابا إلى تعيين بعض الأساقفة من قبله ، دون انتخابهم من قبل هيئة القساوسة ، وذلك لإثبات حق البابوية في اتخاذ مثل هذا الإجراء (٤) .

– زواج رجال الدين :

تباينت الآراء حول جدوى تطبيق مبدأ العزوبة على رجال الدين ، ومدى إمكان هذا التطبيق في صورة عملية . وكان معظم رجال الكنيسة الأوائل متزوجين بما فيهم القديس بطرس . وقد جاء على لسان القديس بولس نص يفهم منه السماح لرجال الدين بالزواج ، إذ يقول في رسالته الأولى إلى أهل كورنثوس ما يلي :

« وامّا من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها فحسنٌ للرجل ان لا يمس امرأة . ولكن لسبب الزنا ليكن لكل واحد امرأته وليكن لكل واحدة رجلها ... ولكن أقول هذا على سبيل الإذن ، لا على سبيل الأمر ، لأني أريد ان يكون الناس جميعاً كما أنــا ... ولكن اقول لغير المتزوجين وللأرامل إنه حسنٌ لهم إذا لبثوا كما أنا ... »
(العهد الجديد ، سفر رسالة بولس إلى أهل كورنثوس ، الإصحاح السابع ١-٩) .

ومن هذا النص يفهم أن بولس لم يمنع زواج رجال الدين ، لكنه حبّذ أن يظل الجميع مثله عزاباً ، لأن الزواج ومعاشرة المرأة ترتبطان بالخطيئة الكبرى الأولى التي هوت بآدم من الجنة إلى الأرض .

ويبدو لنا مما سبق أن المسيحية لم تحرّم الزواج على رجال الدين ، لكنها فضلت لهم حياة العزوبة ، الأمر الذي لم يأخذ به الكثيرون من رجال الكنيسة ، فصاروا يتزوجون ويكونون عائلات مثل العلمانيين . وخشيت الكنيسة من انصراف رجال الدين لمشاغل الأسرة فأصدرت تشريعات تنص على عدم زواج رجال الدين الجدد . أما الذين كانوا قد تزوجوا قبل رسامتهم قساوسة فقد سمحت لهم الكنيسة بالاحتفاظ بزوجاتهم ، بشرط أن يعاملوهن كأخوات ولا يعاشرونهن كزوجات .

كذلك أصدر مجمع إلفيرا الديني الذي عُقد في إسبانيا (في سنة ٣٠٦) قراراً ينص على طرد جميع القساوسة المتزوجين من مناصبهم الدينية ، والقضاء على عادة الاحتفاظ « بأخت زوجة » ، بعد أن أصبح من الأمور الشائعة أن ينجب القساوسة أولاداً من هؤلاء الأخوات الزوجات . ولكن كان من الصعب تنفيذ ذلك القرار عملياً حتى بعد أن أقره أيضاً مجمع نيقية الديني في سنة ٣٢٥ ، وهو أول المجامع المسكونيّة في تاريخ الكنيسة . (في القرون المسيحية الثلاثة الأولى انتشرت عادة بين المسيحيين من العلمانيين المتعففين ورجال الدين ، وهي أن يعيش الفرد عزباً في صحبة عذراء يعاشرها كأخت ، وتصاحبه كأخ لتعني بشؤونه دون إقامة علاقات جنسية بينهما) .

وسارت الأمور هكذا حتى القرن الحادي عشر ، حين اشتدت الرغبة في إصلاح الكنيسة ، فحاولت البابوية منع رجال الدين من الزواج منعاً باتاً ، على الرغم من معارضة الكثيرين من رجال الدين والعلمانيين ، الذين خشوا عاقبة انتشار الزنى بين القساوسة . ففي سنة ١٠٧٤ عقد البابا غريغوري السابع مجمعاً دينياً في روما وأصدر قراراً يقضي بتحريم زواج رجال الدين تحريماً تاماً ، وإرغام المتزوجين من رجال الدين على طرد زوجاتهم فوراً . وقُوبِلَ ذلك القرار بالمعارضة وعدم الرضا في مختلف أنحاء أوروبا الغربية . ومع ذلك لم تهتم البابوية بتلك المعارضة ، بل اتخذت خطوة أخرى في مجمع روما في سنة ١١٣٩ ،حيث تقرر انه لا يجوز لأحد من رجال الكنيسة أن يعاشر امرأة ، وإن زواج أي واحد منهم يُعدُّ غير شرعي وذريّته تُعدُّ أبناء سفاح .

ومع هذا ظلت القرارات البابوية التي تنص على عدم زواج رجال الدين تلقى مقاومة جيلاً بعد جيل ، فلم تطبّق بصورة مطلقة في الغرب الأوروبي . وفي العصر الحالي تسمح البابوية للقساوسة فقط من رجال الدين التابعين لها في أوروبا أو في خارجها بالزواج ، على أن يكون ذلك الزواج قد تمَّ قبل رسامتهم وقبل أن يلبسوا الثوب الكهنوتي . أما الذين يرسمون قساوسة وهم عزاباً فلا يجوز لهم الزواج بعد ذلك (٥) .

ـ الكنيسة والوثنيّة :

تقبلت الكنيسة بعض الطقوس الوثنية بعد تعديلها بما يتناسب مع التعاليم المسيحية . فكثير من الأعياد الوثنية حوّلت إلى أعياد مسيحية . لقد حلت عبادة القديسين محل شعائر الآلهة الوثنية ، فأرضت نزعة الشرك التي توائم أصحاب العقول الساذجة . واستُبدلت بتماثيل إيزيس وابنها حورس تماثيل لمريم العذراء وابنها عيسى . كذلك أصبح عيد اللوبركاليا وتطهير إيزيس عيداً لمولد المسيح ، واستبدلت بحفلات الساترناليا حفلات عيد الميلاد ، وبحفلات عيد الزهور عيد العنصرة ، وبعيد قديم للأموات عيد جميع القديسين ، وببعث أتيس بعث المسيح .

وأعيد تكريس المذابح الوثنية للأبطال المسيحيين • كذلك أدخل في طقوس الكنيسه ما كان يغتبط به الناس في الشعائر الوثنية القديمة من بخور ، وأنوار ، وأزهار ، ومواكب ، وملابس ، وترانيم • وتسامت عادة ذبح الضحية البشرية الحية ، فصارت تضحية روحية رمزية في تناول القربان المقدس ، الذي يرمز إلى العشاء السرّي الرباني •

عارض القديس أوغسطين في عبادة القديسين وقال :

« علينا إلاّ ننظر إلى القديسين على أنهم آلهة ، إذ لانريد أن نقلد اولئك الوثنيين الذين يعبدون الموتى ، ولهذا يجب ألا نبني لهم معابد ولا نقيم لهم مذابح ، بل أن نرفع بمخلفاتهم مذبحاً إلى الإله الواحد" •

وقاومت الكنيسة في بادىء الأمر عبادة القديسيين ، ثم استعانت بها ، ثم أساءت استخدامها •

عارضت الكنيسة أيضاً عبادة التماثيل والصور ، كما حذّرت المؤمنين من تعظيمها ، إلا إذا فعلت ذلك بوصفها رموزاً لا أكثر • لكن قوة الشعور العام والميل إلى تقديس التماثيل لدى الشعوب تغلّب على تحذير الكنيسة وفرض عليها قبول الصور والأيقونات •

لكن المبالغة في تقديس الصور والأيقونات والتماثيل أدت إلى ظهور المعارضة لهذا التقديس لدى بعض المسيحيين ، فأثــار الأباطرة البيزنطيون الأيسوريون (وبخاصة ليون الأيسوري وابنه قسطنطين الخامس) حملة شعواء ضد عبادة الصور والأيقونات • ولكن في نهاية المطاف انتصر أنصار تقديس الأيقونات وأقر المجمع الديني المسكوني السابع (الذي انعقد في مدينة نيقية في سنة ٧٨٧ في عهد الامبراطورة إيرين) العودة إلى تقديس الأيقونات ووجوب تقبيلها والسجود الإكرامي لها ، وذلك :

« احتراماً للذين رسمت صورهم عليها ، لا عبادةً لها كما يدعي أعداء الكنيسة ، لأن العبادة إنما تجب لله وحده دون غيره » •

ولايزال المسيحيون حتى العصر الحالي يقدسون صور المسيح والعذراء والقديسين ويزينون بها كنائسهم (٦) .



الشكل رقم (٣٢)
كنيسة القديسة صوفيا في القسطنطينية
تم بناؤها في سنة ٥٣٧ ، وحوّلت إلى مسجد في عهد العثمانيين

ـ الأخـلاق المسيحية :

استطاعت الكنيسة أن تغرس في قلوب الناس مبادىء أخلاقية جديدة • لقد طال عهد الشعب بالرواقيين وفضائل الرجولة الرواقية • لكن تلك الفضائل الرواقية لم تكن قادرة أن تمنع البرابرة من أن يصبغوا أوروبا بالدماء • وتاقت نفوس الناس إلى مبادىء رفيعة تقنعهم بأن يعيشوا مستقرين مسالمين ، فأخذ المعلمون المسيحيون ينشرون على الناس لأول مرة في تاريخ أوروبا مبادىء الرأفة والحنان والطاعة والخشوع والصبر والرحمة والطهارة والعفّة والرقة ، وكلها فضائل مستمدة من الأصول الاجتماعية الدنيا للمسيحية • وكانت تلك المبادىء خليقة أن تعيد النظام إلى شعب فقد قوته المعنوية ، وأن تروّض أخلاق البرابرة سافكي الدماء ، وأن تهدىء من عنف العالم المتداعي الآخذ في الانهيار •

ـ الكنيسة والأسرة :

عملت الكنيسة جاهدة على تقوية روابط الأسرة ، إذ جعلت الزواج عملاً مقدساً وسرّاً من أسرارها • كذلك جعلت رابطة الزواج غير قابلة للحل ومنعت الطلاق ، إلاّ في حالات استثنائية ، كالعقم والزنى ومحاولة القتل وما شابه ذلك • وبذا رفعت الكنيسة كرامة الزوجة وأمّنتها على مركزها كأم في الأسرة •

وانعكس ما تلقاه أم المسيح مريم العذراء من تكريم على الزوجة الأم ، فارتقت مكانتها في المجتمع ، على الرغم من قول بعض آباء الكنيسة ، المتأثرين بتعاليم التوراة ، بأن المرأة أصل الخطيئة الأولى ، التي سببت هبوط آدم وحواء إلى الأرض • وحبّذت الكنيسة كثرة النسل وباركته ، فحرّمت الإجهاض وقتل الأطفال تحريماً قاطعاً • وبفضل نفوذ الكنيسة أصدر إمبراطور روما فالنتينيانوس الأول (٣٦٤ ـ ٣٧٥) مرسوماً ينص على أن وأدَ الأطفال جريمة يُعاقب عليها بالإعــدام •

لكن الكنيسة أساءت قليلاً إلى روابط الأسرة عندما شجعت الأزواج على ترك الحياة الزوجية واللجوء إلى العفّة وحياة الرهبنة • ومضى بعض الوقت قبل أن يدرك آباء الكنيسة أن لا بقاء لأي مجتمع يعيش على هذه المبادىء العقيمة •

أجازت الوثنية الدعارة على أنها وسيلة لتخفيف مشقّة وحدة الزواج ، فجاءت الكنيسة المسيحية تشنّ على الدعارة حملة شعواء لا هوادة فيها ، وطلبت إلى الزوج والزوجة أن يلتزما بالعفّة وعدم الزنى . وعلى الرغم من أن الكنيسة لم تنجح النجاح كله في القضاء على البغاء ، فقد رفعت من المستوى الأخلاقي داخل الأسرة. وغالت الكنيسة في طلب العفّة ، فجعلت الزواج أقل منزلة من العزوبة ، ورفعت البكوريّة إلى مقام المثل العليا .

لكن ذلك التزمّت من قبل الكنيسة كان ردّ فعل على ما كان عليه المسرح الروماني من فساد خلقي طليق ، وعلى ما كان في بعض الهياكل اليونانية والرومانية من بغاء شنيع ، بالإضافة إلى رذائل الشذوذ الجنسي التي كانت واسعة الانتشار في بلاد اليونان والرومان ، وإلى الإفراط في الشهوانية الذي كان شائعاً بين الحكام والطبقات الغنية في المجتمع الأوروبي .

ـ الكنيسة والعبودية :

لم تحرّم الكنيسة المسيحية الاسترقاق ، وإنما عدّته من قوانين الحرب ، ورأت فيه نظاماً طبيعياً لا يمكن القضاء عليه . والقوانين التي سنها الأباطرة المسيحيون بخصوص العبودية لا تسمو إلى منزلة القوانين التي سنّها الأباطرة الوثنيون . ومثال على ذلك أن قوانين الأباطرة الوثنيين كانت تحكم على المرأة الحرة التي تتزوج عبداً بأن تصبح عبدةً مثله . أما قوانين الامبراطور المسيحي قسطنطين الأول فكانت تقضي بقتل أمثال هذه المرأة الحرة وإحراق العبد الذي تزوجها حياً.وأصدر إمبراطور روما المسيحي غراثيان(٣٧٥ـ٣٨٣) مرسوماً يقضي بأن يحرق العبد حيّاً إذا وجّه لسيده أية تهمة عدا تهمة الخيانة العظمى للدولة ، وأن تنفذ فيه العقوبة على الفور دون بحث أو تحقيق في صحة التهمة . وكان في وسع أفقر رجلٍ حرٍّ أن يرقى إلى أعلى المناصب الدينية ، في حين لم يكن في مقدور العبد أن يصبح قسيساً في أدنى درجات السلم الكهنوتي .

لكن الكنيسة المسيحية التي رضيت بالاسترقاق ، كانت تشجع على عتق

العبيد ، إذ جعلت فكّ الرقاب من وسائل التكفير عن الذنوب ، كما أنفقت أموالاً طائلة في سبيل تحرير أسرى المسيحيين من الاسترقاق • وعلى الرغم من ذلك ظل الاسترقاق قائماً في أوروبا الغربية طوال العصور الوسطى • ولمّا زال الاسترقاق في مطلع العصور الحديثة ، لم يكن لرجال الكنيسة المسيحية فضل في زواله ، وإنما أفضت إلى ذلك ظروف اقتصادية واجتماعية وثقافية وسياسية متنوعة •

ـ **الكنيسة والإحسان :**

كان الأباطرة والأعيان الوثنيون قد أعانوا فقراءهم بجزء من أموال الدولة وأموالهم الخاصة ، لكن العالم لم يشهد قبل المسيحية نظاماً واسعاً لتوزيع الصدقات كالنظام الذي أقامته الكنيسة • لقد اتخذت الكنيسة المسيحية على عاتقها مساعدة الأرامل واليتامى والمرضى والعجزة وضحايا الكوارث الطبيعية ، كما تدخلت أحياناً لحماية الطبقات الدنيا من الاستغلال أو الضرائب الباهظة • وكثيراً ما كان القساوسة يهبون أملاكهم للفقراء إذا وصلوا إلى مرتبة الأساقفة • كذلك خصص الكثيرون من المسيحيين الأغنياء ثروات كبيرة للأعمال الخيرية •

وقامت الكنيسة بإنشاء مصحّات للمرضى وبناء خانات للاجئين وأبناء السبيل في معظم المدن ، وكان الوثنيون يتعجبون بدأب المسيحيين على العناية بالمرضى في المدن التي تجتاحها الأوبئة (٧) •

أزمة البابوية في أواخر العصور الوسطى

في القرن الثالث عشر بلغ نفوذ البابوية الروحي والدنيوي ذروته ، إذ أضحى البابا بمثابة ملك عظيم يتمتع بسلطان زمني إلى جانب سلطانه الروحي ، كما يهيمن على كنيسة ذات إدارة منظمة وموارد مالية ضخمة • وعلى هذا حرص ملوك أوروبا الغربية على تنفيذ إرادة البابا ، خشيةً أن يتعرضوا لعقوبة الحرمان من رحمة الكنيسة وما يتبع ذلك من متاعب • ويبدو لنا ازدياد نفوذ البابوية واضحاً في عهد البابا أنوسنت الثالث (١١٩٨ — ١٢١٦) ، الذي استطاع أن يفرض إرادته على أعظم حكام الغرب الأوروبي •

اما في القرن الرابع عشر فقد تعرضت البابوية إلى ازمات متلاحقة افقدتها هيمنتها الروحية ونفوذها السياسي • وتعود تلك الأزمات إلى عاملين اساسيين هما :

١ — التطور الذي طرا على المجتمع الأوروبي :

٢ — انحلال البابوية ذاتها :

وتمثل العامل الأول — أي تطور المجتمع الأوروبي — بنواحٍ عديدة هي :

آ — التطور الاقتصادي :

الذي أدى إلى الانتقال من النظام الاقطاعي إلى البرجوازية التجارية ، التي اهتمت بالبحث عن الأسواق والأرباح أكثر من اهتمامها بالقيم الروحية والتعاليم الكنسيّة •

ب ـ التطور العلمي :

الذي تمثّل بقيام الجامعات والاهتمام بالفكر العلماني ٠

جـ ـ نمو الشعور القومي كبديل للشعور الديني :

الذي تمثّل باهتمام الشعوب الأوروبية بمصالح أممهم أكثر من اهتمامهم بمصالح البابوية ٠ كذلك امتد الشعور القومي إلى الكنائس الوطنية ، فأصبح رجال الدين في الممالك الأوروبية يشعرون أن مصالح دولتهم أكثر أهمية من مصالح الكنيسة البابوية في روما ٠

د ـ بروز الملكيات القومية :

تمثّل باهتمام الملوك الانكليز والفرنسيين وغيرهم بالمصالح القومية أكثر من اهتمامهم بمصالح العالم المسيحي والبابوية ٠ كذلك ازداد شعور الملوك الأوروبيين بالاستياء من التدخل البابوي في سياساتهم الداخلية والخارجية ٠

اما العامل الثاني ـ أي انحلال البابوية ـ فكان له عدة اسباب منها :

آ ـ فشل البابوية في تطوير قوانينها ورؤيتها بشكل يتلاءم مع التطورات السياسية والاقتصادية والعلمية التي جرت في أواخر العصور الوسطى ٠

ب ـ اهتمام البابوية بالشؤون السياسية والزمنية أكثر من اهتمامها بالنواحي الروحية ، وهذا أدّى إلى ضعف دورها الديني والروحي ٠

جـ ـ تسلط العائلات الارستقراطية في روما على المنصب البابوي ، واستغلال هذا المنصب لتحقيق مصالحها المادية ٠

بابوية بونيفاس الثامن ومأساة اناني (١٢٩٤ ـ ١٣٠٣) :

تبوأ بونيفاس الثامن السدّة الرسولية ما بين سنتي ١٢٩٤ ـ ١٣٠٣ ، وكان

من عائلة رومانية نبيلة . وتعرض بونيفاس خلال بابويته لمشكلتين كبيرتين : إحداهما داخلية ، والثانية خارجية .

في داخل روما أراد بونيفاس الثامن أن يستغل منصبه لدعم عائلته ، فأعطى أموال الخزانة البابوية لأحد أقربائه كي يشتري بها بعض القرى ، مما أدى لاصطدامه مع عائلة كولونا الرومانية التي كانت ترغب بشراء تلك القرى . وقد استطاعت تلك العائلة أن تستولي على أموال البابا وتحجزها ، مما دفع البابا أن يشن عليها حملة عسكرية ويصادر أملاكها ويوزعها على أقاربه .

أما المشكلة الخارجية فتتمثل باصطدام البابا بونيفاس الثامن مع ملك فرنسا فيليب الرابع . لقد أصدر فيليب الرابع مرسوماً يقضي بجباية الضرائب من رجال الدين الفرنسيين ، فعارضه البابا وهدده بالحرمان . رداً على ذلك اتهمت الحكومة الفرنسية البابا بالهرطقة والاستبداد ودعت لعقد مجمع ديني لمحاكمته . وعندما علم البابا بهذا الأمر هرب إلى مدينة أناني (مسقط رأسه) وأصدر فيها قرار الحرمان الكنسي بحق الملك فيليب الرابع . لكن الملك فيليب أرسل قوات عسكرية إلى إيطاليا اعتقلت البابا . غير أن أقرباء البابا تمكنوا من تخليصه من الأسر وعادوا به إلى روما ، لكنه مات بعد أيام قليلة . إن اعتقال البابا في مدينة أناني يدل على أن البابوية فقدت هيبتها واحترامها وسيادتها .

- **اسر البابوية « البابلي » (١٣٠٥ - ١٣٧٧) :**

بعد وفاة البابا بونيفاس الثامن اعتلى السدّة الرسولية البابا بندكت الحادي عشر (١٣٠٣ - ١٣٠٤) ، فلم يستطع معاقبة الملك الفرنسي فيليب الرابع على تدخّله في اعتقال البابا بونيفاس . وبعد وفاة بندكت الحادي عشر انتخب مجمع الكرادلة (جمع كردينال) في روما رجلاً فرنسياً لمنصب البابوية اسمه برتراند وأُعطيَ اسم البابا كليمنت الخامس (١٣٠٥ - ١٣١٣) . وكان البابا كليمنت صنيعة الملك الفرنسي فيليب الرابع ، الذي كان له دور كبير في انتخابه .

اتخذ البابا كليمنت الخامس مقراً رسمياً له في مدينة أفينون ، بدلاً من روما مدينة القديس بطرس التاريخية . وتقع مدينة أفينون على الضفة الشرقية لنهر الرون في أراضي الامبراطورية الرومانية المقدسة . لكن الممتلكات الفرنسية تقع على الضفة الغربية لنهر الرون مقابل أفينون مباشرة ، وهذا يعني أن تلك المدينة تقع تحت التأثير الفرنسي . وقد شكّل البابا كليمنت الخامس مجلس الكرادلة الجديد من ثمانية وعشرين كردينالاً ، منهم خمسة وعشرون من أصلٍ فرنسي . وهذا يدل على سيطرة السلطات الفرنسية على البابوية سيطرة كاملة .

ظلّت مدينة افينون الواقعة تحت النفوذ الفرنسي مقراً للبابوية ثلاثة وسبعين عاماً (١٣٠٥ — ١٣٧٧) ، ثم عاد مقرها إلى روما . وقد اطلق على تلك الفترة اسم ((الأسر البابلي)) بسبب الاعتقاد السائد آنئذٍ بان إقامة البابوات في افينون كانت إجبارية تحت الضغط الفرنسي ، وذلك تشبيهاً لها في سبي بني إسرائيل من قبل الملك البابلي الكلداني نبوخذ نصّر وإجبارهم على الإقامة في بابل .

— نتـائج الأسـر البـابلي :

ترتبت على الأسر البابلي (إقامة البابوات في مدينة أفينون) نتائج وخيمة بالنسبة للبابوية نذكر منها ما يلي :

١ — خسرت البابوية مكانتها المعنوية وادعاءها بالسيادة على كنائس العالم ، لأن البابا كان يُعدّ خليفة القديس بطرس في روما وليس في غيرها من المدن .

٢ — فقدت الشعوب الأوروبية ثقتها بالبابوية ، لأن المعاصرين نظروا إلى بابوات أفينون كصنيعة لملوك فرنسا وأداة لخدمة المصالح الفرنسية .

٣ — ضعفت الحماسة الدينية لدى باباوات أفينون وانغمسوا في الرفاهية والملذات ، إذ اشتروا مدينة أفينون وأقاموا فيها قصراً مُنيفاً عاشوا فيه في ترف وبذخ ، وهذا مما قلل أيضاً من احترام الشعوب الأوروبية للبابوية .

٤ ـ تطلبت حياة البذخ أموالاً كثيرة ، فاضطر البابوات إلى بيع المناصب الدينية لمن يدفع مبلغاً أكبر ، فاتهموا بالسيمونية (نسبة إلى سيمون الساحر اليهودي الذي أراد أن يشتري من القديس بطرس موهبة الإتيان بالمعجزات ، فزجره قائلاً : إنك هالك مع فضتك ومالك لأنك تحاول الحصول على بركة الله بالدراهم) .

٥ ـ خسرت البابوية في أفينون كثيراً من مواردها السابقة ، إذ أنها خسرت الموارد الايطالية من أوقاف كنيسة القديس بطرس في روما ، كما خسرت الموارد الانكليزية والألمانية ، لأن الانكليز والألمان يعلمون أن البابوية في أفينون تقع تحت نفوذ أعدائهم الفرنسيين ، وبالتالي ستذهب الأموال إلى جيوب الملوك الفرنسيين .

٦ ـ ضعف الارتباط بين البابوية والكنائس القومية الأوروبية ، فلم تعد الكنائس الانكليزية والألمانية وغيرها تخضع لإرادة البابا المقيم في أفينون .

٧ ـ تضررت مدينة روما ، التي فقدت كرسي البابوية ، معنوياً واقتصادياً ، إذ عمّ فيها الفساد وسُلبت ممتلكات الكنيسة .

ـ الانشقاق الديني الأكبر (١٣٧٨ ـ ١٤١٨) :

كان من نتائج الأسر البابلي أيضاً حدوث انشقاق ديني كبير في الكنيسة البابوية الغربية . لقد طالب اهالي روما البابوات بترك مدينة افينون والعودة إلى روما ، فحاول بعض البابوات العودة إلى روما ، لكن محاولاتهم ادت إلى انقسام الكنيسة الكاثوليكية الغربية إلى كنيستين . وقد أطلق على ذلك الانقسام اسم « الانشقاق الديني الأكبر » ، ودام ذلك الانشقاق اربعين عاماً من سنة ١٣٧٨ حتى سنة ١٤١٨ .

في سنة ١٣٧٦ حاول البابا أوربان الخامس العودة إلى روما ، لكنه لم يمكث فيها سوى ثلاث سنوات ، ثم عاد إلى أفينون . وعاد خليفته البابا غريغوري الحادي عشر من أفينون إلى روما في سنة ١٣٧٧ ، فمات فيها في العام التالي . وقد استغلّ أهالي روما وفاة البابا غريغوري الحادي عشر في روما ، فضغطوا على مجلس

الكرادلة وأجبروه على اختيار شخص إيطالي للمنصب البابوي باسم أوربان السادس (١٣٧٨ ــ ١٣٨٩) • لكن الكرادلة الفرنسيين ، بتحريض من ملك فرنسا شارل الخامس ، رفضوا انتخاب البابا أوربان السادس وانسحبوا إلى مدينة أنّاني ، حيث أعلنوا هناك عن انتخاب شخص موالٍ لفرنسا لمنصب البابوية يدعى كليمنت السابع (١٣٧٨ ــ ١٣٩٤) واشترطوا عليه أن يقيم في مدينة أفينون •

وهكذا بدأ الانشقاق الديني الأكبر في الكنيسة البابوية الكاثوليكية بوجود سلسلة من البابوات في روما ، وسلسلة من البابوات في مدينة افينون الواقعة تحت النفوذ الفرنسي • وقد استمر ذلك الانشقاق طوال اربعين عاماً •

كان ذلك الانشقاق تعبيراً عن صراع اتجاهين فكريين برزا في المجتمع الأوروبي في أواخر العصور الوسطى :

ــ الاتجاه الأول :

يمثل روح التضامن الأوروبي على أساس ديني بقيادة البابوية الكاثوليكيه •

ــ الاتجاه الثاني :

يمثل الروح القومية الجديدة ، حيث أخذ رجال الفكر الديني والعلماني في كل بلد من بلدان أوروبا ، وبخاصة الفرنسيون ، يهتمون بمصالحهم القومية ويرفضون الخضوع للزعامة البابوية في روما •

ــ نتائج الانشقاق الديني الأكبر :

١ ــ خلق الانشقاق الديني الأكبر اضطراباً كبيراً في الغرب الأوروبي ، لأن البابا بيده سلطة الحل والربط في الأمور الدينية •

٢ ــ أدى الانشقاق الديني إلى حدوث فوضى في الأجهزة الكنسيّة ، حيث

أخذ كل من البابويْن يعزل رجـال الدين المؤيدين لخصمه ويعيّن أنصاره في أماكنهم •

٣ ــ أدى الانشقاق الديني إلى انقسام سياسي بين دول أوروبا الغربية ، إذ انقسمت إلى معسكرين : الأول بزعامة فرنسا وباباوات أفينون ، والثاني بزعامة إنكلترا وباباوات روما •

٤ ــ وأدى الانشقاق أيضاً إلى تحول الأسقفيات إلى ألعوبة في أيدي القوى السياسية والاقتصادية في الغرب الأوروبي •

٥ ــ كذلك أدى الانشقاق إلى انحطاط مكانة البابوية وزوال هيبتها لدى المعاصرين ، الذين أخذوا يفقدون ثقتهم بها ، ويطالبون بعدم تدخل البابوية في الشؤون الدنيوية •

ــ الجهود التي بذلت لعلاج الانشقاق الديني الاكبر :

بعد تأزم الفوضى الدينية التي نتجت عن الانشقاق الديني الأكبر ، بادر أساتذة جامعة باريس بتقديم برنامج محدد إلى الحكومة الفرنسية والسلطات المسؤولة في الغرب الأوروبي لإنهاء الانشقاق الديني وإصلاح الكنيسة • ويتضمن البرنامج إقناع كل من بابا روما وبابا أفينون بالتخلي عن منصبه لصالح مرشح واحد جديد ينتخبه مجمع ديني • وكثرت المفاوضات والمشاورات فتمخّض عنها أخيراً انعقاد مجمع بيزا الديني في سنة ١٤٠٩ •

آ ــ مجمع بيزا الديني ١٤٠٩ :

وجّه عدد من الكرادلة الدعوة لعقد مجمع ديني في مدينة بيزا الايطالية ، فحضره معظم أساقفة الغرب الأوروبي ، ولكن لم يحضره البابوان المتنافسان : بابا روما غريغوري الثاني ، وبابا أفينون بندكت الثالث عشر • وقد اتخذ مجمع بيزا الديني قرارين ينصّان على ما يلي :

١ ــ خلع كل من البابوين المتنافسين من منصبه •

٢ ــ انتخاب حنا الثالث والعشرين لمنصب البابوية ، فاعتلى السدة الرسولية في روما ما بين سنتي (١٤١٠ ــ ١٤١٥) •

لم ينه مجمع بيزا الديني الانشقاق ، بل زاده اتساعاً ، إذ لم يعترف البابوان المتنافسان بقرارات ذلك المجمع ، ولم يتنازلا عن منصبهما • وعلى هذا صار في اوروبا الغربية ثلاثة بابوات بدلاً من الباباوين السابقين •

ب ــ مجمع كونستانس الديني (١٤١٤ ــ ١٤١٨) :

بعد فشل مجمع بيزا الديني دعا ملك هنغاريا سجسموند (الذي اعتلى عرش الامبراطورية الرومانية المقدسة ١٤١١ ــ ١٤٣٧) إلى عقد مجمع ديني في مدينة كونستانس ، فعُقد المجمع في سنة ١٤١٤ وحضره عدد كبير من رجال الدين الأوروبيين ، كما دام أربع سنوات • وتمخّض عن ذلك المؤتمر الديني خلع الباباوات الثلاثة السابقين ، وانتخاب بابا جديد هو أحد الكرادلة من أسرة كولونا الايطالية ، الذي اتخذ اسم مارتن الخامس ، واعتلى السدّة الرسولية في كنيسة القديس بطرس في روما ما بين سنتي (١٤١٧ ــ ١٤٣١) •

وهكذا نجح مجمع كونستانس في إنهاء الأسر البابلي والانشقاق الديني الأكبر ، فعاد الهدوء للبابوية • ولكن اخذ يلوح في الافق انشقاق اخطر ، وهو ظهور البروتستانتية بزعامة مارتن لوثر (٨) •

الملحق الأول

نظرية تقليد بطرس الرسول
« النظرية البطرسية »

كما أوردها البابا ليـو الأول (٤٤٠ ــ ٤٦١)

ـ مقـدمة :

أفاد البابا ليو الأول دائماً من نظرية تقليد بطرس الرسول . وتتلخص هذه النظرية في أنه كان لبطرس ، أمير الرسل ، السيادة العليا على الكنيسة . وانتقلت عنه هذه الصدارة إلى أخلافه ، أساقفة روما ، الذين حرصوا ، باعتبارهم أخلافاً لبطرس الرسول ، على الاحتفاظ بهذه السيادة على الكنيسة وعلى سائر الأساقفة ، مثلما كان لبطرس من صدارة على جميع الرسل . وفيما يلي فقرات مستمدة من مؤلفات البابا ليو الرابع . تشرح هذه النظرية .

★ ● ★

عهد سيدنا عيسى المسيح ، مخلص العالم ، إلى الرسل بنشر دعوته إلى الإيمان . وإذ جعلَ السيد المسيح أمر هذا الواجب موكولاً إلى كل الرسل ، أقام القديس بطرس مقدماً عليهم ، فمنه تتدفق العطايا إلى سائر الجماعة ، فإذا انفصل أحدهم عن القديس بطرس ، فلا بدّ أن يعلم أنه سوف لا يظفر بنصيب من نعم الله .

وإذا نشب بينكم نزاع يتعلق بأمور الكنيسة ، ورجال الدين ، فإننا نود أن

تقوموا بتسوية هذه المنازعات ، وأن تنهوا إلينا بكل شروط التسوية ، كيما نصدق على كل ما أصدرتموه من قرارات عادلة متزنة .

وللقسطنطينية مجدها وعظمتها ، فأضحت بفضل الله ورحمته مقراً للامبراطورية . غير أن الأمور الدنيوية قامت على أساس ، بينما استندت الأمور الكنسية إلى أساس آخر . على أن ما من شيء يبقى ما لم يكن قائماً على الصخرة التي وضعها السيد المسيح في الأساس . فمدينتكم مدينة الملك ، وليس بوسعكم أن تجعلوها رسولية شأن روما ، لأن كنيسة روما شيدها القديس بطرس .

وسوف تعلم ، إذا قرأت الرسائل التي وجهتها إلى بطريرك القسطنطينية ، وشرحت فيها معارضتي لأطماعه ، ما التزمه أسقف روما من دواعي التبجيل والاحترام لقواعد الكنيسة وقوانينها ، وسوف ترى أيضاً أنني حارس للعقيدة الكاثوليكية ، ولما صدر عن آباء الكنيسة من قرارات .

وعلى هذا الأساس ، فإن الحبر الأعظم البابا ليو ، رأس الكنيسة الكاثوليكية (العالمية) ، بموافقة السينود (المجمع) المقدس ، وبفضل ما حظي به من منصب القديس بطرس ، الذي يعتبر أساس الكنيسة وصخرة الإيمان ، وحارس السموات ، قرر حرمان .. (فلان) من منصبه ، كأسقف .

ولما التزمنا به من رعاية الكنائس ، فإن السيد المسيح ، الذي جعل بطرس أميراً على الرسل ، جعلنا أيضاً مسؤولين عن ذلك .

ولذا كان عدلاً وحقاً ، أن تعتبر كنيسة روما ، عن طريق القديس بطرس ، أمير الرسل ، رأس كنائس جميع العالم » .

الملحق الثاني

الارادة البابوية

هذه الوثيقة تعبر عن مبادىء جريجوري السابع ومثله

ـ نص الوثيقة :

١ ـ الكنيسة الرومانية إنما أقامها الله وحده .

٢ ـ ما من أحد سوى بابا روما ، جدير باتخاذ لقب المسكوني (العالمي) .

٣ ـ ليس بوسع أحد سواه ، أن يعزل الأساقفة أو يعينهم .

٤ ـ ولممثل البابا ، مهما انخفضت رتبته ، أن يرأس الأساقفة في المجمع ، وله من السلطة ما يجعله يصدر حكم العزل ضدهم .

٥ ـ وللبابا السلطة في عزل من لم يحضر المجمع من الأساقفة ، (دون أن يستمع لدعواهم) .

٦ ـ ومن الأمور التي ينبغي أن تراعيها ، أنه ينبغي ألا تقيم في موضع واحد مع من قضى البابا بقطعهم من الكنيسة .

٧ ـ وللبابا وحده الحق ، وفقاً لما تقتضيه الأحوال ، أن يسن القوانين الجديدة ، وأن ينشىء أبروشيات جديدة ، وأن يشيد ديراً يخضع لبعض قوانين الديرية ، أو يجعل عكس ذلك، وله أن يقسم الأبروشية الوفيرة الثروه إلى أبروشيات عديدة ، أو يجعل من الأبروشيات الفقيرة أبروشية واحدة .

٨ ـ وللبابا وحده أ نيستخدم العباءة الامبراطورية .

٩ ـ وينبغي على كل الأمراء ألا يخضعوا إلا للبابا وحده .

١٠ـ وينبغي ألا يذكر في الكنائس إلا اسمه وحده •

١١ـ وما يتخذه لنفسه من اسم إنما يخصه دون سواه •

١٢ـ وللبابا السلطة وحده في عزل الأباطرة •

١٣ـ وللبابا الحق في أن ينقل الأساقفة من منصب ديني إلى منصب ديني آخر ، كلما اقتضت الحاجة ذلك •

١٤ـ وله الحق في أن يرسم من يشاء من رجال الدين ، من بين هيئة رجال الكنيسة •

١٥ ـ ومن رسمه وجعله من رجال الدين ، صار لـه الحـق في أن يتولى (باعتباره أسقفاً) أمر كنيسة أخرى ، غير أنه ليس بوسعه أن يخدم على أنه قس ، على أن الذي جعله من رجال الدين ينبغي ألا يتجاوز في مكانته سائر الأساقفة •

١٦ـ ولا يعقد سينود عام (مجمع) إلا بأمر البابا •

١٧ـ ولا يُعدُّ ما يُتخذ من قرار في السينود كنسياً، دون أن يقر ذلك البابا•

١٨ـ وما يصدره البابا من قرار ليس بوسع أحد أن يلغيه ، بينما جاز للبابا إلغاء قرارات غيره من الناس •

١٩ـ ليس بوسع أحد من الناس أن يحاكم البابا •

٢٠ـ ما من أحد يجرؤ على أن ينكر على شخص آخر ، الالتجاء إلى المقر الرسولي •

٢١ـ وينبغي أن تُرفعَ إلى كنيسة روما (أي إلى البابا)، كل القضايا المهمة ، من أيّة كنيسة من الكنائس •

٢٢ـ إن كنيسة رومـا معصومة من الخطأ ، وذلك وفقاً لناموس الأناجيل المقدسة •

٢٣ـ أضحى لبابا روما ، الذي جرت رسامته وفقاً لقوانين الكنيسة ، القداسة المستمدة من صفات القديس بطرس الرسول ، وذلك وفقاً لما أورده من أسانيد ،

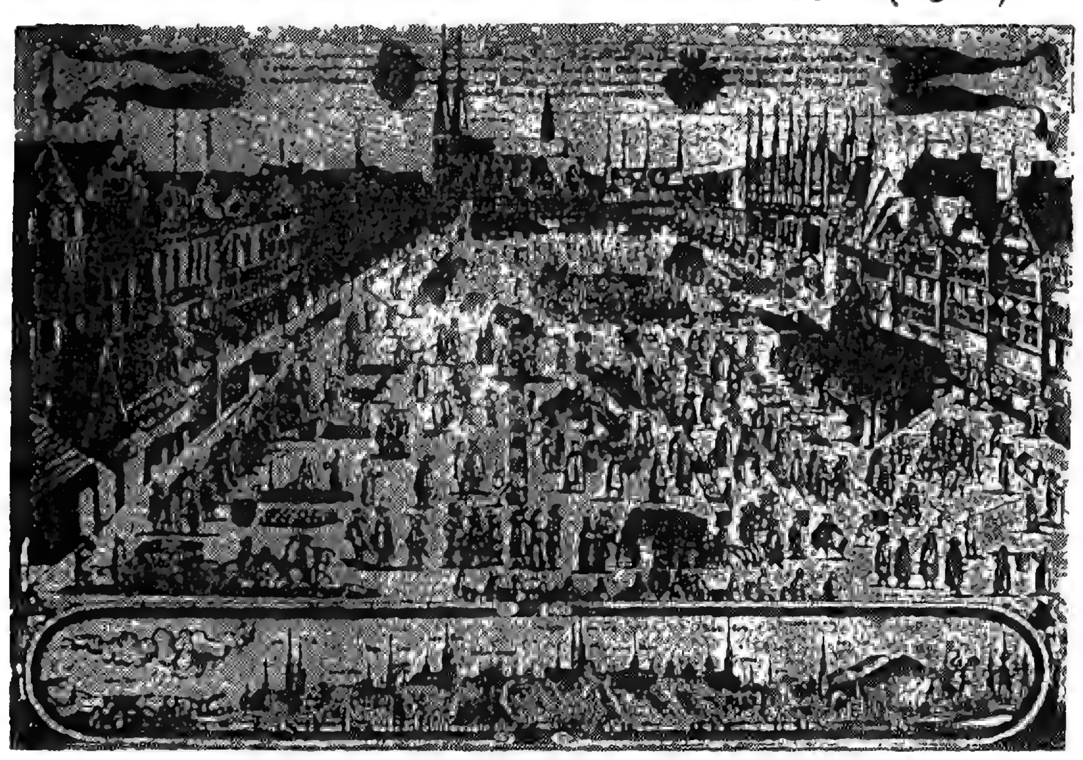
القديس اينّوديوس أسقف بافيا ، والتي أقرّها كثير من الآباء القديسين ،كما ورد في مقررات البابا سيمّاكوس •

٢٤ـ بمقتضى أمر البابا وإذنه ، يجوز للرعايا أن يتهموا حكامهم وأمراءهم •

٢٥ـ وللبابا أن يعزل الأساقفة أو يعيدهم إلى وظائفهم، دون أن يدعو السينود للانعقاد •

٢٦ـ لا يُعدّ كاثوليكياً من لا يتفق مع كنيسة روما •

٢٧ـ وللبابا السلطة في أن يحل الرعايا من يمين الولاء التي بذلوها للحكام (الأمراء) الأشرار •



الشكل رقم (٣٣)

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملحق الثالث

البابا جريجوري السابع يقرر قطع الملك هنري الرابع من الكنيسة وعزله عن العرش (سنة ١٠٧٦)

يا بطرس المبارك أمير الرسل ، أتوسل إليك أن تصغي إلي ، أنا خادمك الذي حبوته منذ طفولتي بمحبتك وعطفك ، وأنقذتني من أعدائي الذين يكرهونني ، من أجل ولائي لك ، فأنت شاهدي ، ومن شهودي أيضاً ، سيدتي أم الإله ، وأخوك القديس بولص ، وسائر القديسين ، بأن كنيسة روما المقدسة دعتني ، رغم إرادتي ، إلى أن أتولى أمر إدارتها ، وإنني لم أحز العرش البابوي عن طريق العنف ، وكنت أوثر أن أمضي الأيام في المنفى ، على أن أظفر بمكانك بالغش والتدليس أو من أجل أطماع دنيوية .

فإنني بفضل رعايتك ورضاك ، لا بجهودي ، قمت بتسيير العالم المسيحي ، الذي عهد المسيح أصلاً به إليك ، وبفضل عطفك ، وباعتباري ممثلك ، منحني الله سلطة العقد والحل في السماء والأرض .

فباسم الله القوي ، الأب والابن ، وروح القدس ، أعلن حرمان هنري (الرابع) ، ابن الامبراطور هنري الثالث ، من مملكته بألمانيا وإيطاليا . وإنني لأفعل هذا ، باسم سلطتك ، ودفاعاً عن شرف كنيستك ، لأنه تمرد عليها . فكل من يحاول أن يحطم شرف الكنيسة ، ينبغي أن يتجرد من هذا الشرف الذي قد حازه . لقد أبى أن يبذل الطاعة على النحو الذي ينبغي على كل مسيحي أن يؤديها ، فلم يعد إلى الله ، بل سار على غير هدى ، فاشترك مع أشخاص مقطوعين من الكنيسة في ارتكاب الشرور ، وسخر من التحذيرات التي أرسلتها إليه من أجل خلاصه . وأنت شاهدي على ذلك . لقد نزع نفسه من كنيستك ، وحاول أن يمزقها ، ولذا فإنني بفضل سلطتك ، أنزلت به اللعنة . وباسمك قيدته بهذه اللعنة ، حتى تعلم الأقوام أنك بطرس ، وأنه على صخرتك ، شيد ابن الله الحي كنيسته ، وأبواب الجحيم لن تقوى عليها .



السكل رقم (٣٤)
مادونا – رسم روفائيل (١٥١٥ – ١٥١٩)

الملحق الرابع

رسالة البابا جريجوري السابع الى الامراء الألمان عن الامبراطور هنري الرابع، وما أعلنه من التوبة والندم في كانوسا (في ٢٨ يناير ١٠٧٧)

- نص الوثيقة :

إلى كل رؤساء الأساقفة ، والأساقفة ، والكونتات وسائر الأمراء بالمملكة الألمانية ، المدافعين عن الدين المسيحي ، يبعث جريجوري ، الأسقف ، وخادم الله ، بالتحية والبركات الرسولية .

نظراً لمشاطرتكم لنا ، ومشاركتنا فيما تعرضنا له من أخطار ، نجمت من النزاع الذي وقع أخيراً ، رأينا من الصواب أنه لابد من إخطاركم بما جرى أخيراً من أحداث ، وكيف أدى الأمر إلى أن نقبل توبة هنري ، ونمنحه التحلل والغفران .

فَوِفْقاً للاتفاق ، الذي تم إبرامه مع ممثليكم ، قدمنا إلى لومبارديا ، وأخذنا نرقب وصول أولئك الذين بعثتم بهم لمرافقتنا إلى بلادكم . وبعد أن انقضى الموعد المقرر ، علمنا أنه كان من المستحيل إرسال قوة للسير في صحبتنا وفتذاك ، نظراً لما اعترض طريقها من عقبات ، فاشتدت معاناتنا لما حصل ، وزادت الريبة فيما ينبغي أن نفعل . وفي تلك الأثناء ، علمنا أن الملك (هنري الرابع) أخذ يقترب من المكان الذي نتزل به ، ذلك أنه قبل أن يدخل إلى إيطاليا ، أرسل إلينا ، وعرض علينا بأنه

يكفّر تماماً عن ذنبه ، إذ وعد بأن يُصلحَ حاله ، وأنه منذ هذه اللحظة ، سوف يطيعنا في كل الأمور ، بشرط أن نمنحه التحلل والبركات •

ترددنا في ذلك بعض الوقت ، واغتنمنا فرصة ما يجري من المفاوضات ، فأمعنا في تقريعه وتأنيبه على ما ارتكب من ذنوب سابقة • ثم قدم هنري نفسه ، آخر الأمر ، إلى كانوسا ، ولم يصحبه إلا حاشية قليلة العدد ، ولم يظهر شيئاً من النوايا العدوانية •

عند وصوله ، مَثَل بنفسه أمام باب القلعة (كانوسا) حافي القدمين ، مرتدياً خرقاً من الصوف ، وأخذ يتضرع ، وقد امتلأت عيناه بالدموع ، وصار يتوسل لأن نمنحه التحلل والعفو • وجرى على هذا المنوال ثلاثة أيام متوالية ، حتى رق لحاله جميع من كان حولنا من الناس ، فتوسطوا له ، بدموعهم وتضرعاتهم •

والواقع أنهم دهشوا لصلابة قلبنا ، بل إن بعضهم جأر فعلاً بالشكوى من أنّ تصرفنا لم يكن ليليق إلا بالاستبداد المطلق ، ولم يكن الغرض منه إلا التشدد في العقوبة • ولم يلبث أن تغلب على إبائنا وإحجامنا ، ما حدث من مضي الملك في إظهار الندم ، وتوسلات كل من كان بصحبتنا ، فرفعنا عنه قرار الحرمان ، وقبلنا عودته إلى أحضان كنيسة روما ، أم الكنائس المقدسة •

غير أنه (هنري الرابع) بادر قبل كل شيء ، إلى أن يحلف اليمين التي أرفقنا نصها بهذه الرسالة ، وتعاهد بضمانه رئيس دير كلوني ، والكونتيسة ماتيلدة ، والكونتيسة اديليد ، وكثير من رجال الكنيسة والأمراء العلمانيين •

وإذا حقق هذا الإجراء مصلحة الكنيسة والامبراطورية ، عزمنا على القيام بزيارتكم في بلادكم ، متى سنحت الفرصة ، إذ أن الأمر ، كما تدركون من الشروط الواردة في القسم ، لا يُعدُّ منتهياً ، إلا بعد مناقشته معكم • ولذا فإني أحثكم على أن تبقوا متمسكين بما حفزكم أول الأمر إلى العمل ، من الولاء وحب العدالة • ولم نلزم أنفسنا بأمر من الأمور ، فيما عدا ما تكفلنا به للملك من أن يركن إلى مساعدتنا في كل ما يسعى إليه لإنقاذه ، وللإبقاء على شرفه •

الملحق الخامس

تمرد البابوات على الامبراطور البيزنطي ليون الثالث (٧٢٦ ـ ٧٢٧) الأيسوري الذي منع تقديس الصور والايقونات

(رسالة البابا جريجوري الثالث إلى الامبراطور ليون الايسوري)

ـ مقدمة :

أضحى للأباطرة منذ زمن قنسطنطين الكبير سلطة ضخمة على الكنيسة . ونظراً لأن الامبراطور البيزنطي ساند العقائد التي يعدّها أسقف روما هرطقة ، أخذت العلاقات بين الامبراطور والبابا تزداد توتراً ، وما اتخذه الامبراطور من طريقة قاسية في معاملة البابوات الذين عارضوه ، أثارت غضب أنصار البابا . ولم يلبث سكان روما ، وسكان وسط إيطاليا أيضاً ، أن عدّوا البابا زعيماً للمقاومة إزاء الامبراطور ، فساندوه عن طيب خاطر حينما تمرد على الحكم (البيزنطي) . وفيما يلي رسالة البابا جريجوري الثالث إلى الامبراطور البيزنطي ليون الثالث :

★ ● ★

تلقينا الرسالة التي أنفذتها مع سفيركم ، روفينوس ، واشتد أسانا لمضيكم في ارتكاب الخطأ ، بأن رفضتم الاعتراف بما للمسيح من حقوق ، وأبيتم قبول

واتنهاج تعاليم الآباء المقدسين ، وأرباب الكرامات ، وعلماء الدين ، وإنني لا أشير فحسب إلى علماء الدين الأجانب ، بل أيضاً إلى أولئك الذين ينتمون إلى بلادك . فمن ذا الذي يُعدُّ أكثر علماً من جريجوري صاحب الكرامات والمعجزات ، أو جريجوري أسقف نيسّا ، أو جريجوري عالم الدين ، أو باسيل القبادوقي ، أو يوحنا خريسوستوم ، فضلاً عن آلاف من غيرهم ، ممن لم نذكرهم من آبائنا المقدسين وعلماء الدين الذين امتلأت نفوسهم أيضاً ، بروح الله ؟ غير أنك اتبعت طريق الهوى ، وسمحت لمتطلبات وضعك السياسي في البلاط بأن تمضي بك على غير هدى ، إنك تقول : « إنني لامبراطور وأسقف » . على أن الأباطرة الذين سبقوك ، أمثال قنسطنطين الكبير ، وفالنتينيان الكبير ، قنسطنطين والد جستنيان (الثاني) الذي شهد المجمع الديني السادس ، أثبتوا فعلاً أنهم أباطرة وأساقفة ، لأنهم اتبعوا الدين الحق ، وشيدوا الكنائس ، وأظهروا من الغيرة على الدين ما أظهره البابوات . إذ التزم هؤلاء الأباطرة العدالة في حكمهم ، فعقدوا من المجامع ما يتفق مع رغبة البابوات ، وحاولوا أن يقيموا العقائد السليمة ، وشيدوا الكنائس وزينوها .

أما أولئك الذين زعموا أنهم أباطرة وأساقفة ، فلا ينبغي أن يظهروا ذلك إلا بما يؤدونه من أعمال . لقد فشلت ، أيها الامبراطور ، منذ بداية حكمك في مراعاة ما أصدره الآباء من قرارات . وكلما صادفت كنائس قد تزينت وزخرفت بالأستار ، عمدت إلى تدميرها . فلأي شيء قامت الكنائس ؟ ألم تشيدها الأيدي من الحجارة والأخشاب والقش والملاط والجير ؟ على أنها تزينت أيضاً بصور ورسوم معجزات القديسين ، وآلام المسيح ، فضلاً عن الأم المقدسة (مريم العذراء) وسائر القديسين والرسل ، وأنفق الناس أموالهم على هذه الصور . يضاف إلى ذلك ما بذله الناس من جهد ، وما جرى إنفاقه من مال ، كان الغرض منه الإفادة في استخدام هذه الصور ، في تلقين الدين والعقيدة لأطفالهم وشبابهم وفتياتهم ، وهم في مقتبل العمر ، فضلاً عن أولئك الذين ينتمون للأمم الوثنية ، وعن طريق هذه الصور تتوجه القلوب والعقول إلى الله . غير أنك أمرت الناس بالامتناع عن استخدام الصور ،

وحاولت أن تفنعهم ، بما ألقيه من مواعظ كاذبة ، وبما لجأت إليه من أمور تافهة ، وبما أثرته من جلبة وضوضاء ، بأن ينصرفوا عن التسبيح بحمد الله ، وأن يتجهوا إلى سماع الحكايات الباطلة . لقد شاركتهم في كل ذلك ، كما شاركت أولئك الذين اختلفوا من الخرافات ما ينم عن جهلهم .

فلصغ إليّ أيها الامبراطور ، فلتتخلّ عن اتجاهك الحاضر ، ولتتقبل الكنيسة المقدسة على نحو ما لقيتها ، إذ أن أمور العقيدة وممارستها إنما يهتم بها البابا لا الامبراطور ، فنحن لنا فكر المسيح[1] . فوضع القوانين للكنيسة يُعدُّ أمراً قائماً بذاته ، كما أن حكم الامبراطور يُعدُّ أمراً مستقلاً أيضاً .

فالفكر العادي الذي يجري استخدامه في معالجة الأمور الدنيوية ليس كافياً لإقرار الأمور الروحية . ولتصغ أيها الامبراطور ، فسوف أريك الفرق بين القصر (البلاط) والكنيسة ، والفرق بين الامبراطور والبابا ، فإذا وعيت ذلك ، رعاك الله ، وكفل لك السلامة .

فإذا انتزع أحد الأفراد ، ما للملكية من زينة ومظهر ، كالرداء الأرجواني ، والتاج والصولجان والخدم والحشم ، تعرضت أيها الامبراطور للكراهية والاحتقار من قبل الناس .. لقد تعرضت الكنائس على يديك ، لهذه الأحوال ، بعد أن جردتها من زينتها ، فتشوه منظرها . وإذ ليس للبابا الحق في أن يتدخل في أمور البلاط ، وأن يجترىء على حقوق الملكية ، فليس للامبراطور أيضاً الحق في أن يتدخل في أمور الكنائس ، بأن يتولى أمر انتخاب رجال الدين ، وأن يباشر القداسات والشعائر ، بل إنه ليس من حقه أن يشارك في القداسات إلا بمساعده القسيس ، فيلتزم كل منا بمهنته التي خصّه الله بها .

أرأيت أيها الامبراطور الفرق بين البابوات والأباطرة . فإذا أساء أحد إليك ،

---

(١) رسالة بطرس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس ٣ ، ١٦ .

عمدت إلى مصادرة داره ، وانتزعت منه كل شيء ، حتى حياته ، بأن تأمر بشنقه واجتزاز رأسه ، أو بنفيه وإبعاده عن أبنائه وأقاربه وأصدقائه .

على أن البابوات لا يفعلون ذلك . فإذا ارتكب شخص ذنباً من الذنوب ، ثم اعترف واستغفر ، فإنهم بدلاً من الالتجاء إلى شنقه وقطع رأسه ، يجعلون حول عنقه الإنجيل والصليب ، ويقودونه إلى حجرة الأواني المقدسة ، فينزلونه بالكنيسة في الموضع المخصص للشمامسة ، ويلزمونه بالصيام والتهجد والتسبيح ، فإذا تطهر بالصيام ، قدموا له القربان (الذي يمثل جسد المسيح ودمه) فيغدو وعاءً نقياً خالصاً من الذنوب ، وبذا يسلمونه إلى الله الخالق طاهراً نقياً .

ألا ترى أيها الامبراطور الفرق بين الكنيسة والامبراطورية . فالأباطرة الذين عاشوا أتقياء ، أطاعوا البابوات ، ولم يلجؤوا إلى إغاظتهم وإثارتهم . أما أنت ، أيها الامبراطور فإنك قد تجاوزت الحدود وضللت السبيل ، على الرغم من أنك كتبت بخط يدك ، واعترفت بأن كل من يقدم على مهاجمة آباء الكنيسة ، تعرض للعنة ، وبذا فقد أدنت نفسك بهذا الحكم ، وأخرجت من ذاتك الروح القدس[1] .

لقد أنزلت بنا الاضطهاد ، وأمعنت في إلحاق الضرر والأذى بنا . أما نحن الذين تجردنا من السلاح ووسائل الدفاع ، ولا نملك من جيوش الأرض ، فإننا نلجأ إلى أمير جيوش الخليقة ، المسيح في سمواته يقود سائر القوى السماوية ، كيما يبعث إليكم بالشيطان ، فالرسول يقول : « إن يسلم مثل هذا الشيطان لهلاك الجسد ، لكي تخلص الروح في يوم الرب يسوع »[2] .

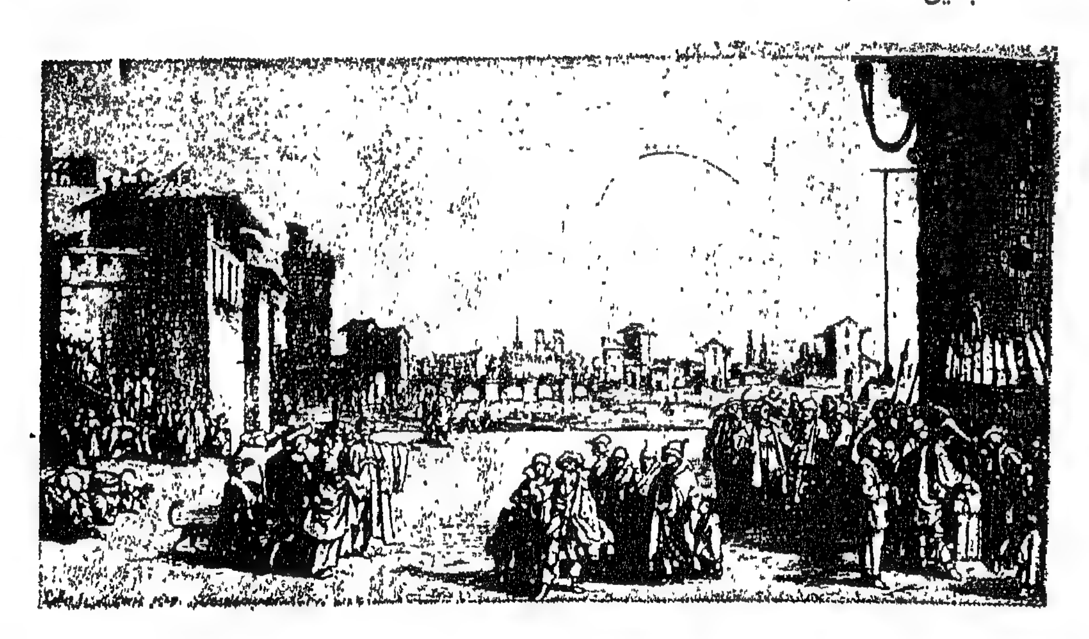
ألا ترى أيها الامبراطور الهاوية التي تنزلق إليها ، لقد قذفت بروحك إلى الهاوية ، لأنك لم تتواضع ، ولم تشأ أن تطأطىء الرأس . فإذا استطاع البابا أن

---

(١) ليس هذا إلا إعلاناً بحرمانه من الكنيسة .

(٢) رسالة بولس الرسول إلى اهل كورينثوس ٥ ، ٥ .

يحمل الامبراطور على المثول أمام الله ، نقياً طاهراً ، من كل ذنب ، فسوف يحظى من الله بالمجد يوم البعث ، يوم تنكشف أسرارنا ، وأعمالنا في حضرة الملائكة . غير أننا سوف نخجل لأنك فقدت روحك بعصيانك ، بينما ظفر البابوات الذين سبقونا عند الله ، لما اشتهر به أباطرة زمنهم من التقوى ، فما أشد ما تتعرض له من الخجل في ذلك اليوم ، لأن إمبراطور زمننا كان جاهلاً فظاً ، لا عظيماً ومبجلاً . ولذا فإننا نحثك على التوبة ، والعودة إلى الحق والصدق ، وأن تذعن للحق كما لقيته . فلتبجل آباءنا وعلماءنا الأمجاد المقدسين ، الذين أزالوا الغشاوة عن أعيننا ، وأعادوا البصيرة إليها ، وليهبك الله من الحكمة والصبر ، ما يحملك على العودة إلى الحق الذي تخليت عنه ، وليرجع الله الناس إلى راعيهم المسيح ، وإلى حظيرة الكنائس المقدسة ورجالها ، وليبسط الله السلام على الأرض لكل الأجيال ، أبد الآبدين . آمين » [٩] .



الشكل رقم (٣٥)

باريس في سنة ١٦٢٩ (رسم الفنان ج. كالو)

جدول (١)

البابوات في رومـا[1]

٣١٤ــ٣٣٥ سلفستر الأول
ــ٣٣٦ مارك
٣٣٧ــ٣٥٢ جوليوس الأول
٣٥٢ــ٣٦٦ لبريوس
٣٥٥ــ٣٥٦ (فيلكس الثاني)
٣٦٦ــ٣٨٤ داماسوس الأول
٣٦٦ــ٣٦٧ (أورسكينوس)
٣٨٤ــ٣٩٩ سيركيوس
٣٩٩ــ٤٠١ أنسطسيوس الأول
٤٠٢ــ٤١٧ أنوسنت الأول
٤١٧ــ٤١٨ زوسيموس
٤١٨ــ٤٢٢ بونيفاس الأول
٤١٨ــ٤١٩ (أبولاليوس)
٤٢٢ــ٤٣٢ كلستين الأول
٤٣٢ــ٤٤٠ سكستوس الثالث
٤٤٠ــ٤٦١ ليو الأول
٤٦١ــ٤٦٨ هيلاري
٤٦٨ــ٤٨٣ سمبلكيوس
٤٨٣ــ٤٩٢ فيلكس الثالث
٤٩٢ــ٤٩٦ جلاسيوس الأول
٤٩٦ــ٤٩٨ أنسطسيوس الثاني
٤٩٨ــ٥١٤ سماخوس
٤٩٨ــ٥٠٥ (لاور نتيوس)
٥١٤ــ٥٢٣ هورميسداس
٥٢٣ــ٥٢٦ حنـا الأول
٥٢٦ــ٥٣٠ فيلكس الرابع
٥٣٠ــ٥٣٢ بونيفاس الثاني
ــ٥٣٠ (ديوسكورس)

---

(١) وضعت أسماء البابوات غير الشرعيين بين اقواس .

٥٣٥ـ٥٣٢ حنـا الثاني
٥٣٦ـ٥٣٥ أجابيتوس الأول
٥٣٨ـ٥٣٦ سلفريوس
٥٥٥ـ٥٣٨ فجليوس
٥٦١ـ٥٥٥ بلاجيوس الأول
٥٧٤ـ٥٦١ حنـا الثالث
٥٧٩ـ٥٧٥ بندكت الأول
٥٩٠ـ٥٧٩ بلاجبوس الثاني
٦٠٤ـ٥٩٠ جريجوري الأول
٦٠٦ـ٦٠٤ سبنيان
ـ٦٠٧ بونيفاس الثالث
٦١٥ـ٦٠٨ بونيفاس الرابع
٦١٨ـ٦١٥ ديوسديت الأول
٦٢٥ـ٦١٩ بونيفاس الخامس
٦٣٨ـ٦٢٥ هونوريوس الأول
ـ٦٤٠ سفرينوس
٦٤٢ـ٦٤٠ حنـا الرابع
٦٤٩ـ٦٤٢ ثيودور الأول
٦٥٥ـ٦٤٩ مارتن الأول
٦٥٧ـ٦٥٥ يوجين الأول
٦٧٢ـ٦٥٧ فيتاليان
٦٧٦ـ٦٧٢ ديوسديت الثاني
٦٧٨ـ٦٧٦ دونس
٦٨١ـ٦٧٨ أجاثون
٦٨٣ـ٦٨٢ ليو الثاني
٦٨٥ـ٦٨٤ بندكت الثاني
٦٨٦ـ٦٨٥ حنـا الخامس
٦٨٧ـ٦٨٦ كونون
٦٨٧ـ٦٨٦ (ثيودور)
٧٠١ـ٦٨٧ سرجيوس الأول
٦٨٨ـ٦٨٧ (باسكال)
٧٠٥ ٧٠١ حنـا السادس
٧٠٧ـ٧٠٥ حنـا السابع
ـ٧٠٨ سيسنيوس
٧١٥ـ٧٠٨ قنسطنطين
٧٣١ـ٧١٥ جريجوري الثاني
٧٤١ـ٧٣١ جريجوري الثالث
٧٥٢ـ٧٤١ زكريـا
ـ٧٥٢ ستفن الثاني
٧٥٧ـ٧٥٢ ستفن الثالث (الثاني)
٧٦٧ـ٧٥٧ بولس الأول
٧٦٨ـ٧٦٧ (قنسطنطين الثاني)
٧٧٢ـ٧٦٨ ستفن الرابع (الثالث)
٧٩٥ـ٧٧٢ هدريان الأول
٨١٦ـ٧٩٥ ليـو الثالث
٨١٧ـ٨١٦ ستفن الخامس (الرابع)
٨٢٤ـ٨١٧ باسكال الأول
٨٢٧ـ٨٢٤ يوجين الثاني
ـ٨٢٧ فالنتين
٨٤٤ـ٨٢٨ جريجوري الرابع
٨٤٧ـ٨٤٤ سرجيوس الثاني
٨٥٥ـ٨٤٧ ليـو الرابع

٨٥٥ــ٨٥٨ بندكت الثالث
٨٥٥ــ (أنسطسيوس)
٨٥٨ــ٨٦٧ نيقولا الأول
٨٦٧ــ٨٧٢ هدريان الثاني
٨٧٢ــ٨٨٢ حنـا الثامن
٨٨٢ــ٨٨٤ مارينوس الأول
٨٨٤ــ٨٨٥ هدريان الثالث
٨٨٥ــ٨٩١ ستفن السادس (الخامس)
٨٩١ــ٨٩٦ فورموزس
٨٩٦ــ بونيفاس السادس
٨٩٦ــ٨٩٧ ستفن السابع (السادس)
٨٩٧ــ رومانوس
٨٩٧ــ ثيودور الثاني
٨٩٨ــ٩٠٠ حنـا التاسع
٩٠٠ــ٩٠٣ بندكت الرابع
٩٠٣ــ ليـو الخامس
٩٠٣ــ (كرستوفر)
٩٠٤ــ٩١١ سرجيوس الثالث
٩١١ــ٩١٣ أنسطسيوس الثالث
٩١٣ــ٩١٤ لانـدو
٩١٤ــ٩٢٨ حنـا العاشر
٩٢٨ــ ليـو السادس
٩٢٩ــ٩٣١ ستفن الثامن (السابع)
٩٣١ــ٩٣٥ حنـا الحادي عشر
٩٣٦ــ٩٣٩ ليـو السابع
٩٣٩ــ٩٤٢ ستفن التاسع (الثامن)

٩٤٢ــ٩٤٦ مارينوس الثاني
٩٤٦ــ٩٥٥ أجابيتوس الثاني
٩٥٥ــ٩٦٤ حنـا الثاني عشر
٩٦٣ــ٩٦٥ ليـو الثامن
٩٦٤ــ٩٦٦ بندكت الخامس
٩٦٥ــ٩٧٢ حنـا الثالث عشر
٩٧٣ــ٩٧٤ بندكت السادس
٩٧٤،٩٨٤ــ٩٨٥ (بونيفاس السابع)
٩٨٢ــ٩٨٤ حنـا الرابع عشر
٩٨٥ــ٩٩٦ حنـا الخامس عشر
٩٧٤ــ٩٨٣ بندكت السابع
٩٩٦ ٩٩٩ جريجوري الخامس
٩٩٧ ٩٩٨ (حنا السادس عشر)
٩٩٩ــ١٠٠٣ سلفستر الثاني
١٠٠٣ــ حنـا السابع عشر
١٠٠٤ــ١٠٠٩ حنا الثامن عشر
١٠٠٩ــ١٠١٢ سرجيوس الرابع
١٠١٢ــ١٠٢٤ بندكت الثامن
١٠١٢ــ (جريجوري)
١٠٢٤ــ١٠٣٢ حنـا التاسع عشر
١٠٣٢ــ١٠٤٤ بندكت التاسع
١٠٤٥ــ سلفستر الثالث
١٠٤٥ــ بندكت التاسع
١٠٤٥ــ١٠٤٦ جريجوري السادس
١٠٤٦ــ١٠٤٧ كلمنت الثاني
١٠٤٧ــ١٠٤٨ بندكت التاسع

١٠٤٨ــ داماسوس الثاني

١٠٤٨ــ١٠٥٤ ليــو التاسع

١٠٥٤ــ١٠٥٧ فكتور الثاني

١٠٥٧ــ١٠٥٨ ستفن العاشر

١٠٥٨ــ١٠٥٩ (بندكت العاشر)

١٠٥٧ــ١٠٦١ نيقولا الثاني

١٠٦١ــ١٠٧٣ اسكندر الثاني

١٠٦١ــ١٠٧٣ (هونوريوس)

١٠٧٣ــ١٠٨٥ جريجوري السابع

١٠٨٠ــ١١٠٠ (كامنت الثالث)

١٠٨٧ــ فكتور الثالث

١٠٨٨ــ١٠٩٩ أربان الثاني

١٠٩٩ــ١١١٨ باسكال الثاني

١١٠٠ــ (ثيودريك)

١١٠٢ــ (ألبرت)

١١٠٥ــ١١١١ (سلفستر الرابع)

١١١٨ــ١١١٩ جلاسيوس الثاني

١١١٨ــ١١١٩ جلاسيوس الثاني

١١١٨ــ١١٢١ (جريجوري الثامن)

١١١٩ــ١١٢٤ كالكستس

١١٢٤ــ١١٣٠ هونوريوس الثاني

١١٢٤ــ (كلستين الثاني)

١١٣٠ــ١١٤٣ أنوسنت الثاني

١١٣٠ــ١١٣٨ (أناكليتوس الثاني)

١١٣٨ــ (فكتور الرابع)

١١٤٣ــ١١٤٤ كلستين الثاني

١١٤٤ــ١١٤٥ لوكيوس الثاني

١١٤٥ــ١١٥٣ يوجين الثالث

١١٥٤ــ١١٥٩ هدريان الرابع

١١٥٩ــ١١٨٤ اسكندر الثالث

١١٥٩ــ١١٦٤ (فكتور الرابع)

١١٦٤ــ١١٦٨ (باسكال الثالث)

١١٦٨ــ١١٧٨ (كالكستس الثالث)

١١٧٩ــ١١٨٠ (أنوسنت الثالث)

١١٨١ــ١١٨٥ لوكيوس الثالث

١١٨٥ــ١١٨٧ أوربان الثالث

١١٨٧ــ جريجوري الثامن

١١٨٧ــ١١٩١ كلمنت الثالث

١١٩١ــ١١٩٨ كلستين الثالث

١١٩٨ــ١٢١٦ أنوسنت الثالث

١٢١٦ــ١٢٢٧ هونوريوس الثالث

١٢٢٧ــ١٢٤٠ جريجوري التاسع

١٢٤١ــ١٢٦٤ كلستين الرابع

١٢٤٣ــ١٢٥٤ أنوسنت الرابع

١٢٥٤ــ١٢٦١ اسكندر الرابع

١٢٦١ــ١٢٦٤ أربان الرابع

١٢٦٥ــ١٢٦٨ كلمنت الرابع

١٢٧١ــ١٢٧٦ جريجوري العاشر

١٢٧٦ــ أنوسنت الخامس

١٢٧٦ــ هدريان الخامس

١٢٧٦ــ١٢٧٧ حنا الواحد والعشرون

١٢٧٧ــ١٢٨٠ نيقولا الثالث

١٢٨١ـــ١٢٨٥ /مارتن الرابع
١٢٨٥ـــ١٢٨٧ هونوريوس الرابع
١٢٨٨ـــ١٢٩٢ نيقولا الرابع
١٢٩٤ـــ كلستين الخامس
١٢٩٤ـــ١٣٠٣ بونيفاس الثامن
١٣٠٣ـــ١٣٠٤ بندكت الحادي عشر
١٣٠٥ـــ١٣١٤ كلمنت الخامس
١٣١٦ـــ١٣٣٤ حنا الثاني والعشرون
١٣٢٨ـــ١٣٣٠ (نيقولا الخامس)
١٣٣٤ـــ١٣٤٢ بندكت الثاني عشر
١٣٤٢ـــ١٣٥٢ كلمنت السادس
١٣٥٢ـــ١٣٦٢ أنوسنت السادس
١٣٦٢ـــ١٣٧٠ أوربان الخامس
١٣٧٠ـــ١٣٧٨ جريجوري الحادي عشر

● الانشقاق الديني الأكبر ●

(١) بابوات روما

١٣٧٨ـــ١٣٨٩ أوربان السادس
١٣٨٩ـــ١٤٠٤ بونيفاس التاسع
١٤٠٦ـــ١٤١٥ جريجوري الثاني عشر

(٢) بابوات افينون

١٣٧٨ـــ١٣٩٤ كلمنت السابع
١٣٩٤ـــ١٤٢٢ بندكت الثالث عشر

(٣) بابوات مجمع بيزا

١٤٠٩ـــ١٤١٠ اسكندر الخامس
١٤١٠ـــ١٤١٥ حنا الثالث والعشرون

● * ●

١٤١٧ـــ١٤٣١ مارتن الخامس
١٤٣١ـــ١٤٤٧ يوجين الرابع
١٤٤٧ـــ١٤٥٥ نيقولا الخامس
١٤٥٥ـــ١٤٥٨ كالكستس الثالث
١٤٥٨ـــ١٤٦٤ بيوس الثاني
١٤٦٤ـــ١٤٧١ بولس الثاني
١٤٧١ـــ١٤٨٤ـــسكستوس الرابع
١٤٨٤ـــ١٤٩٢ أنوسنت الثامن
١٤٩٢ـــ١٥٠٣ اسكندر السادس

الفصل الثالث

الرهبانيـة والديريـة

ـ الجذور الفلسفية للرهبانية :

تعود الجذور الفلسفية لحياة التنسك والرهبانية إلى التعاليم المسيحية الأولى. فالسيد المسيح أوصى تلاميذه : « بألاّ يكون للواحد ثوبان » (إنجيل لوقا ٩،٣). وكان يعقوب بعده لا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يقتني سوى رداء واحد . كذلك حضّ الرسل المسيحيون الأوائل على العفة والبتولية وأجازوا الزواج لمن خشي العنت . ففي رسالة بولس الرسول الأولى إلى أهل كورنثوس (الإصحاح السابع ، ١) جاء ما يلي : « وأما من جهة الأمور التي كتبتم لي عنها ، فحسنٌ للرجل ألاّ يمس امرأة » .

ـ النسّاك الأوائل :

بعد انتشار المسيحية نشأت في الأوساط الشعبية الفقيرة حركة زهد وتقشف كرد فعل سلبي على التناقضات الاجتماعية والفساد واضطهاد المسيحيين من قبل السلطات الرومانية . وهكذا رأت أقلية من المسيحيين أن تعتزل عن العالم المحيط بها وتبحث عن خلاصها عن طريق العفة والصلاة وتعذيب الجسد . وعلى هذا ظهر بعض النسّاك الذين لجأوا إلى المغاور والكهوف أو الصحارى أو قمم الجبال ابتعاداً عن ملذات الحياة الدنيا وبحثاً عن سلامة الروح . وكان هؤلاء النسّاك يسيرون حفاةً أشبه بالعراة ، يفترشون الأرض ويتغذون بالأعشاب ، أو يصومون صياماً طويل الأمد . وأخذ بعض المؤمنين المسيحيين يتوافدون على هؤلاء النسّاك في عزلتهم ليستمعوا إلى نصائحهم ويتلمّسوا البركة منهم .

من المعروف أن التنسك ظاهرة عامة في جميع الديانات القديمة • اما بالنسبة للمسيحية فقد كان المسيحيون المصريون أول من مارس هذا النوع من الحياة الدينية• في البدء كان التنسك ظاهرة فردية • وفيما بعد تجمع عدد من النسّاك المسيحيين في مكان واحد وأسسوا أديرة خاصة يعيشون فيها رهباناً بإشراف رؤساء لهم يشرفون على تنظيم حياتهم داخل الدير •

ـ الناسك انطونيوس :

أول النسّاك الفرادى المشهورين في مصر هو أنطونيوس (٢٥٠ ـ ٣٥٦) ، الذي أخذ ينتقل من عزلة إلى أخرى حتى استقر به المقام على جبل القلزم القريب من شاطىء البحر الأحمر • وعرف مكانه المعجبون به فحذوا حذوه في تعبده ونسكه ، واتخذوا صوامعهم على مقربة منه • ونظّم أنطونيوس كثيراً من مستعمرات النسّاك في مصر العليا ، فخصص لكل راهب خلية يتعبد فيها منفرداً • وهكذا كانت الحياة الدينية المثلى في نظر الناسك أنطونيوس تقوم على أساس التعبد الانفرادي •

ـ الناسك بوخوميوس :

وبما أن التنسك الانفرادي يُعدّ نوعاً من التطرف البعيد عن طبيعة الانسان الاجتماعية وعن تعاليم المسيح ، كان لابدّ للعقلاء الراغبين في الانقطاع للعبادة من ابتكار نظام آخر يتفق مع طبيعة البشر والتعاليم المسيحية • وعلى هذا الأساس شيّد القديس الناسك باخوميوس (٢٩٠ ـ ٣٤٥) أول دير للرهبان بمصر نحو سنة ٣٢٠ م • عاش أتباع باخوميوس من الرهبان مجتمعين تحت سقف واحد وحول مائدة وكنيسة واحدة ، وكان عليهم أن يقرؤوا الكتاب المقدس ويصلّوا ويعملوا عملاً مفيداً لهم وللمجتمع • وفرض باخوميوس (كان في السابق جندياً في جيش الامبراطور قسطنطين الأول) على أعضاء الدير الطاعة والهدوء والنظام والعمل اليومي • وأقبل الناس على هذا النوع من الديرية إقبالاً شديداً ، حتى إن المؤرخ بلاديوس ، الذي زار مصر نحو سنة ٣٩٠ ، قدّر أتباع القديس باخوميوس بثلاثة

آلاف راهب ، فضلاً عن سبعة آلاف كانت تضمهم مؤسسات ديرية أخرى • وأسست مريم أخت باخوميوس ديراً للراهبات يشبه في نظامه الأديرة الباخومية • لكن الأديرة الباخومية كانت منفصلة بعضها عن بعض ولكل منها إدارته الخاصة •

ـ انتقال الرهبانية والديرية إلى سورية وآسيا الصغرى :

ومن مصر انتقلت ظاهرة التنسك والرهبانية والديرية إلى سورية وآسيا الصغرى • ففي سورية اشتهر الناسك سمعان العمودي (٣٩٠ ـ ٤٥٩) الذي عاش على عمود في شمال سورية مدة طويلة من الزمن • وفيما بعد أقيمت حول هذا العمود كنيسة تعرف باسم « كنيسة سمعان العمودي » ، التي لاتزال آثارها باقيه حتى يومنا هذا •

وفي وسط سورية اشتهر القديس مار مارون الذي تنسك منفرداً في قمة جبل وقضى وقته في الصوم والصلاة ووعظ زائريه وإرشادهم • وقد التف حوله عدد كبير من الرجال والنساء وعاشوا منفردين في صوامع قريبة منه يهتدون بإرشاداته • ولما توفي الناسك مار مارون (في سنة ٤١٠) نشأت في سورية أخوية مارونية تعمل بما علّم به هذا الناسك • هذا ولايزال الموارنة (أتباع القديس مار مارون) موجودين في سورية ولبنان حتى يومنا هذا •

أما في آسيا الصغرى فقد أسس القديس باسيليوس (٣٢٩ ـ ٣٧٩) مؤسسة ديرية في مدينة كيسارية الجديدة نحو سنة ٣٦٠ ميلادية •

ـ نظام الأديرة الباسيلية :

أسس القديس باسيليوس ديراً للرهبان في مدينة كيسارية الجديدة بآسيا الصغرى نحو سنة ٣٦٠ ميلادية • كذلك أسست أخته ديراً للراهبات في إقليم البونت الذي يقع في جنوب البحر الأسود • لقد درس باسيليوس نظام الأديرة المصرية الأنطونية والباخومية فلم تعجبه ، لذا عمل على وضع نظام جديد للأديرة

يجمع بين المثالية والواقع العملي ، إذ منع الرهبان من حياة العزلة والانفرادية وجعلهم يشتركون في الحياة العامة والعمل والعبادة . كذلك حرّم تعذيب الجسد وإهماله ، وحثّ على العناية بالنظافة والعمل النافع للمجتمع ، كمساعدة المرضى والفقراء . وأيضاً فرض على الرهبان المشاركة في أعمال الفلاحة والنسيج وصناعة الجلود والأخشاب وغيرها من المصنوعات العائدة لملكية الدير . وحرّم باسيليوس الملكية الخاصة على أعضاء الدير ، لكنه سمح لهم بتناول الطعام الكافي دون إسراف ، واقتناء اللباس البسيط النظيف . ومن هذا يتضح أن القديس باسيليوس يُعدّ المؤسس الحقيقي للحياة الديرية في المسيحية ، حيث أن النظام الديري الذي وضعه صار إنموذجاً للأديرة التي انتشرت فيما بعد في آسيا الصغرى وسورية العربية العظمى وبلاد اليونان وغيرها من المناطق التابعة للامبراطورية البيزنطية .

وقد ادى انتشار الحياة الديرية إلى وجود فئتين من رجال الدين هما :

١ ــ فئة الديريين النظاميين (Regula) وهم الرهبان الخاضعون لنظم ديرية محددة ، ويطلق عليهم ايضاً اسم « الاكليروس النظامي » .

٢ ــ فئة رجال الدين الدنيويين (Saecula) وهم رجال الكنيسة من اساقفة وقساوسة وشمامسة ، وقد سُمّوا الدنيويين لانهم اكثر من الرهبان تدخلاً في الحياة الدنيوية واكثر اختلاطاً بالمجتمع . ويطلق عليهم ايضاً اسم « الاكليروس العصري او العصريين » (١) .

ــ انتقال الديرية إلى اوروبا الغربية :

انتشرت ظاهرة التنسّك والتقشف الانفرادية في أوروبا الغربية مع انتشار المسيحية ، لكنها ظلت مجهولة في بداية الأمر . وفي القرن الرابع عُرِفَ الناسك ولفليك الذي عاش عدة سنين فوق عمود في تيير بغاليا . كذلك حبس القديس الناسك سينوخ نفسه في مكان ضيق بين أربعة جدران سنين كثيرة . وقد اعتكف بعض الرجال في منازلهم وعاشوا حياة تقشف وصوم وصلاة ، بعد أن باعوا أملاكهم

ووزعوا ثمنها على الفقراء • كذلك عاشت بعض النساء عذارى متقشفات منقطعات للعفة والصلاة • ومن أمثال هؤلاء الرجال وتلك النساء ، الشاعر الايطالي بولينوس (٣٥٣ ــ ٤٣١) وزوجته ثرازيا •

وفي القرن الرابع انتقلت ظاهرة الرهبنة الاجتماعية وتأسيس الأديرة لهذا الغرض من مصر وآسيا الصغرى إلى أوروبا الغربية • ففي سنة ٣٣٩ رحل القديس أثناسيوس أسقف الاسكندرية إلى روما (بسبب خلافه مع أريوس الذي أنكر ألوهية المسيح) ونقل إليها كتابه المسمّى « حياة أنطونيوس » الناسك المصري المشهور • ومن إيطاليا انتقلت نسخ من هذا الكتاب إلى غاليا وإسبانيا وإيرلندة وغيرها من بلدان أوروبا الغربية • كذلك زار الكثيرون من الحجاج الأوروبيين الأديرة الباخومية في مصر والأديرة الباسيلية في آسيا الصغرى ونقلوا معهم فكرة الأديرة إلى الغرب الأوروبي • وفي سنة ٤٠٤ ترجم القديس جيروم نظام الديريه الباخومية إلى اللغة اللاتينية ، فوضع بذلك أمام الأوروبيين الغربيين صورة منظمة لهذا النوع من الحياة الدينة التي عرفتها مصر •

ـ **الحركة الديرية في غاليـا :**

أولى الأديرة التي أنشئت في أوروبا هي أديرة غاليا • وأول دير أنشىء في غاليا هو دير مار موتيه بالقرب من مدينة تور • وقد أنشأ ذلك الدير القديس مارتن التوري أسقف مدينة تور (في سنة ٣٧٢) وجمع فيه ثمانين راهباً • وكان مارتن قد خدم خمس سنوات في الجيش الروماني ، ثم استقال وعاش ناسكاً في صومعته • وفي سنة ٣٧١ طلب إليه أهل مدينة تور أن يكون أسقفاً عليهم ، فوافق على طلبهم على أن يدعوه يعيش عيشة الرهبان • وقضى مارتن بقية حياته مناضلاً في تنصير الوثنيين ، فأحبته غاليا كلها واكتسب شهرة واسعة • ففي فرنسا الآن ٣٦٧٥ كنيسة و ٤٢٥ قرية تسمى كلها باسم القديس مارتن ، كما يَعدّه الفرنسيون من القديسين الشفعاء •

وبعد مارتن أنشأ القديس يوحنا كاسيان (٣٦٠ ــ ٤٣٦) في مرسيليا (نحو

سنة ٤١٥) ديراً للرهبان وديراً للراهبات . وكان القديس يوحنا كاسيان قد زار الشرق واطّلع على نظام الأديرة الباخوميّة والباسيلية .

كذلك أنشأ القديس قيصر الآرلي (أسقف مدينة آرل ٥٠٣ ــ ٥٤٣) ديراً للرهبان ووضع له نظاماً خاصاً . وأيضاً أنشأت أخته قيصرية ديراً للراهبات في آرل بمساعدة أخيها . وقد نصّ نظام هذا الدير على أن تشغل الراهبات وقتهن بغزل الصوف وطهي الطعام ونسخ الكتب الدينية .

وهكذا أخذت الأديرة تنتشرُ في غاليا على نطاق واسع ، وبخاصة بعد أن أسهم في إنشائها ملوكُ الفرنجة الميروفنجيين والأساقفة والأمراء الأغنياء .

ـ الحركة الديرية في إيطاليا :

ظلت غاليا حتى القرن السادس الميلادي البلد الوحيد في أوروبا الغربية الذي وجدت فيه مؤسسات ديرية منظمة . وفي القرن السادس نشأت في إيطاليا لأول مرة مؤسسات ديرية أسهم في إنشائها وتطويرها ثلاثة رجال من الايطاليين هم : بندكت ، كاسيدور ، غريغوري .

ـ بندكت النورسيّ (٤٨٠ ــ ٥٤٣) :

ولد بندكت في قرية نورسيا بإيطاليا في أسرة غنية ، ثم أرسل إلى روما ليتلقى تعليمهُ ، لكنه استاء من مظاهر الفساد فيها ، فانعزل عن المجتمع وعاش ناسكاً في كهف جبلي بالقرب من روما . وذاعت شهرة هذا الناسك الزاهد ، فتجمّع حوله عدد من المريدين والمتنسكين . وبعدئذٍ قرر تأسيس دير لهؤلاء الزهاد وتنظيم حيانهم الدينية . وتمّ اختيار موقع الدير على قمة جبل كاسينو الواقع في منتصف الطريق بين روما ونابلي . وأنشىء دير مونت كاسينو (أي جبل كاسينو) للرهبان على أنقاض معبد للإله الروماني أبولو في سنة ٥٢٠ ، فكان أول دير في إيطاليا ، ثم صار بنظامه أنموذجاً لأديرة كثيرة انتشرت في مختلف مناطق أوروبا الغربية .

وتدريجاً عمت الطريقة (النظام أو القاعدة) البندكتية أرجاء الغرب الأوروبي ، وأسهمت بسهم كبير في مضمار التقدم الإنساني .

ـ نظـام الديرية البندكتية :

صار الناسك القديس بندكت أباً (معدماً) لدير مونت كاسينو ، فوضع نظاماً لهذا الدير يتكون من ثلاثة وسبعين فصلاً ، وحاول فيه التوفيق بين العبادة والعمل وتطبيق الفضائل المسيحية . وأهم قواعد القديس بندكت الديرية هي :

١ ـ وجوب تخلّي الراهب عن أملاكه الخاصة لصالح الفقراء أو الدير .

٢ ـ إطاعة الراهب لرئيس الدير والخضوع لأوامره وتوجيهاته .

٣ ـ التبتل والطهارة (عدم الزواج وعدم الممارسة الجنسيّة) .

٤ ـ التضامن والتعاون في العمل .

٥ ـ المساواة بين جميع الرهبان في المأكل والمشرب والملبس ، مع الاعتدال والبساطة بهذه الأمور .

٦ ـ يتم انتخاب رئيس الدير من قبل الرهبان ويبقى رئيساً مدى حياته .

٧ ـ رئيس الدير هو المسؤول الأول أمام الله عن الدير والرهبان وتطبيق قواعد نظام الدير .

٨ ـ على رئيس الدير أن يستشير الرهبان في كل ما يتعلق بشؤون الدير قبل أن يتخذ القرار ، وعليه أن يأخذ بآرائهم إن وجد فيها الصلاح والخير .

٩ ـ اشتراك الرهبان في الصلاة والتراتيل وقراءة الكتب المقدسة .

١٠ـ العمل ركن أساسي من أركان النظام البندكتي . لقد قال بندكت : « العمل عبادة » Laborare est Orare كما خصص لرهبان الدير ست ساعات عمل يقضونها في فلاحة أراضي الدير واستثمارها . أما كبار السن فكانوا يكلفون بأعمال تتفق ومقدرتهم ، كصنع المصنوعات الخفيفة ، أو إعداد الطعام ، أو نسخ

الكتب الدينية ، أو تعليم الرهبـان الجدد أو الأطفال الذين يبعث بهم آباؤهم ليتعلموا في مدرسة الدير •

١١ ــ يوم الأحد عطلة أسبوعية عن العمل اليدوي ، لكن على الرهبان أن يمضوا هذا اليوم بالصلوات وقراءة الكتب الدينية •

١٢ ــ على الراهب أن يقيم في الدير بشكل دائم ، ولا تحق له مغادرته لوقت محدد إلاّ في ظروف اضطرارية وبعد موافقة رئيس الدير •

١٣ ــ قسمت واجبات الرهبان اليومية على الشكل التالي : أربع ساعات للصلاة العامة في الكنيسة ، أربع ساعات للصلاة الفردية والقراءة في الكتب المقدسة، ست ساعات للعمل اليدوي ، عشر ساعات للنوم والأكل •

ــ كاسـيدور :

الرجل الثاني الذي ترك أثراً واضحاً في تطوير الحركة الديرية في إيطاليا والغرب الأوروبي هو كاسيدور ، الذي اعتزل خدمة الملكية القوطية في إيطاليا وآثر الانقطاع للحياة الرهبانية • وقد أسس كاسيدور ديرين في موطنه الأول كالابريا (نحو سنة ٥٤٠) • والشيء الجديد الذي أدخله كاسيدور على نظام الديرية البندكتية هو تحويل الدير إلى مدرسة للعلم والمعرفة ، لا معرفة اللاهوت والعلوم الدينية فحسب ، بل العلوم الدنيوية أيضاً • ونستدل على هذا الأمر من قوله :

((تتدرب عقولنا على فهم الإنجيل والكتابات الدينية عن طريق دراسة الأدب الدنيوي)) •

لقد بذل كاسيدور جهوداً كبيرة في سبيل تزويد أديرته بمكتبات غنية تحتوي على مجموعة كبيرة من المخطوطات التي تناسب كل طبقة من طبقات المتعلمين ، ومنها كتب الأدب والبلاغة والجغرافية والتاريخ والموسيقى والعلوم المتنوعة • وبذا يرجع الفضل إلى كاسيدور في زيادة القيمة العلمية للأديرة ، التي أصبحت فيما بعد تمثل المراكز الأساسية للحياة العلمية في أوروبا الغربية •

ـ البابا غريغوري الأول :

انحدر غريغوري من أسرة رومانية غنية ، ودرس في شبابه قواعد البلاغة اللاتينية وغيرها من العلوم الكلاسيكية ، ثم صار راهباً بندكتياً ، فبذل ثروته الموروثة الطائلة في تأسيس عدد كبير من الأديرة ، منها ستة في صقلية وواحد في روما • وفيما بعد اعتلى السدة الرسولية (العرش البابوي) ما بين سنتي ٥٩٠ ــ ٦١٠ م • وأبرز ما يرتبط ببابوية غريغوري الأول الجهود الكبيرة التي بذلها لدعم الحركة الديرية البندكتية في إيطاليا خاصة ، والغرب الأوروبي عامة ، وأيضاً تلك الجهود التي بذلها للتبشير بالمسيحية في إنكلترا بين الآنغلو ساكسونيين ، مستخدماً الرهبان البندكتيين في هذه المهمة • وأهم تلك الإرساليات بعثة القديس أوغسطين ــ مقدم الدير الذي أنشأه غريغوري في روما ــ ، إذ أوفده البابا إلى إنكلترا في سنه ٥٩٦ على رأس بعثة مكونة من تسعة وثلاثين راهباً بندكتياً ، ثم أمده بمجموعة أخرى من الرهبان في سنة ٦٠١ • وقد نجحت بعثة القديس أوغسطين نجاحاً كبيراً في تحقيق هدفها ، حيث تمكنت من نشر المسيحية في إنكلترا وأسست ديراً في كانتربوري أضحى مركزاً للنشاط التبشيري • ولم يلبث أثلبرت ملك كنت أن اعتنق المسيحية وتبعه كثيرون من رعاياه • وقد أنعم هذا الملك على الكنيسة الجديدة والأديرة بكثير من المنح والأراضي [٢] •

ـ الحركة الديرية الأيرلندية :

لم تخضع أيرلندة للحكم الروماني ، وإنما ظل سكانها الكلتيون مستقلين عن روما ، كما ظلوا يواصلون غاراتهم على بريطانيا حتى القرن الخامس •

وكانت المسيحية معروفة في أيرلندة في القرن الخامس ، بدليل أن البابا كالستين الأول أرسل في سنة ٤٣١ مبعوثاً إلى أيرلندة اسمه كلاديوس ليكون أول أسقف لها • لكن القديس باتريك (ت ٤٦١) يعد صاحب الفضل الحقيقي في تحويل أيرلندة إلى المسيحية ، والقديس باتريك كان شاباً بريطانياً اسمه سوكات أسره الأيرلنديون في إحدى غاراتهم على بريطانيا في سنة ٤٠٠ ، وبعد ست سنوات

من الأسر فرّ إلى غاليا وتعلم فيها ، ثم عاد إلى أيرلندة لينشر المسيحية فيها . وفي أواخر القرن السادس قامَ المبشّرون المسيحيون الأيرلنديون بغزو القارة الأوروبية، وأعظمهم كان القديس كولمبانوس (٥٤٣ ـ ٦١٥) الذي نزح مع أربعين من أعوانه إلى بريطانية ، ومنها إلى غاليا ، حيث أسّس ديراً شهيراً في برجنديا في سنة ٥٩٠ عند مدينة أناغري ، وديراً آخر عند مدينة لوكسوي ، ثم دير فوتتين . ولم يراعِ القديس كولمبانوس القاعدة المعمول بها في غاليا وهي حصول مقدّم الدير على موافقة الأسقف الذي يقع الدير داخل دائرة أسقفيته قبل إنشاء الدير ، وهذا الأمر أدى إلى الاصطدام بين كولمبانوس وأساقفة غاليا وسلطاتها المدنيّة ، مما اضطره أن ينزح إلى سويسرا ، حيث أسس فيها عدة أديرة حول بحيرة زيورخ وبحيرة كوستانس ، ولم يلبث كولمبانوس أن اضطر للرحيل إلى إيطاليا مع أعوانه ، فأحسن ملك اللومبارديين استقباله وسمح له بتأسيس دير بوبيو في شمال جنوا .

كذلك انتشرت الأديرة الايرلندية في ألمانيا ، حيث أنشأ المبشرون الايرلنديون فيها عدة أديرة أشهرها ورزبورغ ورجنسبورغ وسانت غال. لكن الأديرة الايرلندية التي وضع أسس نظامها القديس كولمبانوس لم يقدر البقاء لها طويلاً ، ولم تستطع الثبات أمام الأديرة ذات النظام البندكتي ، وأهم أسباب ذلك :

١ ـ تمسك الايرلنديون بمبدأ استقلال الأديرة عن نفوذ الأساقفة والبابوات ، مما أدى لمعارضة الأساقفة والبابوات لتلك الاديرة .

٢ ـ كانت الأديرة البندكتية ، ذات صبغة عملية اوضح ، كما انها تحالفت مع البابوية والأساقفة فنالت عطف الطرفين ودعمهما .

٣ ـ لم يقرر نظام الأديرة الايرلندية وسيلة للربط بين الأديرة بوساطة سلطة مركزية ، بل ظلت إدارة تلك الأديرة مستقلة بعضها عن بعض ، وهذا مما ساعد على سهولة تفككها (٣) .

ـ المبشرون الانكليز في غاليا والمانيا :

في أواخر القرن السابع أخذت بعض البعثات التبشيرية الانكليزية تمارس نشاطها الديني في غاليا وألمانيا ، وفي القرن الثامن اشتهر القديس والمبشر الانكليزي بونيفيس ، الذي رحل إلى روما في سنة ٧١٨ ، حيث زودته البابوية بالسلطة اللازمة للقيام بجهوده التبشيرية في ألمانيا ، وقد استمر بونيفيس يباشر مهمته خمس سنوات في هس" حتى عيّنه البابا رئيساً لأساقفة مينز ـ الكرسي الأسقفي الرئيس في ألمانيا ، وبذل بونيفيس جهوداً كبيرة في تأسيس كثير من الأسقفيات والأديرة على الطريقة البندكتية في ألمانيا ، كذلك تبعت بعض النساء الانكليزيات بونيفيس الانكليزي إلى ألمانيا وأسهمن في تأسيس كثير من الأديرة البندكتية الخاصة بالنساء في ألمانيا .

وكان للقديس بونيفيس دور اساسي في دعوة مجمع لفتناس (في سنة ٧٤٣) ومجمع سواسون (في سنة ٧٤٤) وفي القرارات التي اصدرها هذا المجمعان . ويرجع الفضل إلى بونيفيس في التوفيق بين الكنيسة الفرنجية وشارل مارتل ، كما أنه تولّى المفاوضات بين ببيان القصير والبابوية التي انتهت بعزل آخر الملوك الميروفنجيين واعتلاء ببيان عرش دولة الفرنجة ، وما ترتب على ذلك من تحالف بين البابوية والمملكة الكارولنجية . وبعد القيام بهذا النشاط الديني والسياسي ، رحل إلى فريزيا ليبشّر سكانها بالمسيحية ، لكن الفريزيين الوثنيين ، أحاطوا به وقتلوه في سنة ٧٥٥ ، فصار شهيد الجهاد الديني (٤) .

ـ حركة الإصلاح الكلونية :

في أواخر القرن التاسع دب" التدهور والانحطاط في الأديرة البندكتية ، حيث تسلط العلمانيون من أمراء وحكام وملوك على تلك الأديرة ، كما تسلّطوا أيضاً على الكنائس العصرية ، فأخذ هؤلاء العلمانيون يعينون رؤساء الأديرة والكنائس العصرية ، ممن يخدم مصالحهم السياسية والاقتصادية . كذلك أخذ الأمراء الاقطاعيون يتصر"فون في أملاك الكنائس والأديرة التي تقع داخل دائرتهم الاقطاعية كما لو أنها من ممتلكاتهم الشخصية . وترتّب على ذلك وصول أشخاص إلى

المناصب الدينية العالية لا يهتمّون بالقيم الأخلاقية ، وإنما يهتمّون بمصالحهم الشخصية ومصالح الأمراء الذين أوصلوهم إلى تلك المناصب •

أمام تلك الأوضاع الخطيرة التي تردّت فيها الكنائس والأديرة استيقظت ضمائر بعض المؤمنين الصالحين ، فدعوا إلى الإصلاح الديني • وسرعان ما بدأ الإصلاح في الأكليروس النظامي ، أي في الأديرة التي عانت من التدهور والانحلال • وأقوى دعوة للاصلاح ظهرت في جنوب غرب فرنسا ، حيث أسس وليم التّقي دوق أكوتين (اقطانيا) ديراً جديداً في كلوني في سنة ٩١٠ • وكان أول مقدّم في ذلك الدير هو الأب برنون (٩١٠ ــ ٩٢٢) ، وخلفه القديس أودون (٩٢٦ ــ ٩٤٢) •

قامت القاعدة الديرية الكلونية على الأسس التالية :

١ ــ تحرر الدير من كل سلطة علمانية •

٢ ــ تحرر الدير من سلطة الأسقف الروحية •

٣ ــ ارتباط رئاسة دير كلوني بالبـابا مباشرة •

٤ ــ خضوع جميع الأديرة الكلونية إلى نظام مركزي يراسه اب يكون مركزه في كلوني وله مطلق السلطة على تلك الأديرة • وبهذا أصبح مقدم دير كلوني ابا لجميع الأديرة الفرعية الملحقة به ، وبإمكانه ان ينعب لتمثيله فيها رئيساً معيّناً من قبله ، كما انه لا يخضع إلاّ لسلطة البـابا •

ولم تكن قاعدة الأديرة الكلونية إلا بعثاً للتقاليد التي سارت عليها في البدء الأديرة البندكتية والتي من أهمها :

١ ــ عزلة الرهبان في الدير بعيدين عن حياة العصر •

٢ ــ تخلّي الرهبان عن أملاكهم الشخصية •

٣ ــ الخضوع لطاعة رئيس الدير •

٤ ــ عزوبة الرهبان وعفتهم •

٥ ـ قضاء ساعات اليوم في الصلاة والعمل .

٦ ـ الإسهام في أعمال البرّ والإحسان وتوزيع الصدقات .

وسرعان ما اشتهر دير كلوني فانتشر هذا النظام الديري انتشاراً واسعاً ، حتى إن كثيراً من الأديرة البندكتية المعروفة في فرنسا وألمانيا تقبّلت النظام الكلوني ودخلت تحت رئاسته . وبعد أن كانت الحركة الكلونية تستهدف في أول أمرها إصلاح الحياة الديرية وحدها ، إذ بها في القرن الحادي عشر تسعى نحو إصلاح الكنيسة العصرية ، التي كانت تعاني من ثلاثة أمراض خطيرة هي : السيمونية (شراء الوظائف الدينية بالمال) ، زواج رجال الدين ، التقليد العلماني (وهو أن يقوم الحكّام العلمانيون ــ من أباطرة وملوك وأمراء ــ بتقليد رجال الدين مهمات مناصبهم الدينية) .

واستطاع نظام الديرية الكلونية تحت سلطة البابا العليا وحدها أن يحقق وحدة الكنيسة النظامية (الديرية) . ومما لاشك فيه أنّ روح الاصلاح الكلونية تسربت إلى الكنيسة العصرية ، حيث أمدت مدارس الأديرة الكلونية الدوائر الكنسية والبابوية بعددٍ كبير من المصلحين، الذين أخذوا يعملون على بثّ الأفكار الاصلاحية وتخليص الكنيسة العصرية من الأمراض التي تفتك في أوصالها . وهكذا لم يأتِ القرن الحادي عشــر حتى انتقلت الحركة الاصلاحية من الأديرة الكلونيــة إلى الأكليروس العصري . وشكّل المصلحون داخل الأجهزة الكنسية تياراً قوياً ومؤثراً، فتمكنوا من وضع حدٍّ لتدخل العلمانيين في مسألة اختيار البابا والأساقفة .

عندما ازدادت ثروة الأديرة الكلونية أخذت عوامل الانحلال والفساد تتسرب إلى الحياة الديرية ، إذ أخذ الرهبان الكلونيون يحيون حياةً مترفة ، فيسرفون في تناول الفاخر من الطعام والشراب ، وارتداء الثمين من الملابس ، كما جنحوا إلى حياة البطالة والكسل . وترتبَ على المركزية الصارمة في الأديرة الكلونية بعض المساوىء أحياناً . فإذا ما انحرف مقدّم دير كلوني عن الطريق السويّ انحرفت معه جميع الأديرة الكلونية الخاضعة له ، وهذا ما حدث فعلاً في أوائل القرن الثاني

عشر ، إذ انحل دير كلوني نفسه ، وتبع ذلك انحلال الأديرة الأخرى التابعة له ، وترتبت على تردي أوضاع الأديرة الكلونية ردود فعل من قبل بعض الساخطين الراغبين في الإصلاح ، فأنشؤوا أديرة جديدة ووضعوا لها أنظمة امتازت بالتطرّف في حياة الزهد والتقشف والعبادة الانفرادية . ومن تلك الأنظمة الديرية الجديدة نذكر نظام الكامال دولي Camaldoli الذي اعترفت به البابوية في سنة ١٠٧٢ ، ونظام الكارثوثيان في سنة ١٠٨٤ (٥) .

ـ نظام السسترشيان الديري Cistercian :

ظلّ نظام الديرية الكلونية سائداً في أوروبا الغربية حتى أوائل القرن الثاني عشر ، وبعد ذلك بدأ الدور الثالث في تاريخ تطور الحركة الديرية . ففي الدور الثالث نشأت أديرة جديدة ذات نظام عُرف باسم « السسترشيان » . وقد اتخذ هذا النظام طريقاً وسطاً بين الاستقلال المحلي الذي اتبعته الأديرة البندكتية من جهة ، والمركزية المغلقة التي مارستها الأديرة الكلونية من جهة ثانية . لقد خوّل نظامُ السسترشيان رئيسَ الدير سلطةً محدودة اختلفت عمّا تمتع به مقدم الدير البندكتي من سلطة مطلقة ، كما اختلفت عمّا تعرض له مقدم الدير الكلونيّ من تبعيّة تامة لرئيس المنظمة الديرية الأعلى الذي يقيم في الدير المركزي .

وأول دير طبّق نظام السسترشيان هو دير سيتو (Citeaux) في مقاطعة برجنديا بفرنسا ، الذي أسسه في سنة ١٠٩٨ جماعة من الرهبان البندكتيين ، الذين رغبوا في حياةٍ أكثر خشونة وصلابة من الحياة الديرية السائدة عندئذٍ . وقد أصبح مقدّم دير سيتو هو الرئيس الأعلى لأديرة المنظمة الديرية الجديدة ـ السسترشيان ـ وله سلطة زيارة الأديرة التي تفرّعت عن ديره لمراقبتها والتفتيش عليها . ومن جهة أخرى كان لرؤساء تلك الأديرة الحقّ في زيارة الدير الأم ـ سيتو ـ وتفقّد أحواله . وفي كل سنة كان يعقد مجمع عام في دير سيتو يحضره جميع رؤساء أديرة هذه المنظمة . وكان لهذا المجمع سلطة فعّالة في المسائل التي تهمّ هيئة السسترشيان .

تختلف قاعدة دير سيتو كثيراً عن قاعدة دير كلوني ، ويمكن اختصارها بكلمتين: « فقر وإماتة » .

وتقرر أن تبنى الأديرة في خارج المدن ، ويفضّل أن تكون في وسط الغابات التي يجب قطعها وإحياؤها للزراعة . ويتألف طعام الرهبان فيها من الخضار والماء فقط ، واللباس من بزّة فضفاضة يعلوها معطف . وينام الرهبان بلباسهم في مهجع مشترك على فراش ووسادة من القش . ويرى القديس برنار مقدّم دير كليرفو (الذي يجسد ابتداءً من سنة ١١١٤ حتى ١١٥٣ حركة سيتو الديرية) : أن لا يكون للراهب هدف إلا الغوص في تأمّل الذات الإلهية ، وأن إماتة الجسد تستطيع أن تفجّر رؤى الروح .

حثّ نظام السسترشيان على العمل اليدوي الذي وضع موضع الشرف . وروعي في الأديرة السسترشيانية أن تكون متباعدة في مناطق نائية ، وألا تمتلك حقولاً آهلة بالأقنان ، حتى ينصرف الرهبان الديريون لفلاحة الأرض بأنفسهم . وهكذا أدى الرهبان السسترشيان خدمةً كبيرة للحياة الاقتصادية باستصلاح الغابات والأراضي البور وفلاحتها ، فضلاً عن تربية الحيوانات المتنوعة .

ومع الزمن أصبحت الأديرة السسترشيانية تمتلك أعظم مزارع الكروم ، وأكبر قطعان الغنم والماعز والأبقار والخيول ، وغيرها من الحيوانات . ولكن هذا النشاط الاقتصادي وما تبعه من ازدياد ثروة تلك الأديرة أدى إلى تغلّب المصالح المادية على الديريين السسترشيان ، فانساقوا في الطريق نفسه الذي انزلقت إليه المنظمات الديرية السابقة : البندكتية والكلونية وغيرهما . فلقد أخذت تتسرب إلى هذه الأديرة عوامل الفساد ومظاهر الترف والجنوح إلى البطالة والكسل ، ممّا أدى إلى انحلال هذه الأديرة وظهور أنظمة ديرية جديدة في أواخر العصور الوسطى، ومنها منظمة الرهبان الفقراء أو الرهبان الإخوان (٦) .

ـ الحياة الديرية في أواخر العصور الوسطى :

أدت كثرة الأراضي التي امتلكتها الأديرة إلى ازدياد ثروتها في القرن الثاني

عشر ، وهذا أفضى إلى تطور المركز الاجتماعي لرهبان الأديرة وآبائهم • ففي ذلك القرن جرت العادة في الأديرة الكبرى أن تقسّم ثروة الدير بين مقدّم الدير ورهبانه• وقد ترتب على ذلك تحول الرهبان إلى ارستقراطية ممتازة من السادة الملاك • كذلك غدا رؤساء الأديرة أسياداً إقطاعيين كباراً ، مما دفع الملوك والأمراء أن يهتموا بأمر تعيينهم في مناصبهم ، ليستخدموهم في دعم سياساتهم • وهكذا تحول رؤساء الأديرة إلى شخصيات سياسية ، وابتعدوا عن المثل والمبادىء الديرية ، مما أدى إلى فساد الحياة الديرية في أواخر العصور الوسطى • وقد استاء من هذا الوضع كثير من المسيحيين المخلصين لمبادىء المسيحية وبساطتها الأولى ، فتمخض عن ذلك الاستياء ظهور حركات دينية « هرطقيّة » من جهة ، وظهور منظمات ديرية جديدة مثل منظمة الإخوان الرهبان (الفرير) Frairs أو الرهبان الفقراء (Mendicant Orders) من جهة أخرى •

– المذاهب الهرطقيّة :

أهمّ المذاهب الهرطقيّة التي ظهرت في القرن الثاني عشر هي :

١ – مذهب الالبيجنسيين (الكارناريين) •

٢ – مذهب الوالدنسيين •

وقد أخذ أنصار هذين المذهبين بمهاجمة رجال الكنيسة والأديرة المترفين وثرائهم الفاحش وبعدهم عن مبادىء المسيحية وبساطتها ، ثم تطور هذا الهجوم إلى انتحال آراء جديدة في المسيحية لا تخلو من تطرّف وخطورة على رجال الكنيسة والأديرة • لكن البابوية شنت على هذين المذهبين حرباً شعواء انتهت بإخماد حركتهما في أواخر القرن الثاني عشر في جنوب فرنسا • غير أن البابوية لم تستطع استئصال شأفتهما ، بل ظهر أتباع لهما في أوروبا الغربية في القرن الرابع عشر•

كذلك ظهر في القرن الرابع عشر مذهب هرطقي جديد يدعى مذهب «السياطين» Flagellants (اشتقاقا من السوط أي الكرباج الذي يستعمل للجلد) •

وقد نشأ ذلك المذهب بنتيجة الذعر الذي أصاب الناس في أوروبا الغربية عندما انتشر الوباء الأسود « الطاعون » ، فاعتقد بعضهم أن هذا الوباء مظهر لغضب الله على عباده الآثمين ، وأنه لا سبيل إلى النجاة إلا بتعذيب الجسد وضربه بالسياط . وأخذ هؤلاء يضربون أجسادهم بسياط رُبطت أطرافها بقطع من الحديد، معتقدين أن من يواظب على هذه العملية ثلاثة وثلاثين يوماً يضمن تطهير نفسه من جميع الآثام . وفي سنة ١٣٤٩ أصدرت البابوية قراراً بالقضاء على هؤلاء السيّاطين ، لكن بقية منهم استمرّ وجودها حتى القرن الخامس عشر[٧] .

ـ الفرانسيسكان والدومينيكان :

عندما فسدت الحياة الديرية والكنسية في القرن الثاني عشر ، وجد الراغبون في الإصلاح الديني منفذاً لهم في إنشاء منظمات ديرية جديدة تدعو إلى حياة البساطة ، وحماية الكنيسة من الآراء الهرطقية الخطيرة ، ودعم البابوية عن طريق إمدادها بأتباع مخلصين متفانين في خدمة الدين المسيحي . وتمخّض عن ذلك تشكّل هيئة الرهبان الإخوان (الفرير) التي ظهرت منها عدّة منظمات ديرية في القرن الثالث عشر ، أهمّها منظمة الإخوان الفرنسيسكان ، ومنظمة الإخوان الدومينيكان .

أسّس منظمة الفرانسيسكان القديس فرانسيس الذي حاول وأتباعه أن يقتدوا بالمسيح ببساطته ، فنبذوا متاع الدنيا ، وأخذوا يتنقلون من مكان إلى آخر ، مبشرين بتعاليم الإنجيل ، معتمدين على ما يجود به عليهم الخيّرون من فتات العيش . وحقّقت تلك المنظمة نجاحاً كبيراً باكتساب أنصار كثيرين إلى جانبها، ممّا جعل البابوية تعترف بها في سنة ١٢٢٣ .

وفي الوقت نفسه تشكّلت منظمة ديرية أخرى في جنوب فرنسا هي منظمة الدومينيكان ، التي أسسها القديس دومينيك إسبانيّ الأصل . وقد حاول القديس دومينيك أن يقنع الهراطقة في شمال إسبانيا وجنوب فرنسا بالعودة إلى داخل حظيرة

الكنيسة البابوية ، وذلك بالوعظ والتبشير ، واتّباع أسلوب التقشّف . وقد اعترف البابا هونوريوس الثالث بهذه المنظمة في سنة ١٢١٦ .

لم تلبث هيئة الرهبان الإخوان ، وبخاصة الفرانسيسكان والدمينيكان ، أن ازداد نفوذها وكثرت مؤسساتها الديرية ، فتخلت عن مبادئها الأولى في الفقر والتقشف . لكن تلك المنظمات أسهمت بقسط كبير في النشاط الثقافي المرتبط بنشأة الجامعات الأوروبية ، كما قامت بدور كبير في النشاط التبشيري بين المغول في قارة آسيا ، حتى أطلق على القرنين الثالث عشر والرابع عشر « عصر الرهبان الإخوان » (الفرير) (٨) .



الشكل رقم (٣٦)
حنّا ويكلف (صورة من القرن السادس عشر)

ـ حركة الإصلاح الديني في القرنين الرابع عشر والخامس عشر :

ـ حنّا ويكلف :

أهـم رجلين في أواخـر العصور الوسطى مهـدا لحركة الإصلاح الديني البروتستانتية التي تزعمها مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) فيما بعد هما : حنّا

ويكلف ، وحنا هس • تلقى حنا ويكلف الانكليزي (١٣٢٨ ــ ١٣٨٣) تعاليمه في جامعة أوكسفورد ، ثم صار مدرساً وباحثاً فيها ، حيث وضع عدة أبحاث مهمة حول العلاقات بين السلطتين العلمانية والكنسية ، وحول الملكية • فهو يرى أن الله وحده هو الذي له ملك السموات والأرض ، وأن جميع عباده الصالحين لهم حق ملكية الأرض ، كما أن هذه الملكية حق مشاع عام بينهم • وعلى هذا طالب حنا ويكلف أن تتخلى الكنيسة عن معظم أملاكها ، وتحتفظ ببعضها ، إذا كانت قادرة على استغلالها استغلالاً طيباً ، وفي هذه الحالة يجب على الملك أو الأمير أن يحدد الجزء الذي تحتفظ به الكنيسة من ممتلكاتها • ويقول حنا ويكلف إن ثروة الكنيسة عامل من عوامل إفقار الدولة ، كما يعيب على رجال الدين اشتغالهم بالسياسة والإدارة ، وعدم تفرغهم لواجباتهم الدينية • وكذا عدّ الرهبان الديريين فئة من المتعطلين الذين يعيشون عيالاً على المجتمع • وقد طلب البابا غريغوري الحادي عشر من ملك إنكلترا إدوار الثالث أن يكافح تعاليم حنا ويكلف ويحبسه • وانتهى الأمر بطرد ويكلف وأنصاره من جامعة أوكسفورد ، فاعتزل في قرية حتى مات بهدوء في سنة ١٣٨٣ •

أمّا آراء حنا ويكلف في اللاهوت فتقوم على أساس تعاليم القديس أوغسطين، ومنها الاعتقاد بمبدأ القدر • فقد رأى ويكلف أن بعضهم قدّر له الخلاص والرحمة ، في حين قدّر لبعضهم الآخر الهلاك واللعنة الأبدية ، « وقد يكون البابا من الفريق الآخر » • كذلك رأى حنا ويكلف أن أسلوب المسيحية في الحياة يجب أن يُستقى من الإنجيل نفسه ، لا من تعاليم رجال الدين والكنيسة • وعلى هذا قام مع جماعةٍ من أعوانه بترجمة الإنجيل من اللاتينية إلى الانكليزية ليكون في متناول كلّ مسيحي ، وهذا الأمر كان له أثر كبير في التمهيد لحركة الإصلاح الديني ــ البروتستاني فيما بعد •

وعدّت الكنيسة والبابوية آراء حنا ويكلف هرطقية ، لأنها مناقضة لآراء الكنيسة وتعاليمها ، كما أنها من الناحية الاقتصادية تحرم الكنيسة من أملاكها ومواردها المالية ، ومن الناحية الدينية اللاهوتية تهدم السلطة الروحية للكنيسة •

وعلى الرغم من مقاومة الكنيسة لتعاليم حنا ويكلف ، فقد أخذت تلك التعاليم تنتشر في إنكلترا في حياة ويكلف وبعد مماته ، وقد أطلق على أتباع تعاليم ويكلف اسم « اللولارديين Lollards » • وعندما ازداد عدد اللولارديين أصدر البرلمان الانكليزي في سنة ١٤١٠ (في عهد الملك هنري الرابع) قانوناً يقضي بتسليم اللولارديين إلى الكنيسة لمحاكمتهم ، فمن أدين منهم أحرق حياً بوساطة السلطة الزمنية • وعلى هذا أخذت اللولاردية بالاختفاء في إنكلترا تدريجاً ، وإن بقي لها بعض الأنصار السريين •

لكن تعاليم حنا ويكلف اللولاردية سرعان ما انتقلت من إنكلترا إلى بوهيميا في ألمانيا في أواخر القرن الرابع عشر ، كما انتقلت إلى تشيكيا في مستهل القرن الخامس عشر ، على يد جيروم البراغي أحد أساتذة جامعة براغ المتحمسين لتعاليم حنا ويكلف • وقد تخوفت الكنيسة التشيكية من انتشار تعاليم حنا ويكلف في الأوساط الجامعية ، فأصدرت قراراً في سنة ١٤٠٣ ، بإعدام هذه التعاليم ووصم أتباعها بالهرطقة • ولكن بعض الأساقفة المثقفين احتجوا على قرار الكنيسة التشيكية وعارضوه ، وكان على رأس المعارضين الأسقف التشيكي حنا هس (٩) •

ـ حنا هس (١٣٧٠ ـ ١٤١٥) :

حصل حنا هس على إجازة في اللاهوت في سنة ١٣٩٣ ثم على الماجستير في الآداب من جامعة براغ بعد قليل ، وبذلك جمع في دراسته بين تعاليم الإنجيل والفلسفة اليونانية وبخاصة تعاليم أرسطو • وقد عرف حنا هس بفصاحته وتحمسه للاصلاح الديني ، فاتخذ الوعظ والإرشاد وسيلة لشن هجومه على المفاسد في الكنيسة وحياة رجال الدين • وقد تأثر حنا هس بتعاليم حنا ويكلف حتى عُدّ تلميذاً له ، إلا أنه لم يعتنق جميع تلك التعاليم • وواصل حنا هس هجماته العنيفة ضد الأوضاع السيئة السائدة في الكنيسة ، الأمر الذي أخاف رئيس أساقفة براغ ، فأصدر أمراً بمنع أساتذة الجامعة من الوعظ والإرشاد ، كما وضع براغ نفسها تحت الحرمان الكنسي •

واتنقد حنا هس البابوية في إصدارها صكوك الغفران وتوزيعها على كلّ من يسهم في الحملة « الصليبية » التي شنها البابا حنا الثالث والعشرون ضد لادسلاس ملك نابولي ، كما قال إن صكوك الغفران ليست من الدين في شيء ، وإن جميع الأوامر البابوية تُعدّ ملغاة إذا كانت تتعارض مع تعاليم المسيح • وترتب على ذلك أن وقّع البابا قرار الحرمان الكنسي على حنا هس ، فطرد هس وأعوانه من جامعة براغ ورحل إلى منطقة ريفية في بوهيميا • وعندما عُقد مجمع كونستانس لينظر في مسائل متعددة أهمها مسألة وضع حدّ للهرطقة الهسية ، حضره حنا هس ليدافع عن آرائه ، فقُبض عليه ثم أعدم حرقاً بالنار في سنة ١٤١٥ • كما أعدم بعد عامٍ جيروم البراغي الذي أتى إلى مجمع كونستانس لمساندته • وترتب على إعدام حنا هس اضطرابات وثورات عديدة قام بها أنصاره ضد سلطة الملك البوهيمي سيجيموند • ولم يهدأ الموقف في بوهيميا إلا في سنة ١٤٣٤ عندما صفّى النبلاء الهسيون والكاثوليك ما بينهم من خلافات •• ومع ذلك فقد ظلت الأوضاع السياسية مضطربة في بوهيميا بقيّة القرن الخامس عشر ، كما اعتلى عرشها أكثر من ملك يدين بالعقائد الهسيّة (١٠) •

ـ مساوىء الديرية :

وجّه بعض الباحثين انتقادات متنوعة إلى الحياة الديرية نذكر بعضها :

١ ـ قامت الحياة الديرية في أساسها على شعور الأنانية المستتر خلف حجاب الدين ، فكل راهب يفكّر في إنقاذ نفسه وتجنيبها الضلال أكثر مما يفكر بغيره من الناس •

٢ ـ يهجر الراهب العالم ويلوذ بديره هرباً من مواجهة صعاب الحياة ، دون أن يجهد نفسه بالعمل على تقويم ما في الحياة من انحراف •

٣ ـ أصبحت الحياة الديرية عاملاً من عوامل تفكك الأسرة ، حيث رأى الديريون أن خير طريقةٍ ينجون بها من عذاب النار في الآخرة هي أن يتركوا آباءهم أو أزواجهم أو أبناءهم ويلجؤوا إلى الأديرة •

٤ ـ أدى نشاط الحركة الديرية إلى شلل كثير من مرافق الحياة العامة ، حيث هجر الكثيرون حقولهم ومصانعهم ومتاجرهم ووظائفهم لينخرطوا في سلك الديرية .

٥ ـ إن التحاق أعداد كبيرة من الشباب بالحياة الديرية أفقد الحكومات قسماً من الطاقة البشرية الصالحة للخدمة العسكرية ، ومبلغاً كبيراً من المال ، لأن الرهبان لا ينخرطون في الجيش ، ولا يدفعون ضرائب .

٦ ـ أدى التزام الديريين بحياة العزوبة إلى نقص كبير في عدد أفراد المجتمع ، إذ لا بقاء لمجتمع يعيش على العقم . ومن جهة ثانية كانت العزوبة مدعاة للرذيلة والشذوذ الجنسي في بعض الأحيان .

٧ ـ فاق الرهبان غيرهم من المسيحيين في شدة تعصبهم ضد الوثنيين ، فعملوا بحماس على تدمير التراث الحضاري الكلاسيكي المرتبط بالوثنية ، كتدمير المعابد الوثنية ، وحرق المكتبات التي تحتوي على علوم الأولين وآدابهم ، بالإضافة إلى تحريض السلطات والغوغاء على سفك دمـاء رجال الفكر الوثنيين ، كما حدث للفيلسوفة هيباشيا Hypatia [(١١)] .

ـ فضائل الديرية والدور الحضاري للأديرة :

أشار بعض الباحثين إلى مساوىء الحياة الديرية ، لكنهم في الوقت نفسه تحدثوا عن فضائلها والدور الحضاري الذي قامت به الأديرة في أوروبا في العصور الوسطى . لاشك في أن سعة انتشار الحركة الديرية في أوروبا بصورها المتنوعة ، قد ترك أثراً واضحاً في جميع مناحي الحياة في العصور الوسطى . لقد أسهمت الأديرة بدور كبير في الحياة الدينية والثقافية والاقتصادية والاجتماعية .

١ ـ دور الأديرة في الحياة الدينية :

لم يقم بنشر الديانة المسيحية الأباطرة والملوك وحدهم ، وإنما كانت بعثات الديريين وجهودهم تساند جيوش الحكام وتسير في ركابها لتنشر الديانة المسيحية

بين الشعوب الوثنية . وقد تحدثنا من قبل عن دور الأديرة البندكتية والرهبان البندكتيين في نشر المسيحية في إنكلترا ، وبخاصة القديس أوغسطين مبعوث البابا غريغوري الأول صاحب البعثات التبشيرية المعروفة . كذلك تحدثنا عما قامت به الأديرة الكلتية الإيرلندية من جهود تبشيرية واسعة النطاق بين الوثنيين داخل جزيرتهم وخارجها ، في كل من فرنسا وألمانيا وإيطاليا وغيرها . وقد حقق الرهبان الديريون ، على اختلاف أنظمتهم الديرية ، نجاحات واسعة في مهماتهم التبشيرية بين الشعوب البربرية الوثنية ، وبخاصة بعد أن تلقوا الدعم والعون من الأباطرة والملوك والبابوات .

٢ ـ دور الاديرة في الحياة الثقافية :

ظلت الأديرة طوال العصور الوسطى المراكز الأساسية للثقافة والتعليم ، فيها تنسخ الكتب ، وفي مدارسها يتعلم الصغار والكبار . وإذا حاولنا أن نضع سجلاً لرجال الأدب والمعرفة في العصور الوسطى ، وجدناهم جميعهم تقريباً من الديريين . وعلى هذا يمكننا أن نصف ثقافة تلك العصور بأنها ثقافة ديرية بكل معنى الكلمة . ففي وسط مظاهر الفوضى وعدم الاستقرار السياسي والاجتماعي التي سادت أوروبا الغربية في العصور المظلمة ، ظلت الأديرة تمثل عنصر الاستقرار الوحيد في المجتمع الأوروبي ، وتعمل بالتالي على نقل التراث الحضاري من السلف إلى الخلف . فلولا الأديرة لتناقص التراث الثقافي الذي خلفته لنا أوروبا في العصور الوسطى إلى حد كبير ، لأن الديريين هم الذين حفظوا ذلك التراث من الضياع ، واستمروا يضطلعون بمهمة التعليم حتى مطلع النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر ، عندما ظهرت الجامعات الأوروبية لتحمل لواء العلم والمعرفة . ولولا المدارس الديرية وتشغيلها النساخ بنسخ المؤلفات القديمة لما وصلنا شيء من التراث الكلاسيكي الوثني . لقد قام رهبان الأديرة بصون المخطوطات ونسخها حفاظاً عليها من الضياع ، كما أن بعض الأديرة استأجرت نساخاً من خارج الدير للعمل إلى جانب الرهبان في نسخ الكتب والمخطوطات وزخرفتها وتزيينها . وصارت الأديرة أشبه ما تكون بخزائن لحفظ الكتب والمخطوطات النادرة . وحافظت



الشكل رقم (٣٧)
راهب ينسخ المخطوطات (صورة من العصور الوسطى)

الأديرة على تلك الكنوز الثقافية طوال العصور الوسطى ، على الرغم من الغارات البربرية والحروب الأهلية وأعمال النهب والسلب •

ويرجع الفضل في كثير ممّا لدينا من معرفة إلى الرهبان الديريين ، الذين عكفوا على نسخ المخطوطات العسيرة القراءة ، تحت ضوء شمعة خافتة في قلاية (كيسة أو دير) ملؤها البرد والزمهرير ، لا يبتغون شيئاً سوى أن تحظى جهودهم بمرضاة الله • ونحن ندين بكثير مما نعرف عن العصور الوسطى إلى كتب الحوليات التاريخية التي ألّفها الديريون باللغة اللاتينية ، فالديريون هم الذين دوّنوا أخبار القرون الواقعة بين الغزوات البربرية الجرمانية ، وقيام الجامعات الأوروبية في النصف الثاني من القرن الثاني عشر الميلادي ، حين كانت مكتبة الدير (Scriptorium) دون غيرها آمن الأمكنة للدرس والكتابة • وإنّ بعض الأخبار التي دوّنها الكاتب الديري لم تخلُ من الحيوية وجودة الإسناد ، كما لم تعجز الأديرة عن أن تنجب مؤرّخاً بمعنى الكلمة بين حين وآخر ، ويأتي على رأس هؤلاء المؤرخين المؤرخ الانكليزي « بدي » Bede (٦٧٥ — ٧٣٥) •

وقامت الأديرة ، وبخاصة البندكتية بإنشاء المدارس الديرية التي تعلّم فيها الديريون وغير الديريين من الذكور والإناث • لقد أدى انهيار الدولة الرومانية

إلى زوال مدارس الدولة ومدارس البلديات ، كما أنّ المدارس الأسقفية التي أنشأها الأساقفة في المدن لم تستطع أن تجاري بنشاطها المدارس الديرية • وعلى هذا صار التعليم في العصور الوسطى ديرياً إلى مدى بعيد ، حيث احتوت الأديرة البندكتية على مدارس عظيمة الأهمية • فدير مونت كاسينو أضحى في القرن الحادي عشر مركزاً أساسياً لدراسة اللاهوت والعلوم الكلاسيكية ، فضلاً عن القانون والطب والأدب والنحو • أمّا دير بك (Bec) في فرنسا فقد قام بنشاط علمي يضيق المقام عن شرحه • كذلك صارت الأديرة الكلتية الايرلندية مركزاً للعلوم الكلاسيكية الرومانية واليونانية• ومنها امتدّ ضوء الحضارة إلى غرب أوروبا ليثير ما يُعرف باسم النهضة الكارولنجية في عهد شارلمان • هـذا وقد ظلت برامج الدراسات التي وضعها الديريون في العصور المظلمة باقيـة ليعتمد عليها رجال الجامعات الناشئة في القرن الثاني عشر • ويمكننا القول بشيء من التحفظ إن نحو تسعين بالمائة من المتعلمين بين عامي ٦٠٠ ـ ١١٠٠ تلقوا تعليمهم في المدارس الديرية•

٣ ـ دور الأديرة في الحياة الاقتصادية :

شارك الديريون مشاركة فعّالة في عملية الإنتاج الاقتصادي (الزراعي والصناعي والتجاري وتربية الحيوانات) في أوروبا الغربية ، حيث قام الرهبان بتعمير الأرض الجديدة التي استقروا بهـا فزرعوها بعـد إصلاحها • كذلك عملوا في تجفيف المستنقعات واستصلاح الغابات • وقد نقل الرهبان أيضاً التقاليد الرومانية المتعلقة بالزراعة وحافظوا على المؤلفات الزراعية التي وضعها الكتّاب الرومان •

وكانت الأديرة من المؤسسات الدينية التي منحها ملوك أوروبا كثيراً مـن الإعفاءات والامتيازات ، فامتلكت أكبر نسبة من الأراضي الزراعية في العصور الوسطى • وهكذا صار الديريون أقدر الملاك الزراعيين وأكثرهم خبرة وكفاية • وتشهد سجلات الأديرة على مدى العناية والكفاية التي كانت الأديرة تدير بها ضياعها وممتلكاتها الواسعة • وقد عَمِل الديريون الكثير من أجل السموّ بالعمل الزراعي ، فأضفوا عليه مكانة معنوية واجتماعية لم تتهيّأ له في العصور الرومانية

السابقة . لقد كان الرومان يحتقرون العمل اليدوي ويعدّونه وقفاً على العبيد . أما النظام الديري البندكتي فقد وضع العمل في منزلة العبادة وجعله جزءاً أساساً من حياة الديريين . لقد قال القديس بندكت : « العمل عبادة والكسل عدو الروح »، كما خصّص في نظامه للرهبان ست ساعات يومياً للعمل اليدوي . وبذلك أصبحت الديرية عاملاً إيجابياً منتجاً في المجتمع ولم تعد كما اتهمها بعضهم قديماً مأوى للمتعطلين وملاذاً للكسالى الهاربين من أعباء الحياة وتبعاتها . زيادة على ذلك دخل في الحياة الديرية عدد من الأمراء والنبلاء والمثقفين ، ومثل هؤلاء عندما يمسكون الفأس ويعملون في الأرض كانوا يضربون لغيرهم من الناس في البيئات المجاورة مثلاً فريداً عن أهميّة العمل في الحياتين الاجتماعية والاقتصادية .

إلى جانب العمل الزراعي أسهم الديريون بقسط كبير في الميدانين الصناعي والتجاري ، حيث أضحت أديرة كثيرة مراكز صناعية روعي فيها التخصّص في العمل . ومن هذه الأديرة دير كوربي الذي كانت به أربعة مصانع يدوية صغيرة (ورش) ، ودير سانت ركويير الذي قامت حوله مدينة صناعية تصنع فيها السروج والأسلحة والجلود وغيرها . كذلك اشتهرت بعض الأديرة في نسج المنسوجات وصباغتها ودبغ الجلود وصناعتها .

واهتمّ الرهبان السسترشيان بتربية الخيول والمواشي ، فاشتهرت أديرتهم في يوركشير بصناعة الصوف وتجارته . كذلك اشتهر ديرهم الرئيس في سيتو (في برجنديا) بمزارع الكروم وصناعة النبيذ وتجارته . على أنّ هذا النشاط الاقتصادي ، وما تبعه من ازدياد ثروة السسترشيان ، سرعان ما أدى إلى تغلّب الروح التجارية على هذا الفريق من الديريين . ممّا أفضى إلى فساد أديرتهم وانحلالها .

٤ ـ دور الأديرة في الحياة الاجتماعية :

قامت الأديرة بدور إيجابي في الحياة الاجتماعية ، حيث أسهمت في تخفيف

ما كان يعانيه المجتمع الأوروبي من مآسٍ وكوارث وأزمات • فلقد اهتمّ الرهبان بتخفيف مآسي الفقراء والمساكين ، كما قاموا بتوزيع الصدقات التي خصصها المحسنون لهـم • كذلك أضحت الأديرة ملاجىء تستقبل المنكوبين والمعدمين والمرضى والجرحى ، وتقدّم لهم المساعدات الطبيّة والغذائية ، في عالـَم مزّقته غارات البرابرة الجرمان ، ودكّت أركانه الحروب ، كما طفحت سياسته بالآثـام والشهوات ، وصُبغت بألوان العنف والاضطراب • فإلى الأديرة تراكض الفارّون من غضب الملوك وحقد الأمراء ، ومعهم الجياع والمرضى والآثمون • وفي تلك الأديرة وجد هؤلاء المواساة والعطفِ والإحسان ، لأن الدين يوصي بالرحمة والشفقة على المنكودين • هذا ولايزال الديريون (وبخاصة الراهبات) حتى اليوم الحاضر يؤدون بعض الخدمات الاجتماعية ، كخدمة المرضى في المستشفيات ، ومساعدة الفقراء ، وتعليم الصغار مبادىء القراءة والكتابة والدين (١٢) •



الشكل رقم (٣٨)

الملحق الأول

من قاعدة القديس بندكت عن الديرية

نحو سنة ٥٣٠ م

هيأ النظام المفكك للأديرة الفرصة لأن ينفذ إليه عيوب كثيرة ، ولذا حرصت قاعدة بندكت على إصلاح هذه العيوب • والواقع أن هذه القاعدة جديرة بالدراسة ، إذ أنها ظلت قروناً عديدة توجه الألوف من الرهبان الذين أثروا في حيـاة ملايين العلمانيين ودفعتهم إلى المدنية والحضارة •

★ ● ★

٢ ـ الصفات التي لابد ان تتوافر في رئيس الدير :

لابدّ لرئيس الدير الجديد المكلف بإدارة دير من الأديرة ، أن يفكر دائماً ، في أهمية ما أطلق عليه من اسم ، وأن يبرر طوال حياته ما اتخذه من لقب الرياسة • إذ أنه يمثل المسيح في الدير ، بما حظي به من اسم مستمد من قول الرسول بولس « إذا لم تأخذوا روح العبودية أيضاً للخوف ، بل أخذتم روح التبني الذي به نصرخ يا أبا الآب »[1] ». فينبغي على رئيس الدير ألا يبشر أو يأمر بشيء مخالف لأحكام السيد المسيح ، بل لابدّ أن تتفق أحكامه وتعاليمه مع العدالة الإلهيـة •

(١) رسالة بولس الرسول إلى اهل رومية ٨ ، ١٥ .

وينبغي على رئيس/الدير أن يتخذ في رعاية رهبانه طريقين : تعليم أحكام السيد المسيح للطلاب الصالحين ، بما يُلقيه عليهم من عظات ، وتعليم المتمردين والسذج ، عن طريق الأعمال . ينبغي ألا يكون بالدير شيء من التفرقة بين الأشخاص ، فلا يجوز لرئيس الدير أن يظهر من المحبة لشخص ما يزيد على محبته لشخص آخر ، ما لم يكن متفوقاً على غيره في الأعمال الصالحة والطاعة ، ولا يصح تفضيل الشخص الحرّ على شخص قدم إلى الدير من حالة الاسترقاق ، ما لم يكن ثمة سبب سليم لذلك ، فسواء ، كان الشخص عبداً أو حراً ، فكلاهما سواء عند المسيح . وينبغي على رئيس الدير أن يسلك مع تلاميذه قاعدة الرسول الذي يقول « وبّخ ، انتهر ، عظ بكل أناة وتعليم »[1] . وينبغي أن يتخذ من الطرق ما يلائم الأحوال ، بالالتجاء إلى التهديد أو الترغيب ، وأن يجعل من نفسه إما سيداً صلباً ، وإما والداً محباً ، وفقاً لما يتطلبه الأمر من مقتضيات .

وما هو أكثر من كل ذلك ، ينبغي ألا يحرص رئيس الدير على أن يقتني من الأشياء ، ما يعتبر دنيوياً وطارئاً وفانياً ، وينبغي ألا يغفل أو يهمل ما هو موكول إليه من رعاية الأنفس ، بل ينبغي أن يتذكر دائماً أنه يتعاهد رعاية الأنفس ، فيتحتم عليه أن يحرص على إسعادهم .

٣ ــ وكلما جرى بالدير أمور مهمة ، فينبغي على رئيس الدير أن يجتمع بكل الرهبان ، وأن يخطرهم بما هو موضع النظر والتفكير ، حتى إذا استمع لنصيحة إخوانه ، نظر في الأمر ملياً ، ثم قام بتحقيق ما يتراءى أنه خير قرار عنده .

٤ ــ **اساليب الاعمال الصالحة :**

أولها ، أن يحب السيد المسيح بكل جوارحه ، وبكل روحه ، وبكل قوته ،

---

(١) رسالة بولس الرسول الثانية إلى ثيموتاوس ٢٢٤ .

ثم يحب جاره مثلما يحب نفسه • ثم ينبغي ألا يقتل ، وألا يرتكب الزنا ، وألا يسرق ، وألا يكون نهماً ، وألا يؤدي شهادة الزور ، وأن يكرّم كل الرجال ، وألا يعامل الناس إلا بما يحب أن يعاملوه به ، وأن يتجاهل أنه يتبع المسيح ، لتطهير بدنه ، وللتخلي عن أسباب الترف ، وللتعلق بالصيام • وينبغي أن يطعم الفقير ، وأن يكسي عاري الجسد ، وأن يعود المريض ، وأن يواري الميت ، وأن يبذل المساعدة في وقت الشدة ، وأن يواسي الحزين • وينبغي أن يبتعد عن أمور الدنيا ، وألا يؤثر شيئاً على محبة المسيح ، وألا يغضب ، وألا يحمل في نفسه ضغينة لأحد ، وألا يحترز في قلبه الخداع والغش ، وألا يقر سلاماً كاذباً ، وألا يتخلف عن الإحسان ، وينبغي ألا يحلف ، حتى لا يحمل نفسه عرضه للحنث باليمين ، وأن يقول الصدق من أعماق قلبه ، وألا يرد السيئة بالسيئة ، وألا يلحق الإهانة بالآخرين ، بل ينبغي أن يصبر على تحمل ما يتعرض له من إهانة ، وينبغي أن يحب خصومه وأعداءه ، وألا يلعن من يلعنه ، بل ينبغي أن يقابل ذلك بالرضى والامتنان ، وأن يعاني الاضطهاد من أجل الحق والعدل • وينبغي ألا يكون متكبراً ، أو سكيراً ، وألا يكون شرهاً في تناول الطعام ، وألا يستسلم للنوم الطويل ، ولا للكسل ، ولا للتبرم والشكرى ، وألا يلجأ للكذب • وينبغي أن يجعل كل أمله في الله ، وما يراه لنفسه من الخير فمرجعه إلى الله ، وما يفعله من شر فمن نفسه • وينبغي أن يخشى يوم الحساب ، وأن يخاف أهوال الجحيم •

٥ ـ الطاعة :

وأول درجات التواضع ، هي الطاعة ، دون تمهل ، التي تليق بأولئك الذين ليس لديهم ما هو أعز من المسيح • ولذا إذا تلقى أحد الرهبان الأمر من رئيسه ، فينبغي أن يبادر إلى طاعته ، كأنه صدر إليه من الله ذاته •

٦ ـ السكون :

ينبغي أن نفعل حسبما قال النبي :

« قلت أتحفظ لسبيلي من الخطأ بلساني ، أحفظ لنفسي كمامة فيما الشرير

مقابلي ، صمت صمتاً ، سكت عن الخير فتحرك وجعي »[1] . وهذا هو معنى ما يقصده النبي : إذا كان من الصواب أن تلجأ إلى السكون والصمت ، حتى عن فعل الخير ، فما أكثر ما ينبغي أن تحجم عن كلام السوء ، لأن في ذلك جزاء للإثم والذنب . إذ تنكر نهائياً كل حديث ودعابة قذرة وقحة ، ويمنع الراهب من أن يفتح فمه لينبس بهذه الألفاظ .

٧ ـ التواضـع :

أيها الأخوة ، يقول الإنجيل المقدس « فمن يرفع نفسه يتضع ، ومن يضع نفسه يرتفع »[2] . فإذا أردنا أيها الاخوة أن نبلغ الغاية القصوى من التواضع ، والرفعة عند الله ، فلن نظفر بها إلا بالتواضع على الأرض ، فلا نرقى إلى السماء إلا بأعمالنا ، التي ليست إلا كالسلالم التي ظهرت ليعقوب في حلمه : إذ شهد الملائكة يرتقونها ويهبطون عليها .

٢١ ـ عرفـاء الدير :

في الأديرة الكبيرة ، ينبغي أن يختار من بين الأخوة أفراد اشتهروا بالاستقامة وصفاء النفس ، ليكونوا عرفاء ، وينبغي أن يقوموا بالإشراف على بعض الأمور ، وذلك بتوجيه رئيس الدير .

٤٨ ـ العمل اليومي للرهبان :

يعتبر الكسل أكبر عدو للنفس ، ولذا ينبغي على الرهبان أن ينهمكوا دائماً في الأعمال ، إما في العمل اليدوي ، وإما في التلاوة المقدسة . غير أنه إذا اقتضت أحوال المنطقة التي يقع بها الدير ، وحاجات الدير نفسه ، مثلما يحدث في أوقات

---

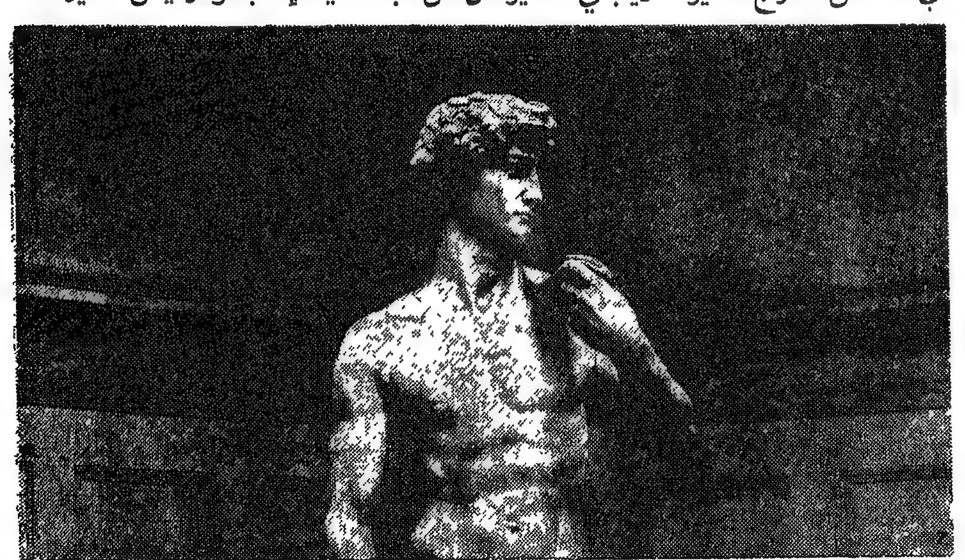
(١) سفر المزامير (٣٩ ، ١ـ٢) .

(٢) إنجيل متى ٢٣ : ١٢ .

جني المحصول ، ما يدعو إلى إطالة ساعات العمل ، فلا يعنبرون ذلك ضرباً من سوء استخدامهم ، فالرهبان الصادقون لابدّ أن يعيشوا على ما تؤديه أيديهم من عمل ، مثلما جرى للرسل والآباء المقدسين • وفي أثناء الصيام الكبير ، ينبغي تخصيص الوقت من بزوغ الفجر إلى الساعة الثالثة ، للقراءة ، ثم يمارسون ما أعد لهم من أعمال حتى الساعة العاشرة • وعند بدء الصيام ، يحصل كل راهب من مكتبة الدير، على كتاب لابدّ أ نيتم مطالعته • وينبغي أن يعين من الرهبان القدامى ، راهب أو راهبان للطواف بأنحاء الدير ، أثناء ساعات المطالعة ، للوقوف على ما إذا كان أحد الرهبان يضيع الوقت سدى ، بدلاً من المطالعة ، وهم بذلك لا يضيعون فحسب وقتهم ، بل ربما أزعجوا غيرهم أيضاً •

٥٤ ـ ينبغي ألا يتلقى الرهبان رسائل أو اشياء :

ينبغي ألا يتلقى الراهب رسائل أو هدايا أو أي شيء آخر ، من أسرته أو من أي شخص خارج الدير ، وينبغي ألا يرسل من قبله شيئاً إلا بأمر رئيس الدير •



الشكل رقم (٣٩)

« دافيد » تمثال من المرمر (نحت مايكل انحلو ١٥٠١ ـ ١٥٠٣)

الملحق الثاني

منح الحصانة (الاعفاءات) لأحد الاديرة

في سنة ٦٧٣ م

ـ شلدريك ، ملك الفرنجة ، المعظم :

ليكن معلوماً للجميع ، أن رئيس الدير ، برشار التقي المبجل ، قدم إلينا وطلب منا أن نمنحه مكاناً في غابة فيرفو Vervo ، في غسقونيا ، حتى يقيم عليها ديراً ، وأن نقدم له من المواد والموارد ، ما يساعده على إنشاء دير بذلك المكان ، وإقامة جماعة من الرهبان . وإذ لقي طلب هذا الرجل العظيم منا القبول ، منحناه كل ما طلب . ولما أتم بناء هذا الدير ، تذكاراً للقديسين بطرس وبولس وسائر القديسين ، التمس منا أن نبذل للدير حصانة ، حتى يتوافر الأمن لكل المشروع . وإذ دفعنا لهذا ما حبانا الله به من العطف ، استجبنا لتوسلات هذا الرجل . وبموافقة الأساقفة والنبلاء ، جعلنا لكل ما يحوزه الدير من أملاك حصانة كاملة ، التماساً لسلامة مملكتنا ، ولما نكنه من الإجلال لهذا المكان المقدس .

ولذا أمرنا أنه ليس لموظف عام ، ولا لأية سلطة الحق ، في أن يدخل أراضي الدير ، للنظر في القضايا ، أو إلقاء القبض على الضمناء أو الكفلاء أو لجباية الضرائب ، أو لالتماس الضيافة ، أو انتزاع رسوم وضرائب من المدن ، أو الأسواق . وليس له الحق في أن يبتز الضرائب والأجور أيا كانت ، بل ان الرهبان هم الذين يحكمون ويملكون ، في زمننا وفي المستقبل ، كل أملاك هذا الدير في جميع المواضع والأراضي ، التي يحوزون بها من الأملاك ما سبق الإشارة إليه ، دون أن يتعرضوا لتدخل الموظفين ، أو لما يتحصل من الضرائب باسم الخزانة الملكية (١٣) .



الباب الثالث

الحياة الفكرية والفنيّة

في أوروبا العصور الوسطى

الفصل الأول

الحيــاة الفكريّة

الفصل الثاني

الحيــاة الفنيّــة



الفصل الأول

الحيــاة الفكريــة

ـ مراكز المعرفة والثقافة :

تقسم مراكز المعرفة والثقافة في أوروبا العصور الوسطى إلى أربعة أقسام هي:
١ ـ المراكز الدينية : أي الكنيسة وما يرتبط بهامن مؤسسات دينية كالأديرة والكاتدرائيات ، ٢ ـ بلاط الملوك والأمراء ، ٣ ـ المدن ، ٤ ـ الجامعات .

١ ـ الكنيســة :

عندما سقطت الامبراطورية الرومانية في أواخر القرن الخامس وجدت الكنيسة البابوية نفسها مسؤولة عن رعاية الحضارة في أوروبا الغربية . لقد ورثت الكنيسة تراث الحضارة الرومانية القديمة ونجحت في إقامة امبراطورية مسيحية بمساعدة الفرنجة والميروفنجيين والكارولنجيين ورهبان الأديرة ورجال البعثات التبشيرية . وعملت الكنيسة على نشر التعليم بين المجتمعات المتخلفة بإنشاء مدارس الأديرة والكاتدرائيات .

آ ـ الأديـرة :

كانت الأديرة أعظم المراكز الثقافية في أوروبا في المرحلة الأولى من العصور الو طى ، وشبّهها بعضهم بجزر مضيئة وسط بحر واسع الظلمات يعمّه الجهل والتخلف . لقد أصبح وجود الدير مرتبطاً بمكتبة وأرشيف وحولية ومدرسة لتعليم الرهبان الجدد . وللمدارس الديرية فضل كبير في الاحتفاظ بقسط من

النشاط العلمي ، على الرغم من أنّ الهدف الأساسي من التعليم الديري ظلّ إعداد رجال الدين لمباشرة مهماتهم في الوعظ والإرشاد والتبشير • ولكن هذا الهدف لايمكن أن يتحقق دون أن يحصل رجل الدين على قسط من الثقافة اللاتينية ، حيث أنّ اللاتينية كانت لغة الكنيسة الغربية واللغة العالمية التي يتفاهم بها أهالي البلدان المختلفة في أوروبا الغربية •

ب ـ الكاتدرائيات :

كانت الكاتدرائية تقوم دائماً في مدينة هامة تحيط بها مظاهر المدنية والعمران • ولم تلبث الكاتدرائيات أن أخذت تتحول إلى مراكز ثقافية مهمة ، بفضل ما لها من مكتبات ومدارس وسجلات وموظفين يساعدون الأسقف على الإشراف على نواحي النشاط المختلفة داخل حدودأسقفيته ، ومنها النشاط التعليمي • وفتحت مدارس الكاتدرائيات أبوابها أمام الطلاب العلمانيين في الوقت الذي أغلقت الأديرة أبوابها في وجوههم واكتفت بقبول الرهبان ،و هذا الأمر جعل المدارس الكاتدرائية تمتاز عن مدارس الأديرة بتنوع الدراسات فيها •

واهم الكاتدرائيات نشاطاً في الميدان الثقافي في القرن الثاني عشر ، الكاتدرائيات الواقعة في شمال فرنسا ـ في شارتر واورليان وريمس ولاؤون وباريس •

وقد جذبت مدارس تلك الكاتدرائيات إليها طلاب العلم من ألمانيا وإنكلترا وإيطاليا ، كما ارتبطت الأسماء اللامعة في ميادين الشعر واللاهوت والتعليم بتلك الكاتدرائيات •

وفي إنكلترا احتلت كاتدرائية كانتربوري مكانة كبيرة في النشاط الثقافي في القرن الثاني عشر ، إذ ارتبط بهذه الكاتدرائية عدد بارز من الشعراء والأدباء ورجال القانون وغيرهم من المفكرين ، كما اشتهرت بمكتبتها الضخمة التي احتوت عدداً كبيراً من الكتب والمخطوطات •

اما في إسبانيا فكانت مدرسة طليطلة من اهم مدارسها الكاتدرائية •

لقد أضحت طليطلة بعد أن استعادها الاسبان من العرب المسلمين في سنة ١٠٨٥ أهم مركز للاستفادة من تراث الحضارة العربية الإسلامية ونقله إلى اللغة اللاتينية ، حيث تمت فيها ترجمة المؤلفات العربية في الآداب والعلوم والفنون •

وأما كاتدرائيات ألمانيا وإيطاليا فلم تقم في القرن الثاني عشر بنشاط علمي واسع مثل كاتدرائيات فرنسا وإنكلترا وإسبانيا، لأن النزاع بين البابوية والامبراطورية كان له أثره السيء في أحوال ألمانيا وإيطاليا ، كما اشتغل الأساقفة بالمسائل السياسية وأهملوا المسائل الثقافية والتعليمية •

وارتبط تأسيس المدارس الديرية والكاتدرائية بالدين المسيحي ، إذ لم يكن الغرض من تأسيسها إعداد أفراد الشعب لمواجهة مطالب الحياة أو العمل في الوظائف الحكومية ، وإنّما كان إعداد التلاميذ لكي يصبحوا قساوسة يخدمون في السلك الكهنوتي • وعلى هـذا انحصر التعليم في تلك المدارس في تفهم الدين وتلاوة الصلوات وقراءة الكتب المقدسة والقيام بالطقوس الدينية والشعائر الكنسيّة • وكان الأساقفة ومقدمو الأديرة بحكم مراكزهم الدينية نظّار تلك المدارس أو مديريها ، بل ومؤسسيها •

وارتبطت مناهج الدراسة في تلك المدارس بما يحتاج إليه الطالب لتفهم العلوم اللاهوتية ، لذلك كانت الأجروميّة (قواعد اللغة اللاتينية) كانت أولى المواد وأهمها • وتأتي بعد ذلك العلوم الكلامية والمقصود بها المنطق والجدل ، والهدف من تدريسها إقناع الخارجين على الدين والردّ المقنع على الهراطقة والوثنيين • ثم تأتي قواعد الحساب لتحديد أيام الأعياد والقديسين • وتلقي الطالب أحياناً دروساً في الموسيقى والغناء ليتمكن من أداء التراتيم الكنيسيّة • وعلى الرغم من أن كل تلك المواد كانت أداة لتفهم الدين فحسب ، إلا أنّها ساعدت فيما بعد بطريق غير مباشر على تطوير الفكر البشري وتحرره من القيود التي فرضتها عليه الكنيسة لعدة قرون [١] •

٢ ـ بلاط الأمراء والملوك :

كان بلاط الأمير الاقطاعي في المرحلة الأولى من العصور الوسطى بسيطاً في تنظيمه . ولما كان الأمير نفسه يجهل القراءة والكتابة ، احتفظ بقسّيس ليرعى شؤون الدين ويحرر المكاتبات الضرورية . ولكن زيادة الأعمال في بلاط الأمير وكثرة المكاتبات والحسابات تطلبت بمضي الوقت وجود أرشيف وسكرتير ومحاسب . وتردد على بلاط الأمراء الشعراء والمهرجون والممثلون الهزليون في المناسبات السعيدة كالأعياد وحفلات الزواج وتدشين أحد الأمراء فارساً . وكثيراً ما كان الشعراء والممثلون يرددون في تلك الحفلات نماذج من قصص البطولة القديمة عن طروادة وطيبة والاسكندر المكيدوني وشارلمان وما شابه ذلك . وعلى هذا صار بلاط الأمراء مركزاً للأدب الشعبي .

ومنذ منتصف العصور الوسطى ظهر من الأمراء الاقطاعيين من قام برعاية الشعر ونظمه ، مثل وليم التاسع دوق آكوتين ، وثيبوت أمير إقليم الشامبانيا . وحرص أمراء منطقة جوين (بجوار بحر المانش) على تدوين الأحداث المحلية في إماراتهم ، فأدّوا بذلك خدمة كبيرة لعلم التاريخ . كذلك قام هنري الأسد أمير ساكسونيا (١١٢٩ ـ ١١٩٥) بدور راعي الحضارة والثقافة في إمارته . وفي المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى دأب الأمراء في إنكلترا على تشجيع الأدب والأدباء ، وغدا كل بارون يحتفظ في بلاطه بهيئة كاملة من الأدباء والكتّاب .

وكان نصيب الملوك في رعاية الثقافة والعلوم والآداب أوفر بكثير من نصيب الأمراء لما بأيديهم من إمكانات كبيرة . وعَدّ ملوك البرابرة الجرمان أنفسهم ورثة روما والأباطرة الرومان ، فسعوا إلى دراسة ما تبقّى من تراث الامبراطورية الرومانية تمهيداً لعملية التمازج بين الجرمان والرومان التي نتج عنها المجتمع الأوروبي الجديد في العصور الوسطى .

وقد جاهد في سبيل إتمام تلك العملية ، إيورك ملك القوط الغربيين في آكوتين ، وثيودوريك ملك القوط الشرقيين ، وكلوفس ملك الفرنجة الميروفنجيين ، ومن ثم

الملوك اللمبارديون • وفاق هؤلاء جميعاً شارلمان ملك الفرنجة الكارولنجيين ، الذي تزعّم حركة إحياء التراث الروماني ووضع قواعد نهضة ثقافية عظيمة كان بلاطه في إكس لا شابل مركزاً لها •

وفيما بعد صار هنري الثاني ملك إنكلترا (١١٥٤ — ١١٨٩) أكبر راعٍ للآداب والثقافة في عصره ، إذ شجع المؤرخين والأدباء واهتم بالدراسات القانونية ورحّب بالوافدين إلى بلاطه من علماء ورجال الدين الأجانب • وهكذا شهد عهد هنري الثاني تقدماً كبيراً في تطور نظم التعليم بانكلترا • وترتب على ذلك قيام جامعة أوكسفورد أولى الجامعات الانكليزية •

كذلك اهتم ملوكُ صقلية النورمانديون بتشجيع العلماء واستدعائهم إلى بلاطهم ، فأصبح ذلك البلاط قبلة الأدباء والشعراء والعلماء من ذوي الثقافات اللاتينية واليونانية والعربية • ويُحكى عن روجر الثاني أنه استدعى الجغرافي العربي الإدريسي إلى بلاطه ، حيث عهد إليه بعمل نموذج مجسّم كبير للكرة الأرضية •

وحرص الامبراطور الألماني فردريك الثاني (١١٩٨ — ١٢٥٠) على تشجيع الحياة الثقافية في إمبراطوريته ، فأصبح بلاطه مركزاً لحركة علمية واسعة اجتمع فيه عدد كبير من العلماء الغربيين واليونانيين ، فضلاً عن اليهود والعرب الذين اشتغلوا بترجمة كتب الفلسفة العربية إلى اللاتينية • ولم يكتفِ فردريك الثاني بتنظيم كلية الطب في سالرنو ، وإنّما أنشأ جامعة في نابولي (في سنة ١٢٢٤) واستدعى إليها الأساتذة في مختلف العلوم والفنون ، كما منحها كثيراً من الامتيازات والمساعدات (٢) •

٣ — المدن :

لم تصبح المدن الأوروبية عنصراً فعّالاً في التطور الحضاري بشكل عام والثقافي بشكل خاص إلا في القرن الحادي عشر • فالمدن القديمة الرومانية التي

كانت مركزَ اقتصادية وثقافية ذبلت واضمحلت بعد سقوط الامبراطورية الرومانية بأيدي البرابرة ، وما تلا ذلك من انتشار النظام الاقطاعي ، الذي حلت فيه الضياع الكبيرة محل المدن • والمجتمع الزراعي الذي يرتبط أهله بالأرض لا يمكن أن يسهم إسهاماً فعلياً في التطور الثقافي •

أمّا في القرن الحادي عشر فقد أدّى النشاط التجاري إلى نمو المدن الصناعية ـ التجارية ـ التي غدت قوة فاعلة في التطور الحضاري • لقد أخذت تلك المدن تتحرر من سيطرة الأمراء الاقطاعيين وتمكنت الطبقة المتوسطة (البورجوازية) التي تضم التجار والصناع أن تتسلم السلطة في المدن • وقد أطلق على تلك المدن التي استطاعت أن تحقق لنفسها كياناً سياسياً واقتصادياً مستقلاً اسم القومونات (Communes) ، كما أصبح لكل منها قوانينها ونظمها ودستورها الخاص •

وأدى التبادل التجاري بين البلدان القريبة والبعيدة إلى تبادل الأفكار والمعارف الجديدة ، فتغيرت نظرة الناس إلى الحياة وأخذوا يخرجون عن المألوف



الشكل رقم (٤٠)
مدرسة المدينة في العصور الوسطى

ويحكمون عقولهم فيما يشاهدونه ويسمعونه . وأفضى التطور الفكري إلى رفض الناس لبعض آراء الكنيسة التي ظلت طوال العصور الوسطى تتحكم في تفكيرهم وتوجهه وفق ما تمليه مصالحها .

ومنذ القرن الثاني عشر أخذت المدن التجارية ـ الصناعية الجديدة تسهم في تطوير الثقافة والتعليم . فلقد استلزم النشاط التجاري قدراً من الثقافة وإلماماً بالقراءة والكتابة ومبادىء الحساب . وعلى هذا لم تعد مدينة في أوروبا الغربية إلا وبها مدرسة . وتدريجاً انتقلت مراكز التعليم من المدارس الكنسيّة (الكاتدرائية والديرية) إلى مدارس المدن ، كما فتحت تلك المدارس أبوابها لجميع الراغبين في الدراسة دون تمييز بين غني وفقير [٣] .

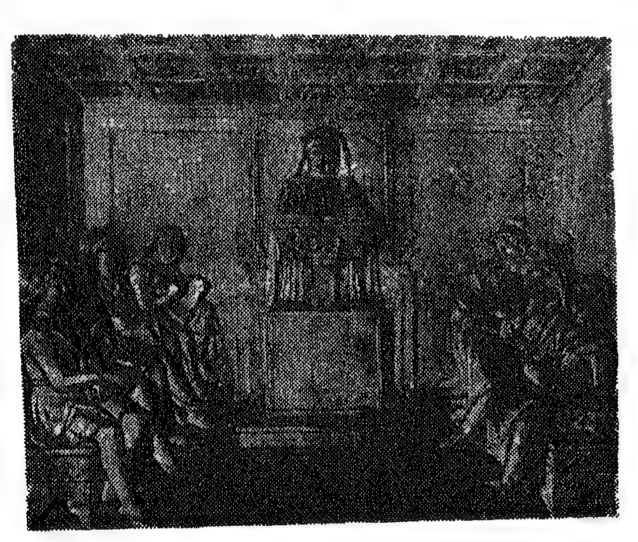
٤ ـ الجامعات :

في القرن الثاني عشر نشأت الجامعات لتكون المركز الرابع والأهم بين مراكز الثقافة والتعليم ، ولتسهم بدور فعّال في تطوير الحضارة الأوروبية . وكان تأسيس الجامعات من أهم الآثار الفكرية التي أنتجتها أوروبا في العصور الوسطى في دوائر العلم والتعليم . ولم تعرف أوروبا في التاريخ القديم أيام الرومان واليونان جامعة واحدة من هذا النوع . وفي أواخر العصور الوسطى أصبحت الجامعات الأوروبية مراكز علمية مهمة تفيض بالحيوية والنشاط ، إذ اجتذبت إليها الطلاب من كل مكان في الغرب الأوروبي ، وكان من بين أساتذتها أكثر رجال العصر مقدرة وكفاية .

وتعدّ الجامعات من مآثر العصور الوسطى ، كما تعبّر عن روح ذلك العصر الذي نشأت فيه . وقد شبّه بعض الكتاب جامعات العصور الوسطى بالمرآة التي انعكست فيها حضارة اوروبا في تلك العصور . وكان هدف تلك الجامعات إمداد المجتمع الأوروبي بأفراد متعلمين لديهم رغبة صادقة في استخدام علمهم لمنفعة المجتمع الذي يعيشون فيه . وهكذا لم يقتصر دور الجامعات على تثقيف الناس فحسب ، بل امتدّ إلى الناحية الحضارية بمعناها الواسع والشامل .

لم تنشأ الجامعات الأوروبية بين يوم وليلة ، وإنّما كانت نتيجة طبيعية لعدة عوامل وظروف امتدت قروناً طويلة سابقة ، إلى أن انتهى الأمر بغرس النواة الجامعية بمعناها المألوف . ولكن تلك النواة أخذت تنمو نمواً بطيئاً مستمراً . وكان من حسن حظها أن وجدت تربة صالحة ومناخاً ملائماً لنموّها فشبت وترعرعت ثم نضجت واكتملت شخصيتها بمختلف كلياتها ومناهجها وأساتذتها وطلابها وأنظمتها .

ولا يسعنا المجال هنا للإفاضة في موضوع نشأه الجامعات الأوروبية ، لكننا نشير إلى أن تلك الجامعات كانت وليدة المدارس الكاتدرائية . فلقد كانت جامعة بولونا في إيطاليا وليدة مدرسة بولونا القانونية ، كما كانت جامعة باريس وليدة مدرسة كاتدرائية باريس . ونكتفي بهذه العجالة عن نشوء الجامعات كمراكز للثقافة والتعليم ، لكننا سنعود للتحدث عن نشوء الجامعات وتطورها فيما بعد [٤] .



الشكل رقم (٤١)

محاضرة في الجامعـــة

صوره من المرمر نحتها برناردو وانطونيو روسيلينو (في سنة ١٤٦٠)

الحياة الفكرية في العصور المظلمة

(منذ القرن الخامس حتى عهـد شـارلمان)

ـ أثـر الغارات البربرية في الحياة الفكرية :

أطلق بعض المؤرخين المعاصرين ، ومنهم إدوارد جيبون ، و٠ب٠ كير ، على الفترة المبكرة من العصو رالوسطى اسم « القرون المظلمة » ٠ ويقول المؤرخ كير : إن أحلك فترة في العصور المظلمة هي التي امتدت من نهاية القرن السادس حتى حركة إحياء العلم في عهد شارلمان العظيم في أخريات القرن الثامن وبدايات القرن التاسـع ٠

ولاشك أن غزوات البرابرة قد أوجدت حالة من الفوضى والتوتر في شتى مرافق الحياة ومختلف أوجه النشاط الثقافي في الغرب الأوروبي ، إذ قضت على معالم الحضارة الرومانية وأحلّت محلها حضارة قبلية بدائية لم تكن لترقى بحال إلى مستوى حضارة الرومان القدماء ٠ لقد أخذت الحضارة الرومانية المرتبطة بالثقافة اللاتينية تنكمش تدريجاً في دول الغرب الأوروبي ، كذلك أغلقت المدارس القديمة أبوابها ، فعم الجهل وساد الظلام ٠

أما اللغة اللاتينية فقد دبّ فيها الخلل والفساد ، إذ تدهور مستوى الخط والكتابة وكثرت الأخطاء اللغوية والنحوية وأُدخلت على اللغة الفصحى ألفاظ عامية وكلمات جرمانية ٠ وقد تزايد مع الزمن إهمال دراسة الكتّاب الوثنيين القدامى وأعمالهم ، كما أصبحت الكتب نادرة الوجود ٠ ولم يعد الكاتب في فجر العصور الوسطى يهتم باختيار اللفظ المناسب واتزان الجُمل أو يُعنى بقواعد النحو في كتاباته ٠

وعلى هذا ظهرت لغة لاتينية جديدة تختلف اختلافاً بيّناً عن اللغة اللاتينية الكلاسيكية . وقد أطلق على تلك اللغة اللاتينية الجديدة اسم اللاتينية العاميـة Lingua Rustia ، أو الدارجة Lingua Vulgaris ، أو الشعبية Lingua Plebea

كان التعليم في روما منذ عهد الامبراطور تراجان يتضمن حلقتين : النحو والبلاغة . وليست الغاية من هذا التعليم إيجاد فصحاء فحسب ، بل رجال متعلمين قادرين على القيام بالوظائف العامة .

وكان الخطيب الروماني كوتتلين يطلب إلى التلميذ ألا يتعلق بمدرسة فلسفية معينة . وكانت موضوعات الأخلاق وما وراء الطبيعة لا تدرّس إلا بالقدر الذي يسنّي الفصاحة .

وقد استمرت الثقافة الرومانية القديمة بقوة العادة ، لأنها كانت سطحية وخالية من كل عمق وجذور ميتافيزيكية . كذلك استطاعت أن تتحد مع المسيحية التي هي سطحية مثلها . ولم يذهب الأدب الروماني الانساني السطحي بين عشية وضحاها تحت ضربات البرابرة . ففي جميع أجزاء الامبراطورية التي امتلأت بالبرابرة الجرمانيين حافظ السكان الأصليون على عاداتهم الفكرية . لكن تذوق الثقافة كان يقتصر على الشكل أكثر منه على الجوهر .

والجدير بالذكر ان المدارس الرومانية العامة زالت في الممالك البربرية الناشئة، وأصبح التعليم بأيدي معلمين خاصين . كذلك أُهملت المطالعات العامة . وليس في ذلك ما يدل على أن ملوك البرابرة كانوا خصوماً للثقافة الرومانية الكلاسيكية ، إذ ان معظم ملوك البرابرة كانوا محاطين بلفيف من المتعلمين . غير أن السواد الأعظم من البرابرة كان جاهلاً ، وبهجومهم على الامبراطورية تراجعت الثقافة . ولم يكن من هؤلاء البرابرة سوى أن عجلوا في زوال الحضارة الرومانية .

لقد كانت الثقافة الكلاسيكية تشكو الضعف منذ عدة قرون ، وكانت معرفة اللغة الإغريقية في حالة انحطاط . وباقتصار الثقافة الغربية على اللاتينية وحدها

ضاقت وتقلصت . كذلك أخذت اللاتينية العامية تبتعد عن اللاتينية الفصحى . وقد أدت شدة الاهتمام بالشكل إلى إهمال الدراسة عميقة الجوهر . إن ثقافة من هذا النوع لابد أن تنتهي بالفناء . وإذا عجل البرابرة المغيرون في القضاء عليها، فلس في عملهم ما يدل على أنهم ارتكبوا جرماً حقيقياً أو إثماً كبيراً .

حاول بعض الكتاب أن يقوموا بعملية إنقاذ الثقافة الرومانية الكلاسيكية مثل كاسيدوروس وايزيدوروس الاشبيلي وبدي الانكليزي وغيرهم . لكن هؤلاء لم يستطيعوا إنقاذ الثقافة القديمة لأنه كان محكوماً عليها بالموت ، وكل ما أنقذوه هو بعض أفكار منفرقة من بقايا المعرفة التي تؤلف جوهر تلك الثقافة . وتلك الأفكار أفادت فيما بعد كمواد استعمال لتأسيس ثقافة جديدة في عهد الفرنجة الكارولنجيين .

هل يجب أن نقول إن كل شيء مضى وكأن البرابرة لم يتوغلوا في أوروبا الغربية ؟ . إن مثل هذا الزعم بعبد عن الحقيقة والحس السليم . لقد لخص الأستاذ فرديناند لوط في كتابه « الغارات الجرمانية » ما فقدته اللغة اللاتينية لحساب اللغات الجرمانية . فمن ذلك أن الفرنجة البريون (جرمنوا) الضفة اليسرى لنهر الراين . كذلك طردت اللغة الجرمانية اللغة اللاتينية في الألزاس وسويسرا الألمانية عندما احتلها الآلامان . وإذا تكلم اليوم نصف سكان بلجيكا وشمال فرنسا باللغة الفلاماندية ، فذلك لأن الفرنجة البحريين قد أزاحوا اللغة اللاتينية عن هذه البلاد في القرن الخامس الميلادي .

أما في بريطانيا فقد كان تأثير البرابرة المغيرين جذرياً ، لأنهم أوغلوا في بلاد هي أقل بلاد أوروبا تأثيراً بالرومانية . لقد كانت لغة سكانها الأصليين السلتية (أو الكلتية) ، ما خلا بعض المستعمرات الرومانية حيث كان سكانها يتكلمون باللاتينية . واحتفظ البرابرة المغيرون الآنغلو ساكسون بلغتهم الأصلية، التي أصبحت اللغة الانكليزية ، بعد أن استعارت كثيراً من الكلمات اللاتينية بوساطة المبشرين المسيحيين ، ومن الفرنسية بوساطة النورمانديين الذين احتلوا إنكلترا بقيادة غليوم الفاتح في سنة ١٠٦٦ .

وأما غاليا فكانت على عكس البلدان الأوروبية الأخرى ، حيث أخذ البرابرة الفرنجة المغيرون لغة السكان الأصليين • وليست اللغة الفرنسية لغة الفرنجة بل اللغة اللاتينية الشعبية التي كان يتكلم بها الغاليون الرومانيون • بالإضافة إلى ذلك أن الفرنجة عندما تبنوها أدخلوا إليها كثيراً من كلماتهم • ومن هذه الكلمات تعابير عسكرية ومفردات حقوقية • وقد طردت هذه الكلمات ما يقابلها في اللغة اللاتينية ، لا لأنها أوضح أو أصح ، بل لأنها قصيرة وقوية البيان والدلالة • وتجدر الإشارة إلى أن عامية الكلمة تكون غالباً سبباً في نجاحها •

وجدير بالملاحظة أن اللغات التي تكلم بها الغزاة البرابرة من القوط الغربيين والشرقيين والبورجنديين والوندال قد زالت تماماً ولم تترك أثراً البتة • وهذه الملاحظة لها معناها : فهي تدل على فقر الحضارة الجرمانية • وكان من الممكن أن يكون دور البرابرة عظيم الأثر لو أنهم كانوا حملة ثقافة حقيقية وقابلة للتمثيل • غير أن فقر الثقافة الجرمانية يبدو بوضوح عندما نقارن تأثير الغارات البربرية الروحي ، الذي هو قريب من العدم ، بتأثير الفتوحات الإسلامية القائمة على الدين ، إذ جعل العرب المسلمون أبناء البلاد المفتوحة يعتنقون دينهم ويقبلون بحضارتهم الناشئة ونفوذهم • فلقد كان للعرب المسلمين حضارة ، في حين لم تكن للبرابرة الجرمانيين حضارة • لقد اكتفى الجرمانيون ببربرة الامبراطورية الرومانية ، لأنهم لم يكن لديهم ما يحل محل الثقافة الكلاسيكية الآخذة بالانحطاط ، وقد ألفوها وتبنّوها ، لأنها كانت أعلى من حضارتهم ، ولكنهم عجلوا بانحلالها وكان أثرهم فيها سلبياً •

أما حضارة العصر الوسيط فكانت حضارة جديدة أسهم فيها البرابرة الجرمانيون الذين تمدنوا وتكيّفوا مع المسيحية وقدموا لها مساعدتهم • ولكن تلك الحضارة لم تكن من صنع البرابرة ، لأن ثقافة العصر الوسيط لاتينية مسيحية أكثر بكثير مما هي جرمانية ، ولأن ما أتت به الغارات البربرية الكبرى من الناحية الروحية قريب من العدم (٥) •

ـ أثر الديانة المسيحية في الحياة الفكرية :

الصلة بين المسيحية واللاتينية قديمة ترجع إلى أيام الرومان • ولم يكن في استطاعة الأوروبيين في العصور الوسطى أن يتخلوا عن التراث الروماني في اللغة والآداب والعلوم ، لأنهم تقبلوا هذا التراث على أنه جزء من تراثهم الروماني • هذا وقد ظلت اللغة اللاتينية لغة الكنيسة الغربية في العصور الوسطى ، فدونت بها كتبها الدينية وقوانينها ونظمها وتعاليمها وأقامت بها طقوسها وصلواتها • وعلى هذا فإن كتب الأدب الروماني استمرت مفتوحة يقرؤها كل من حصل على قسط من الثقافة الدينية ، كما استمرت معرفة اللغة اللاتينية بمثابة مؤهل لابد منه لرجال الدين في الغرب الأوروبي •

وثمّة صلةٍ بين المسيحية وفلسفتها ، وما أصاب التراثَ الروماني الكلاسيكي من تدهور وانحطاط • لم يكن الدين المسيحي وفلسفته ليتفقان بحال مع بقايا الحضارة الرومانية الوثنية وتراثها الكلاسيكي القديم •. لقد كان التراث الروماني في نظر المسيحيين ضاراً عديم الفائدة لارتباطه بالوثنية وما كانت تدعو إليه من الحرية والانطلاق وتعدد الآلهة • فالفلسفة المسيحية تنادي بأن الحياة الدنيا ما هي إلا مطيّة زائلة إلى الدار الآخرة ، ولذا يجب على الفرد أن يَعدُّ نفسه لحياة الآخرة الأبدية بالصلاة والتبتل والعمل على مرضاة الله • وعلى هذا حرّمت المسيحية على الفرد أن يتمتع بمباهج الحياة الدنيا وملذاتها لكونها متعاً زائلة يجب أن ينهى نفسه عنها • أما الفلسفة الوثنية القديمة فكانت تتميز بالتحرر من كل قيود ، وتدعو إلى التمتع بالحياة وبالطبيعة وجمالها في شتى صورها ومظاهرها •

عندما انتشرت المسيحية في الغرب الأوروبي صبغت حياة المجتمع بصبغة خاصة ظهر أثرها جلياً في شتى المجالات ، وبخاصة فيما يتعلق بأمور العلم والتعليم والفكر والثقافة • فلم تسمح المسيحية للمفكر أو الأديب أو الفنان أن يعبّر عن أحاسيسه في رأي أو قصيدة أو لوحة تتعارض مع فلسفتها • ولم يكن مسموحاً بتدريس علوم وآداب اليونانيين والرومان القدماء لما فيها من عناصر وثنية لا تتفق

بحال مع المسيحية وما كانت تدعو إليه . وحاربت الكنيسة الأوروبية الكاثوليكية التراث الروماني القديم دون هوادة ، حتى إن ما تبقى منه في بداية العصور الوسطى كان ضئيلاً وضعيفاً في مستواه .

وهكذا شهدت القرون الأولى من العصور الوسطى تدهوراً وانهياراً في أمور العلم والتعليم ، كما تدهورت اللغة اللاتينية الفصحى ، فظهر أدب لاتيني جديد يختلف عما كان سائداً من قبل بطابعه المسيحي . وقد كان لهذا الأدب الجديد ، الذي أرسى قواعده آباء الكنيسة الأول أثره الواضح في الفكر الأوروبي الذي ساد في المرحلة الأولى من العصور الوسطى .

ومن بين آباء الكنيسة الأول تتحدث عن اثنين هما : القديس جيروم (٣٤٧ — ٤٢٠) St. Jerome ، والقديس أوغسطين (٣٥٣ — ٤٣٠) St. Augustine of Hippo .

— القديس جيروم :

كان القديس جيروم عالماً جواباً رحاله طاف أرجاء الامبراطورية ، وله مؤلفات عديدة مهمة منها :

١ — ترجمة حياة الرهبان المصريين وانظمتهم إلى اللغة اللاتينية التي ساعدت على انتشار الرهبنة في الغرب الاوروبي .

٢ — ترجمة التوراة السبعينية والاناجيل المسيحية من اليونانية إلى اللاتينية ، التي اصبحت تؤلف الكتاب المقدس الكاثوليكي الرسمي (الفلغاطة) . وقد تاثر علم اللاهوت تاثراً واضحاً بهذه الترجمة .

— القديس أوغسطين :

يُعدُّ القديس أوغسطين أعظم آباء الكنيسة اللاتينية في العصر المبكر

للمسيحية ، وهو من نوميديا (الجزائر) . وكان قبل اعتناقه المسيحية مدرساً لعلم البيان في إيطاليا ، وعلى دراية بالآداب اللاتينية القديمة . كذلك قرأ الكثير عن فلسفة اليونانيين وأدبهم في التراجم اللاتينية . وله مؤلفات عديدة سيطرت على الأدب المسيحي في عصره وتركت أثراً كبيراً في الفكر الأوروبي في العصور الوسطى.

واهم هذه المؤلفات ((اعترافاته)) التي تعدّ اول ترجمة يدونها شخص عن نفسه في تاريخ الأدب قاطبة . اما كتابه الذي وضعه باللاتينية باسم ((مدينة الله)) De Civitatae Dei فيعدّ اعظم مؤلفات عصره في الفلسفة المسيحية .

يتتبع كتاب « مدينة الله » مجرى التاريخ الروماني منذ الكارثة التي حلت بروما عندما احتلها ملك القوط الغربيين آلاريك في سنة ٤١٠ ، ويكشف عن الأزمات التي نزلت بها بسبب تمسكها بالآلهة الوثنية . ثم يناقش أوغسطين خطة الله من أجل تخليص الانسان وعودته إلى مدينة الله الخالدة في السماء .

كان المفكرون الوثنيون ، وبخاصة زوسيموس صاحب كتاب « التاريخ الجديد » قد قالوا : إن سقوط روما ليس إلا عقاباً أنزلته الآلهة الوثنية على الرومان ، لأنهم هجروا دين أجدادهم واعتنقوا المسيحية . وقد ردّ أوغسطين على تلك النظرية الوثنية بقوله :

((إن سقوط روما هو في حقيقته مرحلة تمهيدية لانتصار مملكة الله الخالدة حيث مصير الانسانية)) . وختم مناقشاته قائلاً : ((إن روما الخاطئة سقطت لتمهد السبيل لانتصار مدينة الله)) .

ودار جدل وخلاف لقرون طويلة حول المقصود بالمدينتين اللتين وصفهما اوغسطين في كتابه ، وهما مدينة الانسان ومدينة الله . فلقد أصر رجال الدين الغربيين ، في أثناء صراعهم مع السلطات العلمانية على القيادة والسمو ، على أن المقصود بمدينة الانسان الدولة العلمانية ، ومدينة الله الدولة الكنيسيّة . أما وجهة النظر المتفق عليها الآن فهي أن أوغسطين يعني بمدينة الانسان العالم الدنيوي الذي نعيش فيه ، ويقصد بمدينة الله السماء والحياة الأخرى الخالدة .

ـ الشعر المسيحي الديني :

تخلى الشعر الديني عن المقاييس الكلاسيكية القديمة ، وأصبح يعتمد على أوزان إيقاعية ، مما ساعد على ذيوع الترانيم والتراتيل والأناشيد الدينية . واشتهر من شعراء الشعر الديني القديس امبروز الذي عاش في القرن الرابع وكان أسقفاً على مدينة ميلان الايطالية . وهناك أيضاً الشاعر الاسباني برودنتيوس (٣٤٨ ـــ ٤٠٥) الذي امتاز بأشعاره الدينية المستوحاة من الكتب المسيحية المقدسة ، والتي كانت تبعث على الأمل وتحث على التواضع والبعد عن العظمة والكبرياء . وفي جنوب إيطاليا اشتهر القديس باولينوس (٣٥٣ ــ ٤٣١) بأشعاره الدينية أيضاً .

ـ الشعر الديني الدنيوي :

اشتهر من الفرنجة عدد من الشعراء المسيحيين الذين نظموا شعراً دنيوياً ، ومنهم أوزونيوس (٣١٠ ــ ٣٩٥) وسيدونيوس أبوليناريس ، أسقف كليرمون في القرن الخامس ، وفناتيوس فورتوناتوس (٥٣٠ ــ ٦٠٣) أسقف بواتييه .

ـ الكتـابات الفكريـة :

برع في الكتابات الفكرية عدد من الكتاب المسيحيين الذين تناولوا شتى الموضوعات في تآليفهم . ومن أبرز هؤلاء :

١ ـ الكاتب سولبيكيوس سفيروس :

كان سولبيكيوس (٤٠٠ م) من رجال القانون وقد تشبّع بروح الرهبانية ووضع مؤلفاً عن حياة القديس مارتين التوري الذي كان من معاصريه . ونبذ هذا الكاتب التراث الروماني الوثني الذي يتعارض مع التعاليم المسيحية ، إذ تساءل قائلاً :

« هل نشفع اجرومية اللغة اللاتينية لخلاص الروح الخالدة » ، « ما الفائدة التي نجنيها من الكتابة عن الآلهة أو الفلاسفة الوثنيين او أعمال سقراط ؟ » .

٢ ـ المؤرخ غريغوري التوري :

عاش المؤرخ غريغوري التوري في القرن السادس ، وكان أسقفاً على مدينة تورز الفرنسية . وقد كتب « تاريخ الفرنجة » ، الذي يعد المصدر الأساسي عن تاريخ غاليا في ذلك العصر . وبدأ تاريخه بالشكوى من تدهور العلم والتعليم وانحطاط الدراسات الدنيوية . ولكنه يستدرك فيقول : إن انحطاط هذه الدراسات لا يجب أن يؤدي إلى إهمال التاريخ . ولم يتقيد بقواعد النحو وأجرومية اللغة اللاتينية ، وإنما قصر اهتمامه على الأشخاص والأحداث . كذلك استخدم في كتابه اللغة اللاتينية الدارجة التي يفهمها عامة الناس .

٣ ـ الفيلسوف انيكيوس مانيلوس بوئثيوس (٤٧٠ ـ ٥٢٥) :

وهو من أشهر أدباء إيطاليا ، ذهب في صباه إلى أثينا ودرس فيها الأدب اليوناني والفلسفة ، ثم أصبح وزيراً لثيودوريك ملك القوط الشرقيين في إيطاليا ، لكنّه اتّهم بالتآمر على حياة مليكه وزجّ به في السجن ثم أعدم . وقد عمل بوئثيوس على التوفيق بين المسيحية والفلسفة اليونانية القديمة . وأعظم ما خلفه مؤلفه المعروف باسم « سلوى الفلسفة » ، الذي وضع بعضه شعراً وبعضه نثراً . وفحوى الكتاب أن الحياة الدنيا مبعث شقاء للانسان ، وإنّ السعادة يجب أن يتلمسها البشر عند الله . ومن أقواله المأثورة :

« يتجنب الحكماء شهوة الشهرة ، على الرغم من انها آخر مراتب الضعف والعجز » .

وترك هذا الفيلسوف عدداً غير قليل من الكتب المؤلفة والمترجمة عن اليونانية في شتى الميادين .

٤ ـ المؤرخ ماجنوس اوريلوس كاسيدوروس (٤٨٠ ـ ٥٧٥) :

عمل كاسيدوروس وزيراً لثيودوريك ملك القوط الشرقيين الذي احتل إيطاليا .

وكتب عدة رسائل إلى أصدقائه يتحدث فيها عن أحوال إيطاليا السياسية والحضارية، ثم جمعها ونشرها تحت اسم « متنوعات » Variae • كذلك وضع كتاباً عن تاريخ إيطاليا في القرن السادس ، ولكنه لم يصلنا • وفي أواخر أيامه أسس ديراً وهبه مكتبته الخاصة •

٥ ـ الكاتب مارتيانوس كابيلا :

ترك هذا الكاتب عدداً من المؤلفات من نوع الكتب العامة التي تمثل الثقافة الكلاسيكية القديمة في ظل المسيحية الجديدة •

٦ ـ المؤرخ القوطي جوردانيوس :

حفظ هذا المؤرخ القوطي في مختصره مادة كتاب كاسيدوروس المفقود عن تاريخ القوط ، كما وضع كتاباً عن تاريخ العالم • وقد أكسبه كتابه عن تاريخ القوط شهرة واسعة • ولكن الشخصية الرئيسة التي تحدث عنها في تاريخه هي أتيلا ملك الهون • وتميز أسلوب جوردانيوس اللاتيني بالضعف والركاكة ، في وقت تدهورت فيه اللغة اللاتينية وداخلتها ألفاظ جرمانية غريبة •

٧ ـ البابا غريغوري الأول (٥٩٠ ـ ٦٠٤) :

كان البابا غريغوري الكبير من ألدّ أعداء الثقافة الرومانية ، لما فيها من عناصر وثنية نبذتها المسيحية • وقد اشتهر بالتقشف والتقوى ، وقام بتأسيس عدد من الأديرة ، كما امتاز بنشاطه في ميدان التبشير • ومن أهم كتاباته سلسلة من المواعظ عُرفت باسم : « Homilies » ، وغدت مصدراً أساسياً للوعاظ في العصور التالية • وله أيضاً شروح وتعليقات على أسفار الكتاب المقدس • ومن مؤلفاته أيضاً كتاب في الأخلاقيات المسمى « Maralia » ، الذي تضمن تعليقات على سِفر أيوب في التوراة • وله بالإضافة إلى ما تقدم كتاب « العناية الربانية » ، وهو عبارة عن إرشادات وتوجيهات لرجال الدين • أمّا كتابه « محادثات » فيتضمن سلسلة من

القصص والأساطير عن حياة القديسين الذين يعيشون في الصحارى ومعجزاتهم • وخصص المؤلف كتاباً كاملاً منها للقديس بندكت • وتعدّ مؤلفات البابا غريغوري الأول جزءاً أساسياً من التراث المسيحي في الغرب الأوروبي •

٨ – المؤرخ الايرلندي بيـدي Bede (٦٧٥ – ٧٣٥) :

في القرن الثامن شـهدت إيرلندة نهضـة فكرية كان على رأسها الكنسية والأديرة الايرلندية • وقد تمثلت تلك النهضة بالحفاظ على الأدب الكلاسيكي من العبث والضياع ونشر المعارف الكلاسيكية في دول أوروبا الغربية • وقد تزعم تلك النهضة المؤرخ الشهير بيدي والفيلسوف ألكوين •

تتلمذ بيدي على يد الشاعر بيسكوب ، الذي كان قد أحضر مؤلفاته من روما إلى إنكلترا • وقضى بيدي حياته في دير جارو منكباً على الدراسة ، كما امتاز بحاسة تاريخية أصيلة •

كتب بيدي عدة مؤلفات أهمها كتابه المسمى « التاريخ الكنسي للأمـة الانكليزية » ، وكتابه « حياة القديس كثبرت » الذي ألّف جانباً منه بالشعر وجانباً بالنثر • وله أيضاً كتاب « حياة رهبان ديّري ويرماوث وجارو » ، وتعليقات على الكتاب المقدس ، ومجموعة من العظات الدينية •

وقد نظر بيدي بإعجاب إلى التراث الروماني القديم • أما أسلوبه اللاتيني فيمتاز بالسلامة والوضوح • كذلك تضمنت كتاباته أفكاراً وآراء كانت تعدّ جديدة وقتذاك ، وهي تتعلق بضرورة تقدم الجنس البشري عن طريق العلم والدين •

٩ – الكوين Alcuin :

بعد وفاة بيدي بقليل ولد ألكوين (٧٣٥ – ٨٠٤) وصار شاعراً يكاد يبزّ بيدي في شهرته • وفيما بعد استعان به إمبراطور الفرنجة شارلمان ، فأضحى بطل النهضة الحضارية العظيمة التي عرفت بالنهضة الكارولنجية في القرن التاسع ، والتي هيأت بدورها الجو لنهضة القرن الثاني عشر المعروفة بالنهضة العلمية الأولى [٦] •

النهضة العلمية في عهد شارلمان وخلفاء

ـ تعريف النهضة الكارولنجية :

شكل قيام الدولة الكارولنجية في أواسط القرن الثامن نقطة تحول كبيرة في الحياة الفكرية للغرب الأوروبي • فمي عهد شارلمان قامت نهضة علمية في فرنسا ثم امتدت إلى ألمانيا وإيطاليا وإسبانيا • وقد عرفت تلك النهضة باسم « النهضة الكارولنجية » ونسبت إلى شارلمان ، نظراً للجهود الكبيرة التي بذلها في سبيل قيام تلك النهضة ، مستهدفاً بذلك تحقيق الأمور التالية :

١ ـ رفع المستوى العلمي والثقافي لرجال الدين من كنسيين ورهبان •

٢ ـ الإفادة من المتعلمين في إدارة جهاز الحكم في مملكته •

٣ ـ إمداد حركة التبشير بعدد من رجال الدين المتنورين •

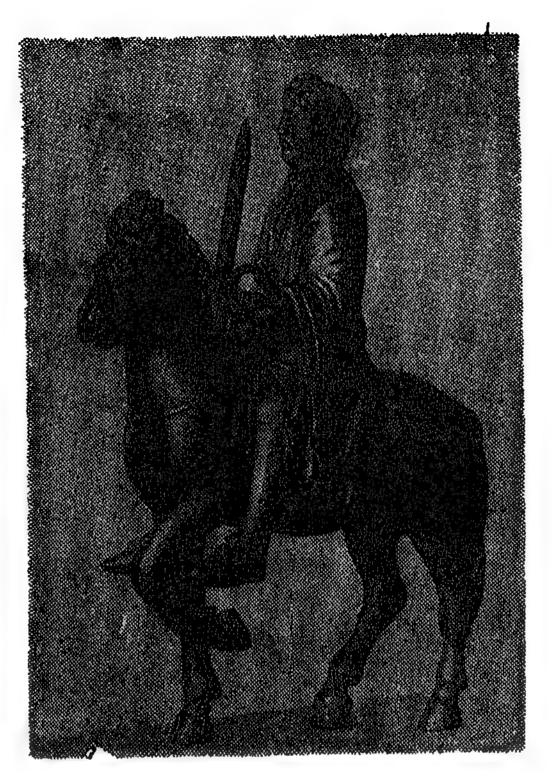
٤ ـ تبسيط فهم نصوص الكتب المقدسة ومؤلفات آباء الكنيسة ، حتى يتسنى لمعظم فئات الشعب الاطلاع عليها •

٥ ـ تصحيح الكتب التي تعرضت خلال القرون المظلمة للحذف والإضافة والتشويه [٧] •

ـ الجهود التي بذلها شارلمان في سبيل النهضة :

١ ـ عني شارلمان بتثقيف نفسه ، إذ أقبل على دراسة اللاتينية واليونانية والخطابة والفلك •

٢ ـ استدعى إلى بلاطه في عاصمته آخن (إكس لا شابل) أشهر علماء عصره



الشكل رقم (٤٢)
شارلمان (تمثال من البرونز صنع في القرن السادس عشر)

في الغرب الأوروبي للاشراف على أمور العلم والتعليم، كما أجزل لهم العطايا ومنحهم الرعاية والحماية •

٣ ـ حث الأديرة والكنائس على إقامة مدارس لتعليم الرهبان ورجال الدين وجميع أبناء الشعب دون تمييز بين فقير وغني أو حرّ وعبد •

٤ ـ وجه عدة خطابات إلى أساقفة غاليا ورؤساء الأديرة حثهم فيها على تعليم الآداب الدينية والدنيوية •

٥ ـ طوّر مدرسة البلاط الملكي في آخن وسمح بتدريس الفنون السبعة الحرة فيها وهي (النحو ، البلاغة ، الخطابة ، المنطق ، الحساب ، الموسيقى ، الهندسة) •

٦ ـ أرسل المبعوثين إلى سائر الجهات لشراء الكتب اللازمة لمدرسة البلاط •

٧ ـ واظب على التفتيش على مدارس الأديرة والأسقفيات ليتحقق من حسن سير التدريس فيها •

ـ خصائص النهضة الكارولنجية :

١ ـ لم تكن النهضة الكارولنجية نهضة تلقائية منبعثة من عوامل ومؤثرات حضارية كامنة ، وإنما ولدت في بلاط الملك وعلى يديه ، فظلت منتعشة ما عاش صاحبها ، حتى إذا مات ماتت معه أو بعد موته بقليل •

٢ ـ لم يكن اهتمام شارلمان ينصب على خدمة العلم لذاته ، وإنما كانت له أهداف سياسية ودينية وراء جهوده في نشر العلم وفتح المدارس •

٣ ـ كانت النهضة الكارولنجية حركة إحياء للآداب اللاتينية القديمة ولم تكن حركة ابتكار وتجديد •

٤ ـ اعتمدت النهضة الكارولنجية على التراث اللاتيني ، ولم تحاول الإفادة من التراث اليوناني والتراث العربي الإسلامي •

٥ ـ بعد وفاة شارلمان انشغل أولاده وأحفاده في الصراع على السلطة والنفوذ ، فأهملوا رعاية شؤون العلم والتعليم (٨) •

ـ مراحل النهضة الكارولنجية :

مرت النهضة الكارولنجية بثلاث مراحل أساسية هي :

ـ المرحلة الأولى :

تشمل الفترة من سنة ٧٧٣ ـ حتى سنة ٧٨٦ ، وفيها كان الدور الأكبر لرجال المعرفة الايطاليين ، وأبرزهم بطرس البيزوي وباولينوس وبولس الشماس •

ـ المرحـلة الثانيـة :

تشمل الفترة من سنة ٧٨٦ حتى سنة ٨٠٠ ، ويمكن تسميتها « عصر ألكوين » لأنّ النهضة الكارولنجية بلغت ذروتها على يديه .

ـ المرحـلة الثالثـة :

تشمل الفترة من سنة ٨٠٠ حتى وفاة شارلمان في سنة ٨١٤ ، وكانت فترة تدهور تدريجي ، وأبرز أعلامها تيودولف وأنجلبرت وإجنهارد (إينهارد) .

ـ اعـلام النهضة الكارولنجية :

ـ اعلام المرحلة الأولى من النهضة الكارولنجية :

١ ـ بطرس البيزوي Peter of Pisa :

أصله من مدينة بيزا الايطالية . تلقى علومه في مدرسة في مدينة بافيا ، ثم انتقل إلى غاليا حيث حظي بشرف تعليم شارلمان . وكان بطرس متخصصاً في النحو وقواعد اللغة اللاتينية .

٢ ـ باولينوس الاكويلي Paulinus of Aquileia :

كان أسقف مدينة أكويليا في لومبارديا الايطالية ، فأشرف على تربية أبنـاء ديدير آخر ملوك اللومبارديين، الذي أسقطه شارلمان في سنة٧٧٤ . وانتقل باولينوس إلى غاليا مع شارلمان ، الذي استغل نشاطه في النواحي التعليمية والدينية .

٣ ـ بولس الشماس Paul the Deacon :

كان بولس الشماس نبيلاً لومباردياً تثقف ثقافة عالية وعقد صلات مع البيت الملكي اللومباردي في عهد الملك ديدير . وبعد سقوط المملكة اللومباردية بيـد شارلمان رحل بولس الشماس إلى دير مونت كاسينو ، وهناك وضع بتكليف من شارلمان كتاب « تاريخ اللومبارديين » ، فذهب به من الأصول الأسطورية حتى

سنة ٧٤٤ م • وقد لاقى ذلك الكتاب نجاحاً عظيماً وأكسب مؤلفه لقب « أبا التاريخ الايطالي » • وكان بولس الشماس ضليعاً في النحو اللاتيني فوضع مختصراً لمعجم بومبيوس فستوس •

ـ اعلام المرحلة الثانية من النهضة الكارولنجية :

١ ـ الكوين Alcoin :

كان ألكوين إنكليزياً ولد في يورك نحو سنة ٧٣٥ ـ أي في وقت كانت النهضة الفكرية ساطعة في إيرلندا وإنكلترا ، بنتيجة عدم تعرضهما لغزوات البرابرة الفيكنغ حتى القرن التاسع ، ووصول البعثات التبشيرية إليهما من روما منذ مطلع القرن السابع • درس ألكوين بمدرسة يورك التي امتلأت بمختلف المؤلفات القديمة ، وذكر أسماء المقررات التي كانت تدرّس عندئذ ، ومنها النحو والبلاغة والقانون والفلك والرياضيات وعلوم طبيعة الانسان والحيوان والأرض والبحار ، فضلاً عن العلوم الدينية • وفي سنة ٧٨١ التقى ألكوين شارلمان في إيطاليا ، فطلب إليه شارلمان أن يصحبه إلى غاليا ، فلبى دعوته وصار مستشاراً له ومشرفاً على شؤون الثقافة والتعليم في مملكته ، فعمل على نقل مظاهر النهضة الايرلندية والانكليزية إلى غاليا ، حيث تعهدها بجهوده وعنايته •

بذل ألكوين جهوداً كبيرة في خدمة العلم والتعليم ، إذ عمل على تصحيح المخطوطات القديمة وإصلاح المدارس الدينية ونشر التعليم في جميع مدن غاليا • وقد راجع ألكوين الترجمة اللاتينية للكتاب المقدس (التوراة والإنجيل) وأهدى نسخة مصححة منه إلى شارلمان ، كما استعان ببعض العلماء في تصحيح أناجيل متّى ومرقس ولوقا ويوحنا ، فتمّ هذا العمل بعد وفاته وقبل وفاة شارلمان بسنة واحدة • وأمر ألكوين بنسخ عدة صور عن الكتب المصححة وتوزيعها على الكنائس والأديرة لتنسخ عنها نسخ أخرى جديدة • وعمل ألكوين مع شارلمان على تعليم رجال الدين وتثقيفهم ، ليتمكنوا من إصلاح أنفسهم ثم إصلاح المجتمع العلماني الذي يعيشون في وسطه • وإلى ذلك العصر ترجع شهرة معظم المدارس الديرية في غاليا •

أما عن جهود ألكوين كمعلم فقد قضى الفترة الواقعة بين سنتي ٧٨٢ ـــ ٧٩٦ مقيماً في بلاط شارلمان حيث تولى رئاسة مدرسة القصر وتنظيمها • وكانت مدرسة القصر (أكاديمية البلاط) Acadèmie Palatine قائمـــة منذ عهد شارل مارتل ، ولكن كان ينقصها النظام والتبلور والعلم الحقيقي • واستطاع ألكوين أن يجعل من تلك المدرسة عاملاً فعّالاً في حياة الدولة بعد أن نظمها على أسس سليمة • وكان من تلاميذ ألكوين في مدرسة القصر شارلمان نفسه وأبناؤه الثلاثة وابنته وأخته وبعض معاونيه ومستشاريه ، بالإضافة إليهم جمع من أبناء الأشراف وذوي المواهب من غير أبناء الأشراف • وجدير بالذكر أن مدرسة القصر كانت تصحب شارلمان أينما ذهب وحيثما حل ، فهي بمثابة مركز علمي متنقل من نوع فريد • وأرسل ألكوين يطلب الكتب لمدرسة القصر من البلاد القريبة والبعيدة • وكتب ألكوين بعض مبادىء المواد التي يدرّسها لتلاميذه في اللغة والنحو والبلاغة والمنطق وغيرها• على أن الدراسات الدينية ظلت المحور الأساسي الذي دار حوله النشاط العلمي داخل مدرسة القصر وخارجها •

عندما بلغه الكبر اعتزل ألكوين بلاط شارلمان ورحل في سنة ٧٩٦ إلى دير القديس مارتين في مدينة تور الفرنسية ، حيث بقي فيه حتى مماته في سنة ٨٠٤ م • وفي ذلك الدير واصل جهوده في تغذية مكتبته بالمخطوطات وتنظيم مدرسته حتى أصبحت نموذجاً للمدارس الديرية والكنسيّة • وخلف ألكوين في الإشراف على مدرسة القصر رجل إيرلندي يدعى كلمنت ، لكنه لم يستطع أن يضفي على تلك المدرسة الحيوية التي أضفاها عليها ألكوين •

ويقسم إنتـــاج الكوين الفكـــري إلى اربعـــة جوانب : ١ ـ الجانب الديني ، ٢ ـ الجانب الفلسفي ، ٣ ـ الجانب التاريخي ، ٤ ـ جانب الشعر •

ولم يكن ألكوين كاتبـــاً مبدعاً أو مجدداً عظيماً ، لكن شهرته ترجع إلى شخصيته الجذابة وسعة اطلاعه وجهوده الكبيرة في نشر الثقافة والنهوض بالتعليم • ويكفي ألكوين فخراً أنه صاحب الفضل في الربط بين علوم الكنيسة والأدب الديني

من جهة ، والعلوم الدنيوية والأدب الكلاسيكي من جهة أخرى . وهكذا كانت حياة ألكوين وجهوده وإنتاجه مرآة للنهضة الثقافية والفكرية في عهد شارلمان (9) .

ـ اعلام المرحلة الثالثة من النهضة الكارولنجية :

١ ـ اجنهارد (إينهارد) Einhard :

دخل إينهارد في خدمة شارلمان وتعلم في مدرسة القصر الملكي ، وعندما بلغ سن الرجولة جعله شارلمان مديراً للأشغال العامة في المملكة . تزوج إينهارد من ابنة شارلمان (إما) وصار السكرتير الخاص له . وبعد وفاة شارلمان كتب إينهارد كتاباً تاريخياً عن حياته يُعرف باسم « سيرة شارلمان » Vita Karoli أو « حياة الملك » . وامتاز هذا الكتاب بالإيجاز والوضوح وبراعة التصوير ، حتى يمكن القول إنه الكتاب الوحيد في ذلك العصر الذي يصح أن نعدّه مؤلفاً تاريخياً بمعنى الكلمة . وكان إينهارد قد اطلع على تاريخ القياصرة الرومان للمؤرخ الروماني سويتونيوس (٦٩ ـ ١٤١) ، فاتبع منهجه في كتابة تاريخه « سيرة شارلمان » .

بدأ إينهارد كتابه بعرض عام لأحوال غاليا في أواخر عصر الميروفنجيين ، ثم تطرق إلى انتقال السلطة الملكية إلى الكارولنجيين . وبعد أن تكلم بإيجاز عن حكم بيبان القصير وعن المرحلة الأولى من حكم شارلمان انتقل إلى التحدث عن عصر شارلمان بالتفصيل . وخصص إينهارد الجزء الأول من كتابه هذا للتحدث عن حروب شارلمان كما خصص الجزء الثاني للتحدث عن نظام الحكم والإدارة في المملكة الكارولنجية . أما الجزء الثالث فقد خصصه للتحدث عن حياة شارلمان الشخصية والعائلية . كذلك كتب إينهارد بعض الأشعار وكتاباً عن السكسون لكنه لم يصلنا . وحظي إينهارد برعاية لويس التقي بن شارلمان ثم ساءت العلاقات بينهما ، فاعتزل خدمة البلاط وقضى بقية حياته راهباً في أحد الأديرة إلى أن توفي في سنة ٨٣٩ (10) .

٢ ـ تيودولف :

كان تيودولف قوطي الأصل استدعاه شارلمان إلى بلاطه ثم عينه أسقفاً في

مدينة أورليان ، فاهتم بتنظيم التعليم في مدارس أسقفيته . ويعدُّ تيودولف أبرز شعراء عصره ، إذ نظم قصيدة من تسعماية وستة وخمسين بيتاً عنوانها « نصيحة إلى القضاة » وصف فيها المفاسد الاجتماعية والإدارية في ذلك العصر . كذلك كتب تيودولف نحو ستين قطعة شعرية تتضمن موضوعات مختلفة . واستعان لويس التقي ، ابن شارلمان ، بتيودولف في عدة بعثات ، ثم غضب عليه وعزله من أسقفيته ، ومات في سنة ٨٢١ (١١) .

٣ ـ انجلبرت :

كان أنجلبرت رجلاً علمانياً اشتهر في مجال الأدب ، فأطلق عليه معاصروه لقب هوميروس . واستدعاه شارلمان إلى بلاطه ، فتغنى في شعره بالملك وأبنائه وبناته ، كما أحب ابنته بيرتا وتزوجها . وفي آخر حياته اعتكف في دير القديس ركويير ، فجمع لمكتبة هذا الدير أكثر من مائتي كتاب ، ثم توفي في السنة التي توفي فيها شارلمان (٨١٤) (١٢) .

ـ التعليم والمدارس والمكتبات :

يبدو لنا حرص شارلمان على نشر التعليم من الرسائل العديدة التي بعث بها إلى الأساقفة ومقدمي الأديرة يستحثهم فيها على فتح المدارس والعناية بتعليم الصغار والكبار . وفي سنة ٧٨٩ أمر شارلمان بتعميم المدارس في جميع الأديرة والكاتدرائيات داخل دولته ، حتى يتعلم الأطفال في تلك المدارس الترانيم والموسيقى الدينية ، فضلاً عن القراءة والكتابة والحساب والنحو . كذلك أمر بتزويد المدارس بنسخ مصححة من الكتب الدينية .

وجاء في منشور أصدره تيودولف أسقف مدينة أورليان لقساوسة أسقفيته ورهبانها : ان تعليم الأطفال في المدارس الدينية يجب أن يكون مجانياً ، ولا يؤخذ منهم أي أجر سوى ما يتبرع به الخيّرون من أهالي الأطفال القادرين . كذلك حثّ تيودولف وغيره من الأساقفة المعاصرين الأهالي على إرسال أبنائهم إلى المدارس ،

وعدم السماح لهم بالانقطاع عنها إلا بعد أن يتموا تعليمهم ، مما يشير إلى أن التعليم عندئذٍ اتخذ صفة شبه إلزامية •

إلى جانب هذا النوع من المدارس الأولية في المدن والقرى وجدت مدارس عليا للذين يرغبون في إتمام تعليمهم • وقد برزت من المدارس الديرية العليا في ذلك العصر مدرسة تور وفولدا وريشينو والقديس جال ولورخ وفليري والقديس ركويير وكوربي • أما مدارس الكاتدرائيات العليا فمن أشهرها مدرسة ميتز وكامبراي وريمس وشارتر وأوكسر •

كان هدف شارلمان من رعاية التعليم دينياً وسياسياً ، إذ أراد رفع المستوى الثقافي لرجال الدين من جهة ، وإيجاد جهاز من المتعلمين يتولى إدارة شؤون الدولة من جهة أخرى • وأدى قيام المدارس في عهد شارلمان إلى إحياء اللغة اللاتينية بوصفها لغة العلم والأدب ، فاستطاعت تلك اللغة أن تقاوم السيل المنهمر من الألفاظ الجرمانية الدخيلة والتحريف في الصياغة وأساليب تركيب الجمل •

وكانت العناية بالكتب والمكتبات تمثل مظهراً من مظاهر النهضة الكارولنجية • لقد دأب خريجو المدارس على نسخ الكتب الدينية وغير الدينية ، ومنها كتب كاسيدوروس وبوئثيوس وبيدي وغيرهم • واستجابة لرأي ألكوين ولرغبة شارلمان زودت معظم الأديرة بجماعة من الكتبة المهرة من رهبـــان وعلمانيين ، فجاءت مخطوطات ذلك العصر آية لا نظير لها في الدقة والإبداع والاتقان • وأدت كثرة المنسوخات إلى وفرة الكتب والإكثار من تداولها • وقد امتلك شارلمان نفسه عدداً ضخماً من الكتب أوصى ببيعها بعد وفاته والإحسان بثمنها على الفقراء والمساكين • وامتازت الأديرة المعاصرة لشارلمان بمكتباتها الغنية التي ضمت كتباً في مختلف ألوان العلوم الدينية وغير الدينية.[١٣] •

ـ النهضـة الادبيـة :

ـ الأدب الديني :

من الطبيعي أن تؤدي العناية بالتعليم والمدارس والمكتبات إلى نهضة أدبية كبرى هيّ في الواقع المظهر الرئيس للنهضة الكارولنجية • لقد جمع شارلمان حوله جماعة من الأدباء والمؤرخين والشعراء ، مما هيأ للنهضة الكارولنجية عاملاً أساسياً من عوامل الازدهار • ولم ترتبط النهضة الكارولنجية بعلم معين ، وإنما كانت نهضة عامة شاملة عالجت مختلف ألوان المعرفة التي عرفت في ذلك العصر • ولكن تلك النهضة اكتسبت طابعاً دينياً نظراً للعلاقة التي ربطت شارلمان بالكنيسة الغربية وأملت عليه سياسته واتجاهاته • وعلى هذا كانت الصدارة في الجانب الأدبي للأدب الديني ، وقد تحدثنا فيما سبق عن نماذج من ذلك الأدب الديني •

ـ التـاريخ :

احتل التاريخ المكانة الثانية في آداب النهضة الكارولنجية • وامتازت الكتابات التاريخية في ذلك العصر بحسن صياغتها وجمال أسلوبها • وفيما عدا سِيَر القديسين اهتم المؤرخون بكتابة الحوليات المحلية القصيرة ، إلى جانب الحوليات العامـة الكبـيرة التي أشرف عليها رجـال البـلاط وسميت بالحوليات الملكية Annales Royales • وظلت الحوليات الملكية تسرد تاريخ الكارولنجيين منذ عهد شارل مارتل حتى آخر ملك كارولنجي • وسبق أن تحدثنا عن المؤرخ إينهارد الذي كتب « سير شارلمان » ، لكننا نشير هنا إلى أن هذه السيرة أضحت مثلاً يحتذى في الكتابات التاريخية اللاحقة ، فقام ثلاثة من المؤرخين بترجمة حياة لويس التقي ، ابن شارلمان وخليفته •

ـ الشـعر :

وفاقَ الشعرُ النثرَ في الكم لا في النوع • فلقد غلب استخدام الشعر في

مختلف أنواع الكتابات الدينية والتاريخية والمراسلات والقصص وغير ذلك ٠ وهكذا صار من المألوف نظم مقطوعات من الشعر لتزيين أبواب الكنائس ومنازل الأثرياء وأغلفة الكتب وشواهد القبور ٠ وبالإضافة إلى ما كتبه في الشعر كل من بولس الشاس وألكوين وأنجلبرت وتيودولف ، بقي محفوظاً لدينا من ذلك العصر نحو ثمانين قطعة شعرية من أغاني المآثر تناولت أعمال شارلمان وأحداث أخرى تمت في عهده ٠ وتقع مجموعة الشعر اللاتيني في العصر الكارولنجي Poetae Latini Aevi Carolin في أربعة مجلدات ضخمة ، كما أنها عالجت موضوعات متنوعة على الأوزان القديمة والوسيطة ٠ لكن ذلك الشعر ضعيف الصلة بالحياة الشعبية العامة ويغلب عليه الطابع الديني ، لأنّ معظم ناظميه كانوا من رجال الكنيسة واستمدوا آراءهم وإلهامهم من شعراء المسيحية السالفين مثل برودنتيوس وفورتناتوس ٠

ومن شعر ذلك العصر أغاني المآثر المعروفة باسم Chansons de Gaste وهي قصائد تناولت سير البطولة ٠ وأهم تلك الأغاني الشعبية المجموعة التي تناولت شارلمان وأهم الأحداث التي تمت في عهده ومنها : أغنية « حج شارلمان » (إلى الأماكن المقدسة في روما) ، و « أنشودة رولان » ٠ وقد انعكست في تلك الملاحم صورة حية للمجتمع الأوروبي الاقطاعي ، كما ألقت الضوء على فرسان العصور الوسطى وحياتهم ٠ واحتل شارلمان مكانة بارزة في أغاني المآثر التي كتبت باللغة الشعبية الدارجة ٠ وفيما بعد ـ أي في عصر التوسع الأوروبي « الصليبي » وغزو العالم العربي الإسلامي ـ كانت تلك الملاحم الشعبية تحضّ على الاستبسال في القتال حتى الموت ٠

وتعد أنشودة رولان التي تدرر حوادثها الأصلية في عصر شارلمان ، من أهم الملاحم الشعرية في العصور الوسطى ، إذ تغنى مؤلفها (مجهول الاسم) ببطولة شارلمان ورجاله ، وعلى رأسهم القائد رولان ، في حروبهم ضد العرب المسلمين باسبانيا في كثير من المبالغة والتهويل ٠ وفي زمن الحروب الصليبية تحولت أغنية

رولان إلى أسطورة شعبية الهدف منها إثارة الروح الحربية لدى الأوروبيين ودفعهم لقتال العرب المسلمين •

ويبدو أن جانباً كبيراً من هذه الأغاني الشعبية كتبه رجال الدين أنفسهم واستغلته الكنيسة الغربية الكاثوليكية كنوع من الدعاية الدينية في ذلك الزمن الذي كانت فيه العقيدة تسبق العقل والايمان يتقدم على الفكر • وقد اتخذت تلك الأشعار شكل ملاحم شعبية غنائية ، الأمر الذي ساعد على سرعة انتشارها وشيوعها بين الناس •

ـ اللغات : اللاتينية الفصحى ، اللاتينية الدارجة (الرومانسية) ، الجرمانية :

ظلت اللغة اللاتينية الفصحى اللغة الرسمية المستخدمة في الأدب الراقي والإدارة الحكومية في العصر الكارولنجي • ولما كان من الصعب أن يستعمل جميع أفراد الشعب اللاتينية الفصحى في حياتهم العامة والخاصة فقد شاع استخدام اللاتينية الدارجة أو الشعبية « Latin Rustique » في معظم أنحاء غاليا في العصر الكارولنجي • وفيما بعد أطلق على هذه اللغة الشعبية اسم « اللغة الرومانية » (الرومانسية) تمييزاً لها من اللغة اللاتينية الفصحى • وفي سنة ٨١٣ قرر الأساقفة الذين حضروا المجمع الديني في مدينة تور ضرورة وضع التعاليم والمواعظ الدينية في الصيغة الشعبية الدارجة كي تفهمها عامة الشعب • ولم يتخلَّ شارلمان عن الجرمانية لغة أجداده الأوائل من الفرنجة ، لذلك أمر بوضع قواعد اللغة الفرنجية الجرمانية وأطلق أسماء جرمانية على أشهر السنة • كذلك أمر شارلمان بجمع الأشعار الجرمانية القديمة التي تناولت تاريخ الفرنجة في عصر البطولة [١٤] •

ـ الحياة الفكرية في اوروبا بعد شارلمان :

١ ـ الفترة المظلمة (٨٥٠ ـ ١٠٠٠) :

سرعان ما اعترى الفتور النهضة الكارولنجية منذ سنة ٨٠٠ ، ولم يلبث ذلك

الفتور أن تحول إلى تدهور تدريجي بعد وفاة شارلمان في سنة ٨١٤ ، إذ لم يكد ينتصف القرن التاسع إلا وكانت أوروبا قد دخلت في دور جديد مظلم امتد قرناً ونصف (٨٥٠ ـ ١٠٠٠) أي حتى نهاية القرن العاشر • ونستطيع أن تتلمس أسباب ذلك التخلف الثقافي في ثلاثة عوامل هي :

آ ـ تصدع امبراطورية شارلمان بعد موته ، بنتيجة تقسيم المُلْك بين الأبناء وتحطيم وحدة الامبراطورية الكارولنجية ، إذ قسم شارلمان إمبراطوريته بين أبنائه الثلاثة ، ثم قسّم ابنه لويس التقي دولته بين أبنائه الثلاثة ، فنشبت الحروب فيما بينهم وانتهت بمعاهدة فردان في سنة ٨٤٣ التي تمخض عنها تقسيم الامبراطورية الكارولنجية إلى ثلاث ممالك : فرنسا ، ألمانيا ، إيطاليا • وقد تواصلت التجزئة والحروب الأهلية حتى انقرضت أسرة شارلمان الكارولنجية وقامت على أنقاضها أسرة كابيه في فرنسا والأسرة السكسونية في ألمانيا •

ب ـ أدت الحروب الأهلية بين أبنـاء شارلمان وأحفاده إلى فقدان القدرة الدفاعية في الدولة الكارولنجية ، مما شجع الشعوب المحيطة بها على مهاجمة أراضيها والقيام بأعمال النهب والتدمير والاستيطان فيها • وأبرز هذه الشعوب المغيرة ، الفيكنغ (رجال الخلجان ، الشماليون ، النورمان) والعرب المسلمون في إسبانيا وشمال إفريقيا ، والمجريون (أصلهم من منغوليا) • ولاشك في أن هجمات تلك الشعوب العدوانية ألحقت بالامبراطورية الكارولنجية أضراراً فادحة ، إذ أودت بحياة الكثيرين من أبنائها ، واقتطعت أجزاء من أقاليمها ، وألحقت الخراب والدمار في مدنها وحضارتها وثقافتها ، كما استنفذت مواردها الاقتصادية والمالية •

جـ ـ رسوخ النظام الاقطاعي القائم على الاقتصاد الطبيعي والارتباط بالأرض ، وانقسام المجتمع إلى طبقات أفقية في أعلاها مجموعة من السادة الأشراف لا يهمهم التزود بالعلم والمعرفة ، وإنما كان همهم الأول والأخير تعلم الفروسية والتدريب على فنون القتال والحرب ، وفي قاعدتها غالبية عظمى من العبيد والأقنان والفلاحين المرغمين على العمل في الأرض ولا تتاح لهم فرص التعليم • وفي هذا الوسط

الاجتماعي كانت نسبة المتعلمين قليلة جداً وتكاد تنحصر في رجال الدين • كذلك أضحى الإنتاج الأدبي يدور حول تمجيد السادة الاقطاعيين من رجال الدين والدنيا على السواء •

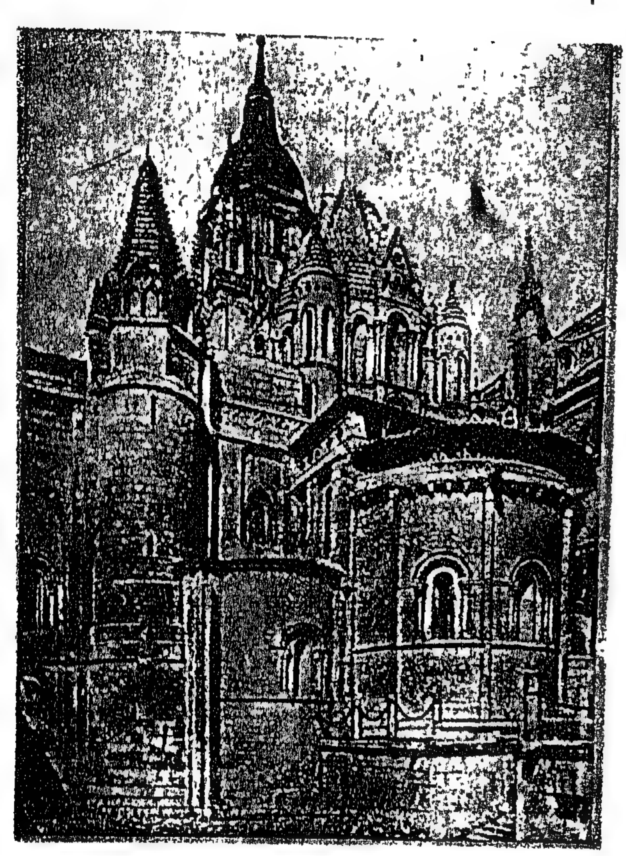
على أنه من المغالاة أن نقول : إن الحياة الفكرية في أوروبا الغربية قد تعطلت تماماً فيما بين منتصف القرن التاسع ونهاية القرن العاشر • فلقد استمرت بعض الأديرة البندكتية في الغرب الأوروبي كمراكز أساسية للنشاط الثقافي ، وكان من المحتمل أن تستمر المدارس التي رعاها شارلمان في أداء رسالتها العلمية لو توفر لها الأمن • ولكن هذا الأمن لم يكن موجوداً في القرنين التاسع والعاشر •

ـ دور الأديرة البندكتية في الثقافة والتعليم :

بعد وفاة شارلمان وتقسيم دولته بين أبنائه وأحفاده ، ساد الظلام ثانية في أوروبا الغربية حتى أواخر القرن العاشر ، حيث تعطلت الحياة الفكرية تعطلاً يكاد أن يكون تاماً • لكن الأديرة البندكتية ظلت تؤدي رسالتها التعليمية والثقافية كما كان الحال من قبل • وقد سميت تلك الفترة باسم « العصر البندكتي » ، نظراً لما قامت به الأديرة البندكتية من نشاط واضح في هذا المضمار وقتذاك •

لقد انتقل إلى الأديرة البندكتية تراث النهضة الكارولنجية وظلت تحافظ على الدراسات الكلاسيكية الرومانية ، إلى جانب الاهتمام بالشؤون الدينية • ففي كل ديـر من أديرتهـا وجدت نـواة لمكتبة ، ومكان للنسخ زُوِّدَ بالأدوات اللازمة لنسخ المخطوطات • وهكذا قدمت الأديرة البندكتية خدمة كبيرة للحياة الفكرية في أوروبا حيث حفظت في مكتباتها أمهات الكتب الكلاسيكية القديمة التي كانت معرضة للفقدان والضياع بسبب غارات الشعوب المجاورة (الفيكنغ والهنغار والعرب) ، أو محاربة الكنيسة المسيحية لكل ما يمتّ للتراث الروماني الوثني بصلة ، كونه تراثاً ضاراً عديم الفائدة •

وبمرور الزمن تأسست المدارس في تلك الأديرة البندكتية لتثقيف الناس ، ثم أصبحت معاهد علمية تقدم تعليماً متقدماً حتى أواخر القرن العاشر • وكان معظم المثقفين من فئة الرهبان أو من رجال الدين الذين تمّ تعليمهم كالرهبان تماماً • أما طبقة الفرسان المحاربين وطبقة الفلاحين الكادحين في الأرض فكان لا شأن لهما بأمور العلم والتعليم (١٥) •



الشكل رقم (٤٣)

كنيسة في مدينة سالامنكا ــ إسبانيا (القرن ١٢)

النهضة الاوتونية الألمانية في القرن العاشر

خلفت الأسرة السكسونية الأسرة الكارولنجية ، فحكمت في ألمانيا ما بين سنتي ٩١٩ — ١٠٥٦ م • وأعظم ملوك الأسرة السكسونية هو أوتون الأول (٩٣٦ — ٩٧٣) ابن هنري الصياد ، الذي نهج نهج شارلمان في الاهتمام بشؤون العلم والتعليم وتشجيع العاملين في هذا المجال بجميع الطرق والوسائل ، إذ استدعى العلماء إلى بلاده لتنمية الحركة الثقافية التي تعهدها مع أخيه برونو رئيس أساقفة كولونيا • وقد دفع ذلك الاهتمام المؤرخين الألمان إلى إطلاق اسم « النهضة الأوتونية » Ottonian Renesance على تلك الحركة الفكرية التي شهدتها ألمانيا في القرن العاشر • وأسفرت النهضة الألمانية السكسونية عن ظهور عدد من العلماء نذكر أشهرهم :

١ — برونو :

وهو أخو الامبراطور أوتون ، وكان رئيس أساقفة كولونيا • اهتم برونو بالعلوم القديمة وتعلم اللغة اليونانية ، وكان مشجعاً للعلم والمتعلمين •

٢ — ويدوكند Widukind :

كان ويدوكند راهباً في دير كوربي ، فوضع كتاباً في تاريخ قومه السكسون فرغ من كتابته في سنة ٩٦٨ • وقد تعرض في بداية الكتاب لعادات السكسون القدامى وتقاليدهم ، ثم تناول شخصية أوتون وحياته بالدراسة والتحليل •

٣ — هروتسويث Hrotswith :

كانت هرونسوث راهبة في دير جاندر شايم ، واشتهرت بنظم الشعر إذ دونت

مجموعة من الأشعار باللغة اللاتينية أشهرها : « أعمال الامبراطور أوتون الأول » • كذلك وضعت عدداً من القصص الدينية شعراً تناولت فيها حياة بعض القديسين ومنهم جنجولفوس وثيوفيلوس •

٤ ــ ليوتبراند Liutprand :

كان ليوتبراند أسقف مدينة كريمونا في إيطاليا ويجيد اللغة اليونانية إلى جانب اللاتينية ، فاختاره الامبراطور أوتون الأول مبعوثاً من قبله إلى القسطنطينية أكثر من مرة • عاش ليوتبراند حياة حافلة بالمهمات الدبلوماسية الكبيرة وكان على صلة بكبار رجال عصره ، فسجل كل ما شاهده أو سمعه في كتب وأبحاث لاتزال باقية حتى اليوم ، ومنها كتاب تناول فيه تاريخ إيطاليا والامبراطورية الرومانية المقدسة في الفترة ما بين سنتي ٨٨٧ ــ ٩٥٠ •

٥ ــ فلودورد الريمي (٨٩٤ ــ ٩٦٦) Flodoard of Rheims :

كان فلودورد الريمي أشهر مؤرخي القرن العاشر في فرنسا ، فكتب تاريخ مدينة ريمز الفرنسية الكنسي Historia Remensis Ecclesiae • واشتهر بمنهاجه الواضح وأمانته ودقته فيما يكتب •

٦ ــ ريتشارد الريمي Richerd of Rhemis :

كان ريتشارد الريمي راهباً في دير القديس ريمي تتلمذ على يد جربرت واهتم بكتابة التاريخ ، إذ عُرِفَ له كتاب باسم « التواريخ » Histories يقع في أربعة مجلدات •

على أن النهضة الأوتونية الألمانية سرعان ما اعتراها الوهن والضعف في القرن الحادي عشر ، لأنَّ النشاط الفكري لم يجد سنداً قوياً في بلاط الملوك والأمراء ، كما تعرضت الحياة الديرية لدور من أدوار الأفول والتدهور التدريجي • ولكن في الوقت الذي بدأت النهضة الأوتونية تتعرض للذبول أخذت تظهر في الأفق

الحضاري بوادر تشير إلى أن أوروبا على أبواب نهضة علمية جديدة تفوق كل ما سبقها من نهضات في العصور الوسطى • وفي هذه المرة لم يكن مركز النهضة الجديدة في ألمانيا ، بقدر ما كان في إيطاليا وفرنسا • وتعرف هذه النهضة باسم النهضة الوسيطة ، أو نهضة القرن الثاني عشر •

وتجدر الملاحظة إلى أن ركاب الحضارة الأوروبية لم يتوقف في الفترة الواقعة بين النهضة الكارولنجية ونهضة القرن الثاني عشر • فلولا اتصال سلسلة الحضارة والمعرفة في الفترة المظلمة التي امتدت من سنة ٨٥٠ حتى سنة ١٠٠٠ لتعذر قيام النهضة الأوروبية الوسيطة في القرن الثاني عشر • لقد قامت تلك النهضة على أسس التراث الذي خلفتــه القرون السابقة ، سواء في الدراسات الكلاسيكية الأدبية ، أو اللاهوتية ، أو الفلسفية • وإذا كانت للقرن الثاني عشر ميزة خاصة ، فإن ذلك يرجع إلى التوسع في جمع المخلفات الكلاسيكية ونشرها والسير بها قدماً نحو الأمام ، مع شيء من التجديد والابتكار في بعض الميادين ، كما سنرى في الصفحات التالية (١٦) •

ـ أسطورة سنة ١٠٠٠ وأثرها في نهضة القرن الحادي عشر :

في أواخر القرن العاشر الميلادي انتشرت في الغرب الأوروبي أسطورة تقول : إن العالم سينتهي بنهاية الألف الأول ، وان المسيح سوف يظهر ليدين الأحياء والأموات • وكان لهذه الأسطورة أثرها في ظهور موجة من التقشف والزهد والبعد عن ملذات الحياة الدنيا والتقرب إلى الله والعمل على مرضاته • وأدى ذلك إلى وجود حالة من الاستقرار في أوروبا الغربية ، حيث توقفت الغزوات البربرية تقريباً• وعلى هذا أصبح التجديد ميسوراً ، فما أن بدأ العمل حتى أخذ يسير بخطوات ثابتــة •

وامتازت تلك الأسطورة بقيمتها الرمزية ، إذ كانت سبباً من أسباب نهضة القرن الحادي عشر في أوروبا ، حينما بدأ الغرب يهبّ من سباته العميق وأخذ

يشق طريقه نحو التقدم والرقي ، بعد قرون من الركود والتكاسل • لقد أخذت الحياة العلمية الجديدة تستمد أصولها من النهضة الكارولنجية ، فوضعت نظم التعليم ومناهجه على الأساس نفسه الذي قامت عليه المدارس الدينية في عهد شارلمان • وكان من الممكن أن تحقق تلك النهضة المبكرة في القرن الحادي عشر تقدماً أكثر مما حققته بالفعل ، لولا الأحداث السياسية والحربية الخطيرة التي كانت أوروبا مسرحاً لها وقتذاك •

فما هي تلك الاحداث التي اعاقت الانطلاقة الفكرية عن ان تشق طريقها بسرعة نحو اهدافها التقدمية ؟ :

١ ــ في القرن الحادي عشر بدأ الصراع المعروف بين البابوية والامبراطورية على التقليد العلماني ، فترتبت عليه آثار سياسية سلبية بالنسبة لأوروبا عامة ، كما تدهورت أوضاع الكنائس في ألمانيا وإيطاليا بشكل خاص •

٢ ــ خلال القرن الحادي عشر أيضاً قام النورمانديون بنشاط توسعي في إنكلترا وصقلية وجنوب إيطاليا •

٣ ــ وفي ذلك القرن أيضاً كانت الحروب دائرة على أشدها بين الممالك المسيحية في شمال إسبانيا والعرب المسلمين في جنوبها •

٤ ــ وفي أواخر القرن الحادي عشر قامت الحركة الصليبية بتوجيه من البابوية وتحت إشرافها بقصد الاستيلاء على الأراضي المقدسة (فلسطين) •

كل تلك الأحداث وغيرها لم تتح للحركة الفكرية الفرصة الكاملة للانطلاق ، ولم تهيء تربة خصبة للازدهار العلمي بالمعنى الواسع • ولكن مع بداية القرن الثاني عشر أخذ الاستقرار والسلام يخيمان على أوروبا الغربية ، مما ساعد على قيام النهضة الأوروبية الوسيطة (١٧) •

النهضة الأوروبية «الوسيطة»

في القرن الثاني عشر

ـ تعريف نهضة القرن الثاني عشر :

نقصد بنهضة القرن الثاني عشر التغيرات الحضارية والتطورات الفكرية التي شهدتها أوروبا ما بين أواخر القرن الحادي عشر وأوائل القرن الثالث عشر. ولا يجوز اختيار سنة معينة لتحديد بداية أو نهاية تلك النهضة الوسيطة، وكل ما نستطيع أن نقوله هو أن دارس التاريخ يلحظ تيارات حضارية جديدة في النصف الثاني من القرن الحادي عشر في النواحي الثقافية والسياسية والاقتصادية والدينية ، وان هذه التيارات أخذت تتبلور في شكل نهضة عامة كبرى في القرن الثاني عشر ، وهذه النهضة لم يخبُ لها نور بعد ذلك التاريخ .

يحتل القرن الثاني عشر مكانة بارزة في تاريخ تطور الحضارة الأوروبية ، لأنه القرن الذي بدأ بازدهار المدارس الكاتدرائية، واختتم بظهور أولى الجامعات ، التي ظهرت في سالرنو وبولونا وباريس ومونتبليه واكسفورد . وفي ميدان المعرفة بدأ ذلك القرن بالفنون السبعة ـ التي لم تعرف أوروبا غيرها حتى ذلك الوقت ـ ، وانتهى بازدهار القانون الروماني والقانون الكنسي ؛ واكتشاف جانب من فلسفة أرسطو وعلوم إقليدس الاسكندري ، فضلاً عن الدراسات والمعارف الإسلامية المتنوعة ، مما أدى إلى مولد آفاق فكرية جديدة في أوروبا الغربية . وزيادة على ذلك تمّ إحياء الأدب اللاتيني الكلاسيكي نثراً وشعراً ، كما تقدمت الكتابات التاريخية على اختلاف صورها . كذلك كبرت العناية بالمكتبات وتزويدها بالمراجع المتنوعة .

ـ اسباب نهضة القرن الثاني عشر وعواملها :

وجدت عدة عوامل ساعدت على قيام النهضة الأوروبية الوسيطة في القرن الثاني عشر ، وسنحاول أن نتلمس بعضها •

١ ـ الأستقرار السياسي والسلام : في القرن الثاني عشر انتهت أخطار الفيكنغ والهنغار وهدأ الصراع السياسي داخل أوروبا ، فأدى الاستقرار والسلام إلى نشاط الاتصال الحضاري بين الدول الأوروبية ، كما أدى إلى تفرغ الحكام والملوك للنواحي الثقافية والحضارية وتشجيع النشاط الفكري •

٢ ـ أدى النشاط الاقتصادي إلى نمو المدن وتقدم الحضارة والحياة الفكرية فيها ، حيث شعرت بالحاجة إلى تنظيم قوانينها ، الأمر الذي ساعد على إحيـــاء الدراسات القانونية •

٣ ـ إن ازدياد نفوذ البابوية ، بنتيجة إسهامها بالحروب الصليبية وموقفها الصلب من السلطة الامبراطورية ، جعلها قبلة المعاصرين ، فكثر عدد الحجاج القاصدين روما ، ونتج عن ذلك ازدياد الروابط الثقافية والفكرية بين مختلف البلدان الأوروبية •

٤ ـ أدى الاحتكاك الحربي بين الأوروبيين والعرب المسلمين إلى احتكاك حضاري ، فتدفقت المعارف والعلوم العربية إلى أوروبا عن طريق معابر الإشعاع الثقافي الأربعة وهي : الأندلس ، صقلية ، جنوب إيطاليا ، بلاد الشام • وقد أفاد الغرب الأوروبي فائدة كبرى من الحضارة العربية الإسلامية اليانعة ، فكان أثر الحضارة العربية الإسلامية واضحاً في شتى فروع العلم والمعرفة ، وبخاصة في ميادين الأدب والفلسفة والرياضيات والفلك والجغرافيـــة والفيزياء والكيميـــاء والطب والصيدلة •

٥ ـ كذلك أدى الاحتكاك الحربي والحضاري بين الأوروبيين والبيزنطيين إلى انتقال بعض معالم الحضارة البيزنطية ومظاهرها إلى أوروبا الغربية (١٨) •

ـ مميزات نهضة القرن الثاني عشر :

تتشابه نهضة القرن الثاني عشر مع النهضة الكارولنجية السابقة لها ونهضة القرن الخامس عشر اللاحقة بها في المدلول العام لاصطلاح « النهضة » ـ أي أن كلاً من هذه النهضات الثلاث عبّرت عن نشاط فكري وحضاري كبير . ولكن إذا دققنا في التفاصيل وجدنا اختلافاً كبيراً يميز نهضة القرن الثاني عشر عن النهضة الكارولنجية ونهضة القرن الخامس عشر ، فما هي أوجه هذا الاختلاف :

١ ـ كانت النهضة الكارولنجية مصطنعة، اصطنعها شارلمان وتعهدها بالرعاية ، كما كان مركزها الأساسي بلاط شارلمان وخلفائه المباشرين . وعلى هذا ارتبط مصير النهضة الكارولنجية بمصير الأسرة الكارولنجية ، فلما انقسمت الامبراطورية الكارولنجية وتفتت انطفأت شعلة النهضة الكارولنجية .

ـ أما نهضة القرن الثاني عشر فلم تكن ربيبة بلاط ملك معين ، ولم تنشأ لأن أحد الملوك أراد لها أن تنشأ ، وإنما جاءت حركة طبيعية تضافرت عوامل عديدة لازدهارها ، لذلك كانت أطول عمراً ، وأكثر استمراراً ، وأوسع أفقاً ، وأشد أثراً من النهضة الكارولنجية .

٢ ـ كان الغرض الأساسي من قيام النهضة الكارولنجية وتشجيعها دينيـاً يتمثل برفع المستوى الثقافي لرجال الدين الكاثوليك ، وإذا شجعت العلم بين العلمانيين فإن ذلك جاء عن غير قصد .

أما نهضة القرن الثاني عشر فلم يكن هدفها تثقيف رجال الدين فحسب ، وإنما إشباع غريزة الاطلاع ، والرغبة الملحة في التعلم ، وتثقيف الفكر لدى جميع الناس من علمانيين ورجال دين .

٣ ـ كانت النهضة الكارولنجية حركة إحياء للتراث القديم أكثر من كونها حركة ابتكار وتجديد .

أما نهضة القرن الثاني عشر فلم تقف عند حدود إحياء الدراسات القديمة ،

وإنما تعدتها نحو الإنشاء والابتكار والتجديد في مختلف ميادين النشاط الفكري • ففي الأدب ظهرت ألوان جديدة من النثر والشعر • وفي الفن ظهر طراز جديد هو الطراز القوطي ، وفي نظم التعليم ظهر نوع جديد من التعليم العالي ممثلاً بقيام الجامعات • وفي الفلسفة ظهرت آفاق جديدة منها مدرسة الشك والتشكك • كذلك أحرزت العلوم (كالهندسة والطب والفلك وغيره) تقدماً كبيراً لم يعهده الغرب الأوروبي من قبل •

وإذا قارنا نهضة القرن الثاني عشر بنهضة القرن الخامس عشر وجدنا بعض وجوه الاختلاف ومنها :

١ ـ ارتبط مولد نهضة القرن الخامس عشر ببلد واحد هو إيطاليا • ومن إيطاليا انتشرت النهضة وانتقلت إلى بلدان أوروبا الغربية الأخرى •

أما نهضة القرن الثاني عشر فلم يرتبط مولدها ببلد معين ، وإنما أسهمت إيطاليا فيها برعاية الدراسة القانونية والترجمة من اليونانية إلى اللاتينية ، كما قامت فرنسا بدور رئيس في الدراسات الفلسفية واللاهوتية وازدهر فيها الفن القوطي ، في حين قامت إسبانيا بدور المعبر الرئيس في نقل التراث العربي الإسلامي إلى أوروبا الغربية • كذلك أسهمت ألمانيا وإنكلترا في نهضة القرن الثاني عشر بنصيب محدود •

٢ ـ اعتمدت نهضة القرن الخامس عشر في إيطاليا في منبعها الشرقي على التراث اليوناني فقط ، ووجهت جهودها نحو إحياء ذلك التراث والاستفادة منه •

أما نهضة القرن الثاني عشر فاعتمدت في منبعها الشرقي على التراث العربي الإسلامي ، إلى جانب التراث اليوناني •

٣ ـ امتازت نهضة القرن الخامس عشر في مجال الفن بالأفراد والفنانين وتعدد العبقريات الفردية الخالدة •

أما نهضة القرن الثاني عشر فقد شهدت ازدهار الفن ، ولكنه فن مرتبط بالطراز والنمط أكثر من ارتباطه بالأفراد الفنانين (١٩) •

ـ مراكز نهضة القرن الثاني عشر :

١ ـ المدارس الديرية :

بدأت نهضة القرن الثاني عشر في المدارس الديرية البندكتية التي اهتمت بالتعليم ونسخ المخطوطات ودراسة الأدب • وفي معظم الأديرة البندكتية وجد النسّاخ المهرة والكتّاب البارزون ، ومن بينهم الرهبان المهتمون بالشؤون العلمية• وفي داخل الأديرة خصصت قاعات للمهتمين بالكتابة والقراءة والتأليف أطلق عليها الاسم اللاتيني (سكربتوريا) Scriptoria أي مكاتب النسخ • ولم تغفل الأديرة الكلونية قضية التعليم ودراسة الأدب ، وإنما شجعتها وتولتها بالرعاية • فلقد أُلحقت بمعظم الأديرة الكلونية المدارس لتعليم الأولاد الذين يرغبون بالدخول في سلك الكهنوت أو في خدمة الحكومة •

وواصلت المنظمات الرهبانية الأخرى التي نشأت في القرنين الحادي عشر والثاني عشر ـ مثل الفرنسيسكان والسسترشيان والدومنيكان وغيرها ـ الجهود العلمية والأدبية التي بذلتها المنظمات السابقة ، كما أسهم الكثيرون من أعضائها بسهم وافر في الفلسفة والقانون والآداب ومختلف العلوم • وقامت على أكتاف هؤلاء نهضة القرن الثاني عشر ، حينما احتكت الأذهان والعقول بين العنصر الرجعي من المفكرين ، الذي يعبّر عن الفكر الديني القديم المتزمت وممثله القديس برنارد ، وبين العنصر المجدد من المنادين بتحرير الفكر من سيطرة التعاليم الكنسية ، ويتزعمه الفيلسوف بطرس أبيلارد الذي وضع فلسفة الشك والتشكك الشهيرة •

٢ ـ المدارس الكاتدرائيــة :

شهد القرن الثاني عشر ازدهار المدارس الكاتدرائية ، حيث انتقلت قيادة الحركة العلمية والثقافية من المدارس الديرية إلى مدارس الكاتدرائيات ، لأنهــا فتحت أبوابها للعلمانيين ، كما ازداد عددها تلبية لنداءات المجامع الدينية التي عقدت خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر • وأشهر مدارس الكاتدرائيات

التي أصبحت أنشط المراكز الثقافية في القرن الثاني عشر كانت مدارس : شارتر ، وريمي ، وباريس ، وأورليان [٢٠] .

ـ مظاهر نهضة القرن الثاني عشر :

١ ـ الفلسـفة :

نشأت فلسفة القرن الثاني عشر كنتيجة طبيعية ومنطقية لاحتكاك الفكر بين عنصرين متباينين من المفكرين تمثلها أصدق تمثيل شخصيتان ملأتا المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى ضجيجاً وجدلاً وحركة وحياة وهما : القديس برنارد ، الذي قامت نظرياته على تعاليم الكنيسة اللاتينية ويمثل التفكير الديني المتزمت ، والثاني هو الفيلسوف بطرس أبيلارد زعيم حركة تحرير الفكر من التقاليد البالية ، التي فرضتها الكنيسة على تفكير الفرد وعقليته ، وكان عليه أن يتبقل أوامرها وتعاليمها دون جدل أو مناقشة ، لأن محاولة الخروج على تعاليم الكنيسة كانت تعرّض صاحبها لأشد أنواع العقوبات من حرمان ونقمة ولعنة وقطع وإعدام .

آ ـ القديس برنـارد (١٠٩١ ـ ١١٥٣) :

يُعدُّ القديس برنارد من الشخصيات البارزة التي أخرجتها جماعة الرهبان الاخوان السسترشيان . وقد أسس ديره المعروف في كليرفو (في سنة ١١١٥) وصار رئيساً له . وكان القديس برنارد متصوفاً منكراً لذاته ، ويُعدُّ أكبرَ ممثل للتفكير الديني الرجعي القديم . وتمتع برنارد بنفوذ ديني كبير ونشاط سياسي ، إذ يرجع إليه تأسيس جماعة الفرسان الداويه ، كان لهـا دورٌ كبير في الحركة الصليبية ، كما ساعد على الدعوة إلى الحملة الصليبية الثانية التي قام بها الأوروبيون في سنة ١١٤٧ من أجل استعادة الرها التي كان قد استولى عليها عماد الدين زنكي في سنة ١١٤٤ م .

وجه القديس برنارد عناية فائقة للدرس والكتابة والتأليف ، فترك لنا رسائل

ومؤلفات تجمع بين البلاغة والتفكير والمنطق • وكان الهجوم الذي شنه برنارد على الفلسفة قاسياً ، إذ قال : « ماذا تهمني الفلسفة ، أساتذتي هم الرسل ، لم يعلموني قراءة أفلاطون ولا التنقيب عن رهافات أرسطو ••• ولكنهم علموني أن أعيش • وصدقوني إن هذا ليس بالعلم النذير » • وبصدد الثالوث (الآب والابن والروح القدس) كتب يقول : « فلسفتي هي معرفة يسوع ، ويسوع المصلوب » • وهكذا كانت نزعة برنارد هي الدعوة للعودة إلى البساطة والتزهد والحرمان • وفي مجال المعرفة أراد العودة بالفكر المسيحي إلى التأمل بموضوعه وغرضه الأول الذي هو المسيح • وهو في فلسفته وتفكيره يدافع عن الكنيسة ويحارب أيّة هرطقة أو خروج عن تعاليم المسيحية • وكان حماسه الزائد للأفكار والمثل الدينية القديمة المتزمتة من الأسباب الجوهرية التي أدت إلى قيام الصراع الفكري بينه وبين أكبر زعماء حركة تحرير الفكر الانساني في القرن الثاني عشر الميلادي وهو الفيلسوف أبيلارد [٢١] •

ب ـ الفيلسوف بطرس ابيلارد (١٠٧٩ ـ ١١٤٢) Abailard :

يعدُّ بطرس أبيلارد أهم شخصية وأبرز رجال الجدل والمنطق وزعيم حركة تحرير الفكر في القرن الثاني عشر • فهو صاحب فلسفة الشك والتشكك في كل شيء حتى طبيعة السيد المسيح نفسه ، وإذا لم يكن مؤسس المنهج المدرسي ، فإنه كان أحد أفضل صانعيه • لقد أسهم أبيلارد بسهم وافر في تكوين المدرسية ـ أو المذهب المدرسي ـ Scholasticism عن طريق كتابه « نعم و لا » ، وهو الكتاب الذي عالج فيه نحو خمسين مسألة لاهوتية عن طريق الجدل مستعرضاً آراء آباء الكنيسة في كل مسألة •

ويطلق اسـم الفلسفة المدرسية Scholalsticism أو التفكير المدرسي على الحياة الفكرية التى لقنت في مدارس التعليم العالي ، وكانت الفلسفة اليونانية ، وبخاصة نظريات أرسطو وأفلاطون ، مركز اهتمام الفلسفة المدرسيّة في القرن الثاني عشر خاصةً ، والعصور الوسطى عامةً • وبصورة مختصرة كانت الفلسفة

المدرسية تعني تعليم الفلسفة واللاهوت في دور العلم : في المدارس ، ومن ثم في الجامعات ٠

ولد أبيلارد في بالي لأسرة نبيلة في إقليم بريتاني الفرنسي ، وتلقى تعليمه في بلدة لوشيه حيث درس المنطق ، ثم انتقل إلى باريس ، حيث تتلمذ على يد وليام دي شامبو أستاذ المنطق في مدرسة باريس الكاتدرائية ٠ وبعد أن اضطلع بالتدريس في مدارس ميلون وكوربيل فترة من الزمن عاد أبيلارد إلى مدرسة باريس ، لكنه تمرّد على أستاذه وهاجم آراءه في مسألة الكلّيات ٠ ومن ثم قام أبيلارد بالتدريس في مدرسة القديسة جنيفيف ، وبعد ذلك التحق بمدرسة المعلم أنسليم أستاذ اللاهوت المرموق ٠ وسرعان ما هاجم آراء أستاذه أنسليم وعاد مرة أخرى إلى مدرسة باريس ليعلم فيها المنطق واللاهوت ٠ وفي سنة ١١١٨ اقترب أبيلارد من الأربعين فكتب يقول : « ها أنذا أعدّ نفسي الفيلسوف الوحيد في العالم ، ولست أخشى أبداً أي خصم » ٠

وفي ذلك الحين ذاع صيت أبيلارد ، فطلب إليه فولبير كاهن كنيسة نوتردام في باريس أن يقوم بتدريس ابنة أخيه هيلويز ٠ كانت هيلويز فتاة في السابعة عشرة من عمرها تجمع بين سمو النفس وحدّة الذكاء وحب المعرفة والجمال الساحر ، فوقع المعلم أبيلارد في غرام تلميذته ، واندفعت هيلويز في حبّه بشوق بالغ ٠ وعن هذا كتب أبيلارد في كتابه « تاريخ نكباتي » ما يلي : « كانت الكتب مفتوحة ، ولكن الكلمات التي كانت تقال كانت كلمات الحب أكثر مما كانت كلمات الدرس ٠ وكانت القبل أكثر من الحكم ٠ وكانت يداي تذهبان غالباً إلى نهديها أكثر مما تذهبان نحو الكتب » ٠

وتسارعت الأحداث فخطف أبيلارد هيلويز وذهب بها إلى مسقط رأسه في إقليم بريتاني وتزوجها زواجاً سرياً ٠ وانتهت قصة غرام أبيلارد وهيلويز بمأساة نتج عنها ترهب كليهما ٠ وقد كتب أبيلارد (في كتابه : تاريخ نكباتي) بهذا الصدد القصيدة التالية :

أين توجد العاقلة جداً هيلويز
التي من أجلها تبتل ثم ترهب
بيار أبيلارد في سان دنيس ؟
فمن أجل حبها أرتدي إذن الحزام •••
ولكن : أين هي ثلوج الماضي القديم ؟

وعدا « تاريخ نكباتي » الذي سبق ذكره ، فإن مؤلفات أبيلارد الرئيسة هي : « شروحات حول فوفوريوس » ، « شروحات حول أرسطو » (الكتب المنطقية) ، ثم كتاب « الديالكتيك » ، و « تفاسير توراتية » ، و « اللاهوت المسيحي » ، و « مدخل إلى اللاهوت » ، و « نعم أو لا » ، و « الأخلاق » (أو اعرف نفسك بنفسك) ، و « الحوار بين فيلسوف ويهودي ومسيحي » •

ومن الخطأ التاريخي أن نرى في أبيلارد المفكر الحر المدافع عن استقلال العقل بصورة مطلقة ، في وقت كان الايمان فيه مسيطراً أو مستبداً • ونلحظ ذلك مما كتبه أبيلارد نفسه : « لا أريد أن أكون فيلسوفاً إذا كان ذلك يعارضني مع بولس الرسول ، ولا أريد أن أكون أرسطو إذا كان ذلك يضطرني إلى الانفصال عن المسيح » •

دعا أبيلارد إلى إمكان الخلاص عن طريق تحرير العقل من طغيان الكهنوت من جهة ، ومن صلف العلمانية الجاهلة من جهة أخرى • ومن أهم آرائه: أن الوساطة بين الخالق والمخلوق لا داعي لها ، وإنّ شعور الفرد بالندم على إثم اقترفه كفيل بأن يقربه إلى الله ، دون حاجة إلى الاعتراف على يد رجل الدين •. وهدفه من ذلك التقليل من سلطة الكنيسة ورجال الدين • وعلى هذا اضطهدت الكنيسة أبيلارد وحكمت عليه بالهرطقة مرتين •

وكانت فلسفة أبيلارد تقوم على الشك ، ففي نظره لا يمكن الوصول إلى الحقيقة إلا عن طريق التشكك والمعارضة • ولهذا دعا أبيلارد إلى استخدام العقل

وتطبيقه على كل ما يقع تحت يد الانسان ، وقال إن الانسان يجب ألا يؤمن في شيء قبل فهمه . وهكذا قلب أبيلارد المقولة السائدة في الفكر الأوروبي آنذاك . فبعد أن كانت : « إني أؤمن كي أفهم » ، أصبحت « إني أدرك وأفهم كي أؤمن » .

وهكذا كان أبيلارد واضع أساس فلسفة الشك والتشكك ، ورائد منهج الديالكتيك ، والمصلح الأول للكنيسة . وقد صمدت قوة فلسفة أبيلارد في صراعها مع المثل والقيم القديمة ، وانتصر مذهبه في نهاية الأمر في عصر مفعم بالنشاط متعطش إلى العلم والمعرفة .

ولا جدال في أن فلسفة أبيلارد كان لها أثرها الواضح في دفع عجلة التقدم إلى الأمام وتحرير الفكر الانساني من القيود القديمة البالية ، في فترة بدأ فيها الغرب الأوروبي ينفض عن كاهله كابوس الماضي المزعج ، مما هيّأ الجو لظهور عصر النهضة ، الذي يُعدُّ مرحلة تغيير وانتقال من العصر الوسيط إلى العصر الحديث [٣٢] .

ج ـ بطرس اللومباردي :

كان بطرس اللومباردي من تلامذة بطرس أبيلارد ، وصار أسقفاً لمدينة باريس، وقام بنشر تعاليم أستاذه التي ضمّنها في كتابه المعروف باسم « كتاب الجمل » Liber Sentiae ، الذي غدا مصدراً رئيساً في دراسة علم اللاهوت في الفترة الباقية من تاريخ العصور الوسطى . وحاول بطرس اللومباردي في كتابه المذكور التوفيق بين مختلف الآيات المتناقضة في الكتاب المقدس .

د ـ برنجار التوري :

وهو أحد المعلمين بمدرسة كاتدرائية مدينة تورز بجنوب فرنسا . وقد تشكك هذا المعلم في أمر الجسد المقدس والدم المقدس الذي يعرف اصطلاحاً باسم « الأفخارستية » Eucharist ، وهي العقيدة الشائعة بين المسيحيين والقائلة : إن

القربان (الخبز والنبيذ) يتحولان فعلاً إلى جسد المسيح ودمه ، بمعنى أنه كان يشك في حقيقة وجود المسيح في القربان المقدس . ولما كان ما ينادي به برنجار يعدّ تهديداً خطيراً للعقيدة المسيحية ، فقد تصدى له أحد رؤساء أساقفة كانتر بري بانكلترا ويُدعى لانفرانك ، فاضطر برنجار تحت الضغط والتهديد إلى التراجع عن آرائه في القربان المقدس .

هـ ـ روسـلين (١٠٥٠ ـ ١١٢٠) :

يُعدّ روسلين رسولَ نهضة القرن الثاني عشر ، فهو الذي افتتح أزهى عصور الفلسفة المدرسية وقتذاك . وقد أخذ روسلين في تطبيق أساليب العقل والمنطق فيما يتلقاه من دراسات لاهوتية ، فهاجم مبدأ الثالوث المقدس القائم على فكرة الله الواحد ذي الصفات أو الأقانيم الثلاثة ، وهي الآب والابن والروح القدس . وبنتيجة ذلك أُدين روسلين بتهمة الهرطقة لخروجه على تعاليم المسيحية ومبادئها . وقد اضطر هو الآخر تحت الضغط إلى التراجع عن آرائه .

و ـ القديس انسليم (١٠٣٣ ـ ١١٠٩) :

وهو أرستقراطي إيطالي صار زعيماً للرهبنة النورماندية ، ثم رئيس أساقفة كانتر بري في إنكلترا . وقامت فلسفة أنسليم على أساس تقبل الايمان دون جدل أو مناقشة ـ أي عدم تحكيم العقل والمنطق فيما يتعلق بالايمان والعقيدة . وله عدة مقالات باللاتينية عن طبيعة الله أهمها مقالته المسماة « لماذا تجسّدَ الله في شخص إنسان » التي أوضح فيها فلسفته القائمة على أساس أن الإيمان يجب أن يسبق التفكير ـ أي يجب على الفرد أن يؤمن أولاً ، ومن ثم يفكر ويفهم . وبناءً على ذلك يصبح الشك في طبيعة الثالوث المقدس الذي نادى به روسلين أمراً باطلاً .

ز ـ يوحنـا السالسبوري (١١١٥ ـ ١١٨٠) :

كان يوحنا السالسبوري من أشهر تلامذة الفيلسوف بطرس أبيلارد . وقد

تعلم في مدرسة مدينة شارتر الفرنسية ، ثم علّم فيها ، واختتم حياته أسقفاً على مدينة شارتر • ويُعدُّ يوحنا السالسبوري من أشهر علماء القرن الثاني عشر في الدراسات الانسانية ، حيث كانت معرفته بالتراث الروماني اللاتيني القديم واسعة جداً • وقد ترك عدداً من البحوث والمؤلفات التي ضمنها آراءه وأفكاره ، وأسهم بنصيب وافر في نهضة القرن الثاني عشر (٢٣) •

٢ ــ الدراسات القانونيــة :

آ ــ المشرّع آرنريوس ومدرسة بولونا الايطالية للقانون :

في القرن الثاني عشر برزت نهضة قانونية كبرى في إيطاليا ارتبطت باسم المشرع أرنريوس ومدرسة بولونا للقانون • وأدت شهرة أرنريوس ومحاضراته في القانون الروماني إلى ذيوع شهرة مدينة بولونا ومدرستها في أنحاء أوروبا كافة• واهتمت مدرسة بولونا بموسوعة الامبراطور البيزنطي جستنيانوس الكبير المعروفة باسم « مجموعة القوانين المدنيــة » Corpus Juris Civilis ، وبدراسة مصادر القانون ودراسة القانون في حد ذاته كعلم مستقل له أساتذته وطلابه المنقطعون له •

وإذا كان التعليم في فرنسا وإنكلترا وألمانيا مقصوراً على رجال الدين والمدارس والمؤسسات الدينية ، فإنه لم يكن كذلك في إيطاليا ، حيث وجد في شمالها كثير من الأساتذة العلمانيين الذين لا يخضعون للكنيسة وسلطانها ورقابتها • وإذا كان الفرنسيون والانكليز والألمان قد وجهوا اهتمامهم إلى الفلسفة والجدل والمنطق وعلم اللاهوت ، فإن الايطاليين اهتموا بالنحو والبلاغة والقانون ، لما في ذلك من فوائد تتعلق بصياغة الوثائق والمستندات الرسمية ، وإعداد الفرد للعمل بالمحاماة أو كتابة الدعاوى والعرائض • وقد استخدم الايطاليون المنطق لخدمة الدراسات القانونية فترتب على ذلك حركة بعث وإحياء للدراسات القانونية الرومانية القديمة •

ب ـ جراشيان وهوجاشيو والقانون الكنسي :

إذا كان أرنريوس قد اهتم بإحياء القانون الروماني ، فقد وجه زميلان له في مدرسة بولونا هما : المشرّعان جراشيان وهوجاشيو عنايتهما إلى إحياء القانون الكنسي • ولمرسوم جراشيان المعروف باسم Decretum الذي أصدره في منتصف القرن الثاني عشر أهمية خاصة ، لأنه كان سنداً للبابوية في صراعها مع الامبراطورية والسلطات العلمانية • ولم يصدر مرسوم جراشيان في شكل مجموعة قانونية وإنما صدر في شكل مرجع للطلاب امتاز بطابعه المدرسي • ونجد في مؤلف جراشيان المراسيم البابوية مرتبة حسب الموضوعات على غرار القانون المدني • وقد أضاف جراشيان بعض التعليقات التي قصد من ورائها التنسيق بين المواد العديدة المتناقضة أو المتعارضة • وكان لجراشيان وزميله هوجاشيو الفضل في الفصل بين القانون الكنسي وعلم اللاهوت (٢٤) •

٣ ـ الدراسـات الأدبيـة :

انعكست النهضة الفكرية في القرن الثاني عشر على النشاط الأدبي والدراسات الأدبية التي احتلت جانباً بارزاً في تلك النهضة • فقد تـم الرجوع إلى الآداب الكلاسيكية القديمة والعمل على إحيائها ، حيث نادى أصحاب الفكر الحر بالرجوع إلى التراث الكلاسيكي والإفادة منه • ومع ذلك وجد بعض المتزمتين من رجال الدين الذي نادوا بمحاربة الأدب الكلاسيكي القديم ، بحجة أنه مظهر من مظاهر الوثنية التي جاءت المسيحية لكي تقضي عليها • ولكن أمثال هؤلاء كانوا قلة في ذلك الحين ، فكانت دعوتهم صرخة في واد ذهبت مع الريح ، ولم تؤثر أفكارهم المتزمتة في النهضة الجديدة التي انطلقت من عقالها • وهكذا ظهرت كتابات باللغة اللاتينية في مختلف فروع الأدب ، وبرز عدد من الأدباء في النثر والشعر •

آ ـ النثـر :

ارتبطت البلاغة اللاتينية في العصور الرومانية القديمة بالخطابة ، بينما ارتبطت

في العصور الوسطى بكتابة الرسائل • وفي القرن الثاني عشر اتجه الأدباء نحو إنشاء الرسائل التي أصبحت محور البلاغة وميدان البيان • وارتبطت الخطوة الرئيسة في فن كتابة الرسائل بمدرسة القانون في بولونا الايطالية ، لأن هذا الفن ظلّ مرتبطاً بالأعمال الحكومية والقانونية • وما أن حلّ القرن الثالث عشر حتى أصبحت كتابة الرسائل فنّاً مستقلاً قائماً بذاته ، له معهد خاص ودراسة محددة وأساتذة متخصصون • ومن بولونا الايطالية انتقل هذا الفن إلى أورليان الفرنسية، فوضعت هناك عدة رسائل خيالية ذات مستوى رفيع من البلاغة ، ومنها رسائل متبادلة بين الأمير اليوناني الأسطوري باريس والأميرة اليونانية الأسطورية الجميلة هيلين ، وبين الشتاء والربيع ، وبين الروح والجسد ، وبين الحياة والموت ، وبين الانسان والشيطان • وانقسمت الرسالة في ذلك العصر إلى خمسة أجزاء : أولها التحية ، ثم المقدمة ، ثم العرض ، ثم الطلب ، وأخيراً الخاتمة • وهناك ضرب آخر من ضروب النثر وهو الخطب والمواعظ الدينية ، التي اتصفت دائماً بطابع المحافظة في منهاجها وأسلوبها ، دون أن تضيف شيئاً جديداً يفيدنا في دراسة الحياة الفكرية في ذلك العصر • أما القصة القصيرة فتمدنا بقسط كبير من المعلومات عن الأوهام والخرافات والمعتقدات الباطلة ، والعادات والأوضاع الاجتماعية السائدة في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، ولو أن معظمها جُمع لأجل تسلية الملوك والأمراء •

ويُعدّ جربرت الريمي Gerbert of Rheims ، المثل الحقيقي لكتابة النثر في القرن الثاني عشر ، إذ تكشف رسائله عن اهتمامه بالكتابة في العديد من الموضوعات ، فضلاً عن تعمقه في الفلسفة وعلم البيان واهتمامه بأمور العلم والتعليم •

ب ـ الشعر :

ظلت اللاتينية في القرن الثاني عشر اللغة المألوفة في نظم الشعر ، كما ظل الشعر اللاتيني يصادف هوىً في نفوس الكثيرين من الشعراء ، الذين استخدموه في تصوير مظاهر الحياة كافة • ولم يقتصر ذلك الشعر على محاكاة النماذج التقليدية

فحسب ، وإنما نجح أيضاً في استحداث نماذج وأوزان جديدة • وكان القرن الثاني عشر آخر العصور التي ازدهر فيها الشعر اللاتيني واتصف بالصفة الدولية ، لأن ظهور اللغات القومية بعد ذلك جعل لكل بلد لغته التي تعبّر عن أدبه في النثر والشعر •

ولم يترك شعراء القرن الثاني عشر موضوعاً أو فنّاً من فنون الشعر إلا طرقوه، فنظموا في التاريخ وشعر الملاحم ، وفي الأساطير وقصص الإنجيل ، وفي الحكم والأخلاق ، وفي الرثاء والتهنئة ، وفي المديح والهجاء ، وفي الغزل ومجالس الشراب، وفي الفكاهة والتعليم ، وغير ذلك من ألوان الشعر •

ومن خصائص الشعر اللاتيني ومميزاته في القرن الثاني عشر تأثره بالشعر الروماني القديم ، لكنه اصطبغ بالطابع الديني المسيحي • وكانت الترانيم الدينية أخصب أنواع الشعر في القرن الثاني عشر • كما كانت تلك الترانيم ترتل بالكنائس في أيام الآحاد والأعياد ويحفظها الناس عن ظهر قلب •

ومن أعظم شعراء الشعر الديني في القرن الثاني عشر هيلدبرت أسقف مدينة تورز الفرنسية (توفي سنة ١١٢٣) ، إذ امتازت قصائده بسلامة أسلوبها وجمال تعبيرها • وبالإضافة إلى الموضوعات الدينية نظم هيلدبرت في الرثاء والمديح وغيرهما من فنون الشعر المطروقة آنذاك •

إلى جانب الشعر الديني وجد أيضاً الشعر الغنائي أو الشعر الجولياردي Goliardic Poetry (سمي هكذا نسبة إلى شخصية غامضة هي شخصية جولياس)• وكان ذلك الشعر يدور حول تمجيد البطولة وسير الأبطال ، ويعبّر عن جمال الطبيعة ومختلف العواطف والأحاسيس الانسانية في الحب والبغض والغيرة والكره والأمل والألم وما شابه ذلك • وامتاز ذلك الشعر بطابعه الدنيوي المرح الساخر ، كما دعا إلى التمتع بالحياة ومباهجها في شتى صورها ومظاهرها • وكان من الطبيعي أن تعارض الكنيسة المسيحية الكاثوليكية ذلك الشعر الدنيوي لتعارضه مع تعاليمها

فحاربته دون هوادة . أما الشعراء الجوليارديون فقد اتخذوا من مفاسد الكنيسة ورجالها (كالرشوة ، وزواج القساوسة ، وبيع صكوك الغفران ، والخروج عن تعاليم المسيحية) مادة خصبة لأشعارهم الغنائية الساخرة . وكان ذلك الشعر يلقى الشيوع والرواج في كل مكان من الغرب الأوروبي ، لأنه يعبّر عن سخط الشعب المكبوت وأمله في التجديد . ومن أبرز الشعراء الجولياردبين في القرن الثاني عشر الشاعر هيوج (من مدينة أورليانز الفرنسية) ، وشاعر مجهول الاسم يطلق عليه « أركبويت » .

وفي النصف الثاني من القرن الثاني عشر ظهر لون جديد من الشعر يعرف باسم « نظم المكرونة » أو « شعر التروبادور » . فالشاعر الأوروبي الذي ينظم الشعر باللاتينية وجد نفسه أمام مشكلة عويصة هي الربط بين شعره اللاتيني واللغات القومية الناشئة ليجعل أشعاره مفهومة لدى المتكلمين بتلك اللغات ، وعلى هذا أخذ ينظم الشعر بلغة ألفاظها خليط من اللاتينية واللغات القومية الجديدة . وهكذا ظهر هذا النوع من الشعر الغنائي (التروبادور) في إقليم بروفنسال بجنوب فرنسا ، وانتقل أثره إلى شمال فرنسا ، ثم إلى الأدب الايطالي والأدب الألماني . وفي نهاية القرن الثاني عشر نستطيع الكلام عن الأدب الفرنسي ، والأدب الاسباني ، والأدب الألماني ، والأدب الايطالي ، إذ كانت تلك الفترة بداية عصر الانتقال من الأدب اللاتيني الخالص إلى الآداب القومية الناشئة .

وهكذا شملت نهضة القرن الثاني عشر المجالات الفكرية كافة، وترجع جذورها إلى النهضة الايرلندية في القرن الثامن والنهضة الكارولنجية في القرن التاسع . وترتبت على تلك النهضة نتائج وآثار أهمها نشأة الجامعات ، التي هيأت بدورها الظروف لظهور عصر النهضة ، الذي يعد مرحلة فاصلة بين العصور الوسطى والعصور الحديثة (٢٥) .

٤ ـ التـدوين التـاريخي :

ومن مظاهر النشاط الفكري في القرن الثاني عشر الكتابات التاريخية • فلقد ازدهرت في ذلك القرن ثلاثة أنواع من الكتابات التاريخية هي :

آ ـ السِيَر ،   ب ـ الحوليات ،   جـ ـ الوقائع •

آ ـ السِيَر Biographies :

استمرت كتابة سير القديسين في القرن الثاني عشر ، فدونت سير بعض القديسين السابقين من جديد ، كما كتبت تراجم القديسين في القرن الثاني عشر ، وعلى رأسهم القديس توماس بكت ، الذي قتل في سنة ١١٧٠ بتحريض من بلاط هنري الثاني ملك إنكلترا •وشملت كتابة السير تراجم الشخصيات الشهيرة من رجال الدين وغيرهم ، كما انتشر نوع من كتابة السير عرف باسم « الكتالوجات » ، الذي يضم تراجم القديسين والرهبان والنبلاء في إقليم محدد • أما ذلك النوع من التراجم الذي يترجم فيه الفرد لنفسه ويكتب تاريخ حياته بيده ، فلا نجد منه سوى القليل النادر في القرن الثاني عشر •

ب ـ الحوليات Annales :

امتازت حوليات العصور الوسطى بالاقتضاب ، حيث لم تتعدَّ الحولية ذكر السنة وأهم ما حدث فيها • فسنة ٧٠٩ كان شتاؤها شديد البرد ، وفي سنة ٧١٠ حدث قحط ونقص في المحصول ، وفي سنة ٧٢٢ حدث فيضان مرتفع ••• وهكذا حتى تشمل الصفحة الواحدة تاريخ عشرين سنة تقريباً • ولم تختلف حوليات القرن الثاني عشر عن تلك التي كتبت في الحقبة السابقة من العصور الوسطى ، لكنها أخذت تزداد غزارة بنتيجة الاتصال التجاري الذي أدى إلى انتقال الأخبار من بلد إلى آخر •

جـ ــ الوقائع أو الحوادث Chronicles :

تعدُّ كتب الوقائع والحوادث الإنتاج المميز لفن التدوين التاريخي في القرن الثاني عشر ، حيث أخذت كتابة التاريخ تجنح نحو الطابع العالمي وتخلع عن نفسها صفتها المحلية التي لازمتها في العصور الوسطى السابقة • وخير مثال على ذلك النوع من الكتابات التاريخية ما كتبه المؤرخ الانكليزي روبرت تورنجي ، والمؤرخ الفرنسي روبرت الأوكسري ، ثم المؤرخ النورماندي (من شمال غرب فرنسا) أوردريك فيتاليس ، والأسقف أوتو عمّ الامبراطور الألماني فردريك بربروسا ، الذي اشترك في الحملات الصليبية إلى بيت المقدس •

وتناولت كتب الوقائع والحوادث تاريخ الملوك وحياتهم في شيء من التفصيل ، كما تناولت الأحداث التاريخية المهمة مثل حملات فردريك الأول على إيطاليا ، وانتشار المسيحية بين العناصر السلافية وانتصارها على المسلمين في شمال إسبانيا وصقلية ، بالإضافة إلى الحملات الصليبية التي اتجهت إلى المشرق العربي •

وفي القرن الثاني عشر ظهر اتجاه نحو استخدام اللغات القومية الناشئة (كالفرنسية والألمانية والانكليزية) في كتابة التاريخ ، مما ساعد على الحيلولة دون احتكار رجال الدين للكتابات التاريخية ، لأنهم وحدهم كانوا يتقنون اللغة اللاتينية• وهكذا أخذ المؤرخون يخاطبون شعوبهم بلغاتها القومية وأصبحوا يهتمون بالأمور والمسائل التي تهم الشعوب والرأي العام (٣٦) •

٥ ــ حركة الترجمة من اليونانية والعربية إلى اللاتينية :

إذا كان النشاط الأدبي والتشريعي في القرن الثاني عشر قد اعتمد على التراث الروماني الكلاسيكي ، فإنّ النشاط العلمي والفلسفي اعتمد على التراثين اليوناني والعربي الإسلامي • وقد استفادت أوروبا الغربية من هذين التراثين عن طريق حركة ترجمة واسعة عن اليونانية والعربية بدءاً من أواخر القرن الحادي عشر • فالتراث اليوناني بقي حياً في الامبراطورية البيزنطية ، حيث بقيت اليونانية لغة الكنيسة

والإدارة والثقافة • لكن ذلك التراث لم يمتد إلى أوروبا الغربية في المرحلة المبكرة من العصور الوسطى ، وإنما امتد شرقاً وانتشر في الشرق ، حيث ترجم إلى السريانية والعبرية والعربية • وفيما بعد انتقل ذلك التراث اليوناني عن طريق العرب المسلمين إلى الغرب الأوروبي وترجم إلى اللغة اللاتينية •

- الترجمة من العربية إلى اللاتينية :

من المعروف أن العرب المسلمين الأوائل الذين اندفعوا من شبه الجزيرة العربية مبشرين بالإسلام لم تكن لديهم دراسات فلسفية أو علمية خاصة بهم ، ولكن وجدت لديهم الرغبة في التعلم والقدرة على تشرب حضارة الآخرين • وعلى هذا تركوا المدارس الكبرى المسيحية أو الصابئة أو الفارسية قائمة في الاسكندرية وبيروت وانطاكية وحرّان ونصيبين والرها وجنديسابور ، فاحتفظت تلك المدارس بأمهات الكتب في الفلسفة والعلوم معظمها في ترجمته السريانية • وفي العصر العباسي ترجمت تلك الكتب من السريانية إلى العربية على يد العرب المسيحيين والمسلمين العارفين باللغتين السريانية واليونانية • وتدريجاً أضاف العرب المسلمون إلى تلك الدراسات كثيراً من مستحدثاتهم ومن علوم الفرس والهنود والصينيين ، فشهدت البلاد العربية الإسلامية نهضة ثقافية لم يكن لها مثيل في العالم في ذلك العصر •

ومنذ أواخر القرن الحادي عشر بدأت العلوم العربية تنتقل إلى الغرب الأوروبي عن طريق عدة معابر تردد إليها الأوروبيون طلباً للمعرفة • فهناك فريق من الايطاليين قصد شمال إفريقيا ، ومنهم قسطنطين الافريقي ، الذي قام بترجمة بعض المؤلفات اليونانية في مجال الطب عن العربية • كذلك تعلّم ليونارد البيزي الرياضيات العربية في شمال إفريقيا ، مما جعله أكبر علماء الرياضيات في أوروبا في القرن الثالث عشر •

وأسهمت جزيرة صقلية بنصيب مباشر في حركة الترجمة من العربية إلى اللاتينية • فلقد ظلت صقلية تحت حكم العرب ما بين سنتي ٩٠٢ ــ ١٠٩١ ، كما احتفظت بنسبة كبيرة من سكانها العرب وثقافتها العربية في عهد النورمانديين الذين خلفوا العرب في حكم هذه الجزيرة • وفي القرنين الثاني عشر والثالث عشر ترجمت

في صقلية كتب كثيرة من العربية إلى اللاتينية • ففي سنة ١١٥٠ ترجم أيوجينيوس البالرمي كتاب بطليموس الاسكندري في المرئيات عن العربية • وفي سنة ١١٦٣ ترجمت بعض كتابات بطليموس الأخرى في الفلك والرياضيات من العربية • واشتهر في القرن الثالث عشر فرج بن سالم اليهودي (المتوفى سنة ١٢٨٥) وهو من أصل صقلّي ، تعلم في سالرنو ، ثم ترجم كثيراً من كتب العرب إلى اللاتينية •

كانت إسبانيا (الأندلس) أهم المراكز للترجمة من العربية إلى اللاتينية ، حيث ازدهرت فيها حضارة العرب المسلمين وكثرت كتبهم في مختلف العلوم والفنون • ومن الأوروبيين الذين قصدوا إسبانيا في القرن الثاني عشر آديلارد الانكليزي ، وهرمان الايطالي ، وجيرارد الكريموناوي • ومن أهل إسبانيا المستعربين واليهود اشتغل كثيرون في ترجمة المعارف العربية إلى اللاتينية ومنهم : دومونيقوس جوديسالفي ، وبطرس الفونسي ، وحنّا الاشبيلي ، وإبراهيم بن عزرا • ونشطت حركة الترجمة في برشلونة وطرزونة وليون وبمبلونة وطليطلة •

وكانت بلاد الشام أضيق المعابر في انتقال الحضارة العربية إلى الغرب الأوروبي في مرحلة الحروب الصليبية • فالصليبيون قصدوا بلاد الشام للحرب ، لا لطلب العلم • ولم تتح الحروب شبه المستمرة للصليبيين حياة الاستقرار الضرورية لمباشرة النشاط الفكري والحضاري ، ولا فرصة الاتصال السلمي بالعرب ، بالقدر الذي أتيحت به للأوروبيين في صقلية والأندلس • على أنه تجدر الإشارة إلى وجود بعض الأوروبيين الذين استقروا في الأراضي المقدسة بفلسطين فكتبوا في التاريخ مثل وليام الصوري ، أو في القانون مثل حنا الابليني وفيليب نافاري ، وإن كانت كتاباتهم لا تعبّر عن أية تأثيرات عربية • لكن الحروب الصليبية أثرت في تطور فن الحرب عند الأوروبيين بنتيجة احتكاكهم الحربي بالعرب المسلمين • كذلك لابد من الإشارة إلى المؤثرات العربية في الحياة الأوروبية بنتيجة تطور التبادل التجاري بين الغرب والشرق ، حيث انتقل الكثير من المزروعات والمصنوعات والعادات العربية إلى الغرب الأوروبي خلال الحروب الصليبية •

ـ الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية :

أما حركة الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية ، فلم يكن لها سوى مركز واحد هو صقلية وجنوب إيطاليا ، حيث ظلت هذه المنطقة مدة طويلة تابعة للامبراطورية البيزنطية ، واحتفظت بكثير من التراث اليوناني ، كما استمرت اللغة اليونانية سائدة بين نسبة كبيرة من سكانها . كذلك ظلت العلاقات الاقتصادية والثقافية بين هذه المنطقة والشرق اليوناني قائمة بعد أن فقدت الدولة البيزنطية سيطرتها عليهـا . على أن حركة الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية لم تنشط في إيطاليا وصقلية إلا منذ النصف الأول من القرن الثاني عشر . ومما ساعد على نشاطها وجود مكتبات ضمت كثيراً من الكتب اليونانية في الأديرة الباسيلية وفي مدينة بالرمو عاصمة ملوك النورمانديين في صقلية . وقد شجع الملك النورماندي روجر الثاني وخلفاؤه حركة الترجمة من اليونانية إلى اللاتينية ، فتزعم تلك الحركة هنري أرستبوس ، الذي يرجع إليه الفضل في ترجمة كثير من كتابات أفلاطون وأرسطو لأول مرة من اليونانية إلى اللاتينية مباشرة ، وهي التراجم التي ظلت متداولة في أوروبا الغربية حتى عصر النهضة الايطالية . وترجم آيوجين الأمير أيضاً كثيراً من المؤلفات العربية واليونانية إلى اللاتينية .

كذلك مهدت العلاقات بين الامبراطورية البيزنطية والبابوية للتبادل الثقافي بين الشرق اليوناني والغرب اللاتيني . بالإضافة إلى ذلك فإن استيلاء الحملة الصليبية الرابعة على القسطنطينية (في سنة ١٢٠٤) فتح باباً أمام الغرب الأوروبي للتعرف على كثير من الكتب والدراسات اليونانيـة القديمة ، فجمـع الأوروبيون منها ما استطاعوا وترجموا بعض ما جمعوه إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر . وهناك بعض الايطاليين الذين تعلموا اليونانية عن طريق أسفارهم إلى القسطنطينية لأغراض سياسية أو تجارية أو دينية ، فبرزت منهم أسماء لامعة أسهمت في حركة الترجمة عن اليونانية . ومن هؤلاء جيمس البندقي الذي ترجم المنطق الجديد لأرسطو ، وموسى البرجامي الذي تدل آثاره الباقية على نشاطه المتنوع في النحو والترجمة والشعر وجمع المخطوطات . أما برجنديو البيزي فقد فاقت ترجماته من اليونانية إلى اللاتينية جميع أعمال معاصريه (٣٧) .

نشـــأة الجامعـــات

كان القرن الثاني عشر عصر ابتكار وتجديد في نظام التعليم العالي • فلقد شهدت بداية هذا القرن ازدهار المدارس الديرية والكاتدرائية ، ثم شهدت نهايته مولد أولى الجامعات الأوروبية • ولم تعرف الحضارتان اليونانيـــة والرومانيـــة الجامعات ، وإن عرفتا التعليم العالي بشكل مختلف • وفي المرحلة الأولى والثانية من العصور الوسطى لم تكن ثمة حاجة إلى جامعات ، لأن الحياة العلمية في أوروبا الغربية اقتصرت على دراسة الفنون السبعة (النحو ، البلاغة ، المنطق ، الحساب ، الفلك ، الهندسة ، الموسيقى) • ولكن في القرن الثاني عشر تدفقت على الغرب الأوروبي علوم ومعارف جديدة لا تتسع لها المدارس الديرية والكاتدرائية ، فكان لابدّ من حدوث تطور في نظام التعليم العالي وقيام كليات جامعية تحتضن المعارف الجديدة •

في أواخر القرن الثاني عشـــر أصبح مصطلح « الجامعـــة » Universitas يطلق على الاتحاد العلمي أو النقابة التي تشمل عدداً من رجال العلم ، سواءٌ أكانوا أساتذة أم طلاباً • وكانت الجامعات الأوروبية وليدة المدارس الكاتدرائية لامدارس الأديرة ، لأن مدارس الأديرة لم تقبل سوى الرهبان ، في حين فتحت المدارس الكاتدرائية في المدن الكبيرة أبوابها للطلاب العلمانيين • وعند ختام القرن الثاني عشر وجد في أوروبا الغربية خمس جامعات هي : ١ ــ سالرنو ، ٢ ــ بولونـــا (في إيطاليا) ، ٣ ــ باريس ، ٤ ــ مونتبليه (في فرنسا) ، ٥ ــ اوكسفورد (في إنكلترا) •

١ ــ جامعة سالرنو :

في القرن الثاني عشر أضحت مدرسة سالرنو أو لمعهد طبي عرفته أوروبا الغربية • ومما ساعد على تقدم علم الطب في سالرنو الكتابات الطبية اليونانية التي ترجمها قسطنطين الافريقي من العربية (المترجمة عن اليونانية) إلى اللاتينية في أواخر القرن الحادي عشر • بالإضافة إلى ذلك ما نقله جيرارد الكريموناوي من المؤلفات العربية في الطب إلى اللاتينية مثل كتاب « الملكي » لعلي بن العباس ، وكتاب « القانون في الطب » لابن سينا •

وفي القرن الثاني عشر اشتهر من أساتذة الطب في جامعة سالرنو جاريوبونتوس، أورسو ، روجر ، نيقولا ، وغيرهم • وقد تجنّب هؤلاء تشريح جسد الانسان ، لكنهم تركوا رسائل في تشريح جسد الخنزير ، كما اهتموا بطب العيون وعلم الصيدلة وتركيب الأدوية •

وفي سنة ١٢٣١ أصدر الامبراطور فردريك الثاني مرسوماً يحرّم مزاولة الطب أو تدريسه في أنحاء الامبراطورية الرومانية المقدسة دون الحصول على شهادة ليسانس أو تصريح ملكي ، ولا تعطى هذه الشهادة إلا بعد امتحان على أيدي أساتذة جامعة سالرنو • وكان ذلك المرسوم أول اعتراف رسمي بجامعة سارلرنو •

٢ ــ جامعة بولونيا :

قال فرجيل : إن الرومان كانوا حكاماً ومشرعين أكثر منهم فلاسفة وأدباء • وشهد القرن الثاني عشر حركة إحياء للقانون الروماني القديم واهتماماً بالدراسة القانونية لسد حاجة القوتين المتصارعتين على السلطة العليا وهما الامبراطورية والبابوية • وأضحت مجموعة الامبراطور البيزنطي جستنيانوس الأول القانونية المركز الذي تبلورت حوله النهضة القانونية الجديدة في القرن الثاني عشر • وارتبطت تلك النهضة بمدرسة مدينة بولونا الايطالية ، وبالعالم القانوني آرنريوس ، الذي عمل فيها مدرساً ومؤلفاً في أوائل القرن الثاني عشر • ولم يكد ينتصف القرن الثاني

عشر حتى ظهر أربعة من تلاميذ آرنريوس اشتهروا بدراسة القانون وعملوا كمستشارين للامبراطور فردريك بربروسا ، كما أطلق عليهم اسم « الدكاترة الأربعة » وهم : بلجاريوس ، مارتينوس ، هوجو ، يعقوب ٠

وارتبطت حركة إحياء القانون الروماني في القرن الثاني عشر بالنشاط الاقتصادي والتطور السياسي ، فأخذ الحكام يعتمدون على القانون الروماني في تأييد موقفهم وإثبات حقوقهم ، وبخاصة تأييد حكم الأباطرة المطلق وسموهم على البابوية ٠

كذلك شهد القرن الثاني عشر تطور القانون الكنسي بنتيجة ازدياد نفوذ الكنيسة ، التي تطالب بالسمو والسلطة العليا في الأمور الدينية والعلمانية برئاسة البابا الذي يجلس على السدة الرسولية في روما ٠ لقد قاومت البابوية استقلال الأديرة والأسقفيات وحاربت مبدأ التقليد العلماني ، كما طالبت بسموها على السلطة الامبراطورية ٠ وتطلب ذلك زيادة عدد المحامين والقضاة المتمرنين على أحكام القضاء الكنسي ، وبالتالي صار لابدّ من إعداد مثل هؤلاء عن طريق التوسع في تدريس القانون الكنسي ٠ وفي القرن الثالث عشر أصبح القانون الكنسي مادة تدرس في الجامعات الأوروبية ، إلى جانب القانون الروماني ، الذي لا يعترف بسمو البابوية ، في حين يمجد السلطة الامبراطورية ، وأخذت الكنيسة تعتمد على فقهائها في القانون الكنسي ، في حين اعتمد الملوك والأباطرة على رجال القانون الروماني المدني ، مما جعل رجال القانون عنصراً نشيطاً في الحياة السياسية ٠

وتضافرت جهود أساتذة مدرسة بولونا القانونية من علمانيين وكنسيين للنهوض بها لتصبح جامعة تضع مع جامعة باريس أسس الحياة الجامعية والتعليم الجامعي في الغرب الأوروبي ٠ وهكذا كانت جامعة بولونا وليدة نشاط الدراسات القانونية في القرن الثاني عشر ٠ ومما ساعد على تطورها وكثرة طلابها موقعها عند ملتقى الطرق بين شمال جبال الألب وجنوبها ٠

شكل طلاب جامعة بولونا نقابات تعمل على حماية مصالحهم المعيشية في المدينة ، كتحديد أسعار المآكل والمأوى والكتب • وسرعان ما أصبح لهذه النقابات نوع من التحكم والسيطرة على أعضاء هيئة التدريس ، لأن دخل الأستاذ يتوقف على مقدار ما يحصل عليه من طلبته • كذلك صار رئيس نقابة أو اتحاد الطلبة الرئيس الفعلي للجامعة ، مما دفع بعض الكتّاب المحدثين إلى القول : إن جامعة بولونا كانت « جامعة طلبة » ، في حين كانت جامعة باريس « جامعة أساتذة » • لكن أساتذة جامعة بولونا أحسوا بضرورة الاتحاد لحماية مصالحهم ، فشكلوا نقابات خاصة بهم، ووضعوا شروطاً لمنح إجازة التدريس والسماح لأي عضو جديد بالدخول في نقابة هيئة التدريس ، وذلك للحدّ من ازدياد عددهم •

وكان أول اعتراف رسمي بنقابات الأساتذة والطلاب في مدن شمال إيطاليا ، ومنها بولونا ، في سنة ١١٥٨ عندما أصدر الامبراطور الألماني فردريك بربروسا براءة تضمنت بعض الامتيازات للأساتذة والطلاب في المدن اللومباردية بصفة عامة • وفي القرن الثالث عشر اعترفت كل من البابوية والامبراطورية بجامعة بولونا •

٣ ـ جامعـة مونتبليـه :

نشأت جامعة مونتبليه بجنوب فرنسا في منتصف القرن الثاني عشر ، وكانت إحدى بنات جامعة بولونا الايطالية ، حيث استقت منها معظم نظمها وسارت على هديها ، لاسيما فيما يتعلق بالعناية بالدراسات القانونية • ويرجع الفضل في نشوء دراسة القانون بجامعة مونتبليه إلى أحد أساتذة القانون (واسمه بلاكنتيوس) الذي نزح إليها من جامعة بولونا في سنة ١١٦٦ وظلّ يدرّس فيها حتى مماته في سنة ١١٩٢ • وبالإضافة إلى تفوق جامعة مونتبليه في دراسة القانون ، اشتهرت أيضاً بدراسة الطب واللاهوت والآداب •

٤ ـ جامعـة باريس :

وجدت في مدينة باريس في القرن الثاني عشر ثلاث مدارس كاتدرائية هي :

مدرسة نوتردام ، ومدرسة القديس فيكتور ، ومدرسة القديس جنيفيف • وجذبت شهرة الأستاذ أبيلارد طلاب العلم إلى باريس ، فاكتظت شوارعها بهم وكثر عدد الأساتذة • ونشأت جامعة باريس عن تطور المدارس الكاتدرائية إلى ما يشبه الكليات المتخصصة ، فظل أمين الكاتدرائية مدة طويلة يشغل مكان رئيس الجامعة• وفي سنة ١١٧٠ قامت رابطة Union أو جامعة Universitas لتنظيم أمور الأساتذة ، فكانت تلك الرابطة أو النقابة هي اللبنة الأولى في نشأة جامعة باريس • كذلك تجمع الطلبة في روابط أو جاليات تضم كل جالية أبناء الإقليم أو البلد الواحد• وفي سنة ١٢٠٠ منح ملك فرنسا فيليب أوغسطس بعض الامتيازات للطلبة عقب ثورة قاموا بها ، إذ أصدر براءة ملكية تنص على الاعتراف بهيئة الطلبة والأساتذة وتعهد الملك برعايتهم والدفاع عنهم • وفي سنتي ١٢٠٨ – ١٢٠٩ صدرت أولى المراسيم التي حددت الزي الأكاديمي ونظام المحاضرات ، ثم اعترفت البابوية بالجامعة (في سنة ١٢٣١) وحقها في إدارة شؤونها بنفسها ، مما أدى إلى استقلال الجامعة عن الكاتدرائية وأمينها • وفي القرن الثالث عشر أضحت جامعة باريس أماً للجامعات التي نشأت في شمال أوروبا وغربها ، كما غدت فرنسا زعيمة الحركة الفكرية في أوروبا •

وبعد أن تمتعت جامعة باريس بكثير من الامتيازات والحقوق والإعفاءات خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، أخذ ملوك فرنسا يتدخلون في شؤون الجامعة ، لأنها أضحت تشكل خطراً يتهدد حكمهم • وعلى هذا صدر في أواسط القرن الخامس عشر أمر ملكي بخضوع الجامعة لأحكام برلمان باريس • وفيما بعد صدرت أوامر ملكية تحرّم على رجال الجامعة العمل السياسي والاضراب ، كما صار رئيس الجامعة خاضعاً لسلطة الملك وإرادته • هذا وقد وجدت في جامعة باريس أربع كليات هي : كلية اللاهوت ، كلية القانون الكنسي ، كلية الطب ، كلية الآداب•

٥ – جامعة اوكسفورد Oxford :

كانت جامعة أوكسفورد البنت الكبرى لجامعة باريس ، ثم غدت بدورها أماً



الشكل رقم (٤٤)
جامعه أوكسفورد (صورة من القرن السابع عشر)

للجامعات الانكليزية . لكن جامعة أوكسفورد لم تكن وليدة مدرسة كاتدرائية مثل جامعة باريس . وكل ما هنالك هو أن كثيراً من الأساقفة ورجال الدين الانكليز اعتادوا السفر إلى الخارج في القرن الثاني عشر لتلقي العلم ، وعند عودتهم إلى وطنهم حاولوا أن يقيموا نوعاً من التعليم العالي يشبه ما شاهدوه في الجامعات الايطالية أو الفرنسية . وشجع هذا الاتجاه ملك إنكلترا هنري الثاني ، الذي قام بدور راعي الحركة الفكرية في بلاده . ويبدو أن مدينة أوكسفورد استفادت من حادث استدعاء الطلبة الانكليز الذين يدرسون في جامعة باريس (في سنة ١١٦٧) ، فاحتضنتهم عند عودتهم ، حتى أدى وجود ذلك العدد من طلاب العلم ورجاله إلى

قيام جامعتها . وتجدر الإشارة إلى أن الجامعات الانكليزية استقت نظمها من الجامعات الأوروبية الأخرى ، وبخاصة جامعة باريس .

وأخذ عدد الجامعات يزداد في مختلف بلدان أوروبا الغربية فنشأت في القرن الثالث عشر سبع عشرة جامعة جديدة ، وفي القرن الخامس عشر خمس وثلاثون جامعة . وهكذا تكاثرت الجامعات الأوروبية حتى بلغت في أواخر العصور الوسطى نحو ثمانين جامعة . ويرجع الفضل في نشأة الجامعات وتطورها إلى النهضة الفكرية الكبيرة التي ظهرت في أوروبا الغربية في القرن الثاني عشر .

ـ لغـة التعليـم في الجامعـات :

كانت اللاتينية لغة التعليم في جميع الجامعات الأوروبية ، ولهذا كان كل طالب يستطيع أن يتلقى تعليمه في أية جامعة وفي أية دولة ، كما كان كل أستاذ يستطيع أن يتنقل من جامعة إلى أخرى ليدرّس فيها .وساعدت وحدة اللغة في الجامعات على وحدة الفكر في المجتمع الأوروبي .

ـ طـلاب الجامعـات :

ضمّت جامعات أوروبا طلاباً من مختلف الجنسيات الأوروبية ، وانقسم هؤلاء في العصور الوسطى إلى « طوائف » أو « أمم » Nations . ففي جامعة باريس مثلاً كان هناك أربع طوائف رئيسة هي : طائفة الفرنسيين ، طائفة النورمانديين ، طائفة البيكارديين ، طائفة الانكليز . وكانت تقوم أحياناً المشاحنات بين تلك الطوائف وتتطور إلى معارك دامية . ومع مرور الزمن ازداد عدد الطلبة في الجامعات ، فبلغ عددهم في القرن الخامس عشر بجامعة باريس نحو ٢٥ ألفاً ، وبجامعة أوكسفورد نحو ٣٠ ألفاً .

ووجدت في جامعات العصور الوسطى نماذج متنوعة من الطلاب . فهناك الطالب الفقير ، الذي يحاول الحصول على صدقة من أحد الناس ، أو يعمل بنسخ

الكتب للآخرين مقابل مبلغ بسيط من المال ، ومع ذلك فهو متفوق على من هم أحسن حالاً منه . وهناك الطالب الميسور ، الذي يملك إلى جانب كتبه شمعة تضيء حجرته ليلاً ، وفراشاً وثيراً ، وخزانة للملابس ، كما يرتدي الثياب الفاخرة تحت زيّه الجامعي وغطاء الرأس الخاص بطلاب الجامعات . وهناك الطالب الكسول الذي لا يتابع المحاضرات بانتظام ، ولا يهمه سوى أن يطلق عليه اسم « طالب جامعي » . وهناك طالب يغطّ في النوم في قاعة الدراسة ، ثم يمضي بقية وقته في شرب الخمر في الخانات ، ثم يعود إلى أهله ومعه الكتب الجميلة الضخمة ليظهر لهم مقدار علمه ، في حين يكون عقله خاوياً مما تحتويه تلك الكتب .

ـ مناهج الدراسة الجامعية :

تكونت جامعات العصور الوسطى من أربع كليات هي : الآداب ، اللاهوت ، القانون ، الطب . وكانت الدراسة في كلية الآداب تعدّ دراسة تحضيرية لتوجيه الطلبة بعد ذلك إلى التخصص في الكليات الأخرى ، كلّ حسب ميله وقدرته . وكانت مقررات الدراسة في كلية الآداب يطلق عليها اسم « الفنون السبعة الحرة » ، وتنقسم إلى مجموعتين رئيستين هما : المجموعة الثلاثية « الثالوث » Trivium وتشمل الأجرومية (قواعد اللغة اللاتينية) والمنطق والبلاغة ، والمجموعة الرباعية « الرابوع » Quadrivium ، وتشمل الحساب والهندسة والفلك والموسيقى .

ـ الكتب الجامعية :

نظراً لأن الطباعة لم تكن معروفة في العصور الوسطى ، فقد كانت الكتب والمراجع الجامعية كلها مخطوطة ونادرة ومرتفعة الثمن . وعلى هذا أخذت الجامعات على عاتقها تنظيم عملية تجارة الكتب ، فكانت تقوم بنسخ الكتب وتؤجرها مقابل ثمن محدد ، أو تبيعها لمن يستطيع دفع ثمنها . وكان يوجد في الجامعات مراجعون ومصححون للكتب المنسوخة المعدّة للبيع ، كما فُرِضَ على الأستاذ أن يقدم نسخة من محاضراته إلى مكتب النسخ لنسخها . وقد اتبع الأساتذة خطة إملاء النصوص

فكتبها الطلبة في وسط الصفحات ، ثم يضيفون في الهوامش الشروح والتعليقات التي تلقى عليهم من أستاذ آخر .

ـ نظام الامتحان والدرجات العلمية :

كان نظام الامتحان في الجامعات الأوروبية قائماً على المناقشة العلنية في رسالة يكتبها الطالب باللغة اللاتينية . وكانت الدرجات العلمية التي تمنحها الجامعة للطالب هي الإجازة التي تعرف باسم « الليسانس » والتي تتيح لحاملها حق التدريس في المدارس . وهناك أيضاً إجازتان عاليتان هما : الماجستير ، التي تتيح لحاملها حق المحاضرة في الكلية ، والدكتوراة التي تعطي لحاملها الحق في أن يصبح أستاذاً في الجامعة .

ـ قاعات التدريس :

كان أساتذة الجامعات في أول الأمر يلقون محاضراتهم في منازلهم ، أو في قاعات يستأجرونها لهذا الغرض ، وذلك لعدم وجود مبانٍ خاصة بالجامعات أو قاعة خاصة للتدريس . وكان الأساتذة يطلبون من طلابهم أجرة المحاضرات التي استمعوا إليها . وكانت المحاضرة تستغرق ساعتين أو أكثر ، يستمع إليها الطالب وهو جالس القرفصاء على أرضية الحجرة المفروشة بالقش . وفي بعض الجامعات وجدت مقاعد للطلبة رتبت حسب « طوائف أو أمم الطلبة » ، أو وفقاً لشهرة الطالب وسمعته ، والطبقة الغنية أو الفقيرة التي ينتمي إليها . وكان مقعد الأستاذ مرتفعاً كي يرى الجميع ويراه الجميع في الوقت نفسه . وكثيراً ما كان الأساتذة يلقون محاضراتهم في الخلاء المكشوف ، أو في أفنية الكنائس وسراديبها . وهكذا لم يكن اسم الجامعة مقروناً في بداية الأمر بالمباني الرحبة أو بفاخر الأثاث ، بل كان كيانها يتوقف أولاً وأخيراً على سعة علم أساتذتها وأهمية محاضراتهم . وكان لدى معظم الطلبة رغبة جامحة للتزود بالعلم ، فقاسوا في سبيل ذلك الكثير من الصعاب [٢٨] .

الملحق الأول

خطاب الامبراطور شارلمان
الى باوجولف رئيس دير فولدا بالمانيا
(٧٨٠ ـ ٨٠٠ م)

تحية وبعد ـ ليكن معلوماً لقداستكم أنه مما يرضي الله أن وجدنا نحن والمخلصون من رجالنا أنه من المفيد بالنسبة للأسقفيات والأديرة التي فرض المسيح أمر الإشراف عليها إلينا ، بالإضافة إلى جماعات الاخوان الرهبان ، مع الرغبة في مواصلة التعليم الديني ـ وجدنا أنه من المفيد الاهتمام بأمر الأسقفيات والأديرة ، وذلك فيما يختص بالثقافة الأدبية وتعليم أولئك الذين وهبهم الله القدرة على التعلم ، كل حسب مقدرته وطاقته . ولما كان احترام القوانين الرهبانية ومراعاتها يؤدي إلى النظام وإلى نعمة السلوك الحسن ، كذلك فإن الغيرة في العلم والتعليم يمكن أن تؤدي إلى النتيجة نفسها . وهكذا فإن الذين يبغون إرضاء الله بأن يحيوا حياة قويمة صالحة ، عليهم أيضاً الحصول على إرضائه بالنطق السليم ... وعلى الرغم من أن المسلك القويم قد يكون أفضل من المعرفة ، إلا أن المعرفة تسبق آداب السلوك ... إذ كانت تصلنا خلال السنوات القليلة الماضية خطابات من كثير من الأديرة ، جاء بها أن الإخوان الرهبان الذين يعيشون هناك يقيمون الصلوات والابتهالات المقدسة من أجلنا . ولقد وجدنا في معظم تلك المكاتبات الأفكار الصائبة إلى جانب التعبيرات الفجة غير المألوفة . ذلك أن ما تمليه العبادة الحقة بإخلاص على العقل ، لم يكن بوسع اللسان الذي لم يتثقف ، بسبب إهمال الدراسة ، التعبير عنه دون الوقوع في أخطاء .. لكل هذا ندعوكم ليس فقط إلى الاهتمام بدراسة الآداب ، ولكن أيضاً بعقل شديد التواضع لتحصيل العلم واقتناء المعرفة بما يرضي الله ، حتى يتسنى لكم ، في سهولة ويسر أكثر من ذي قبل وبطريقة صحيحة أيضاً ، التعمق في فهم خبايا الأناجيل المقدسة وأسرارها ...

الملحق الثاني

خطاب الامبراطور شارلمان
الى الوعاظ الدينيين في دولته
(٧٨٦ – ٨٠٠ م)

.... وبناء على ذلك ، وحيث أننا نهتم دائماً بالعمل على تحسين أحوال كنائسنا ، فقد جاهدنا بحماس ويقظة في سبيل النهوض بأسباب العلم والتعليم اللذين أسدل عليهما ستار النسيان بسبب إهمال أسلافنا . واقتداء بنا ، فإننا ندعو كل من يمكن دعوتهم للاشراف على تدريس الفنون الحرة . ووفقاً لذلك ، فقد قمنا بفضل الله الذي يعيننا على كل أمر من أمورنا ، بتصحيح جميع أسفار العهدين القديم والجديد بعناية ، لأنه كان قد دب فيها الفساد بسبب جهل النساخ .

وفضلاً عما تقدم ، واقتداء بوالدنا بيبان، صاحب الذكرى الفاضلة، الذي كان متحمساً لتجميل جميع كنائس غاليا بترانيم الكنيسة الرومانية ، يهمنا أن تصل تلك الكنائس بمهارتنا إلى مرتبة رفيعة عن طريق إعداد سلسلة من الكتب الممتازة المتضمنة فصولاً من الأناجيل لتلاوتها أثناء القداس . وأخيراً ، حيث أننا وجدنا أن الكتب الخاصة بالخدمة الدينية الليلية التي تم تجميعها بفضل جهود غير مثمرة لبعض الأشخاص المغمورين رغماً عن نواياهم الطيبة ، قد أصبحت غير ملائمة أو مناسبة لأنها كتبت دون أن تتضمن عبارات مؤلفيها ، فضلاً عن أنها مليئة بالأخطاء التي لا تقع تحت حصر أو عد .

لذلك لا يمكن أن نتحمل في أيامنا هذه مسؤولية انسياب الألفاظ الشاذة المتنافرة المليئة بالأخطاء في العظات الدينية التي تقرأ فيما بين الخدمات المقدسة . وهدفنا هو العمل على تحسين تلك العظات ....

الملحق الثالث

مرسوم الملك فيليب أوغسطس

لصالح جامعة باريس (سنة ١٢٠٠ م)

.... ثم أنه فيما يتعلق بضمان سلامة الطلبة في باريس مستقبلاً ، ووفقاً لمشورة رعايانا ، أمرنا بما هو آت : على كل مواطن من مواطني مدينة باريس أن يقسم بقول الحق إذا شاهد أحد العلمانيين وهو يعتدي على أحد الطلبة . كذلك يجب ألا ينسحب أي فرد حتى لايدعي أنه لم يشاهد واقعة الاعتداء [على الطالب]. وإذا حدث أن ضرب شخص ما أحد الطلبة ، لاسيما إذا استخدم في ذلك سلاحاً أو هراوة أو حجراً — اللهم إلا إذا كان ذلك دفاعاً عن النفس — فعلى جميع المدنيين الذين شاهدوا واقعة الاعتداء ، القبض بأمانة على المعتدي أو المعتدين ، وتسليمهم إلى القاضي التابع لنا . ويجب أيضاً [على جميع المدنيين] ألا ينسحبوا حتى لا يدعوا أنهم لم يروا ما حدث ، وبذلك يتنصلون من القبض على المعتدي ، ويتحللون من قول الحق . وسواء ضبط الفاعل متلبساً أم لا ، فسوف تتخذ كافة الاجراءات القانونية بوساطة رجال الدين أو العلمانيين أو بعض القانونيين . وسوف يفعل قضاتنا والكونت التابع لنا الشيء نفسه .....

ولا يجوز لمحافظ مدينة باريس أو لقضاتنا القبض على أي طالب بسبب أية إساءة مهما كانت ، أو حتى إيداعه سجوننا ، اللهم إلا إذا كانت الجريمة قد اقترفها الطالب بالفعل مما يستدعي إلقاء القبض عليه . وفي هذه الحالة على القاضي الذي يتبعنا القبض عليه حالاً دون إيذائه على الاطلاق ، اللهم إلا إذا أبدى مقاومة ، ثم يقوم بتسليمه إلى القاضي الكنسي الذي يجب عليه حمايته ترضية لنا ولمن لحقه

الأذى . وإذا ارتكبت جريمة خطيرة ، فسوف يذهب القاضي الذي يتبعنا بشخصه ، أو يقوم بإرسال من ينوب عنه ، لمعرفة الإجراءات التي اتخذت حيال الطالب . فإذا لم يبد الطالب مقاومة عند إلقاء القبض عليه ، ومع ذلك ظل يعاني من أي ضرر يلحق به ، فسوف نطالب بترضيته وفقاً للاجراءات المشار إليها أعلاه والقسم المنوه عنه . ولن يضع قضاتنا أيديهم على منقولات أو متاع طلبة باريس بسبب أية جريمة يقترفونها مهما بلغت جسامتها . ولكن إذا استلزم الأمر توقيع الحجز على هذه المنقولات ، فسوف يتم ذلك مع مراعاة حراستها والمحافظة عليها ، بعد صدور الأمر اللازم من القاضي الكنسي بتوقيع الحجز عليها ....

وفيما يختص بأولئك الذين يقومون على خدمة الطلبة من العلمانيين ، وهم الذين لا يدينون لنا بالحقوق المدنية أو حق الإقامة ، ولا يعيشون على التجارة ، ولا يستخدمهم المتعلمون كوسيلة لإلحاق الأذى بالغير — فيراعى اتخاذ ما يلي حيالهم : « غير مسموح لنا أو للقاضي الذي يتبعنا القبض عليهم ما لم يتم ضبطهم وهم متلبسون بجريمة ما . حينئذ يجب علينا أو على قاضينا إلقاء القبض عليهم . ووفقاً لما سلف ، ليست لدينا الرغبة ، حقاً ، في أن يتمتع قساوسة باريس وخدمهم بهذه الامتيازات التي منحناها لطلبة باريس » .

وفضلاً عما تقدم ، وحتى يتسنى تطبيق هذه الأوامر بعناية أكثر من ذي قبل ، مع العمل على تعزيزها بقانون ثابت — فقد قررنا أن يقسم شعب باريس والمحافظ الجديد في حضور الطلاب بتنفيذ ما سلف ذكره بإخلاص واستقامة . هذا ، وعلى كل من يتسلم منا في المستقبل منصب محافظ باريس مع غيره من المهام المكلف بها ، أن يتوجه في يوم الأحد من الأسبوع الأول أو الثاني من تعيينه ، إلى إحدى كنائس مدينة باريس — وذلك بعد استدعائه لهذا الغرض — ليؤكد بقسم يؤديه علناً وفي حضور الطلاب أنه سوف يحترم بإخلاص كل ما سبق التنويه عنه .....

الملحق الرابع

حياة الطلبة في جامعة باريس لجاك دي فيتري
(حوالي ١١٨٠ – ١٢٤٠ م)

لقد اقتصر عمل جميع طلبة باريس تقريباً ، المواطنون منهم والمغتربون ، على التعلم أو الاستماع إلى شيء جديد . إذ درس البعض بقصد تحصيل المعرفة فحسب، ونعني بذلك الفضول وحب الاستطلاع . بينما كان هدف البعض الآخر اكتساب الشهرة ، حباً في الزهو والغرور . ومع ذلك فهناك فريق كان يتعلم رغبة في الربح والكسب ، مما يكشف عن الجشع ورذيلة الرشوة أي السيمونية . وقليلون جداً هم أولئك الذين كانوا يتعلمون لتثقيف أنفسهم وتثقيف غيرهم . وكان الطلبة يتشاجرون ويتنازعون فيما بينهم ، ليس فقط بسبب اختلاف طوائفهم ، أو بسبب الجدل والمناقشات التي كانت تحتدم فيما بينهم ، بل أيضاً بسبب الخلافات بين « الأمم » التي أدت إلى قيام النزاع وإثارة الخصومات والأحقاد والعداء الشديد . فكانت تصدر عنهم ، في قحة وقلة حياء ، شتى أنواع البذاءات والسباب .

لقد قالوا إن الانجليز سكارى ولهم ذيول ، وإن أبناء فرنسا متكبرون مخنثون يتزينون بعناية مثل النساء . وقالوا إن الألمان يتميزون بالعنف ويأتون المنكر في أعيادهم وولائمهم . أما النورمانديون فهم مغرورون يتيهون فخراً ؛ وسكان بواتييه خونة من طباعهم الغدر وهم دائماً مخاطرون . وعدّوا البرجنديين سفلة أغبياء . أما سكان مقاطعة بريتاني فقد اشتهرو بأنهم هوائيون متقلبون ، وكثيراً ما كانوا يعيرونهم لمقتل آرثر . واتصف اللمبارديون بأنهم محبون للمال أشرار جبناء . أما الرومان فهم متمردون مشاغبون مفترون ، والصقليون بغاة عتاة قساة ظالمون جائرون . ويعشق سكان برابانت سفك الدماء وإثارة الفتن ، فضلاً عن أنهم لصوص وقطاع طرق ومغتصبون . وأما الفلمنكيون فهم متقلبون مسرفون نهمون ناعمون

كالزبدة كسالى • وبعد هذه الكلمات من الشتائم والسباب ، كانوا في الغالب يتضاربون بالأيدي ويتبادلون اللكمات •

ولن أتحدث عن علماء المنطق أصحاب المناقشات السفسطائية ، الذين ليس بوسع أي إنسان فهم خطبهم البليغة الخالية من الحكمة على حد قول أشعيا [النبي] • وأما عن أساتذة اللاهوت « المحتلين مركز موسى » فقد تشبعوا بالعلم ، ولكن هدفهم لم يكن التثقيف وتقويم الأخلاق • لقد اقتصر عملهم على التعليم دون ممارسة العلم ، حتى أصبحوا « مثل النحاس الأصفر الرنان » أو « الصنج ذات الطنين » أو مثل قناة من الحجر جافةٍ دائماً • ومثلهم مثل من يجب عليهم أن يحملوا الماء إلى « مجرى نهر من التوابل » • ولم يحقدوا على بعضهم البعضِ فحسب ، وإنما كانوا يغرون طلبة الأساتذة الآخرين بمعسول كلامهم وطيب حديثهم • فقد كان كل فرد منهم يسعى لتحقيق مجده الشخصي دون الاهتمام البتة بخلاص النفوس وسلامتها •



الشكل رقم (٤٥)
صورة وليم شكسبير

الملحق الخامس

مرسوم البابا جريجوري التاسع الى جامعة باريس

(سنة ١٢٣١ م)

تحية وبركة رسولية ، من الأسقف جريجوري ، خادم خدام الرب ، إلى أبنائه الأحباء جميع أساتذة باريس وطلابها …

لقد قررنا فيما يتعلق بأحوال الطلبة والمدارس الجامعة مراعاة الآتي : يجب على كل أمين كاتدرائية يتم تعيينه في باريس ، من الآن فصاعداً ، أن يقسم بإخلاص وبوحي من ضميره ، عند تقلده مهام منصبه ، وفي حضور أسقف باريس ، أو بناء على طلب الأخير بعد اجتماع في كاتدرائية باريس ، وبعد دعوة اثنين من زعماء الطلبة لهذا الغرض ـــ يجب عليه أن يقسم بعدم قبول أساتذة في العلوم اللاهوتية والقانون الكنسي سوى الأساتذة الأكفاء ، مع مراعاة المكان والزمان المناسبين ، ووفقاً لظروف المدينة واحتياجاتها ، وحسب ما يقتضيه شرف هذه الفروع من العلم وهيبتها . وعليه أن يقسم أيضاً بصرف النظر عن غير الأكفاء دون مراعاة أو اعتبار للأشخاص أو الأمم .

هذا ، وقبل منح أي فرد إجازة التدريس يجب على أمين الكاتدرائية ، خلال ثلاثة أشهر تبدأ من طلب التصريح بالإجازة ، أن يقوم بجمع المعلومات الدقيقة الوافية عنه من جميع أساتذة اللاهوت الموجودين بالمدينة ، ومن غيرهم من الرجال المخلصين المثقفين الذين يمكن الاعتماد عليهم لمعرفة الحقيقة الخاصة بسيرة المرشح [للحصول على إجازة التدريس] ومقدار علمه ومدى قدراته ومقاصده ومشاريعه ،

وغير هذا وذلك من الصفات الواجب توافرها فيه . وبعد إجراء هذه التحريات ، يقوم [أمين الكاتدرائية] بإخلاص وبوحي من ضميره بمنح إجازة التدريس للمرشح أو حرمانه منها حسبما يبدو ذلك ملائماً . وعلى أساتذة اللاهوت والقانون الكنسي عندما يبدؤون في إلقاء محاضراتهم ، أداء قسم علني مفاده أنهم سوف يحافظون بإخلاص على ما سبق التنويه عنه . وعلى أمين الكاتدرائية أن يحلف أيضاً بعدم إفشاء أسرار الأساتذة بأية طريقة ، مما قد يترتب عليه إلحاق الضرر أو الأذى بهم . فضلاً عن الإبقاء على الحريات والامتيازات التي نصت عليها قوانين جامعة باريس دون المساس بها ، وأن تظل كما كانت منذ البداية . وبالإضافة إلى ما تقدم سوف يتعهد أمين الكاتدرائية بأن يتحرى بإخلاص عن أساتذة الطب والآداب وفروع المعرفة الأخرى ، حتى يتسنى السماح للأكفاء فقط [بالتدريس في الجامعة] واستبعاد غير الأكفاء .

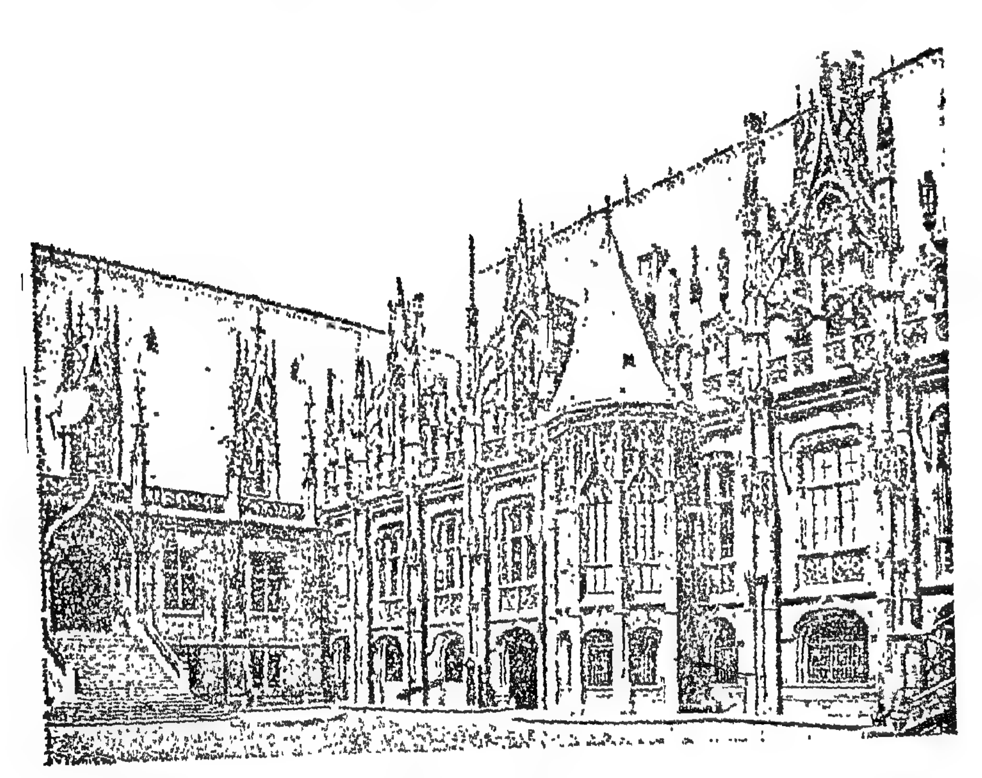
وفيما يتعلق بغير ذلك من الأمور ، ونظراً لأن الفوضى تزحف في سهولة ويسر حيث لا يوجد نظام ، فقد منحناكم حق إصدار القوانين والتشريعات التي تنظم مواعيد المناقشات والمحاضرات وكيفية إلقائها ، وكذلك الزي المميز للطلبة ، وما يختص بدفن الموتى ، وكل ما يتصل بالمؤهلين الذين يحاضرون [في الجامعة] ومواعيد محاضراتهم ، والمواضيع التي يحاضرون فيها . وأيضاً ما يتعلق بإيجارات السكن أو الحجز عليها ، وما يختص بالجزاء المناسب الذي يوقع على أولئك الذين ينتهكون قوانينكم وتشريعاتكم ، بالعمل على نبذهم من مجتمعكم . وإذا تم تحصيل ضريبة السكن منكم ، وإذا كان يعوزكم أي شيء ، أو أصابكم ضرر أو لحق بكم مكروه أو داهمتكم خسارة فادحة أفضت إلى الموت أو بتر أحد الأطراف ، وما لم تتم الترضية اللازمة ، خلال خمسة عشر يوماً من وقوع الإصابة بعد توجيه إنذار مناسب ، فيمكنكم التوقف عن إلقاء محاضراتكم إلى أن تحصلوا على الترضية الكافية . هذا ، ومن حق أي فرد منكم الامتناع كذلك عن إلقاء محاضراته فوراً ، إذا وجد أن هذه الوسيلة هي الملائمة في حالة إيداعه السجن بدون وجه حق ، طالما لم يتم رفع الضرر الذي لحق به بناء على احتجاج يقدم منكم .

وفضلاً عما تقدم ، فقد أصدرنا أوامرنا إلى أسقف باريس بتوقيع القصاص على المذنب إذا تمادى في جريمته ، وبضرورة المحافظة على حقوق كل طالب وامتيازاته الجامعية ، وعدم ترك الأعمال الشريرة غير الطيبة تفلت دون عقاب . كذلك لا يجوز إطلاقاً القبض على شخص بريء بسبب المعتدي .وحتى إذا حامت شبهات غير مؤكدة حول أي فرد ، فيتم اعتقاله دون المساس بكرامته ، ويخلى سبيله إذا دفع كفالة مناسبة ، ودون أي تعسف من قبل السجانين . ولكن إذا ارتكبت جريمة ما ، وكان من الضروري حبس مرتكبها ، فعلى الأسقف حبس المذنب في سجنه ، ولا يسمح لأمين الكاتدرائية باحتجازه في سجنة الخاص . كما أنه غير مسموح إلقاء القبض على أي طالب لدين له على آخر ، إذ أن هذا الأمر محرم طبقاً للتعليمات والقوانين الكنسية وما تقضي به الشريعة . وليس من حق الأسقف أو موظفيه أو أمين الكاتدرائية أن يحصلوا عنوة على غرامة مالية من شخص ما لإحلاله من قرار حرمان كنسي تم توقيعه عليه ، أو من أي عقاب آخر أياً كان نوعه. ولا يحق لأمين الكاتدرائية أن يطالب الأساتذة المصرح لهم بمزاولة المهنة بأداء قسم أو حلف يمين الطاعة أو بذل وعد آخر أياً كان ، كما لا يحق له أن يحصل على أجر أو وعد نظير الترخيص لشخص ما بمزاولة المهنة ، بل يجب عليه أن يلتزم بالقسم المشار إليه أعلاه .

ويجب ألا تزيد مدة العطلة الصيفية عن شهر واحد . وبوسع الحاصلين على إجازة الليسانس ، إذا رغبوا ، الاستمرار في إلقاء محاضراتهم خلال العطلة . وبالإضافة إلى ما تقدم ، فإننا نحرم بشدة على الطلبة حمل السلاح داخل المدينة ، وتمنع الجامعة من حماية أولئك الذين يخلون بالأمن أو يعملون على تعطيل الدراسة . وأما أولئك الذين يدعون أنهم طلاب علم ، ولكنهم لا يترددون على مدارسهم ولا يعرفون أساتذتهم ، فليس من حقهم التمتع بالحريات المصرح بها للطلبة ....

وحيث أن الأساتذة والطلبة الذين أثارتهم الخسائر والأضرار التي لحقت

بهم ، كانوا في الواقع قد أدوا قسماً مشتركاً بمغادرة باريس وإغلاق الجامعة ، وحيث أنهم قد أثاروا بذلك نزاعاً ليس في صالحهم بقدر ما هو ضد الصالح العام ـ لذلك ، اعتباراً لمطالب الكنيسة وامتيازاتها ، نود بل نأمر بأن يواصل الأساتذة والطلبة عملهم في باريس ، وسوف لا يدانون بسبب رحيلهم عنها أو عودتهم إليها ، وذلك بعد أن منحهم ولدنا الحبيب ملك الفرنسيين العظيم ـ ببركة المسيح ـ تلك الامتيازات السالفة ، وبعد أن قدم المعتدون التعويضات اللازمة ».



الشكل رقم (٤٦)

القصر العدلي في مدينة روان بفرنسا (القرن ١٥)

الملحق السادس

ترخيص بابوي بتأسيس جامعة أفينيون بفرنسا
(سنة ١٣٠٣ م)

تُعدُّ مدينة أفينون لأسباب عديدة مقراً صالحاً ومناسباً تماماً لإقامة جامعة بها . هذا ، ولما كنا نؤمن بأن الصالح العام يقتضي استدعاء أولئك الذين يبذرون الحكمة إلى المدينة ، وأنهم سوف يعطون في الوقت المناسب ثماراً يانعة ـ فإننا نمنح بهذه الوثيقة حق تأسيس جامعة هناك ، حيث يمكن للأساتذة Magistri مزاولة مهنة التدريس بينما يقوم طلاب العلم بالدراسة والاستماع إلى المحاضرات في جميع الكليات طوعاً واختياراً . وعندما يصل أولئك الذين يدرسون بالجامعة إلى درجة رفيعة من العلم والمعرفة ، ويسألون التصريح لهم بتدريس الآخرين ، فإننا نجيبهم إلى طلبهم على أن يؤدوا امتحاناً في كلا القانونين الكنسي والمدني وفي الطب والفنون الحرة ، ثم يتوج عملهم بمنحهم لقب ماجستير في [تخصصات] تلك الكليات . وسوف يمثل جميع المجازين لهذا الشرف في حضرة أسقف أفينون الذي يتولى استدعاء جميع أساتذة الكلية المعنية ، ثم يقوم بامتحان المرشحين [لنيل الدرجة] دون المطالبة بأية مصاريف أو نفقات ، وذلك للوقوف على مقدار حصيلتهم العلمية ومدى بلاغتهم وأسلوبهم في المحاضرة ، وغير ذلك من الأمور الواجب توافرها في مثل أولئك الذين سيحصلون على درجة الدكتوراة أو الماجستير . وبعد ذلك يتداول [الأسقف] مع الأساتذة حول [نتيجة] الامتحان ، ويقومون بدورهم بإبداء الرأي فيما يتعلق بموضوع منح الدرجة العلمية ، بمعنى أن يقرروا إن كان المرشح قد أدى الامتحان بنجاح أم لا . هذا ، مع مراعاة أن يبقى اقتراعهم سراً مكتوماً ، وألا يفصح الأسقف إطلاقاً كيف أدلوا برأيهم في

الموضوع • وسوف يصادق على الصالحين منهم ويأذن لهم بتدريس الآخرين • أما أولئك الذين يرى أنهم غير صالحين ، فسوف يرفض طلبهم دون رهبة أو تملق• وإذا حدث أن كانت أسقفية أفينون شاغرة ، فسيقدم المرشحون [لنيل الدرجة العلمية] أنفسهم إلى القاضي Praepositus الكنسي الذي يتـولى امتحانهـم والموافقة على من يقع عليهم الاختيار وفقاً لما أشرنا به بالنسبة للأسقف •

وفيما يتعلق بأولئك الذين أدوا الامتحان وتـم الموافقة عليهم في أفينون وحصلوا على إجازة التدريس ، فسيكون لهم بعدئذ الحق المطلق في المحاضرة والتدريس في كل مكان بالكلية التي أجيزوا للعمل بها ، وذلك بدون أداء أية امتحانات أخرى أو الحصول على موافقة أي شخص آخر •

وحتى يتم عقد مثل تلك الامتحانات بطريقة سليمة ، نأمر بأن يؤدي جميع الأساتذة الذين يرغبون في المحاضرة بجامعة أفينون ، قبل أن يبدأوا عملهم بها كمدرسين ، قسماً علنياً مؤداه أنهم سيتواجدون شخصياً في جميع الامتحانات وفي أي وقت يتم استدعاؤهم فيه ، وأنهم سوف يزودون الأسقف لا عن رهبة وخشية أو رغبـة في الزلفى والتملق ، وإنما بأمانـة وإخلاص وبدون مقابل ، برأيهم في الامتحان ، وذلك حتى يتسنى المصادقة على الأكفاء واستبعاد غير الأكفاء • ولن يسمح لأولئك الذين يرفضون أداء هذا القسم بالمحاضرة في الجامعة أو حضور الامتحانات أو التمتع بأية مزايا جامعية •

وحتى يكرس أساتذة الجامعة وطلبتها أنفسهم لدراساتهم بحرية وبلا قيود ، وحتى يحرزوا تقدماً طيباً فيها ــ فإننـا نمنح كل الذين يعملون بالجامعة ، من أساتذة وطلاب ، جميع الامتيازات والحريات والإعفاءات التي يتمتع بها ــ عادة ــ المدرسون والدارسون بالجامعات الأخرى •

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

الملحق السابع

مفاهيم قانونية عامة

العدالة والقانون

العدالة هي الرغبة الشديدة الدائمة في أينال كل شخص ما هو حق له •

١ ــ أما التشريع فهو الالمام بالأمور الإلهية والبشرية ومعرفة ما هو عدل ، وما ليس بعدل •

٢ ــ وإذا جرت الدراية بهذين التقسيمين ، وإذ نوشك أن نشرح قوانين الشعب الروماني ، فإن هذا الشرح يجري على أحسن وجه ، إذا تم أولاً معالجة كل موضوع على حدة ، في صورة سهلة واضحة ، ثم تزداد المعالجة دقة وعناية ، لأنه إذا بادرنا بأن نحمل عقل الطالب تفاصيل كثيرة متنوعة ، فلا يؤدي ذلك إلا إلى أحد أمرين ، وهو إما أن نحمله على هجر دراساته ، بما يبذله من جهد شاق ، أو بافتقاره إلى الثقة بالنفس ، وهو ما يثبط عادة عزيمة الشبان ، وإما أن نجعله يصل إلى الغاية ذاتها إذا سلك الطريق البالغة اليسر ، دون أن يبذل جهداً كبيراً ، ودون أن يفقد الثقة بنفسه •

٣ ــ وفيما يلي أصول القانون : بأن يعيش شريفاً ، صادقاً ، لا تنزل الضرر بغيرك ، وأن تعطي كل ذي حق حقه •

٤ ــ ولهذه الدراسة فرعان ، عام وخاص • فالقانون العام هو الذي يعالج إدارة الحكومة الرومانية • أما القانون الخاص فيتعلق بمصالح الأفراد • وبهذا كان للقانون الخاص فيما يقال ثلاث خصائص ، إذ أنه مؤلف من أصول القانون الطبيعي ، وقواعد قانون الشعوب ، وقواعد القانون المدني •

ـ القانون الطبيعي ،وقانون الشعوب ، والقانون المدني :

فالقانون الطبيعي هو الذي علمته الطبيعة كل الحيوانات ، فليس هذا القانون خاصاً بالجنس البشري ، بل يجري تطبيقه على كل المخلوقات التي تعيش في الجو ، والأرض ، والبحر . ومن هنا نشأ اتحاد الذكر بالأنثى الذي نسميه زواجاً ، ومن ثم جرى إنجاب الأطفال وتعليمهم ، لأننا نلحظ أن الحيوانات الأخرى تتصرف كما لو أنها على علم بهذا القانون .

٥ ـ وانقسم القانون المدني وقانون الأمم على النحو الآتي :

كل الشعوب التي تخضع للقوانين والتقاليد تفيد من القانون الذي يخصهم من ناحية ، ويتعلق بجميع الرجال من جهة أخرى . وما اتخذه كل قوم لأنفسهم من قانون ، يُعدُّ خاصاً بتلك الدولة ، ويعرف بالقانون المدني ، على اعتبار أنه القانون الخاص لهذه الجماعة من الأفراد . أما القانون الذي أقرته الفطرة بين الجنس البشري ، والذي يجري ملاحظته بين جميع الشعوب ، فهو المعروف باسم قانون الشعوب ، لأن جميع الأمم تفيد منه .

٦ ـ وكل ما يقره الملك ، صار له أيضاً قوة القانون لأنه بمقتضى قانون الملك Lex regia ، الذي يستمد منه الملك سلطته ، عهد الشعب له بكل ما له من ولاية وسلطة . ولذا فإن كل ما يصدره الملك من قوانين أو قرارات ، أو أوامر بمقتضى مرسوم ، يُعدُّ قانوناً ، وكل هذه القرارات تسمى دساتير . ومن هذه الدساتير ما يعدُّ شخصياً ، فلا تُعدّ سوابق ، لأن الملك لا يُحبّ أن تتخذ هذه الصفة . فما يبذله من فضل لأحد الأفراد بسبب جدارته ، أو ما ينزله من عقوبة بشخص ، أو ما يخصه بمساعدة استثنائية ، لا يتأثر به إلا الشخص الذي اختصه الملك بذلك .

أما غير ذلك من الدساتير فيخضع لها جميع الناس دون نقاش ويلتزمون بها (٣٩) .

الفصل الثاني

الحيـــاة الفنيـّــة

الحياة الفنية في العصر الميروفنجي

ـ فـــنّ البنـــاء :

كثر البناء المدني والديني في العصر الميروفنجي . ولم يبق من ذلك البناء المدني (كالقصور الملكية والمنازل) شيء ، لأن معظم تلك الأبنية شيّد من الخشب . كذلك لم يبق إلى عصرنا من تلك الأبنية الدينية سوى بعض الكنائس التي أنشئت تحت الأرض . وحافظت كنائس غاليا في العصر الميروفنجي على المخطط البازيليكي، إذ انقسمت تلك الكنائس إلى ثلاثة أقسام ، يكون القسم الأوسط فيها عريضاً وأكثر ارتفاعاً من القسمين الجانبيين . وكان البناء مغطى بالخشب ويتلقى النور من النوافذ في الجدران . ولم تكن أبعاد الكنائس الميروفنجية كبيرة ، مما يدل على ضعف كثافة السكان .

ـ النحـــت :

سقط في العصر الميروفنجي الفن التشكيلي سقوطاً ذريعاً ، إذ لم يكن أحد قادراً على نسخ الجسم البشري بشكل منحوت ، كما أن الحيوانات المنحوتة في العصر الميروفنجي تدل على عدم الحذق وقلة الخبرة . وكانت تنحت على تيجان الأعمدة تزيينات مأخوذة عن التراث المسيحي كالصليب والسمكة ، أو عن الفن الروماني كالجدائل والشباك والنجوم ، أو عن الفن الإيراني (الذي نقله الجرمان) كأسنان

المنشار والصور المتشابكة أو المعوجّة الملتوية . أما التوابيت الحجرية أو الرخامية فكانت خالية من اللوحات المنحوتة . كذلك انقطع النحت على العاج عن الوجود في غاليا ابتداءً من القرن السادس . وهكذا كان فن النحت في العصر الميروفنجي ينفّذ في غاليا بأيدٍ غير ماهرة .

ـ الرسم والتصوير :

كانت جدران الكنائس والقصور الملكية في غاليا مزدانة بالصور في العصر الميروفنجي ، ولكن لم يبق منها إلى عصرنا شيء . غير أن الفنان الميروفنجي كان غيرَ قادر على تأليف مشهد فنيّ بديع أو تصوير الجسم البشري ، ولذا اهتم بتصوير الحيوانات والأسماك والزواحف والطيور ، كما رسم التزيينات النباتية بألوان حمراء وخضراء وصفراء .

ـ فنّ صياغة المعادن الثمينة :

في العصر الميروفنجي ازدهر فنّ صياغة المعادن الثمينة في غاليا وانتشر منها إلى أوروبا الغربية كلها . لكن هذا الفن لم يكن إبداعاً جرمانياً ، وإنما كان إيرانيّ الأصل نقله القوط عن السارماط ، في أثناء إقامتهم في أوكرانيا في القرنين الثالث والرابع الميلاديين ، ثم نشروه مع هجرتهم بين الشعوب الجرمانية البربرية . وتمثل ذلك الفن بصياغة حلي ذهبية وفضية وبرونزية مزدانة بالأحجار الكريمة ، ومنها الخواتم والعقود والدمالج والشكالات والأزرار والأسلحة وقبضات السيوف وأغمدتها والأحزمة وأدوات العبادة كالكؤوس والصناديق التي تحفظ فيها بقايا القديسين والتيجان النذرية (١) .

الحياة الفنية في العصر الكارولنجي

ـ مقـدمة :

شملت النهضة الحضارية التي تعدها شارلمان تدعيم الحياة الفنّية . لقد شجع شارلمان الموسيقيين والمهندسين المعماريين والرسامين والمنمنمين والنحاتين وصنّاع العاج والصيّاغ . كذلك أمر بجمع الآثار الفنية القديمة من البرونز والفخار والخزف والعاج والأقمشة والمخطوطات ذات المنمنمات ، وتراث الرومـان ، وما أتى بـه السوريون وتجار الشرق ورجال الدين الحاجون إلى القدس ، فاعطى من كل هذه الآثار الفنية نماذج مختلفة يستلهم منها الفنانون . وقد تأثرت الفنون في العصر الكارولنجي ، كما تأثرت المظاهر الحضارية الأخرى ، بالعامل الديني . وظهر هذا الأثر واضحاً في البواعث التي الهمت الفن الكارولنجي ، وفي الطابع العام الذي ميّز ذلك الفن .

ـفنّ البناء :

اهتم شارلمان بالعمارة الدينية والدنيوية (المدنية) ، فأمر رجال الدين بالعناية ببناء الكنائس وإصلاحها وصياتنها، كما جلب عدداً من الفنانين والمهندسين المعماريين من إيطاليا . وانتشرت المباني الكارولنجية في غاليا وألمانيا وشمال إيطاليا ، إلا أنه لم يبق من منشآت ذلك العصر سوى القليل ، لأن معظمها كان من الخشب ، كما أن الحروب والثورات والحرائق وعمل العصور وتبدلات الذوق الفني أزالت كل شيء . لكن بعض الأبنية الحجرية مازالت موجودة بتمامها وأخرى في أجزاء منها . وستطيع أن تتعرف على ملامح الفن الكارولنجي من دراسة بقايا البناء وقطع

التزيين ولوحات الجدران . حفوظة في بعض الأبنية مع مقارنتها بما كتبه بعض الكتاب المعاصرين لهذا ا[illegible] •

نشا في العصر الكارو[illegible] طراز العمارة الرومانسي ، الذي يحتل بمميزاته وخصائصه مكاناً وسطاً بين الطرازين : الروماني السابق ، والقوطي اللاحق •

وقد عرّف بعض الباحثين العمارة الرومانسيّة بأنها عمارة رومانية ذات صبغة دينية مسيحية • لقد أخذ الفن الرومانسي عن الفن الروماني والفن البيزنطي والفن العربي الإسلامي ، كما دخلت فيه تأثيرات إيرلندية واسكندنافية وجرمانية وبربرية بدائية • لكن الفن الرومانسي امتاز عنها بسعته وقوته وتجديده في إعطاء الأولوية إلى الحجر لا إلى التزيين • وقد استخدم الحجر المنحوت والمرصوف فوق بعضه بدقة وضبط على صفوف ، عوضاً عن الأحجار مختلفة الأشكال المكسرة بغير انتظام والمغموسة في المونة ، وهذا ما ساعد على تقدم حاسم في بناء الأقواس والعقود •

وامتاز الفن الرومانسي في غاليا بظهور الأبراج في الكنائس وزخرفة المباني عن طريق الحفر والتلبيس والزجاج المؤلف بالرصاص ، وكذلك الأعمدة المحلاة بتيجان على شكل اوراق نبات الاكنث وفق النمط الكورنثي الروماني •

ـ العمــارة الدينيــة :

تتمثل العمارة الدينية ببناء الكنائس والاديرة • وكانت الكنائس الكارولنجية تنسخ تصميم الكنائس التي بنيت في العصر الميروفنجي وتقلد النماذج الشرقية التي تاثرت بها •

فالكنيسة كانت على شكل صليب بداخلها ثلاث صحون • أما أبراجها فكانت أسطوانية أو مربعة ، توضع في أعلاها الأجراس التي تقرع للاعلان عن بدء الصلاة •

وأشهر الكنائس الكارولنجية كاتدرائية مدينة إكس لا شابل التي شادها شارلمان بالقرب من قصره • وقد نقل الرخام اللازم لتلك الكاتدرائية من روما

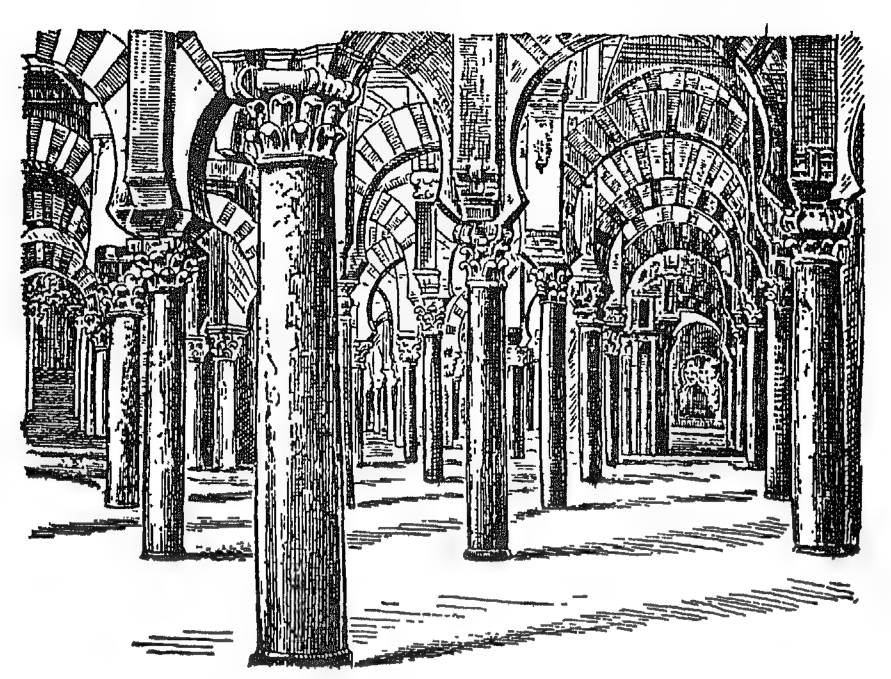
ورافنا ، كما عمل فيها نخبة من الفنانين والمهندسين الذين استحضرهم شارلمان من مختلف البلدان ، وكان على رأسهم المهندس المعمار أودميتز ، ودشّن تلك الكنيسة البابا ليون الثالث في سنة ٨٠٥ ، ثم دفن فيها شارلمان في ٢٨ كانون الثاني من سنة ٨١٤ م • وقد وصف صاحب « سيرة شارلمان » المؤرخ إينهارد تلك الكنيسة بأنها « رائعة وفائقة في الحسن » •

وشيدت على نمط كنيسة شارلمان كنائس كثيرة منها كنيسة القديس ميخائيل في مدينة فولدا ، وكنيسة جرماني ليبريه على نهر اللوار ، التي بقيت بعض أجزائها سليمة حتى الآن لتعبّر عن الاتجاهات الفنية في البناء في العصر الكارولنجي •

أما أديرة العصر الكارولنجي فكان تصميمها استجابة لحاجات أهل الدير والعمل على توفير أسباب الراحة لهم في حياتهم الخاصة والعامة • ومن أعظم أديرة غاليا في ذلك العصر دير القديس واندريل الذي تمتاز كنيسته ببرجها المرتفع خمساً وثلاثين قدماً والمكسو بالنحاس المزخرف • كذلك بلغ طول قاعة النوم وقاعة الطعام مائتين وثمان أقدام ، وعرضها سبعاً وعشرين قدماً • أما دير القديس ركوبير الذي بُني تحت إشراف أنجلبرت وبدعم مادي من شارلمان ، فقد أُلحقت به ثلاث كنائس وأحيط مع الكنائس بسور منيع يضمن الأمان لحياة الرهبان الذين يعيشون في داخـــله •

ـ العمـــارة الدنيوية أو المدنيـــة :

تتمثل العمـــارة الدنيـــوية ببنـــاء المنـــازل والقصور • وقد اكثر شارلمان من بناء القصور الرائعة وتفنن في زخرفتها وزينتها حتى جاءت آية في الإبداع الفني • وجدير بالذكر أن قصور ذلك العصر يبدو فيها الأثر البيزنطي واضحاً ،لاسيما في زخرفتها بالأعمدة ذات الأكتاف المزركشة والأفاريز • ومعظم القصور الشارلمانية شيّد على ضفاف نهر الراين في نيميج وأنجلهايم وإكس لا شابل • ولعل أبدعها قصر شارلمان في إكس لا شابل الذي تمّ بناؤه في سنة ٧٩٨ على طراز قصر رافنـــا بايطاليا • وقد امتاز هذا القصر باتساع مساحته ، إذ أقيم في الوسط جناح شارلمان



الشكل رقم (٤٧)

مسجد في مدينه قرطبة باسبانيا (بني في القرن الثامن الميلادى)

وأسرته وقاعة الاستقبال والحمامات . ويتصل بهذا الجناح جناح آخر يصل بين القصر والكنيسة ، وبه مدرسة القصر والمكتبة والأرشيف .

ـ **الرسم والتصوير :**

على الرغم من محاربة شارلمان لتقديس الصور والأيقونات ، فقد أوصى رجال الدين بزخرفة سقوف الكنائس وجدرانها الداخلية برسومات مستمدة من موضوعات دينية تمثل حياة المسيح وخلق الدنيا ، فضلاً عن صور القديسين وشهداء المسيحية . وكثير من رسوم الكنائس الكارولنجية تأثرت بالفن الشرقي في بيزنطة وسورية ومصر وبلاد الرافدين . أما القصور الملكية فقد زينت بمناظر تاريخية مثل الحروب مع العرب والساكسون ، بالإضافة إلى أعمال أباطرة الرومان في العصور القديمة .

ـ فن صياغة المعادن الثمينة :

نما فن صياغة المعادن الثمينة في العصر الكارولنجي نمواً عظيماً ، إذ كثر عدد الأدوات الذهبية والفضية المزيّنة بالصور والمحلاّت بالأحجار الثمينة في مختلف بلدان أوروبا الغربية • لكن معظم تلك الأدوات صُهرَ في أوقات الفاقة والعوز ، فلم يبق منها إلى عصرنا إلا النذر القليل •

ـ البرونـز :

تدل النصوص التاريخية والمخلفات الأثرية الباقية على معرفة صَهر المعادن وصناعة التماثيل من البرونز في العصر الكارولنجي ، ومن ذلك تمثال شارلمان وهو ممتطٍ صهوة جواده ، الذي أُتيَ به من كاتدرائية ميتز وحُفظَ في منتحف اللوفر بباريس •

ـ العـاج :

صُنعت في العصر الكارولنجي منحوتات عاجيـة قلدت العـاج المسيحي والهيللنستي والسوري والمصري، كما تضمنت مشاهد دنيوية ودينية، كصلب المسيح وسِيَرِ القديسين والعذراء ورؤيا يوحنا المعمدان وغير ذلك من الموضوعات •

ـ فـنّ الكتـابة :

تطور فن الكتابة في عهد شارلمان ، الذي أصدر في سنة ٧٨٩ مرسوماً خاصاً يحضّ على مراجعة الكتب الدينية والعناية بكتبها وخطها • ولقد استُبدلت الأحرف الميروفنجية المعقدة بأحرف أخرى أجمل شكلاً وأكثر وضوحاً وأسهل قراءة ، فنشأ الخط المعروف باسم « الحروف الصغيرة المحدودة » Minuscule .
وأسهم ألكوين في ارتقاء فنّ الكتابة في مدرسة مدينة تورز الفرنسية ، إذ أوصى كتبتها بالعناية بالخطوط وتحسينها •

وقد وجدت في غاليا سبع مدارس أخرى عنيت في ذلك العصر بتحسين الخط وهي : مدرسة القصر ، مدرسة ميتز ، مدرسة ريمس ، مدرسة كوربي ، مدرسة فولدا ، مدرسة القديس دينيس ، مدرسة القديس جال . ووجهت العناية في تلك المدارس نحو نسخ الكتب المقدسة ، ومنها كتاب مدون بأحرف ذهبية وفضية على قماش ثمين نسخ لشارلمان في سنة ٧٨١ ، وهو محفوظ حتى الآن في المكتبة الأهلية بباريس . وتضم خزائن الكنائس والأديرة عدداً من الكتب التي نسخت في العصر الكارولنجي وتعدُّ آيةً فنيّة رائعة ، إذ أنها مدونة بأحرف ذهبية على رقائق حمراء داكنة ومحلاة ببعض الزخارف ، مما جعلها مثار الاعجاب لوضوح حروفها وجمال منظرها .

ـ فــنّ الموسيقى :

كانت الموسيقى التي عرفت في العصر الميروفنجي موسيقى دينية . وكان الغرب الأوروبي يعرف منذ القرن السادس طريقتين للترانيم الدينية : الطريقة الرومانية التي نظمها البابا غريغوري الأول ، والطريقة الغاليّة . ولم تلبث أن امتدت الطريقة الرومانية إلى غاليا ، حيث عمل بيبان القصير على تعميمها في جميع أنحاء مملكته ، ثم تبعه شارلمان في ذلك العمل وشجعه عليه البابا هدريان الأول ، إذ أمده باثنين من المتخصصين ليعلّموا أهالي غاليا طريقة الترانيم الرومانية الصحيحة . وقد أقام أحدهما في مدينة ميتز ، في حين أقام الثاني في مدينة القديس جال ، التي ازدهرت مدرستها في أواخر القرن التاسع وظهر من رجالها المبرّزين في الموسيقى نوتكر وهارتمان ورادبرت وتوتيلون (٢) .

الفن القوطي من القرن الثاني عشر حتى القرن السادس عشر

ـ مقدمة :

امتازت النهضة الأوروبية في القرن الثاني عشر بابتكار جديد في الميدان الفني، حيث ظهر فنّ البناء في قالب جديد يُعرف باسم « الطراز القوطي » . وقد ظهر الطراز القوطي بنتيجة تطور الطراز الرومانسي . وأسهمت في هذا التطور عوامل ومؤثرات دينية واجتماعية واقتصادية وفكرية ، بالإضافة إلى زيادة الاتصال بين الشرقين العربي والبيزنطي من جهة ، والغرب اللاتيني من جهة أخرى ، مما جعل الاتجاهات الفنية الشرقية تبدو واضحة في الفن القوطي. كذلك بدت في الفن القوطي مظاهر تعبّر عن اتجاهات العناصر الجرمانية الشمالية . ففي القرن الثاني عشر تهيأت العوامل لظهور الفن القوطي ، حيث توفر المال بنتيجة النشاط التجاري واستتباب الأمن والاستقرار بعد انتهاء غارات الفيكنغ ، كما ازداد النشاط الفكري والحماس الديني في مرحلة الحروب الصليبية .

ولكن إذا كان الطراز القوطي امتداداً للطراز الرومانسي ، فما صلته بالقوط ؟ ولماذا نُسبَ هذا الفن إليهم ؟. في الواقع لا توجد أية صلة تربط بين القوط والطراز القوطي . ويقال إن أول من سمّى ذلك الطراز باسم « القوطيّ » هو الفنان فاساري (١٥١٢ــ١٥٧٤) تلميذ ميخائيل أنجلو وأحد فناني عصر النهضة بايطاليا . ويعلل الدافع إلى تلك التسمية بأن فناني عصر النهضة الايطالية نظروا إلى فنون العصور الوسطى نظرة احتقار وازدراء ، فلم يجدوا أسوأ من نسبتها إلى القوط ، الذين كرههم الايطاليون ، وعدّوهم مسؤولين عن فساد الآثار الرومانية الجميلة عندما احتلوا إيطاليا في أواخر القرن الخامس الميلادي . فالغرض من نسبة هذا

الفن إلى القوط كا ن الحط من شأنه وإظهار رجال النهضة الايطالية له على أنه بربري همجي متخلف . ولكن ذلك الفن في الواقع اسم على غير مسمى ، لأن القوط أبرياء منه وهو بريء منهم براءة الذئب من دم ابن يعقوب .

ـ العمـارة القوطيـة :

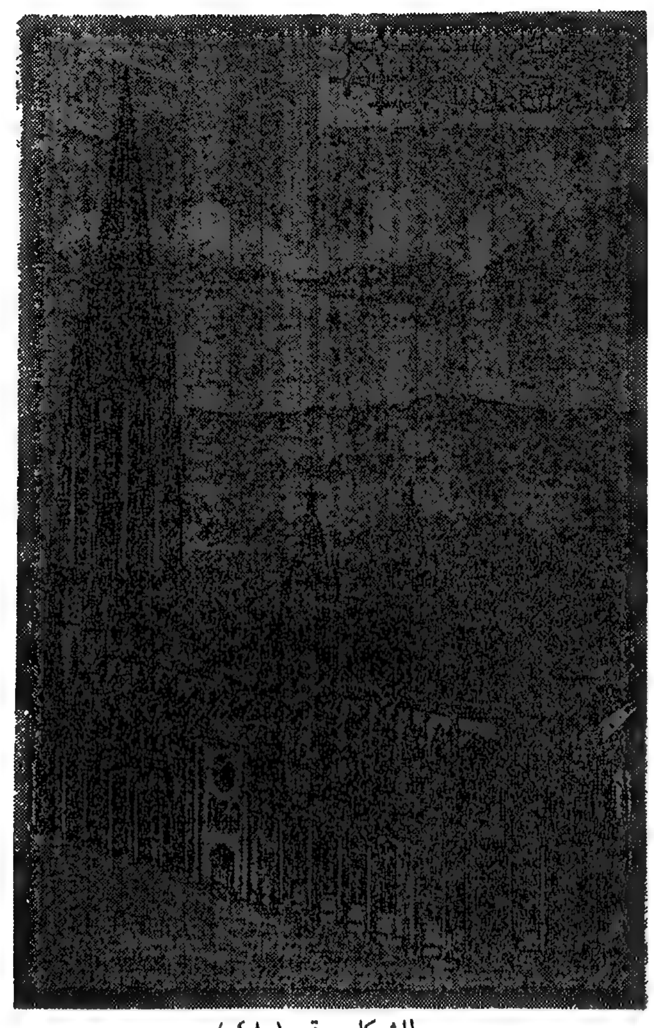
لم تظهر مميزات العمارة القوطية واضحة إلا في منتصف القرن الثاني عشر ، وكان ذلك في الأجزاء الشمالية من فرنسا ، ومنها انتشر ذلك الطراز إلى بقية أنحاء أوروبا الغربية . ولم يكن البناء القوطي عملاً فنيّاً رائعاً فحسب ، بل كان أيضاً عملاً هندسياً بارعاً من حيث المحافظة على توازن البناء ومراعاة ثقله والمهارة في استخدام العقود والأكتاف .

وتنفرد العمارة القوطية بعدة خصائص اساسية منها : استعمال الأضلاع متقاطعة الأقواس ، واستعمال العقود المدببة والعقود الساندة لتدعيم القبـة ، هذا عدا عن ابتكار زخارف من طراز جديد .

وامتازت الكنيسة القوطية بجدرانها الرقيقة وعقودها المدببة ، في حين امتازت الكنيسة الرومانسية بجدرانها السميكة وعقودها نصف الدائرية . كذلك امتازت الكنيسة القوطية بارتفاع جدرانها أكثر من الكنيسة الرومانسية ، وبارتفاع قبابها ، واتساع نوافذها وكثرتها لتيسير الإضاءة إلى داخلها . واشتهرت أبراج الكنائس القوطية بطرفها المدبب . أما مداخل تلك الكنائس فكانت كبيرة واسعة ومزينـة بتماثيل القديسين والأعمدة المزركشة .

ـ فنّ الزخرفة القوطية :

كانت الزخارف القوطيـة على جانب كبـير من الروعة . وقد كثر في تلك الزخارف استعمال الزجاج الملون المنقوش المؤلف بالرصاص . وروعي في ذلك الزجاج أن يكون على هيئة وحدات صغيرة تستعمل في رسم قصة دينية مقتبسة من



الشكل رقم (٤٨)
كنيسة من طراز الفن القوطي في مدينة فريبورغ بألمانيا (القرن ١٣)

الإنجيل أو غير ذلك . ولم تقتصر الزخرفة على نوافذ الكنائس الزجاجية ، وإنما امتدت إلى الأكتاف والأعمدة والعقود .

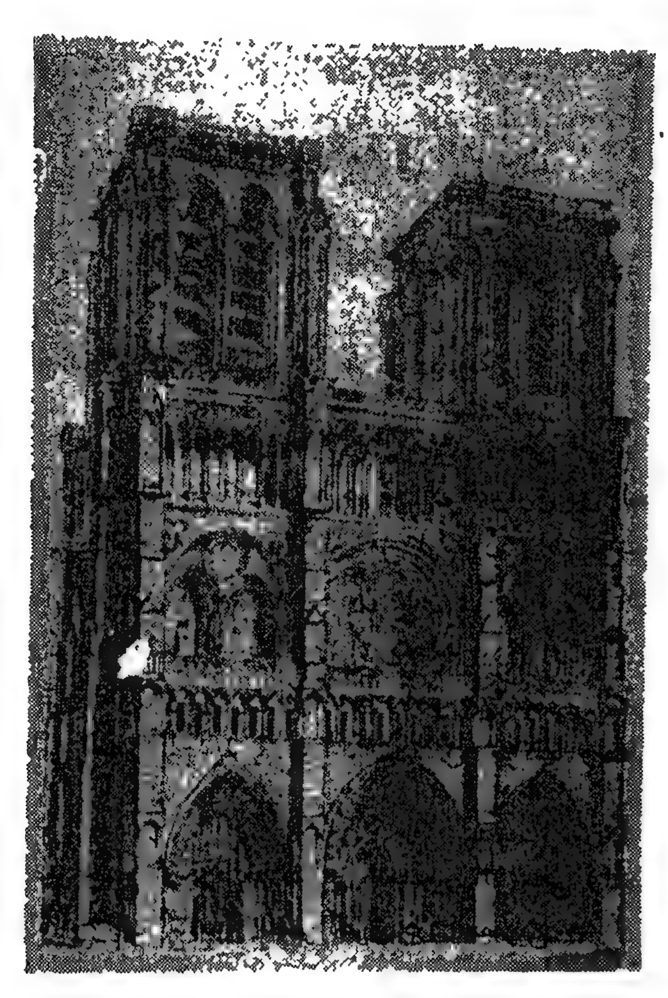
يرتبط جزء مهم من الزخرفة القوطية بالنحت على أنواعه المختلفة . وقد أدى الإكثار من استخدام النحت في زخرفة الكنائس القوطية إلى سمو فنّ النحت وتحرره من القيود التقليدية القديمة .

وروعي في زخرفة ظاهر الكنيسة أن تقسم واجهتها إلى أقسام رأسية ، حيث كانت خطوط الزخرفة الرأسية أكثر شيوعاً من الخطوط الأفقية في الفن القوطي ، كما أن أشكال العقود المدببة كثيراً ما استخدمت في زخرفة الأبواب وستائر غرف الترتيل ٠

وتجدر الملاحظة إلى أن الفن القوطي الذي انتشر في أوروبا الغربية وأصبح طراز العمارة والزخرفة السائد في الفترة الواقعة بين القرنين الثاني عشر والسادس عشر لم تتشابه تفصيلاته في جميع البلدان الأوروبية ، وإنما اختلفت هذه التفصيلات من بلد إلى آخر حسب ظروف البيئة والأوضاع السائدة في كل بلد ٠ ففي إيطاليا مثلاً استخدم الرخام الأبيض والملون نظراً لوفرته ، في حين استعملت في فرنسا وإنكلترا الأحجار الصخرية ، وفي ألمانيا الأحجار الجيرية ٠ كذلك اختلف اتساع الفتحات والنوافذ بين شمال أوروبا وجنوبها ٠ ففي الشمال حيث تزداد السحب كثرت النوافذ واتسعت لتيسير دخول الضوء ٠ أما في الجنوب المشمس فقد قل عدد النوافذ وضاقت أبعادها ٠

ـ الرسم والنقش والموسيقى :

وازدهر فن الرسم والتصوير القوطي ، فزينت جدران الكنائس بلوحات ناطقة للقديسين والرسل أقل جموداً وأكثر مرونة ٠ كذلك زينت المخطوطات برسوم زاهية تجمع الرقة والجمال ٠ وتطورت صناعة الأثاث المنزلي المزخرف عن طريق النقش والحفر ٠ وصحب ذلك مهارة فنيــة في صياغة المعادن الثمينة ٠ وتطور أيضاً فن الموسيقى ، حيث أخذ يظهر في القرن الثاني عشر التوافق والانسجام بين الألحان والأنغام ٠ وساعد على ذلك التقدم الذي أحرزته كتابة النوتة الموسيقة ، فصار بالإمكان تدوين مختلف الأصوات ومراعاة التوزيع الموسيقي على الآلات المتباينة القديمة والمستحدثة (٣) ٠



الشكل رقم (٤٩)

كنيسة العـذراء في بارس (القرن ١٣)

النهضة الايطالية في القرنين

الرابع عشر والخامس عشر

١ ـ أوجه الخلاف بين العصور الوسطى والحديثة :

إن تقسيم التاريخ إلى عصوًر أمرٌ غيرُ طبيعي ، على الرغم من أهمية هذا التقسيم لتسهيل دراسة التاريخ • وعلى الرغم من أن الفوارق بين العصور التاريخية القديمة والوسطى والحديثة تبدو في كثير من الأحيان واضحة جلية ، فإنه من التعسف أن نضعَ فواصل تاريخية معينة بين عصر وآخر ، لأن التطور التاريخي يأتي تدريجاً دون أن يخضع لحدث معينَ أو يتحدد بيوم أو سنة أوقرن • وكل ما هناك توجد فترة انتقال زمنية بين كل عصر وآخر من عصور التاريخ ، وفي هذه الفترة نرى بشائر العصر الجديد قـد أخذت تشقُّ طريقها وسط معالم العصر السابق •

يصعب حصر جميع أوجه الخلاف بين العصور الوسطى والحديثة ، ولـذا سنحدث عن ثلاثة جوانب أساسية تظهر الفرق بين العصرين •

ـ الجانب الأول :

في العصور الوسطى ظل المفكرون السياسيون متأثرين بتقاليد الامبراطورية الرومانية العالمية وفكرة الكنيسة العالمية أيضاً ، ومن ثم نظروا إلى العالم المسيحي كله كدولة واحدة على رأسها زعيمان همـا : البـابا رئيس السلطة الدينية ، والامبراطور رئيس السلطة الدنيوية •

أما في العصور الحديثة فقد تنكّر السياسيون لتقاليد العصور الوسطى ونادوا

بأن لكل دولة كياناً سياسياً مستقلاً يعتمد على الشعور القومي الذي يربط بين أبنائها ويجعلهم يتعصبون بعضهم لبعض ، فضلاً عن تعصبهم لوطنهم . وعلى هذا الأساس قامت الأمم والدول الاسبانية والفرنسية والانكليزية والايطالية والألمانية .

- الجانب الثاني :

في العصور الوسطى كان الفرد لاشيء ، في حين كانت المجموعة كل شيء . فالفرد لا يمثل الخلية الأولى في بناء المجتمع ، وإنما تتمثل هذه الخلية في المجموعة، سواء أكانت هذه المجموعة الضيعة الاقطاعية ، أم القومون (المدينة ذات الكيان السياسي المستقل) ، أو النقابة التي تمثل مصالح أبناء الحرفة الواحدة .

أما في العصور الحديثة فقد اعترفت السلطات والمجتمعات بحرية الفرد ومكانته وحقه في التعبير عن فكره وفنه ، حتى قيل إن أعظم ما حققته النهضة هو أنها كشفت عن العالم والفرد .

- الجانب الثالث :

في العصور الوسطى ساد الجهل بين الناس ، إذ احتكرت الكنيسة ورجالها العلم والتعليم وفرضت قيوداً على حرية الفكر والبحث العلمي ، كما اتهمت بالهرطقة كل من يخالف تعاليمها وأنزلت به العقاب الصارم . فالجمال إثم ، والمرح وزر ، والحياة عرض زائل ، والجهل برهان على الخضوع لله والرضا بأحكامه ... لكننا لا نريد أن نبالغ في القول إن العصور الوسطى كانت عصور جهل وظلام طوال امتدادها ، إذ لم تخلُ تلك العصور من نهضات حضارية كالنهضة الكارولنجية ونهضة القرن الثاني عشر وغيرهما .

أما في العصور الحديثة فقد اتسع نور المعرفة والتفكير وتحرر الفكر البشري من الخرافات والمعتقدات الباطلة ، كما توفر العلم لجميع الأفراد ، بغض النظر عن طبقاتهم وفئاتهم . وعلى هذا تطورت العلوم والفنون والآداب وشمل التقدم مختلف مناحي الحياة .

ـ الملامح العامـة لعصر النهضة :

يمثل عصر النهضة فترة الانتقال من العصور الوسطى إلى العصور الحديثة ، فهو العصر الذي نختتم به دراستنا لتاريخ العصور الوسطى ، وفي الوقت نفسه نبدأ به دراسة تاريخ أوروبا في العصور الحديثة • وفي كلتا الحالتين لا يمكننا تحديد بداية زمنية لهذه النهضة ، ولكن من الممكن القول : إن بذورها نبتت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر ، وبلغت أشدها في القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، ثم استمرت آثارها في صورة حركات الإصلاح الديني في القرن السادس عشر • وبعد ذلك ينتهي عصر النهضة ــ أو فترة الانتقال ــ لنجد أنفسنا في عصر حديث يختلف في معالمه وآفاقه وحضارته المعنوية والفكرية والمادية عما كان عليه عالم العصور الوسطى •

فعصر النهضة هو العصر الذي شهد نهاية النظام الاجتماعي والسياسي الذي عرفته العصور الوسطى ، كما أُزيلت فيه القيود التي فرضتها تلك العصور على حرية الفكر والبحث العلمي • فلقد شهدت المرحلة الأخيرة من العصور الوسطى تغييرات وتطورات مهمة منها :

١ ــ اضمحلال الامبراطورية والبابوية معاً •

٢ ــ ظهور الدول القومية واللغات القومية •

٣ ــ انهيار النظام الاقطاعي ونظام الفروسية •

٤ ــ نمو الصناعة ونشاط التجارة وتحرر المدن •

٥ ــ التخلص من سيادة ارستقراطية الأمراء الاقطاعيين ورجال الدين •

٦ ــ ارتقاء عامة الناس الكفيين إلى المناصب السياسية •

٧ ــ نمو ملكيات قومية قوية تعتمد على تاييد شعوبها •

إن تلك التغييرات والتطورات أدت إلى ظهور حركة النهضة التي شهدت اختراعات واستكشافات جديدة منها :

١ ــ استخدام البوصلة والاسطرلاب الذي ترتب عليه تقدم الملاحة ، مما أدى إلى الكشف عن طريق الهند البحري واكتشاف العالم الجديد (القارة الأمريكية) .

٢ ــ استكشاف البارود الذي ترتب عليه تطور في نظم الحرب .

٣ ــ استكشاف الطباعة الذي أدى إلى انتشار العلم والمعرفة .

٤ ــ سقوط القسطنطينية بأيدي العثمانيين في سنة ١٤٥٣ م دفع علماءها للفرار إلى الغرب الأوروبي حاملين معهم علوم اليونانيين وحضارتهم ، وهذا الأمر ساعد على التطور الحضاري في أوروبا الغربية .

جميع هذه التطورات تعود إلى عصر النهضة وترتبط به . فإذا أردنا الإحاطة التامة بعصر النهضة لابدّ من دراسة كل هذه التطورات ، ولكن هذا الأمر يخرج عن نطاق هذا الكتاب . على أننا نكتفي بالتحدث عن بعض أوجه النهضة ، وبخاصة عن حركة إحياء الآداب والفنون ، كتتمة لدراسة الحياة الفكرية والفنية في أوروبا في العصور الوسطى. هذا مع اعترافنا بأن اصطلاح النهضة بمعناها الواسع لا يقتصر على إحياء الآداب والفنون فحسب ، وإنما يمتد هذا المعنى ليشمل تغيير الآراء والمثل المعنوية والاجتماعية والسياسية التي سادت في العصور الوسطى .



الشكل رقم (٥٠)

يوغان غوتنبرغ مخترع الأحرف المعدنية للطباعة في سنة ١٤٤٥ بمدينة ماينز الألمانية

ـ إيطاليــا وحركة النهضة :

تستطيع إيطاليا أن تفخر بأنها الدولة التي شهدت مولد النهضة الأوروبية العظيمة وتولّت زعامتها ، وهي النهضة التي ولدت في القرن الرابع عشر ونمت وترعرعت في القرن الخامس عشر • ومن إيطاليا أخذت الدول الأوروبية الأخرى تتلقى أصول النهضة وتطبقها في ميادين جديدة كالإصلاح الديني والاستكشافات التي تمت في مختلف ميادين المعرفة •

لماذا انفردت إيطاليا بشرف مولد النهضة الأوروبية الحديثة ، مع أنها مركز البابوية والكنيسة الغربية التي عُرفت طوال العصور الوسطى بالجمود والتزمت وتقييد حرية الفكر ؟• وإذا ما حاولنا الإجابة عن هذا السؤال نقول :

إن إيطاليا ظلت في العصور الوسطى تحتفظ بقدر من تراث الرومان القدماء • كذلك كانت إيطاليا مركز البابوية وقبلة العالم المسيحي في أوروبا ، وهذا مما أضفى عليها مكانة خاصة لم تتوافر لغيرها من الدول الأوروبية ، إذ تدفقت عليها الأموال من مختلف أنحاء أوروبا • بالإضافة إلى ذلك فإن موقع إيطاليا على البحر المتوسط ساعد على تطور النشاط التجاري وزيادة ثروة المدن الايطالية مثل البندقية وجنوا وفلورنسا ، وهذا مما ساعد على دعم النشاط الأدبي والفني والعلمي • أما البابوية فلم تعد في أواخر العصور الوسطى تحارب الأدباء والفنانين المبدعين كما كانت تفعل في أوائل العصور الوسطى ، بل وجِدَ بعض البابوات الذين أخذوا يسابقون الأمراءَ الايطاليين في تشجيع الأدب ورعاية الفنون ، كما هرع كثير من الأدباء والفنانين إلى البلاط البابوي طمعاً في حسن الجزاء وكرم العطاء • وهكذا وجِدَ من البابوات أمثال نيقولا الخامس (١٤٤٧ ــ ١٤٥٥) وليون العاشر (١٥١٣ ــ ١٥٢١) من أسهم في بناء النهضة وعمل على تشجيع رجالها •

ـ النهضة الأدبيــة :

١ ــ دانتــي :

احتل دانتي (١٢٥٦ ــ ١٣٢١) مكانة بارزة عند مدخل النهضة الايطالية ،

وكان أولَ رجل عظيم في العصور الوسطى اعتمد على نفسه وعلى مواهبه في الوصول إلى قمة الشهرة ، دون أن يرتبط بهيئة دينية أو علمانية ، أو يعتمد على شرف المولد . وقد تركت « الكوميديا الإلهية » التي وضعها دانتي أثراً عميقاً في نفوس الايطاليين وعقولهم . لكن دانتي ، على الرغم من عظمته وشهرته ، لم يكن مشبعاً بالروح الحديثة ، ولذا من الصواب أن نقول إنه كان يمثل آخر عمالقة العصور الوسطى أكثر من كونه أول رسل العصور الحديثة .

٢ - بترارك :

وبعد دانتي جاء بترارك (١٣٠٤ - ١٣٧٤) ، الذي أثّرت قصائده الغزلية في آداب جميع البلدان الأوروبية ، في حين يُعدّ أولَ الانسانيين الايطاليين ، نظراً



الشكل رقم (٥١)

صوره بترارك (رسم اندرى دى كاسانو في القرن الخامس عشر)

لحبه لأدب القدامى وشغفه بحريتهم • وقد عَثَرَ على خطبتين للخطيب الروماني شيشرون وعلى بعض رسائله ، ومن ثم أخذ يواصل البحث عن تراث القدامى حتى جمع ما يقرب من مائتي مخطوطة .

٣ ـ بوكاشيو :

عاصر بوكاشيو (١٣١٣ ـ ١٣٧٥) بترارك وحاكاه في شغفه بدراسة آداب القدامى • وأحرز بوكاشيو شهرته العظيمة من مئة قصة وضعها ، والتي تعرف باسم « الأيام العشرة » Decameron على أساس أن سردها يستغرق عشرة أيام • وفي هذه المجموعة من القصص يظهر بوكاشيو احتقاره لخرافات العصور الوسطى



الشكل رقم (٥٢)

صورة بوكاشيو (رسم أندري دي كاسانو في القرن الخامس عشر)



الشكل رقم (٥٣)
جفري شوسر (شوسر) ـ صورة على النحاس من القرن الثامن عشر

وتقاليدها البالية ، كما ينظر إلى الحياة نظرة مرحة باسمة ، وهذه كلها اتجاهات غريبة عن العصور الوسطى جديدة عليها • وفيما بعد استعار الكاتب الانكليزي شوسر في مؤلفه « قصص كانتربوري » كثيراً من الفصول والمواقف التي زخرت بها قصص بوكاشيو • وعن طريق شوسر تأثر الكتاب الانكليز في القرون التالية بأسلوب بوكاشيو وأفكاره •

إن هؤلاء الأدباء الثلاثة ـ دانتي وبترارك وبوكاشيو ـ هم الذين فتحوا باب الحرية الفكرية في إيطاليا ، كما بشر ظهورهم بالنهضة وجعل قدومها أمراً متوقعاً في السنوات التالية •

وقد أعقب هؤلاء الأدباء مجموعة من الجمّاعين الذين أخذوا يبحثون في أوروبا وخارجها عن مخطوطات القدماء ويجمعونها بتشجيع من الأمراء والبابوات . وأدى هؤلاء الجمّاعين خدمة عظيمة للعلم والمعرفة . وقد اشتهر منهم : بوجيو ، فراسكو ، فليلفو ، نيقولو نيقولي مؤسس مكتبة القديس مارك في فلورنسا .

وحرص آل مديتشي أمراء فلورنسا على تشجيع الآداب والفنون حتى جعلوا من مدينتهم « اثينا إيطاليا » . ودوّن الأمير لورنس مديتشي مجموعة شهيرة من الأغاني بالايطالية لتنشد في الأعياد الشعبية ، مما أدى إلى النهوض باللغة الايطالية وسط محيط متضارب من الدراسات اليونانية واللاتينية .

وبعد أن جمع الجمّاعون أكبر قدر ممكن من التراث الروماني واليوناني القديمين أخذ رجال العلم والناقدون يدرسون النصوص الأصلية للفلاسفة القدماء



الشكل رقم (٥٤)

مارتن لوثر — مؤسس حركة الاصلاح الديني البروتستانتية (١٤٨٣ — ١٥٤٦

ـ مثل أرسطو وأفلاطون وغيرهما ـ ويحاولون تطبيق تعاليم القدماء على الأوضاع والمشكلات التي يعيشون في وسطها • فلقد نشر لورنزو فالا ، الذي كان في خدمة ألفونسو ملك نابلي ، ـ خصم البابا اللدود ـ مقالاً يثبت فيه تزوير وثيقة « هبة قسطنطين » التي اعتمد عليها البابوات في العصور الوسطى في إثبات شرعية سلطانهم العلماني إلى جانب سلطانهم الديني • وتدريجاً أخذت الدراسات الجديدة التي أتت بها النهضة الايطالية تنتشر في البلدان الأوروبية الأخرى ، مما جعل مارتن لوثر (١٤٨٣ ـ ١٥٤٦) يتأثر بروح العصر التي أثارها الناقدون ويعلن ثورته على الكنيسة ونظمها البالية ، وهي الحركة التي عرفت باسم « الإصلاح الديني البروتستانتي » •

ـ النهضة الفنيّة :

بدات حركة النهضة بإحياء الدراسات الكلاسيكية على ايدي رجال الفكر الانسانيين الايطاليين ، ثم استؤنفت بوساطة الفنانين الايطاليين الذين كشفوا النقاب عن جمال الآثار القديمة وعملوا على محاكاتها في روحها وتعبيراتها • وهكذا كان الايطاليون اصحابَ الفضل الاول في نشاة الأدب الحديث ومبتكري الفن الحديث ، وبخاصة فنيّ التصوير والنحت • اما فنّ العمارة فكان الجانب الفني الوحيد الذي لم يصبه انهيار في العصور الوسطى ، كما استطاع اهالي شمال اوروبا ان يبذّوا اهالي إيطاليا فيه • ولكن في مجال التصوير والنحت احتفظ الايطاليون بشرف إحيائهما والنهوض بهما إلى مستوى الكمال والجمال ، كما اصبح الجمال غايةً عندهم لا وسيلة ، يقدّسُ ويحترم لانه شيء جميل ، لا لانه يعبّر عن فكرة دينية •

١ ـ الرسم والتصوير :

في العصور الوسطى اقتصر فنّ التصوير على الموضوعات الدينية ، وكان يخضع لقواعد وتقاليد معينة ثابتة ، فإذا خرج الرسام عن تلك القواعد عدّ عملُه خروجاً على الدين • وعلى هذا صارت جدران الكنائس مكسوة بصور جامدة للقديسين ، دون أن تتمتع بمستوى فني رفيع ، إذ أن القيود الدينية لم تساعد على

إيجاد فنانين مبدعين • أما في عصر النهضة ، فقد أخذ الرسامون يتحررون تدريجاً من القيود الدينية وتقاليد العصور الوسطى الفنية •

ـ واهم مظاهر التطور الفنى في عصر النهضة يبدو في الأمور التالية :

١ ـ ازدياد تعلق الناس بالطبيعة وجمالها •

٢ ـ ضعف الأثر الديني في الفن •

٣ ـ تقدم الأساليب الفنية ذاتها •

٤ ـ إدخال التصوير الجصي (الفريسكو) على الجدران •

٥ ـ استكشاف التلوين بالزيت •

٦ ـ الرسم على الألواح النحاسية وحفر الخشب وطبعه •

٧ ـ الإعراض عن الصور القديمة التى تتصف بالجمود •

٨ ـ محاكاة اشكال جميلة مستفاة من الطبيعة •

٩ ـ دراسة تشريح أعضاء الجسم وحركاتها المنظورة •

١٠ـ حرية الفنان في التعبير عن فكره وعبقريته •

وترجع بداية نهضة فن التصوير إلى القرن الرابع عشر على بد رسام مدينة فلورنسا كيمابو ، ورسام مدينة سينا دوتشيو • وخلف هذين الرسامين مجموعة من الرسامين الايطاليين ، ومنهم : جيوتو وأندريا أوركاجنا • لكن هؤلاء الفنانين ينتمون إلى الصفحة الأخيرة من العصور الوسطى أكثر من ارتباطهم بالصفحة الأولى من العصور الحديثة ، لأنهم عبّروا في صورهم وزخارفهم عن نظريات العصور الوسطى في الديانة والحياة البشرية ، وكل ما هنالك هو أنهم أدخلوا على رسومهم تحسينات كبيرة في الطريقة والأسلوب •

أما الجيل التالي من رسامي القرن الخامس عشر فقد عبّر عن النهضة الفنية تعبيراً ناضجاً • وكانت فلورنسا لاتزال تحمل لواء النهضة الفنّية ، فظهر فيها



الشكل رقم (٥٥)

لوحة الربيع — رسم الفنان الفلورنسي ساندرو بوتشيلي (في القرن الخامس عشر)

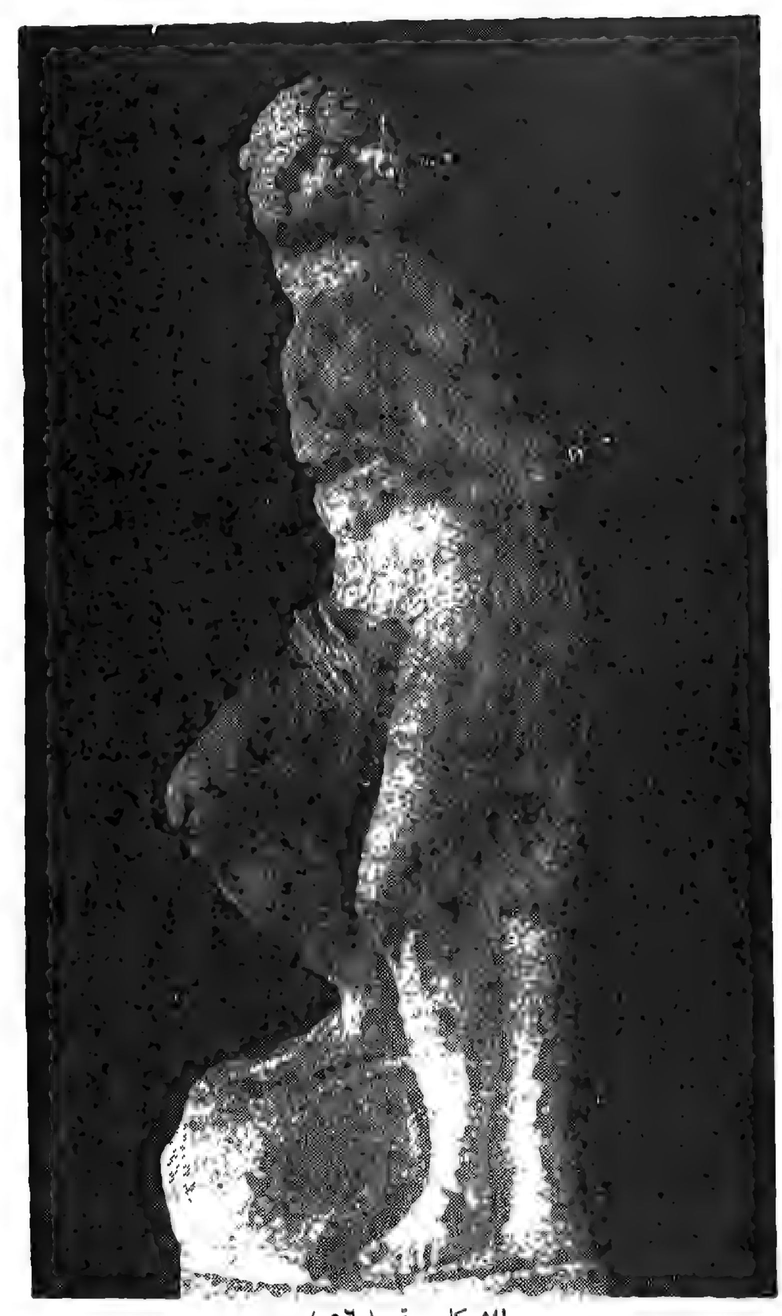
الرسامون ماساشيو وفيلبوليني وساندرو بوتشيلي ولوقا سنجوريلي • كذلك اشتهر عدد من الرسامين في المدن الايطالية الأخرى • وهذه المجموعة من الفنانين مهدت الطريق أمام أعلام القرن السادس عشر مثل : ليوناردو دافنشي ، ميخائيل آنجلو ، روفائيل ، أندريادر سارتر ، تيتان تنطورتو • وعلى الرغم من أن هؤلاء الفنانين استمروا يسخّرون مواهبهم في أغراض دينية ، لكنهم عالجوا الموضوعات الدينية في روح إنسانية دنيوية ، فجعلوا الرغبة في الكمال الفني هي الأساس ، ثم يأتي التعبير الديني على هامشها • كذلك أظهر هؤلاء الفنانون مقدرة فائقة على التحكم في توزيع الألوان والأصباغ •

٢ ـ النحت :

إن السموّ الفنيّ الذي امتازت به النهضة الايطالية يبدو في ميدان النحت أكثر من ميدان الرسم والتصوير • فإذا كان فنّ التصوير لم يتأثر بالروح الكلاسيكية إلا تأثراً شفوياً ، لعدم وجود نماذج فنية كلاسيكية يحاكيها رسامو عصر النهضة ، فإن فنّ النحت كانت الحال فيه على العكس ، لأن تماثيل اليونانيين والرومان ظلت باقية حتى عصر النهضة ، مما هيأ نماذج حيّة ناطقة أمام فناني النهضة • وعلى هذا أنجب عصر النهضة مجموعة من النحاتين البارعين الذين بذّوا في إنتاجهم إنتاج اليونانيين القدامى •

وأول من يصور لنا هذا العهد الجديد في تاريخ النحت هو نيقولا البيزي الذي شاهد تمثالاً يونانياً جُلب إلى مدينة بيزا ، فأعجِبَ بجماله ودفعه ذلك الإعجاب إلى دراسة الفن اليوناني وأساليبه • وفي القرن التالي (الخامس عشر) ظهر عدد من النحاتين في فلورنسا ، أشهرهم لورنز غيبرتي الذي نحت أبواب كنيسة فلورنسا ، التي قال عنها فيما بعد ميخائيل انجلو : إنها تستحق أن تكون أبواباً للجنة •

وبعدَ هؤلاء تأتي مجموعة من أعلام فنّ النحت، وعلى رأسهم بنيفنيتو شليني صاحب النزعة الفنية الخالصة غير المتأثرة باعتبارات دينية أو خلقية ، وهي النزعة



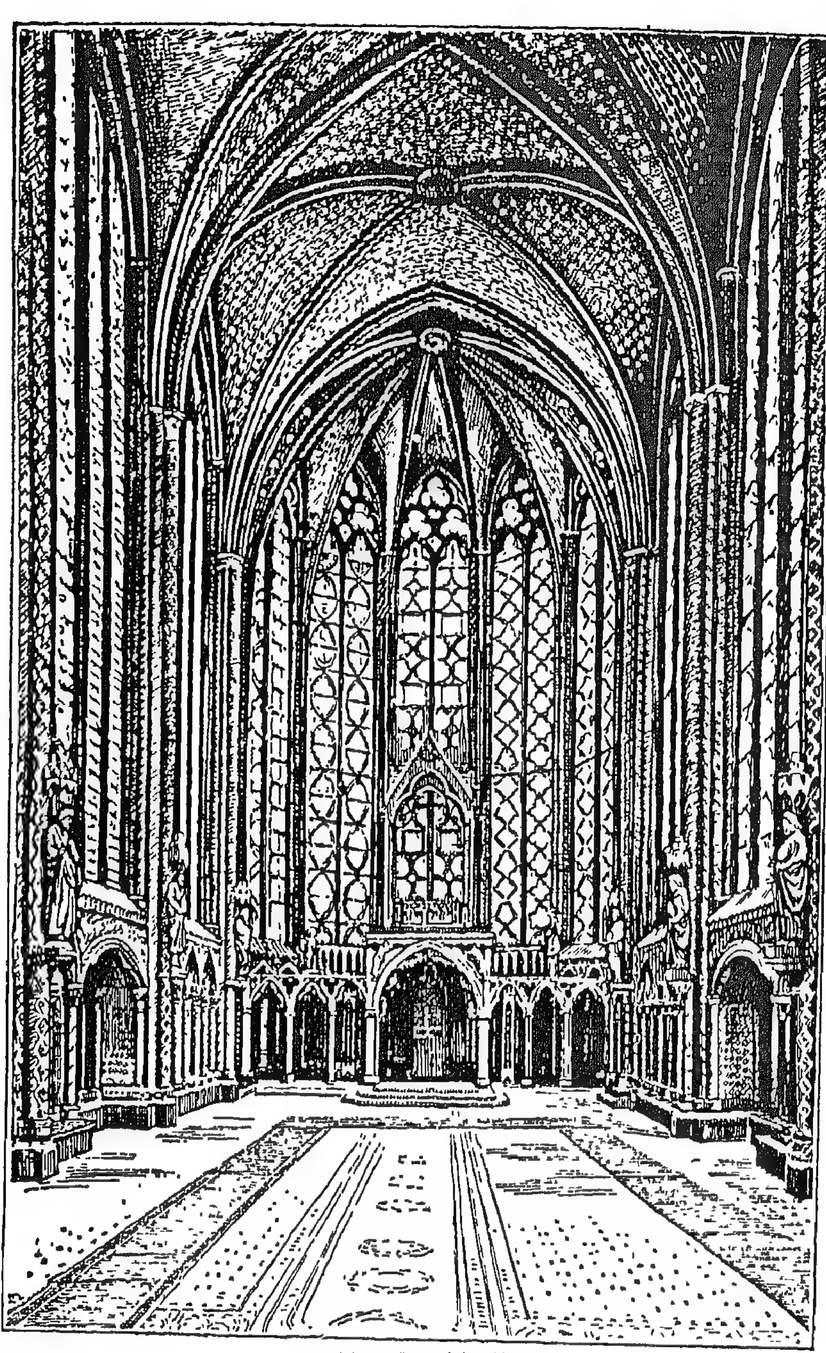
الشكل رقم (٥٦)
العبد المقيّد ـ تمثال من المرمر (نحته ميخائيل انجلو)

التي تولدت في المراحل الأخيرة من عصر النهضة • وبلغت عبقرية النهضة عظمتها في شخص ميخائيل آنجلو الذي أظهر شخصيته القوية في إنتاجه الفني• وتجدر الإشارة إلى أن فنّ النحت في عصر النهضة كان يَغْلبُ عليه الطابع اللاديني والمظهر الوثني أكثر مما هو الحال في التصوير ، لأن جمال الوجه لابدّ أن يتبعه جمال القوام وإبراز محاسنه دون التقيد بالأخلاقيات السائدة •

٣ ــ فــنّ البنــاء :

شهدت العمارة الايطالية تقدماً مستمراً في عصر النهضة • وتتمثل النهضة في فن العمارة في إحياء التراث الكلاسيكي (اليوناني والروماني) ، مثلما كانت الحال في فن النحت • وتبدو التطورات الأولى التي جاءت بها النهضة في العمارة في العودة إلى الأقواس والعقود نصف الدائرية التي امتاز بها الفن الرومانسي ، ثم في استخدام السقوف المسطحة والكرانيش التي تعلو النوافذ والأبواب مثلما كانت عليه المباني اليونانية والرومانية •

وتُعدّ كاتدرائيــة فلورنسا بقبتها العظيمة ، التي أنشأها الفنــان فيليبو برونلسكو ، أعظم نموذج لمباني الشطر الأول من عصر النهضة •.ويمكن أن تتتبع التطور العظيم بعد ذلك في كاتدرائية القديس بطرس بروما ، التي وضع تصميمها الفنان برامانت ، وفي قصور بعض الأمراء والحكام • ويمتاز فنّ العمارة في أواخر عصر النهضة بشدة العناية بالتناظر والتناسقْ والانسجام ، الأمر الذي أدى إلى إضعاف روح التجديد والابتكار •



التشكل رقم (٥٧)
كنيسة في مدينه ريمز الفرنسية

ـ نتائج حركة النهضة :

تركت حركة النهضة آثاراً سلبية وآثاراً إيجابية •

آ ـ الآثار السلبية :

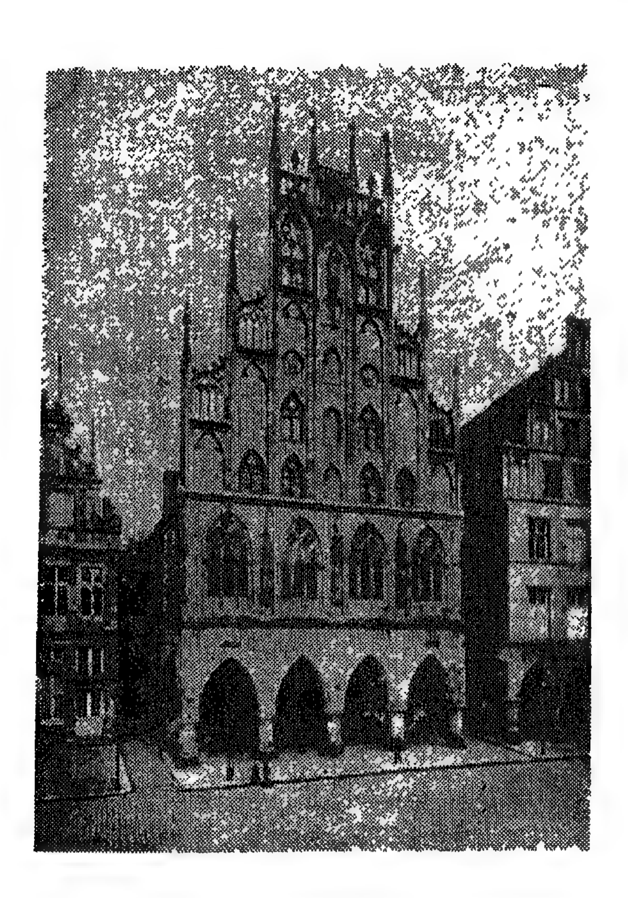
كان أهم اتجاهين سادا في حركة النهضة الايطالية هما : ١ ـ إحياء المؤثرات الكلاسيكية في الأدب والفن ، ٢ ـ تحرير الفكر والفرد من قيود العصور الوسطى وأغلالها • ومن الواضح أن كلا الاتجاهين كانت له عيوبه ومخاطره • فالاتجاه الأول من شأنه أن يجعل المفكرين والفنانين عبيداً للنماذج الكلاسيكية التي يحاولون محاكاتها ، والاتجاه الثاني أدى في حالات كثيرة إلى الإلحاد والمبالغة في التحرر إلى حدّ الفوضى الاجتماعية والدينية •

وقد أدى اتجاه النهضة نحو حرية البحث والاستقصاء إلى ظهور حركة الإصلاح الديني ، التي لم تلبث أن تحولت إلى اتجاه مضاد لروح الحرية التي نشأت في الأصل عنها • فالبروتستانتية المتطرفة تعارضت في حالات كثيرة مع الاتجاهات الانسانية تعارضاً واضحاً حاداً • فلقد حرّم البيوريتان الانكليز حبّ الجمال في الفن لأنه اتجاه مادي يؤدي إلى فساد الروح • وهكذا لم يلبث البروتستانت ، الذين أقاموا حركتهم الدينية على أساس حرية الفكر والعبادة ، أن اعتنقوا مبادىء تعسفية تستهدف الاستبداد وعدم التسامح •

ب ـ الآثار الإيجابية :

أما الآثار الإيجابية الطيبة لحركة النهضة فأهمها تنوير الفكر وانتشار التعليم في المدارس والجامعات ، بالإضافة إلى تقدم النظم التعليمية • وبفضل انتشار التعليم تحققت أعظم نتائج النهضة وأكثرها استمراراً ، وهي إيجاد نوع من الوحدة الخلقية والثقافية بين بلدان أوروبا الغربية • ولاشك في أن هذه الوحدة التي قامت على أساس حرية الفكر والضمير الفردي كانت أقوى أثراً وأكثر استمراراً من الوحدة

الدينية التي قامت في العصور الوسطى تحت ضغط قيود فرضتها الكنيسة البابوية لتضمن سيطرتها على الناس داخل دائرة معينة [٤] .



التشكل رقم (٥٨)
بناء مجلس حكومة المدينه في مدينة مونستر بألمانيا
(القرن ١٤)

الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى

المصادر والمراجع

الباب الأول

الحياة الاقتصادية ـ الاجتماعية

الفصل الأول

العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في الأرياف

الاقطاع ـ الفروسية ـ الضياع

١ ـ الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ ، دار الفكر ، دمشق ـ سوريا ، ص ٣٤٨ـ٣٥٠ ؛ الدكتور السيّد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى (القسم الأول) ، دار النهضة العربية ، بيروت ـ لبنان ، ١٩٦٣ ، ص ٩ـ١١ .

٢ ـ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٥٠ـ٣٥١ .

٣ ـ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٥ـ١٦ ؛ الدكتور نعيـم فـرح : تاريخ بيزنطة ، جامعة دمشق ١٩٨٥ ـ ١٩٨٦ ، ص ٨٨ـ٩٠ ، ٢٠٢ـ٢٠٣ ؛ الحضارة البيزنطية ، جامعة دمشق ١٩٩١ ـ ١٩٩٢ ، ص ١٨ـ٢٠ ، ٨٣ـ٨٤ .

٤ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٥٩ ؛ السيد الباز العزيني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٧ ٠

٥ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١١ــ١٥ ٠

٦ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٦٠ــ٣٦٢ ٠

٧ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٦٣ــ٣٦٤ ٠

٨ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٦٥ــ٣٦٨ ٠

٩ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٦٩ــ٣٧٠ ٠

١٠ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٧١ــ٣٧٢ ؛ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ٢٣ــ٢٦ ٠

١١ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٧٣ــ٣٧٥ ؛ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ٢٧ــ٣٠ ٠

١٢ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٧٩ ٠

١٣ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٨٠ــ٣٨١ ؛ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٨ــ٢٠ ٠

١٤ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٥٢٣ــ٥٢٥ ٠

١٥ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٥٢٥ــ٥٢٧ ٠

١٦ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٥٢٧ ٠

١٧ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٥٢٨ ٠

١٨ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٦٩٧ــ٧٠٧ ؛ الدكتور عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، نشر جامعة دمشق ، ١٩٨٢ ، ص ٣٢٩ــ٣٣٢ ٠

١٩ ــ زيتون : العصور الوسطى ، ص ٤١٢ــ٤١٣ ٠

Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

٢٠ ــ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٣٨٥ــ٣٩٠ •

٢١ ــ زيتون : العصور الوسطى ، ص ٤١٤ــ٤١٥ ؛ الدكتور إسحق عبيد : الفرسان والأقنان في مجتمع الاقطاع ، بنغازي ١٩٧٥ ، ص ٣١ــ٣٢ •

٢٢ ــ إسحق عبيد : الفرسان والأقنان ، ص ٣٨ ؛ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٥٣٨ــ٥٤١ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٨٦ــ٣٩٣ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص ٤١٥ــ٤١٨ ؛ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ٣٦ــ٤٣ • •

٢٣ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤٠١ •

٢٤ ــ عن طبقة الفرسان ونظام الفروسية ، انظر المراجع التالية : حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٥٤٣ــ٥٥٣ ، ص ٩٠٠ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص ٤٢٣ــ٤٢٦ ؛ ج• ج• كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٣٣ــ١٦٦ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤٠١ــ٤٢٩ ؛ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ٤٥ــ٦٠ •

٢٥ ــ عن طبقة الفلاحين انظر المراجع التالية : زيتون : العصور الوسطى ، ص ٤١٩ــ٤٢٣ ؛ ج• ج• كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٧٣ــ٩٨ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤١٥ــ٤٢٦ ؛ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ٦٤ــ٦٦ •

٢٦ ــ عن نظام الضياع أو النظام السنيوري ، انظر المراجع التالية : السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ٥٦ــ٦٧ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤٠٩ــ٤٢٦ ؛ ج• ج• كولتون : عالم العصور الوسطى ، ص ٨٨ــ٩٨ ؛ كوبلاند وفينوجرادوف : عصر الاقطاع والقنية ، تعريب الدكتور زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ •

٢٧ ــ الملاحق مأخوذة من كتاب الدكتور السيد الباز العريني : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٢٦٦ــ٢٦٧ ، ٤٠٧ــ٤١٥ .

الفصل الثاني

العلاقات الاقتصادية ــ الاجتماعية في المدن
المدن ــ الصناعة ــ التجارة

١ ــ الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٦٧ ، دار الفكر ، دمشق ــ سوريا ، ص ٤٠ــ٤٦ .

٢ ــ الدكتور نعيم فرح : الحضارة البيزنطية ، جامعة دمشق ١٩٩١ــ١٩٩٢ ، ص ١٣ــ١٤ ، تاريخ بيزنطة السياسي ، جامعة دمشق ١٩٩١ــ١٩٩٢ ، ص ٥٣ــ٥٤ ؛ الدكتور السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى (القسم الأول) ، دار النهضة العربية ، بيروت ــ لبنان ١٩٦٣ ، ص ١٤١ــ١٤٥ .

٣ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٣٥ــ٤٠ ؛ الدكتور عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، جامعة دمشق ١٩٨٢ ، ص ٤٤ــ٥٧ .

٤ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ١٠٩ــ١١١ .

٥ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٤٥ــ١٥٠ .

٦ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٥٠ــ١٥٣ .

٧ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٥٣ــ١٥٦ .

٨ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٥٦ــ١٦٩ .

٩ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٦٩ــ١٧٩ ؛ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٨٨٥ــ٨٨٧ .

١٠ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٨٠ــ١٨٥ .

١١ ــ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٨٥ــ١٩٠ ؛ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٨٨٩ــ٨٩٢ .

١٢ ــ عن القومونات ، انظر المراجع التالية :

السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ج١ ، ص ١٩٨ــ٢٠٣ ؛ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٤٤٦ــ٤٤٨ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص ٤٣١ ؛ هـ• أ• ل• فِشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، تعريب محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، دار المعارف بمصر ، القسم الأول ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ ، ص ٢٢١ــ٢٢٥ •

١٣ ــ عن النقابات ، انظر المراجع التالية :
عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤٤٨ــ٤٥٢ ؛ السيد الباز العريني : الحضارة والنظم الأوروبية ، ص ١٩٠ــ١٩٣ ، ٢١٥ــ٢٢١ ؛ ج• ج• كولتون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٩٥ــ٢١٧ •

١٤ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤٥٢ــ٤٥٨ •

١٥ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج٢ ، ص ٢٦ــ٣٠ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤٥٨ــ٤٦١ •

١٦ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج٢ ، ص ١٩ــ٢٠ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٤٦١ــ٤٦٣ •

١٧ ــ عن العصبة الهانزية ، انظر المراجع التالية :
سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ ، ص ٦١٤ــ٦١٩ ؛ هـ• أ• ل• فِشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، تعريب محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، دار المعارف بمصر ، القسم الأول ، الطبعة الثالثة ١٩٥٧ ، ص ٢٢٥ــ٢٢٩ ؛ الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، الجزء الثاني ، دار الفكر ١٩٩٣ ، ص ٣٩٧ــ٤٠٢ ؛ الدكتور عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، جامعة دمشق ١٩٨١ ، ص ٣٨٤ــ٣٨٦ ؛ الدكتور نعيم فرح : تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، جامعة دمشق ، ١٩٧٧ ، ص ١٤٢ــ١٤٣ •

الباب الثاني

الحيـــاة الدينيـــة

الفصل الأول

نشـــأة المسيحية وانتشارها

١ ـ الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، الجزء الأول ، الطبعـة الأولى ١٩٦٧ ، دار الفكـر ، دمشـق ـ سوريـا ، ص ٦٠ـ٦٢ .

٢ ـ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٦٢ـ٦٣ .

٣ ـ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ السياسي) ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٢٥ـ٣٠ .

٤ ـ الدكتور أسـد رستم : الروم ، في سياستهم ، وحضارتهم ، ودينهـم ، وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، بيروت ـ لبنان ١٩٥٥ ، ص ٢٤ـ٣٣ .

٥ ـ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٦٨ـ٦٩ ؛ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٣٠ـ٣٢ .

٦ ـ الدكتور نعيـم فـرح : تاريخ بيزنطة السياسي ، نشـر جامعة دمشق ١٩٩١ـ١٩٩٢ ، ص ٤٢ـ٤٩ .

٧ ــ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٣٢ــ٣٣ ؛ أسد رستم : الروم ، ص ٣٣ــ٣٦ .

٨ ــ الدكتور نعيم فرح : الحضارة البيزنطية ، نشر جامعة دمشق ١٩٩١ــ١٩٩٢ ، ص ٣٩ــ٤٣ .

٩ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٤٧ــ٥٠ ؛ الدكتور عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، نشر جامعة دمشق ١٩٨١ــ١٩٨٢ ، ص ٩٦ــ٩٩ .

١٠ ــ ول ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الايمان ، الجزء الأول من المجلد الرابع ، تعريب محمد بدران ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ٩٢ــ٩٥ ؛ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٤٢ــ٥٠ .

١١ ــ كتاب التربية الدينية المسيحية للصف الثالث الإعدادي ، دمشق ١٩٩٠ .

١٢ ــ الملحق الأول (مرسوم ميلان سنة ٣١٣) منقول عن كتاب : الدكتور السيد الباز العريني : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ٥٠ــ٥١ ، الملحق الثاني (دستور الايمان) منقول عن الكتب الدينية المسيحية .

الفصل الثاني

البابوية وتنظيم الكنيسة الغربية الأوروبية

١ ــ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ السياسي) ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ٤٥ــ٥٠ ؛ هـ. أ. ل. فِشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، تعريب محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، دار المعارف بمصر ، (جزءان) ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١٠٣ــ١٠٨ ؛ الدكتور نعيم فرح : تاريخ بيزنطة ، نشر جامعة دمشق ١٩٨٥ ، ص ١٢٤ــ١٢٨ .

٢ ــ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٣٣٥ــ٣٤٤ .

٣ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٤٩ــ٣٥٩ .

٤ ــ الدكتور عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، نشر جامعة دمشق ١٩٨١ــ١٩٨٢ ، ص ١٨٢ــ٢٠٨ .

٥ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٤٩ــ٣٥٣ .

٦ ــ وِل ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الايمان ، الجزء الأول من المجلد الرابع ، تعريب محمد بدران ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١٥٢ــ١٦٠ .

٧ ــ وِل ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الايمان ، ص ١٥٢ــ١٦٠ .

٨ ــ زيتون : العصور الوسطى الأوروبية ، ص ٣٣٦ــ٣٥٦ ؛ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٥٢١ــ٥٣٦ .

٩ ــ الملاحق منقولة عن : الدكتور السيد الباز العريني : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، لبنان ــ بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٨١ــ١٨٧ ، ٢٠١ــ٢٠٥ ، ٤٦٢ــ٤٧٠ .

الفصل الثالث

الرهبانية والديرية

١ ــ عن النسّاك الأوائل ونشأة الديرية ، انظر المراجع التالية :

الدكتور أسد رستم : الروم ، (جزءان) في سياستهم ، وحضارتهم ، ودينهم ، وثقافتهم ، وصلاتهم بالعرب ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ، بيروت ــ لبنان ١٩٥٥ ، ص ١٠٢ــ١٠٦ ؛ وِل ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الايمان ، الجزء الأول من المجلد الرابع ، تعريب محمدبدران ، القاهرة ١٩٦٤ ، ص ١١٩ــ١٢٥ ؛ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور :

أوروبا العصور الوسطى ، الجزء الأول (التاريخ السياسي) ، الطبعة الثالثة ١٩٦٤ ، نشر مكتبة الأنجلو المصرية ، ص ١٦١ــ١٦٨ ؛ الدكتور نعيم فرح : تاريخ بيزنطة ، نشر جامعة دمشق ١٩٨٥ ، ص ١٢٨ــ١٣٠ ؛ الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، الجزء الأول ، الطبعة الأولى ١٩٦٧ ، دار الفكر ، دمشق ــ سوريا ، ص ٧١ــ٧٤ .

٢ ــ عن انتقال الديرية إلى أوروبا الغربية وتطورها حتى القرن السابع ، انظر المراجع التالية :

ول ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الايمان ، ص ١٠٤ــ١١٨ ؛ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ١٦٨ــ١٧٥ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٣٦٠ــ٣٦٣ ؛ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ١٣٨ــ١٤٤ ؛ هـ . أ . ل . فشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، تعريب محمد مصطفى زيادة والسيد الباز العريني ، دار المعارف بمصر ، (جزءان) ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٧ ، ص ١١٠ــ١١١ ؛ الدكتور عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، نشر جامعة دمشق ، ١٩٨١ــ١٩٨٢ ، ص ٣٩٥ــ٤٠٨ .

٣ ــ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ١٧٥ــ١٧٩ ؛ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ١٤٠ــ١٤١ .

٤ ــ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ١٧٩ــ١٨١ .

٥ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٦٤ــ٣٦٧ ؛ حاطوم: العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٥٠٤ــ٥٠٨ ؛ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٣٤٢ــ٣٥٤ ؛ زيتون : العصور الوسطى ، ص ١٨٧ــ١٨٩ .

٦ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٨٩٤ــ٨٩٦ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٦٧ــ٣٦٩ .

٧ ـ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٥٣٦ـ٥٣٧ •

٨ ـ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٧٤ـ٣٧٦ •

٩ ـ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٥٣٨ـ٥٤١ •

١٠ ـ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ٥٤٢ـ٥٤٥ •

١١ ـ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ١٦٦ـ١٦٨ ؛ ول ديورانت : قصة الحضارة ، عصر الايمان ، ص ١٥٤ـ١٥٦ •

١٢ ـ عن فضائل الديرية والدور الحضاري للأديرة ، انظر المراجع التالية : هـ• أ• ل• فِشر : تاريخ أوروبا العصور الوسطى، ج١ ، ص ٢١٦ـ٢٢٠ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٦٩ـ٣٧٤ ؛ زيتــون : العصور الوسطى ، ص ٤٠٦ـ٤٠٨ ؛ عاشور : أوروبا العصور الوسطى ، ج١ ، ص ١٨١ ؛ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ١٤٩ ، ص ٨٩٢ـ٨٩٦ ، ص ٥٠٤ـ٥١٠ •

١٣ ـ الملاحق منقولة عن : الدكتور السيد الباز العريني : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٨ ، ص ١٨٣ـ١٨٧ ، ٢٦٦ـ٢٦٧ •

الباب الثالث

الحيــاة الفكرية والفنية

الفصل الأول

الحيــاة الفكريــة

١ ـ الدكتور جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨١ ، ص ١٢٣ـ١٢٥ ؛ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ١٣ـ٢٤ ٠

٢ ـ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٢٤ـ٢٩ ٠

٣ ـ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٠ـ٣٤ ٠

٤ ـ جوزيف يوسف : نشأة الجامعات ، ص ١٢١ـ١٥١ ٠

٥ ـ الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا، الجزء الأول، الطبعة الأولى ١٩٦٧ ، دار الفكر ، دمشق ـ سوريا ، ص ٥٢ـ٥٧ ؛ جوزيف يوسف ، نشأة الجامعات ، ص ٢٣ـ٢٦ ٠

٦ ـ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٣٦ـ٤١ ؛ جوزيف يوسف : نشأة الجامعات ، ص ٢٣ـ٥٥ ٠

٧ ـ الدكتور عادل زيتون : تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، نشر جامعة دمشق ١٩٨٢ ، ص ٤٤١ـ٤٤٥ ٠

٨ ـ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٥١ـ٥٢ ٠

٩ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٢٨٠ــ٢٨٤ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٥٤ــ٦٧ ؛ جوزيف يوسف : نشأة الجامعات ، ص ٥٩ــ٨٣ ٠

١٠ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٦٧ــ٧٠ ؛ راجع تعريب كتاب « سيرة شارلمان » للدكتور عادل زيتون ، دمشق ١٩٩٠ ٠

١١ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٧٠ــ٧١ ٠

١٢ ــ حاطوم : العصر الوسيط ، ج١ ، ص ٢٨٦ ٠

١٣ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٧٢ــ٧٦ ٠

١٤ ــ جوزيف يوسف : نشأة الجامعات ، ص ٥٩ــ٧٩ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٧٦ــ٧٩ ٠

١٥ ــ جوزيف يوسف : نشأة الجامعات ، ص ٨٧ــ٩٢ ٠

١٦ ــ عاشور ، حضارة ونظم أوروبا ، ص ١٠٣ــ١٠٧ ؛ جوزيف يوسف : نشأة الجامعات ، ص ٧٩ــ٨٣ ٠

١٧ ــ كولتون ج٠ ج٠ : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت ١٩٨١ ، ص ٢١٩ــ٢٢٢ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ١١٢ــ١١٩ ٠

١٨ ــ جوزيف يوسف : نشأة الجامعات ، ص ٩٢ــ٩٥ ٠ للمزيد من التفاصيل عن فضل العرب على الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى يمكن النظر إلى: سعيد عاشور : المدنية الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، القاهرة ١٩٦٣ ؛ يعقوب ج٠ : أثر الشرق في الغرب خاصة في العصور الوسطى ، تعريب الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ١٩٤٦ ؛ العقاد : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، القاهرة ١٩٦٥ ٠

١٩ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ١٢٢ــ١٢٤ ٠

٢٠ ــ زيتون : العصور الوسطى ، ص ٤٤٧ ٠

٢١ ــ الدكتور طيّب تيزيني والدكتور غسان فنيانوس : تاريخ الفلسفة القديمة والوسيطة ، نشـر جامعـة دمشق ، الطبعة الثالثـة ، ١٩٩١ــ١٩٩٢ ، ص ٤٢٣ــ٤٢٤ ؛ جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات ، ص ٩٦ــ٩٩ •

٢٢ ــ كولتون ج• ج• : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، ترجمـة وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، دار النهضة العربيـة للطباعة والنشر ، بـيروت ١٩٨١ ، ص ٢٢٠ــ٢٢٥ ؛ جوزيف يوسف : نشـأة الجامعات ، ص ٩٧ــ١٠٢ ؛ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ١٩٥ ــ ١٩٧ ؛ تيزيني وفنيانوس : تاريـخ الفلسـفة القديمـة والوسـيطة ، ص ٢١٤ــ٢١٨ •

٢٣ ــ جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات ، ص ١٠٣ــ١٠٦ •

٢٤ ــ جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات ، ص ١٠٨ــ١١٣ •

٢٥ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ١٤٢ــ١٥٥ ؛ جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات ، ص ١١٣ــ١١٧ ؛ الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، الجزء الثاني (من القرن الثاني عشر إلى القرن الخامس عشر) ؛ دار الفكر ، بيروت ، دمشق ١٩٩٣ ، ص ١٧٠ــ١٨٥ •

٢٦ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ١٥٥ــ١٦٠ •

٢٧ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ١٧٦ــ١٨٤ •

٢٨ ــ عاشور : حضارة ونظم أوروبا ، ص ٢٠٧ــ٢٢١ ؛ حاطوم : العصر الوسيط ، الجزء الثاني ، ص ١٦٠ــ١٧٠ ؛ جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات ، ص ١٢١ــ١٥١ •

٢٩ ــ الملاحق (١ ــ ٦) مأخوذة من كتاب الدكتور جوزيف نسيم يوسف : نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، ص ١٦٣ــ١٧٨ ، الملحق السابع مأخوذ من كتاب الدكتور السيد الباز العريني : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، ص ١٤٦ــ١٤٨ •

الفصل الثاني

الحيـــاة الفنيـــة

١ ــ عن الحياة الفنية في العصر الميروفنجي راجع :
الدكتور نور الدين حاطوم : تاريخ العصر الوسيط في أوروبا ، الجزء الأول ، الطبعـة الأولى ١٩٦٧ ، دار الفـكر ، دمشـق ــ سـوريا ، ص ١١١ـــ١١٤ ٠

٢ ــ عن الحياة الفنية في العصر الكارولنجي راجع :
حاطوم : العصـر الوسيط ، ج١ ، ص ٢٩٦ـــ٣٠١ ، ص ٩١١ـــ٩١٣ ؛ الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور : حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، دار النهضة العربيـة للطباعـة والنشـر ، بيروت ١٩٧٦ ، ص ٩٤ـــ١٠٢ ٠

٣ ــ عن الفن القوطي راجع :
عاشور : حضارة ونظم أوروبا، ص ٢٢١ـــ٢٣١ ؛ حاطوم : العصر الوسيط، ج٢ ، الطبعـة الأولـى ١٩٩٣ ، دار الفـكر ، دمشـق ــ سـوريا ، ص ١٨٩ـــ٢١٠ ٠

٤ ــ عن النهضة الايطالية راجع :
عاشور : حضارة ونظم أوروبـا ، ص ٢٢٥ـــ٢٥٥ ؛ حاطوم : العصـر الوسيط ، ج٢ ، ص ٦٦٤ـــ٦٨١ ٠



مراجع عربية ومعرّبة
لموضوعات الكتاب ولحلقات البحوث

١ ـ العدوي ، الدكتور إبراهيم أحمد : المجتمع الأوروبي في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦١ .

٢ ـ العريني ، الدكتور السيد الباز : تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٨ ؛ الحضارة والنظم الأوروبية في العصور الوسطى (القسم الأول) ، بيروت ١٩٦٣ .

٣ ـ الغمراوي ، الدكتور علي : مدخل إلى دراسة التاريخ الأوروبي الوسيط ، القاهرة ١٩٧٧ .

٤ ـ اليوسف ، الدكتور عبد القادر : العصور الوسطى الأوروبية ، بيروت ١٩٦٨ .

٥ ـ العقاد ، الدكتور عباس محمود : أثر العرب في الحضارة الأوروبية ، القاهرة ١٩٦٢ .

٦ ـ باركر ، أرنست : الحروب الصليبية ؛ تعريب الدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٦٠ .

٧ ـ بدوي ، الدكتور عبد الرحمن : فلسفة العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ .

٨ ـ برتراندرسل : تاريخ الفلسفة الغربية (الكتاب الثاني) ، تعريب زكي نجيب محفوض ، القاهرة ١٩٥٦ .

٩ ـ توفيق ، الدكتور عمر كمال : الامبراطور نقفور فوكاس واسترجاع الأراضي المقدسة ، الاسكندرية ١٩٥٩ ؛ تاريخ الامبراطورية البيزنطية ، الاسكندرية ١٩٦٧ .

١٠ ـ تيزيني ، الدكتور طيّب ، وفنيانوس ، الدكتور غسان : تاريخ الفلسفة القديمة والوسيطة ، جامعة دمشق ١٩٩٢ .

١١ ـ جيبون ، إدوارد : اضمحلال الامبراطورية الرومانية وسقوطها ، ثلاثة أجزاء ، الجزء الأول : تعريب محمد أبو ريدة ، القاهرة ١٩٦٩ ، الجزء الثاني : تعريب لويس اسكندر ، القاهرة ١٩٦٩ ، الجزء الثالث : تعريب محمد سليم سالم ، القاهرة ١٩٦٩ .

١٢ ـ حاطوم ، الدكتور نور الدين : تاريخ العصر الوسيط في أوروبة ، الجزء الأول ، دمشق ١٩٦٧ ، الجزء الثاني ، دمشق ١٩٩٣ .

١٣ ـ حبشي ، الدكتور حسن : الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٥٨ .

١٤ ـ حسنين ، الدكتور حسن حنفي : نماذج من الفلسفة المسيحية في العصر الوسيط ، الاسكندرية ١٩٦٩ .

١٥ ـ دوسن ، كروستوفر : تكوين أوروبا ، تعريب الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور ، القاهرة ١٩٦٧ .

١٦ ـ ديفز ، (هـ . و . كارلس) : شارلمان ، تعريب الدكتور السيد الباز العريني ، القاهرة ١٩٥٩ ؛ أوروبا في العصور الوسطى ، تعريب الدكتور عبد الحميد حمدي محمود ، الاسكندرية ١٩٥٨ .

١٧ ــ ديل ، شارل : البندقية جمهورية ارستوقراطية ، تعريب الدكتور أحمد عزت عبد الكريم ، وتوفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٤٨ .

١٨ ــ ديورانت ، ول : قصة الحضارة ، الجزء الأول من المجلد الرابع (عصر الإيمان) تعريب محمد بدران ، القاهرة ١٩٦٤ .

١٩ ــ راوس ، (أ. ل) : التاريخ الانكليزي ، تعريب محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٤٦ .

٢٠ ــ رستم ، الدكتور أسد : الروم ، جزءان ، بيروت ١٩٥٦ ؛ كنيسة انطاكية ، ثلاثة أجزاء ، بيروت ١٩٥٨ .

٢١ ــ رستوفتزف ، ميخائيل : تاريخ الامبراطورية الرومانية الاجتماعي والاقتصادي : تعريب زكي علي ومحمد سالم ، القاهرة ١٩٥٧ .

٢٢ ــ رنسيمان ، ستيفن : تاريخ الحروب الصليبية ، ثلاثة أجزاء ، تعريب الدكتور السيد الباز العريني ، بيروت ١٩٦٧ ــ ١٩٦٩ .

٢٣ ــ زيتون ، الدكتور عادل : العلاقات السياسية والكنسية بين الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني في العصور الوسطى ، دمشق ١٩٨٠ ؛ العلاقات الاقتصادية بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، دمشق ١٩٨٠ ؛ تعريب « سيرة شارلمان » للمؤلف الفرنجي إينهارد ، دمشق ١٩٩٠ ؛ تاريخ العصور الوسطى الأوروبية ، جامعة دمشق ، ١٩٨١ــ١٩٨٢ .

٢٤ ــ زيادة ، الدكتور محمد مصطفى : الاقطاع والعصور الوسطى بغرب أوروبا ، القاهرة ١٩٥٨ .

٢٥ ــ سباين ، (ج) : تطور الفكر السياسي ، جزءان ، تعريب الدكتور حسن جلال العروسي ، القاهرة ١٩٦٣ ــ ١٩٦٤ .

٢٦ ــ ستانلي ، لين بول : العرب في إسبانيا ، تعريب علي الجارم ، القاهرة ١٩٤٤ .

٢٧ ــ سعداوي ، الدكتور نظير حسان ، تاريخ إنجلترا وحضارتها في العصور القديمة والوسطى ، القاهرة ١٩٥٨ ٠

٢٨ ــ سمعان ، الدكتور وهيب إبراهيم : الثقافة والتربية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٦٢ ٠

٢٩ ــ سميرنوف ، أفغراف : تاريخ الكنيسة المسيحية ، عرّبه عن الروسية مطران حمص للروم الأرثوذوكس الكسندروس جحا ، حمص ١٩٦٤ ٠

٣٠ ــ عاشور ، الدكتور سعيد عبد الفتاح : أوروبا العصور الوسطى ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٦٤ ؛ حضارة ونظم أوروبا في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٧٦ ؛ الجامعات الأوروبية في العصور الوسطى ، القاهرة ١٩٥٩ ؛ المدنيّة الإسلامية وأثرها في الحضارة الأوروبية ، القاهرة ١٩٦٣ ؛ النهضات الأوروبية في العصور الوسطى وبداية الحديثة (بالاشتراك مع الدكتور محمد أنيس) ، القاهرة ١٩٦٠ ؛ قبرس والحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٥٧ ؛ الحركة الصليبية ، جزءان ، القاهرة ١٩٧١ ؛ بعض أضواء على العلاقات بين بيزا وتونس في عصر الحروب الصليبية ، القاهرة ١٩٦٩ ٠

٣١ ــ عبيد ، الدكتور إسحق : الامبراطورية الرومانية بين الدين والبربرية ، القاهرة ١٩٧٢ ؛ أبيلارد اللاهوتي الحر ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية، المجلد العشرون ، القاهرة ١٩٧٣ ؛ جان دارك ، المجلة المصرية للدراسات التاريخية ، القاهرة ١٩٧٨ ؛ الفرسان والأقنان في مجتمع الاقطاع ، بنغازي ١٩٧٥ ؛ الامبراطورية البيزنطية في عصر باليولوغوس (١٢٦١ــ١٦٨٢) ، بنغازي ١٩٧٥ ؛ من الارك إلى جستنيان ، القاهرة ١٩٧٧ ؛ روما وبيزنطة من قطيعة فوتيوس حتى الغزو الصليبي ، القاهرة ١٩٧٠ ٠

٣٢ ــ عمران ، الدكتور محمود سعيد : معالم تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨٦ ٠

٣٣ ـ الدكتور نعيـم فـرح :

ا ـ كتب في تاريخ بيزنطة واوروبا في العصور الوسطى :

١ ـ تاريخ بيزنطة (الجزء الأول) ، جامعة دمشق ١٩٧٨ .
٢ ـ تاريخ أوروبا في العصور الوسطى ، جامعة دمشق ١٩٧٨ .
٣ ـ تاريخ بيزنطة (منذ نشوئها حتى سقوطها) ، جامعة دمشق ١٩٨٥ .
٤ ـ تاريخ بيزنطة السياسي ، جامعة دمشق ١٩٩٢ .
٥ ـ الحضارة البيزنطية ، جامعة دمشق ١٩٩٢ .
٦ ـ تاريخ اوروبا السياسي في العصور الوسطى ، جامعة دمشق ١٩٩٥ .
٧ ـ الحضارة الأوروبية في العصور الوسطى ، جامعة دمشق ١٩٩٥ .

ب ـ بحوث في تاريخ بيزنطة :

١ ـ الصراع العربي ـ البيزنطي للسيطرة على البحر الأبيض المتوسط في القرن الثامن الميلادي ، مجلة دراسات تاريخية التي تصدرها جامعة دمشق ، العدد ١٢ ، ١٩٨٣ ، ص ٢٨ ـ ٤٢ .
٢ ـ اضواء على الصناعة والتجارة في مدن بلاد الشام ودورها في التجارة العالمية في العهد البيزنطي ، مجلة دراسات تاريخية ، العددان : ١٥ـ١٦ ،
٣ ـ العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية في منطقة ما بين النهرين السورية في
ـ القسم الأول في العددين ٢٣ ـ ٢٤ ، ١٩٨٦ ، ص ١٠٣ ـ ١٣٧ .
ـ القسم الثاني في العددين ٢٥ ـ ٢٦ ، ١٩٨٧ ، ص ٨٠ ـ ١١١ .
٤ ـ ازدهار صناعة المعادن الثمينة في سورية في زمن الاحتلال البيزنطي ، مجلة جامعة دمشق ، العدد السادس ، ١٩٨٦ ، ص ٩ ـ ٢٣ .

ج ـ كتب في التاريخ القديم والحضارات القديمة :

١ ـ موجز تاريخ الشرق الأدنى القديم ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٢ .
٢ ـ معالم حضارات العالم القديم ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٣ .
٣ ـ تاريخ حضارات العالم القديم وما قبل التاريخ ، دمشق ، دار الفكر ، ١٩٧٥ .
٤ ـ العلاقات الاقتصادية ـ الاجتماعية وقضايا الفلاحين في الوطن العربي (في العصور القديمة) ، دمشق ١٩٨٦ ، بإشراف اتحاد الفلاحين .
٥ ـ النظرية السامية مؤامرة استعمارية وصهيونية على العرب (عروبة الوطن العربي قديمة قدم التاريخ) ، دمشق ، دار حسّان ، ١٩٩٣ .

٣٤ ـ فشر ، (هـ أ ل): تاريخ أوروبا العصور الوسطى ، جزءان ، تعريب الدكتور محمد مصطفى زيادة ، والدكتور السيد الباز العريني ، الطبعة الثالثة ، دار المعارف بمصر ١٩٥٧ ، [الطبعة الأولى ١٩٥٠ ، الطبعة الثانية ١٩٥٤] •

٣٥ ـ كرامب وجاكوب : تراث العصور الوسطى ، الجزء الأول : تعريب محمد بدران ومصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٦٥ ، الجزء الثاني : تعريب سعيد عبد الفتاح عاشور وآخرون ، القاهرة ١٩٦٧ •

٣٦ ـ كرم ، يوسف : تاريخ الفلسفة الأوروبية في العصر الوسيط ، القاهرة ١٩٥٧ •

٣٧ ـ كلاري ، روبرت : فتح القسطنطينية على أيدي الصليبيين ، تعريب حسن حبشي ، القاهرة ١٩٦٤ •

٣٨ ـ كولتون ، جورج جوردون : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، تعريب وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الثالثة التي استخدمناها ، بيروت ١٩٨١ [الطبعة الأولى ١٩٦٤ ، الطبعة الثانية ١٩٦٧] •

٣٩ ـ كوبلاند (ج. و) وفينوجرادوف (ب) : الاقطاع والعصور الوسطى في غرب أوروبا ، تعريب الدكتور محمد مصطفى زيادة ، القاهرة ١٩٥٨ •

٤٠ ـ لانجر ، وليم : موسوعة تاريخ العالم ، التعريب بإشراف محمد مصطفى زيادة ، خمسة أجزاء ، القاهرة ١٩٥٩ ـ ١٩٦٦ •

٤١ ـ لوبيز ، (ر. س) وآخرون : بحوث في التاريخ الاقتصادي ـ خمس مقالات ـ تعريب توفيق اسكندر ، القاهرة ١٩٦١ •

٤٢ ـ لويس ، أرشيبالد : القوى البحرية والتجارية في حوض البحر المتوسط (٥٠٠ ـ ١١٠٠) تعريب محمد أحمد عيسى ، القاهرة ١٩٦٠ •

٤٣ ـ ماجد ، الدكتور عبد المنعم : العلاقات بين الشرق والغرب في العصور الوسطى ، بيروت ١٩٦٦ •

٤٤ ــ مدني ، الدكتور صلاح : تاريخ العصور الوسطى في أوروبا ، دمشق ١٩٧٢ .

٤٥ ــ مرسليهم ، يوحنا لورنس فان : تاريخ الكنيسة المسيحية القديمة والحديثة ، تعريب هنري هرس ، بيروت ١٨٧٥ .

٤٦ ــ مسرة ، جراسيموس : تاريخ الانشقاق ، ثلاثة أجزاء ، الاسكندرية والقاهرة ١٨٩١ ــ ١٨٩٩ .

٤٧ ــ مظهر ، الدكتور علي ، محاكم التفتيش ، القاهرة ١٩٤٧ .

٤٨ ــ موس ، (هـ. س. ل. ب) : ميلاد العصور الوسطى ، تعريب عبد العزيز جاويد ، القاهرة ١٩٦٧ .

٤٩ ــ مؤرخ مجهول : أعمال الفرنجة وحجاج بيت المقدس ، تعريب الدكتور حسن حبشي ، القاهرة ١٩٥٨ .

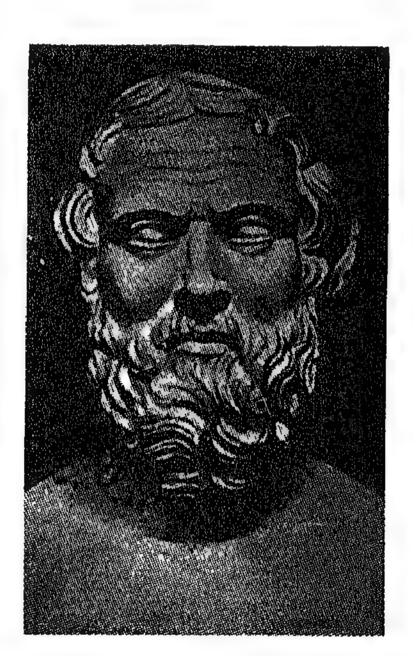
٥٠ ــ هارتمان ، (ل. م) وباركلاف (ج) : الدولة والامبراطورية في العصور الوسطى ، تعريب وتعليق الدكتور جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الثالثة التي استخدمناها ، بيروت ١٩٨١ .

٥١ ــ هاسكنس ، (م) : نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، تعريب جوزيف نسيم يوسف ، الطبعة الأولى ، الاسكندرية ١٩٧١ ، الطبعة الثانية التي استخدمناها ، بيروت ١٩٨١ .

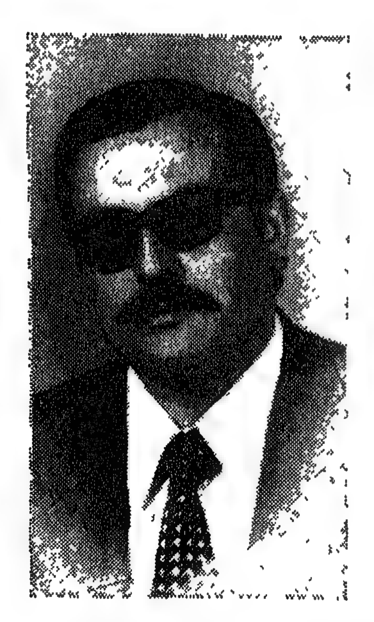
٥٢ ــ يعقوب ، (ج) : أثر الشرق في الغرب في العصور الوسطى خاصة ، تعريب الدكتور فؤاد حسنين علي ، القاهرة ١٩٤٦ .

٥٣ ــ يوسف : الدكتور جوزيف نسيم : العرب والروم واللاتين في الحرب الصليبية الأولى ، الطبعة الثانية ، الاسكندرية ١٩٦٧ ؛ الدافع الشخصي في قيام الحركة الصليبية ، مقال بمجلة كلية الآداب بجامعة الاسكندرية ،

العدد ١٦ ، السنة ١٩٦٢ ــ ١٩٦٣ ، ص ١٨٣ ــ ٢٠٧ ؛ العدوان الصليبي على مصر (هزيمة لويس التاسع في المنصورة وفارسكو) ، الاسكندرية ١٩٦٩؛ العدوان الصليبي على بلاد الشام (هزيمة لويس التاسع في الأراضي المقدسة) ، الاسكندرية ١٩٧١ • [الكتب التي عرّبها] : عالم العصور الوسطى في النظم والحضارة ، تأليف كولتون (ج• ج) ، الطبعة الثانية ، بيروت ١٩٨١ ؛ الدولــة والامبراطورية في العصور الوسطى ، تأليف هارتمان (ل• م) و باراكلاف (ج) ، بيروت ١٩٨١ ؛ نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، تأليف هاسكنس هومر ، مع التقديم له بعنوان : المدخل إلى جامعات العصور الوسطى ، بيروت ١٩٨١ •



المؤرخ اليونانى هيرودوت
« أبو التاريخ »



الدكتور نعيــم فــرح

المراجع الأجنبية

Aronold, T. & Cuillaume, A. (eds.), The Legacy of Islam. London 1952.

Ashour, S. & Rabie, H., Fifty Documents in Medieval History. Cairo, 1971.

Atiya, A. S., Crusade, Commerce and Culture. Bloomington, 1962.

Bailly, A., Byzance. Paris, 1939.

Bailly, A., Saint Louis. Paris, 1949.

Baker, D. N. & Fasel. G W. (eds.), Landmarks in Western Culture. 2 vols. New Jersey, 1968.

Baldwin, M. W., The Mediaeval Church. New York, 1953.

Barker, E. (ed.), Social and Political Thought in Byzantium from Justinian I to the last Palaeologus. Oxford, 1957

Barrow, R. H., The Romans. Aylesbury & London, 1955.

Baynes, N. H, « The Political Ideas of St. Augustine's De Civitate Dei, » The Historical Association. London, 1962. (Pamphlet No. 104, pp. 3 — 17).

Baynes, N. H & Moss, H St L. B. (eds.), Byzantium Oxford, 1953

Bédier, J., La Chanson de Roland. Paris, 1937.

Bell, M. I. M., A Short History of the Papacy. London, 1921.

Blakeney, E. H (ed.), A Smaller Classical Dictionary. London, 1923.

Bloch, M., Feudal Society. Translated from the French by L A. Manyon. 2 vols. London, 1967.

Boutié, L., Paris au temps de Saint Louis. Paris, 1911.

Brinton, C., Christopher, J. B. & Wolff, R. L., A History of Civilization 2 vols. New Jersey, 1967.

Browne, R. A., Bristish Latin Selections (A. D. 550 — 1400). Oxford, 1954.

Burckhardt, J., The Civilization of the Renaissance. Translated by S. G. C. Middlemore. London, 1944.

Burgh, W. G. (ed.), The Legacy of the Ancient World. 2 vols. London, 1955.

Bury, J. B., History of the Later Roman Empire from the death of Theodosius I to the death of Justinian. 2 vols. New York, 1958.

Calmette, J., Le Monde Féodal. Paris, 1937.

Clamette, J., Le Moyen Age. Paris, 1948.

Cantor, N. F., (ed), The Medieval World : 300 — 1300. New York, 1963.

Carcopino, J., Daily Life in Ancient Rome. Tranlated from the French by E. O. Lorimer. Aylesbury, 1956.

Chadwick, H., The Early Church. London, 1969.

Chateaubriand, Génie du Christianisme. 2 vols. Paris, 1922.

Cochrane, C. N., Christianity and Classical Culture : A Study of Thought and Action from Augustus to Augustine. New York, 1957.

Cordier A., La Chanson de Roland. Paris, 1935.

Coulton, G. G.,

1. The Inquistion. London, 1929.
2. Medieval Panorama : The English Scene from Conquest to Reformation. New, York, 1955.
3. Medival Village, Manor and Monastery. New York, 1960.
4. Medieval Scene. Cambridge, 1961.

Cragg, G., R., The Church and the Age of Reason (1648 — 1789). Bristol, 1960.

Crombie, A. C., Augustine to Galileo, Vol., I : Science in the Middle Ages (V-XIII Centuries). London, 1961.

Crump, C. G. & Jacob, E. F. (eds.), The Legacy of the Middle Ages. Oxford, 1951.

Daniel-Rops, L'Eglise de la Cathédrale et de la Croisade. Paris, 1952.

Davies, R. T., The Golden Century of Spain (1501 — 1621). London, 1964.

Diehl, Ch., Histoire de l'Empire Byzantin. Paris, 1920.

Diehl, Ch. & Marçais, G., Histoire du Moyen Age, Tome III. Paris, 1944.

Dodge, B., Al-Azhar - A Millenium of Muslim Learning. Princeton, 1961.

Downs, N. (ed.), Basic Documents in Medieval History. New York, 1959.

Duroselle, J. - B., Histoire du Catholicisme. Paris, 1949.

Encyclopaedia Britannica, 23 vols. Chicago, 1964.

Figgis, J. N., Political Thought from Gerson to Grotius. New York, 1960.

Funck-Brentano, F., Le Moyen Age. Paris, 1922.

Gandillac, M. (ed.), Oeuvres Choisies d'Abélard. Paris, 1945.

Garin, E. & Others, Les Utopies à la Renaissance. Bruxelles & Paris, 1963

Glanville, S. R. K. (ed.), The Legacy of Egypt. Oxford, 1957.

Goff. J. le, La Civilisation de l'Occident Médiéval. Paris, 1965.

Goyau, G., Orientations Catholiques. Paris, 1925.

Halphen, L., L'Essor de l'Europe (XIe - XIIIe Siècles). Paris, 1941.

Haskins, C. H.,

1. The Renaissance of the Twelfth Century. Cambridge, 1928.
2. Studies in Mediaval Culture. New York, 1929
3. The Rise of Universities. New York, 1960.

Hay, D., The Italian Renaissance in its Historical Background. Cambridge, 1961.

Herr, F., The Medieval World : Europe 1100 — 1350. Translated from the German by J. Sondheimer. London, 1962.

Hillgarth, J. N. (ed.), The Conversion of Western Europe. 350 — 750. London, 1969.

Hitti, P. K., History of the Arabs from the Earliest Times to the Present. London, 1964.

Homo, L., Nouvelle Histoire Romaine. Paris, 1941.

Huizinga, J., The Waning of the Middle Ages. London, 1955.

Jacob, E. F., The Fifteenth Century (1399 — 1485). Oxford, 1961.

Katz, S., The Decline of Rome and the Rise of Mediaeval Europe. New York, 1960.

Ker, W. P., The Dark Ages. London, 1955.

Kitchin, C. W., A History of France, Vol. I : B. C. 58 — A.D. 1453. Oxford, 1899.

Kitto, H. D. F., The Greeks. Melbourne, 1954.

Laistner, M. L. W., Thought and Letters in Western Europe, A. D. 500 to 900. London, 1957.

La Monte, J., The World of the Middle Ages. New York, 1949.

Lesourd, P., Histoire de l'Eglise. Paris, 1939.

Lewis, B., The Arabs in History. London, 1958.

Lewis, E., Medieval Political Ideas. 2 vols. London, 1954.

Machiavelli, N , Florence and the Affairs of Italy to the Death of Lorenzo the Magnificent. New York, 1960.

Mackie, J. D., The Earlier Tudors (1485 — 1558). Oxford, 1966.

Mahmoud, S. F., The Story of Islam. Karachi, 1959.

Malet. A. & Issac, J., Le Moyen Age jusqu'à la guerre de cent ans. Paris. 1926.

Masson, G., Mediaeval France from the Reign of Hugues Capet to the Beginning of the Sixteenth Century. London, 1888.

Maurois, A., Histoire d'Angleterre. Paris, 1937.

Mekisack, M., The Fourteenth Century (1307 — 1399). Oxford, 1959.

Michaud, M., Histoire des Croisades. 7 t. Paris, 1819 — 1822.

Molinier, A., Les Sources de l'Histoire de France depuis les origines jusqu'en 1815, Vol. III : Les Capétiens, 1180 — 1328. Paris, 1903.

Mommsen, T. E., Medieval and Renaissance Studies. Ed. by E. F. Rice. Ithaca, 1959.

Monnier, L. le, Histoire de Saint François d'Assise, 2 vols. Paris & Lyon, 1906.

Monroe, P., A Text-Book in the History of Education. New York, 1914.

Moreau, E. de, Histoire de l'Eglise. Paris, 1931.

Mott, G. F. & Dee, H. M., An Outline-History of the Middle Ages. New York, 1950.

Murray, J. A. H. (ed.), A New English Dictionary on Historical Principles. Vol. I. Oxford, 1888.

Myers, A. R., England in the Late Middle Ages (1307 — 1536). London, 1953.

Ostrogroky, G., History of the Byzantine State. Translated by J. Hussey. Oxford, 1956.

Painter, S., A History of the Middle Ages : 284 — 1500. London, 1966.

Paris, G., Mediaeval French Literature. Translated from the French by H. Lynch. London, 1903.

Perier, A., La Chanson de Roland. Paris (N. D.).

Pernot, M., La Chanson de Roland. Paris, 1950.

Piganiol, A., L'Empire Shrétien, deuxième partie (325—395). Paris, 1947.

Pirenne, H.,

1. Medieval Cities. Tranlated from the French by F. D. Halsey. Princeton, 1948.

2. Economic and Social History of Medieval Europe. Translated from the French by I. E. Clegg. London, 1961.

Poole, A. L., From Domesday Book to Magna Carta (1087 — 1216). Oxford, 1964.

Powicke, M., The Thirteenth Century (1216 — 1307). Oxford, 1962.

Previté-Orton, C. W. (ed.), The Shorter Cambridge Medieval History. 2 vols. Cambridge, 1952.

Rashdall, H , Universities of Europe in the Middle Ages. 3 vols. Oxford, 1936.

Rosenthal, E. I. J., Political Thought in Medieval Islam. Cambridge, 1958.

Runciman, S.,

1. Byzantine Civilisation. London, 1948.

2 A History of the Crusades. 3 vols. Cambridge, 1954 — 1955.

Sabine, G. H., A History of Political Theory. London, 1948.

Seignobos, Ch., Histoire Sincere de la Nation Franjaise. Paris, 1933.

Setton, K. M. (ed.), A History of the Crusades, Vol. I . The First Hundred Years. Ed. by M. W. Baldwin. Philadelphia, 1958.

Shaw, Trends of Civilization and Culture, 1932.

Stanley, D., Lectures on the History of the Eastern Church. London, 1924.

Steinberg, S. H., Historical Tables, with a foreword by G. P. Gooch New York, 1966.

Stenton, F. M., Anglo-Saxon England. Oxford, 1965.

Stone, D., France in the Sixteenth Century — A Medieval Society Transformed. New Jersey, 1969.

Sullivan, R. E., Heirs of the Roman Empire. New York, 1960.

Taylor, H. O., The Classical Heritage of the Middle Ages. New York, 1957.

Trevelyan, G., A Shortened History of England. Aylesbury, 1960.

Turberville, A. S., Mediaeval Heresy and the Inquisition. London, 1920.

Vidler, A.R., The Church in an Age of Revolution. London & Beccles, 1968.

Vitry, J. (ed.), The History of Jerusalem A. D. 1180. Translated from the Original Latin by A. Stewart. London, 1896.

Vodoz, J., Roland. Paris, 1920.

Wallon, H., Saint Louis. Tours, 1897.

Warrington, J., Everyman's Classical Dictionary (800 B. C. - A. D. 337). London, 1969.

Waugh, W. T., A History of Europe from 1378 to 1494. London, 1932.

Wheeler, M., Rome Beyond the Imperial Frontiers. London, 1955.

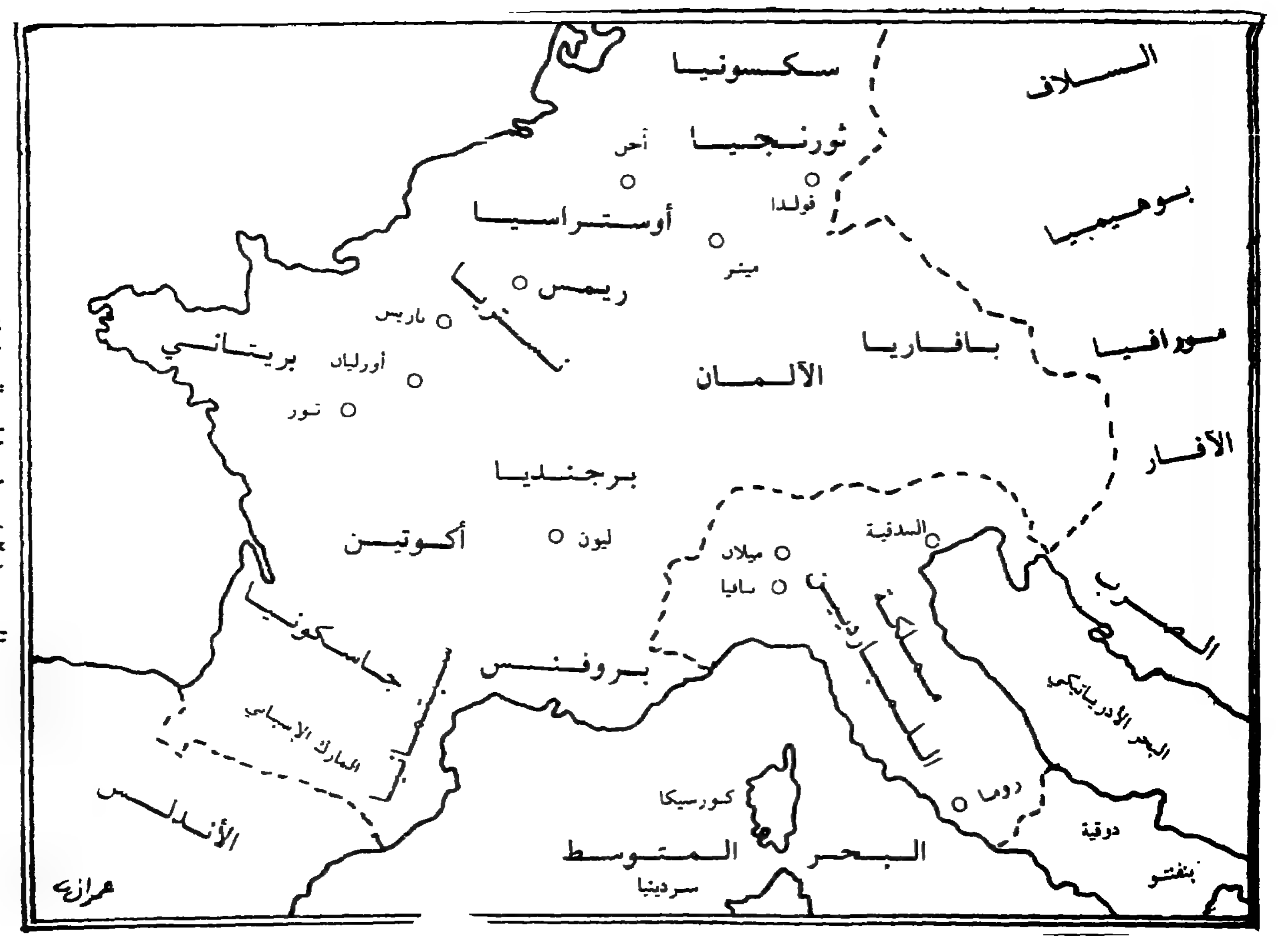
Whitelock, D., The Beginnings of English Society : The Anglo-Saxon Period. London, 1954.

Woodward, E. L., History of England. London, 1957.

ملاحظة : المراجع الاجنبية مستلة من كتاب الدكتور جوزيف نسيم يوسف :
نشأة الجامعات في العصور الوسطى ، ص ١٩٠ — ١٩٥ .



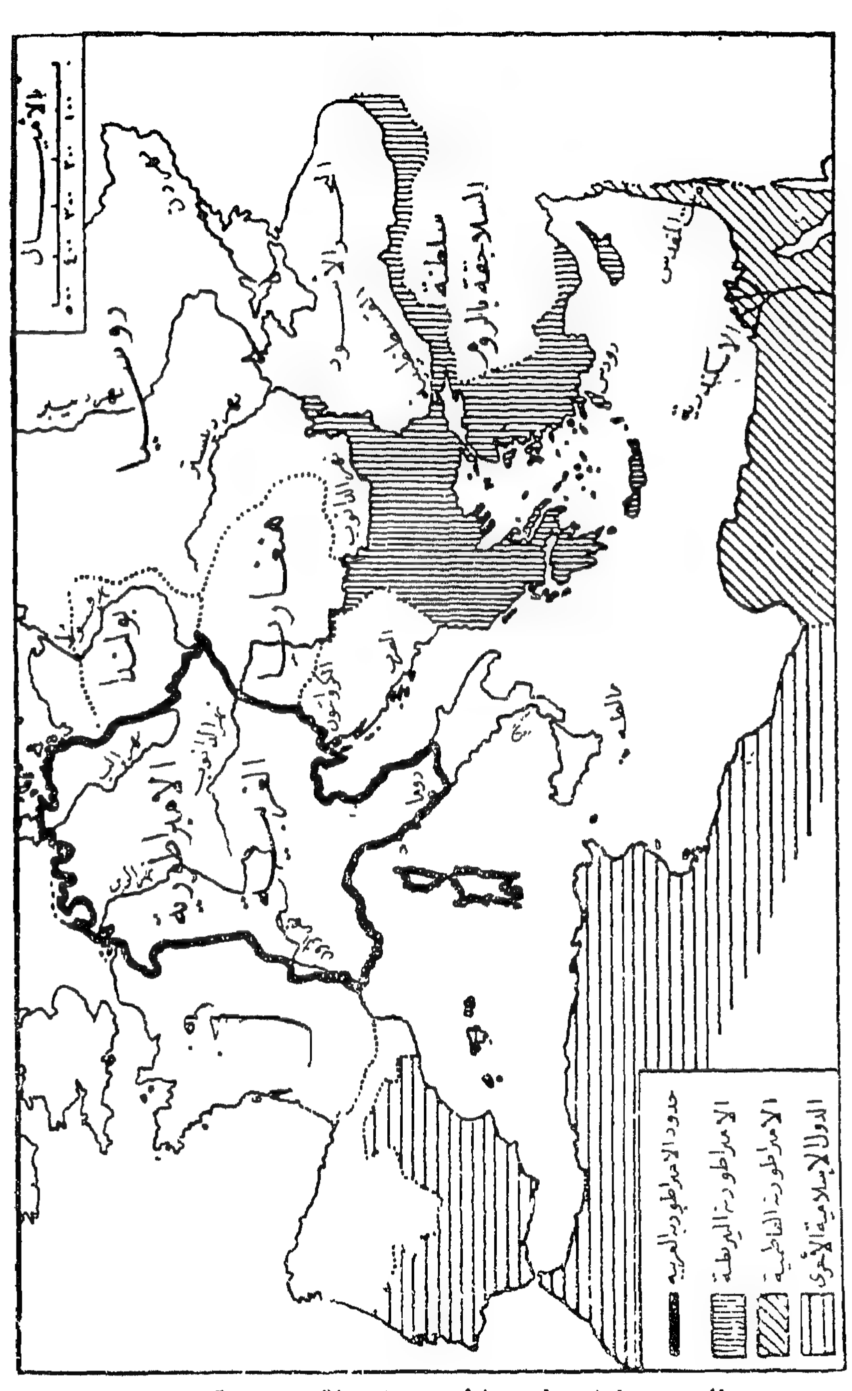
المصور (١) ـ الامبراطورية الرومانية والممالك الجرمانية (نحو سنة ٥٠٠)



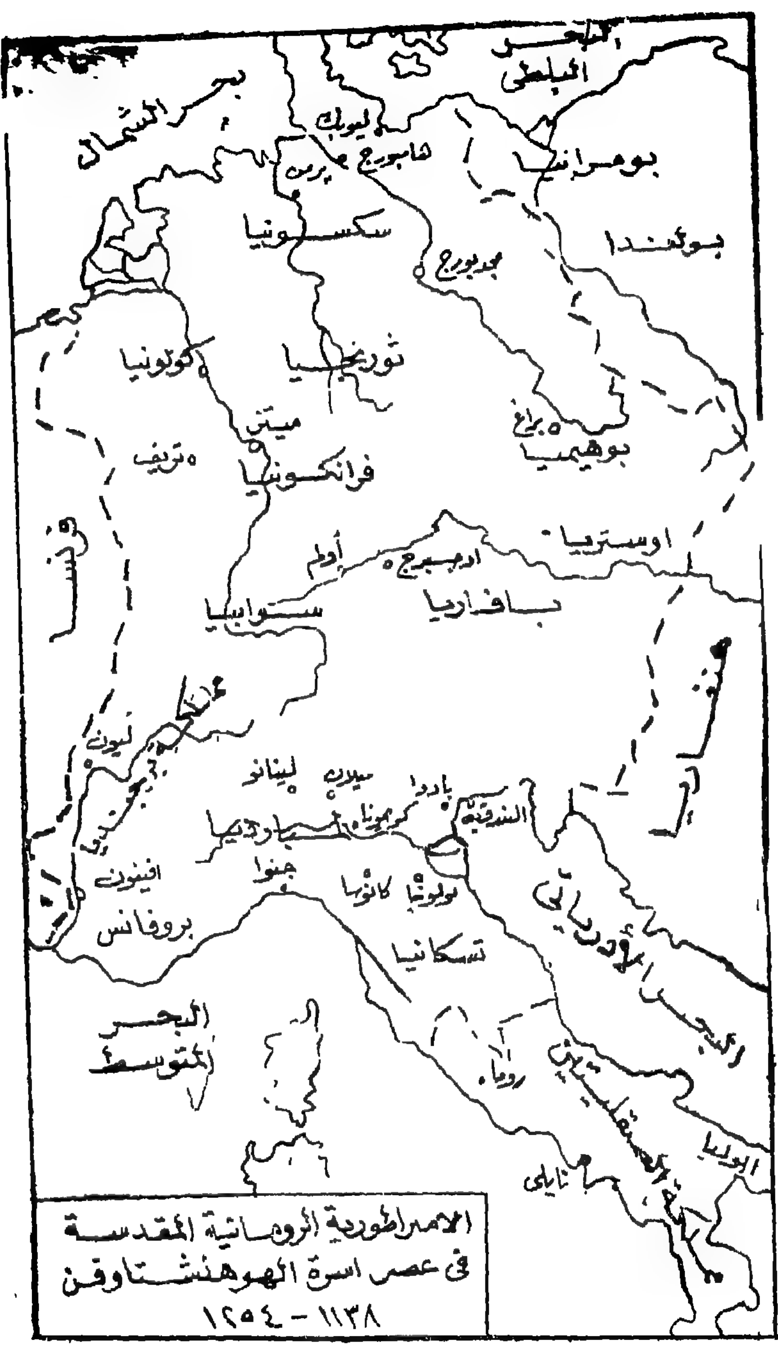
المصور (٢) - إمبراطورية شارلمان



المصور (٣) — أوروبا في عهد الامبراطور أوتون الكبير



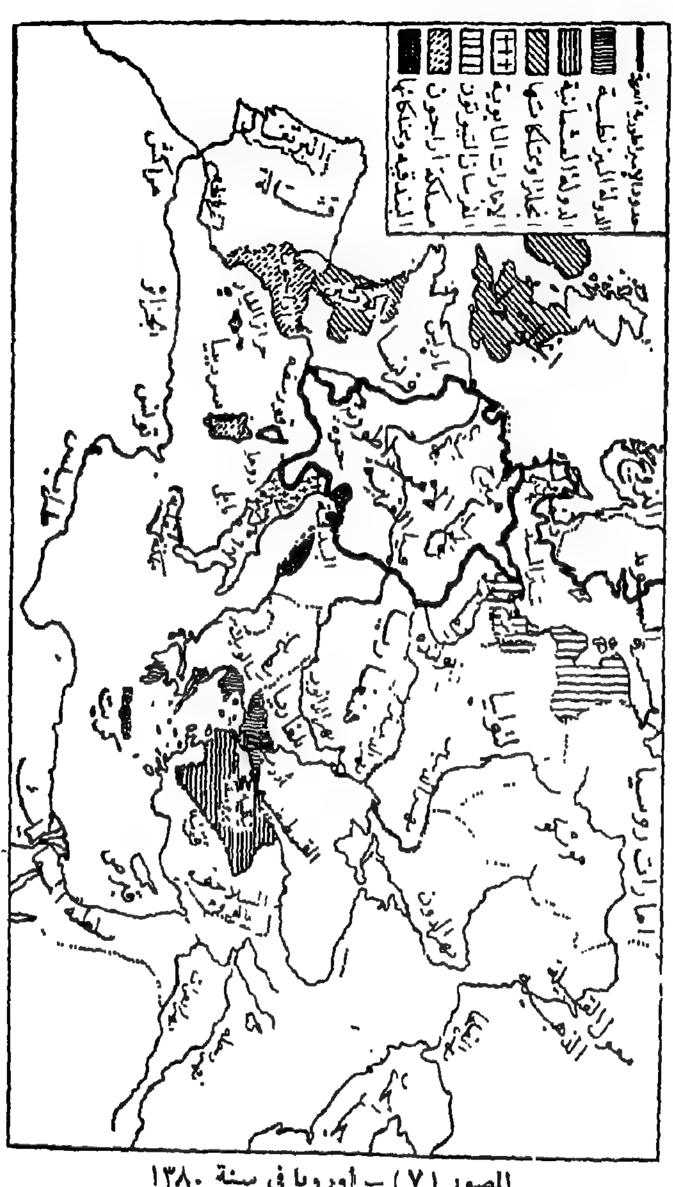
المصور (٤) — أوروبا في زمن الحملة الصليبية الاولى



المصور (٥) ــ الامبراطورية الرومانية المقدسة (١١٣٨ ــ ١٢٥٤)

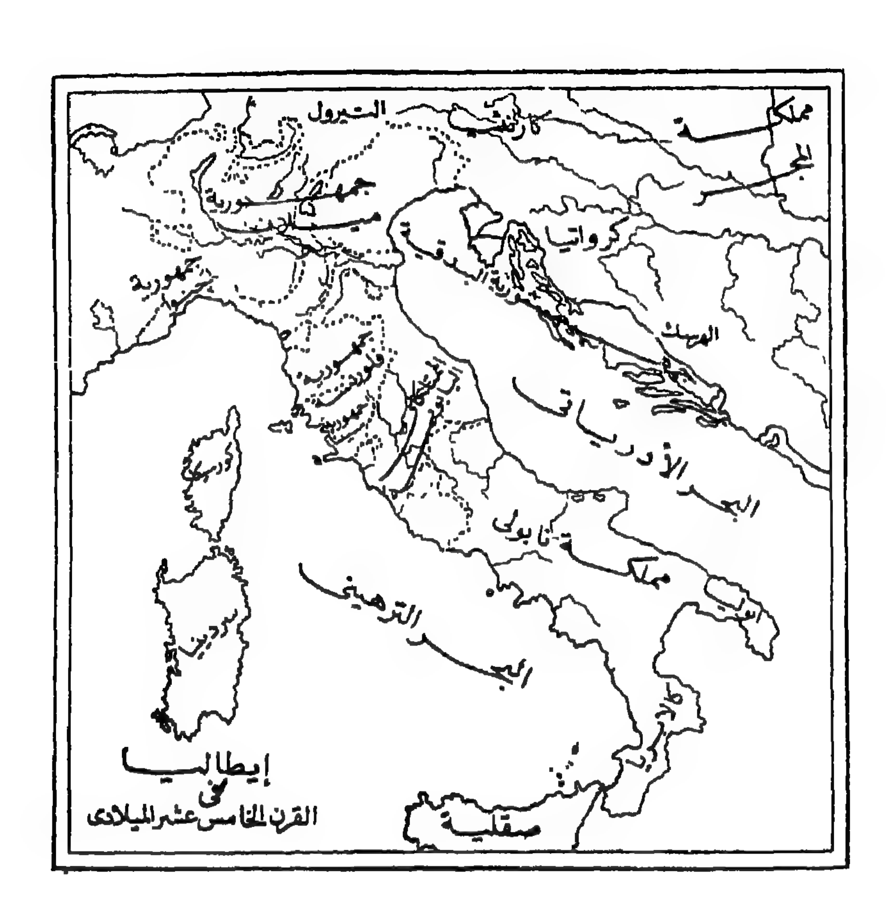


المصور (٦) ـ غرب أوروبا في القرن الثاني عشر

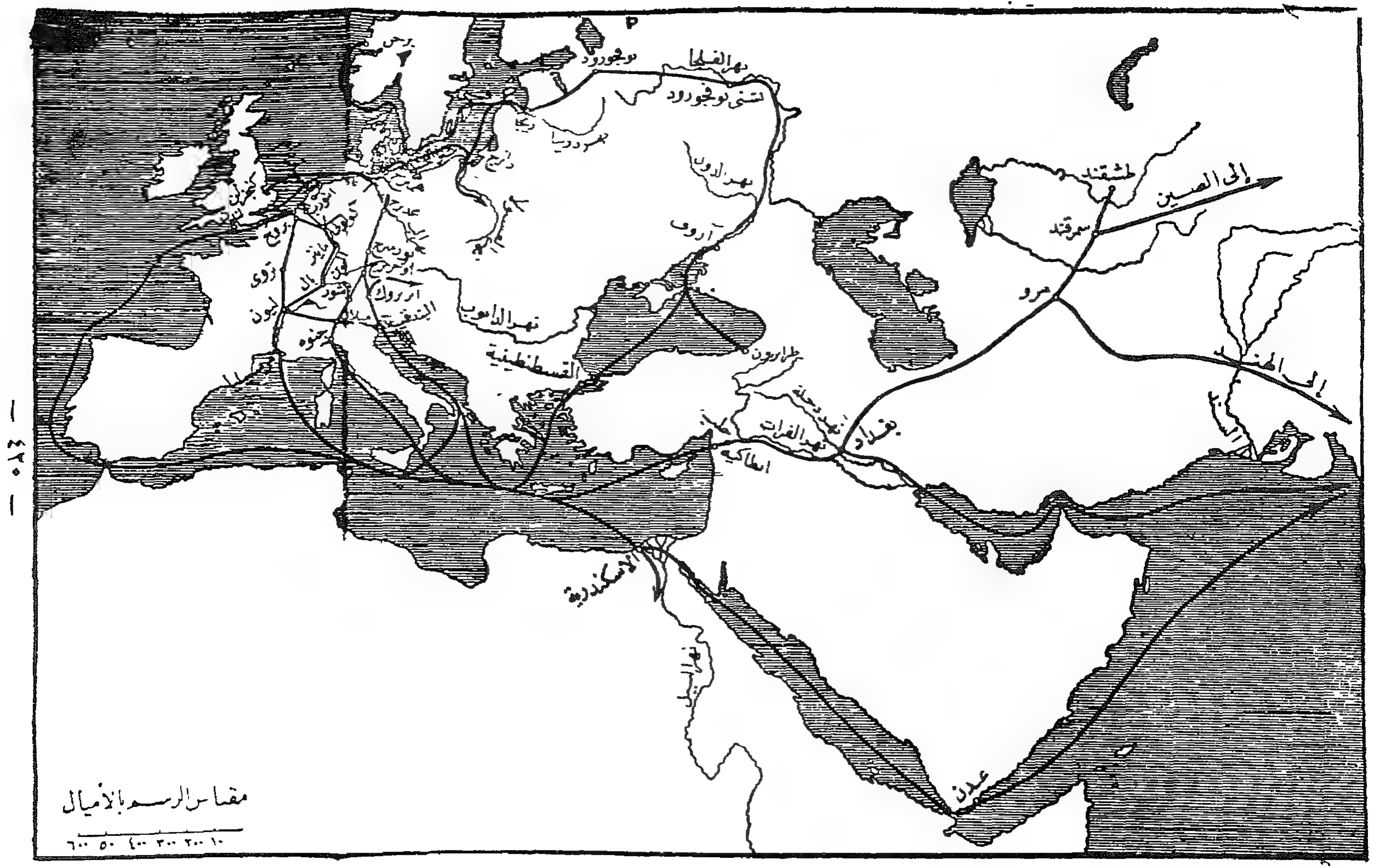


المصور (٧) ــ أوروبا في سنة ١٣٨٠

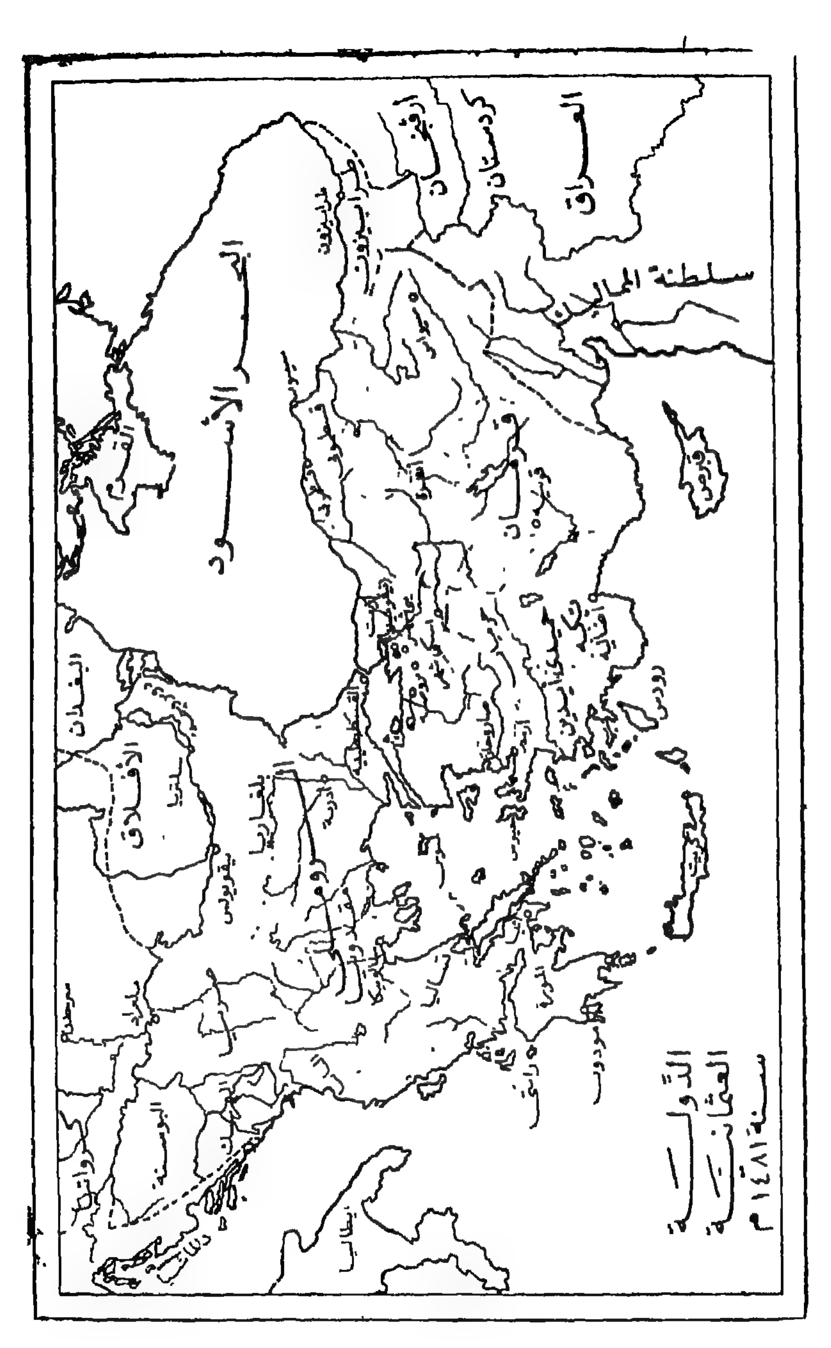
المصور (٨) ـ فرنسا في أواخر العصور الوسطى



المصور (٩) – إيطاليا في القرن الخامس عشر



الصور (١٠) ـ طرق التجارة والمواصلات في العصور الوسطى



المصور (١١) ـ الدولة العثمانية



فهرس المصورات الجغرافية

فهرس الصور والأشكال

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

محتويات الكتاب

الموضوع | رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الباب الثاني : الحياة الدينية

الملاحــق

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الموضوع	رقم الصفحة

الملاحق

الموضوع	رقم الصفحة
الملحق السادس ــ (ترخيص بابوي بتأسيس جامعة أفينون بفرنسا سنة ١٣٠٣)	٣٤٥
الملحق السابع ــ (مفاهيم قانونية عامة ، العدالة والقانون)	٣٤٧
الفصل الثاني ــ الحيــاة الفنيــة	**٣٤٩**
الحياة الفنية في العصر الميروفنجي	**٣٤٩**
فن البناء	٣٤٩
النحت	٣٤٩
الرسم والتصوير	٣٥٠
الحياة الفنية في العصر الكارولنجي	**٣٥١**
مقــدمة	٣٥١
فن البناء	٣٥١
العمارة الدينية	٣٥٢
العمارة الدنيوية أو المدنية	٣٥٣
الرسم والتصوير	٣٥٤
فنّ صياغة المعادن الثمينة	٣٥٥
البرونز	٣٥٥
العــاج	٣٥٥
فنّ الكتابة	٣٥٥
فنّ الموسيقى	٣٥٦

الموضوع	رقم الصفحة

مصادر الكتاب ومراجعه

□ عبـرة □

● لـوْ عَرَفَ القُرّاءُ مِقدارَ الجهودِ التي تُبْذَلُ في تأليفِ الكتابِ ، لقدّسوا الكلمةَ المطبوعةَ ، وشكروا كلَّ منْ أسْهمَ في إخراجها إلى النور .

* الدكتور نعيم فـرح



جامعة دمشق

مديرية الكتب الجامعية

صدر باشراف لجنة الانجاز

سعر المبيع للطالب (١٨٠) ل.س

الجمعية التعاونية للطباعة

بدمشق